

مجلة تعنى بشؤون الفكر والثقافة
العدد الأول - ٢٠١٣



لوحة الغلاف للفنان التشكيلي السوري يوسف عبدلكي


أوان
حرية التعبير دون قيد أو شرط



مجلة تعنى بشؤون الفكر والثقافة والابداع
تصدرها رابطة الكتاب السوريين

المراسلات: باسم مجلة اوراق على العنوان التالي:

AWRAQ
11 Lionel Road North
Brentford
Middlesex TW8 9QZ
UK
هاتف: 00442087589223
Email: awraq@syrianswa.com
Website: www.syrianswa.com

الاشتراك السنوي:
الأفراد في البلدان العربية (100 دولار امريكي)،
وفي البلدان الاوروبية (130 دولارا امريكيا)،
وفي امريكا وباقي بلدان العالم الأخرى (180 دولارا امريكيا).
المؤسسات: في البلدان العربية (130 دولارا امريكيا)،
وخارج البلدان العربية (200 دولار أمريكي).

صدر هذا العدد برعاية من مؤسسة «بناة المستقبل»



المحتويات

المحتويات



«اوراق»: خطوة نحو الحرية!

صادق جلال العظم

صار لكُتّاب سورية رابطة حرة طليقة تجمعهم طوعياً ومهنياً وليس قسراً أو اضطراراً لتحقيق مصلحة ما. كما صار لرابطة الكُتّاب السوريين مجلة حرة طليقة بدورها صدر عددها التجريبي في خريف سنة ٢٠١٢ وجمع العددُ ما جمع من وثائق وأبحاث ومقالات وتعليقات تتناول ثورة الشعب السوري على حكم القهر والاستبداد والقمع العسكري ـ الأمني السلالي الأبدي.

واستُقبل العدد (صفر) باستحسان وقبول ملحوظين، وها هي رابطة الكُتّاب السوريين تصدر العدد الأول من مجلتها تحت اسم «أوراق» في خطوة على طريق تخليصنا مما اضطررنا إلى استبطانه، على مدى عقود، من قواعد وأصول للتعامل مع نظام القهر والاستبداد عبر التكتم والتقية والنفاق والتلاعب بالكلمات والتظاهر بالتصديق والقبول والاختباء وراء الرموز والتلميحات والإشارات المبهمة والقابلة لشتى التفسيرات.

رابطة الكُتّاب السوريين ومجلتها، كما الإنتلجنسيا السورية عموماً، مدينة بهذا كله إلى ثورة الشعب السوري المستمرة بتضحياتها الهائلة والتي ما كان لكُتّاب سورية أن يشرعوا في التخلص من هذه الإعاقات والعاهات وفي استرجاع حرياتهم لولاها.

من المفارقات المأساوية أن تكون الإنتلجنسيا السورية ـ بشعرائها وروائييها ومسرحييها وسينمائييها وكتّابها وصحفييها ـ مالئة الدنيا وشاغلة الناس وتنتمي، في الوقت ذاته، إلى

بلد افتقر كلياً، وعلى مدى نصف قرن، إلى جريدة يومية واحدة قابلة للقراءة، أو إلى مجلة أسبوعية واحدة تحترم قرّاءها ليحترموها، أو إلى نشرة أدبية أو ثقافية أو علمية واحدة يمكن للانتلجنسيا السورية الفاعلة دوماً أن ترى شيئاً من نفسها فيها.

نريد لـ« أوراق » أن تكون خطوة أولى متواضعة على طريق خلاص سورية من هذا القحط الثقافي المعمم ومن هذا العدم الفكري المتعمد، على أمل أن ينطلق مثقفو سورية، في يوم غير بعيد، إلى تشكيل هيئاتهم الثقافية، ومنتدياتهم الأدبية، وحلقاتهم الفكرية، وجرائدهم اليومية، ومجلاتهم الفكرية، ومنشوراتهم الثقافية كافة، بعيداً عن كل ما يمكن أن يمت بصلة إلى ما كان يسمى بوزارات الثقافة والإعلام، وما كان يدعى باتحادات الكتّاب، وبكل ما كان عاملاً على تكبيل حرية الفكر والضمير والتعبير والتداول الحر للمعرفة والمعلومات.

شكل ربيع دمشق الذي أطلقته الإنتلجنسيا السورية سنة ٢٠٠١ المقدمة النظرية و« البروفة » الأولية السلمية والمسالمة للربيع العربي عموماً، إذ أن مجموع الشعارات والمطالب والشكاوى والاحتجاجات والتطلعات التي نادت بها شعوب الربيع العربي المنتفضة ـ من تونس إلى مصر مروراً باليمن وليبيا والبحرين وسورية ـ موجودة كلها تقريباً، وبصيغة راقية وبصياغة واضحة، في الوثائق السياسية ـ النقدية ـ الثقافية التي طرحتها « حركة إحياء المجتمع المدني في سورية » ابتداءً ببيان الـ ٩٩ الشهير الذي دشّن ربيع دمشق المقموع بشراسة استثنائية وليتبين فيما بعد أن ربيع دمشق المكبوت عاد تاريخياً في سورية على صورة ثورة شعبية عارمة على من قمعوه وتفتح عن أفكار وأشواق جاء زمانُ تحقيقها اليوم وحان وقت قطافها الآن.

ونريد لـ« أوراق » أن تكون جزءاً من هذا اليوم وتعبيراً عن هذا الآن لنكون جديرين بأن نكون أمة تحب شعراءها أكثر من عسكرها وجنرالاتها.



اوراق الفكر

دراسة

عن الثورة والمرحلة الانتقالية

عزمي بشارة

العالمُ العربيُّ كلُه يمرّ بمرحلة انتقاليّة، وهذه المرحلةُ لا تقتصر على الدّولِ التي شهدت ثوراتٍ شعبيّةً. فالمرحلةُ الانتقاليّةُ تشملُ أيضا الدّولَ العربيّةَ التي تبدو هادئةً ومستقرّةً؛ سواء كانت تمرُّ بعمليّةِ إصلاحٍ أو لا. فما من نظام سياسيٍّ عربيٍّ ستبقى فيه الأوضاع على الصّورة التي كانت عليها. وهنا نؤكِّد على وجودِ فضاءٍ سياسيٍّ إعلاميٍّ ـ أو فلنقلْ فضاءٍ تواصليٍّ ـ مشتَركٍ يجمع الدّولَ العربيّة. ولا يعود ذلك إلى غياب الدّيمقراطيّةِ عن تلك الدّول، وانتشارِ أنماط متشابهة من السّلطويّة الرثّة والفسادِ وتدخّل الأمن في السّياسة فيها فحسب، وإنّما يعود أيضًا إلى أنَّ الثّقافةَ واللّغةَ المشترَكَةَ ببُناها الداخليّةِ الوجدانيّةِ كانت مادّةً موصِلةً للهموم والإحباطِ والتذمّر، ثمّ للنّقد والاحتجاج، وأخيرًا للثّورة.

الثّورةُ وما أدراك ما الثّورة! هي فعلٌ في التّاريخ؛ لأنّها واقعٌ راهنٌ ماديٌّ محسوسٌ، بات يجري أمام أعيننا ساعةَ حصوله، بعد أن تجانست أزمانُنا، وتزامنت تجاربُنا بفضلِ الإعلام وغيره. وهي في الوقتِ ذاته فعلٌ يقع خارجَ التّاريخ؛ لأنّها تكسر تسلسلاته السببيّةَ، وتقطعَ صيرورتَهُ التي تذوب فيها الذّات في الموضوع. إنّها من اللّحظاتِ النّادرةِ التي تتصرّف فيها مجموعاتٌ من المواطنين مدفوعةً بحريّة الإرادة، فتحوِّل النّفيَ إلى فعلِ تحدٍّ للنِّظامِ القائم، وإنْ كان الثّمنُ هو الموتُ. هي اللّحظةُ التاريخيّةُ والفعلُ الجماعيُّ المحيِّران لبعضِ منَ المثقّفَينَ والمحلِّلينَ؛ إذ يجعلانِهم يحمِّلون الثّورةَ ذنبَ عدم توقّعِهم لها، أو ينفون عنها هذه الصِّفةَ حتّى

لا تكونَ ثورةً غير متوقَّعَة، وتصبحَ فعلًا عشوائيًا اعتباطيًا لا يمكن توقُّعُه بحكم تعريفه. . .

أمّا على مستوى الحكم القيميّ، فالثّورةُ هي فعلٌ رافضٌ للظّلم؛ لا يجوز الحيادُ بشأنه، والانحيازُ إليه من باب الفضيلة. من هنا، فإنّ كلّ من انتظر هذه اللّحظةَ، هو ذلك المنحازُ إليه. إنّ موقفَ المثقَّف تجاه الثّورة مختلفٌ؛ فهناك المثقّفُ النّقديُّ الذي يتردّد في الانحياز إلى الثّورة، وهو غاضبٌ يشعر بالمرارة، ربّما لأنّ الشّعبَ لم يستشره، أو لأنّ حركة الشّباب المستعدّ حتّى لملاقاة الموت قد أفقدَتْه تميُّزَه النقديَّ الذي كان يُعَدُّ بطولةً في إطار النِّظام القائم. إنّه المثقّفُ الذي يغارُ من الجمهور الذي توجّهَ إلى الثّورة مباشرةً، دون المرور بمراحل النّقد المعهودة. وهذا وضعٌ جديدٌ لا يخلو من المخاطر.

أمّا المثقَّف الذي يعادي الثّورةَ؛ فلا يفعل ذلك تأييدًا للظّلم (ومن الذي يعترف بتأييده للظّلم؟)، بل لأنّها مؤامرةٌ. وشأنها شأن كلّ مؤامرةٍ؛ لا تتّضحُ خيوطها الخفيّةُ إلا لاحقًا، وليسَ بوسعه الآن إلا تقديرها لنا بالتّخمين والمضاربة، ناشراً في طريقه اللاعقلانية والجهلَ والإسفافَ حيثما حلّت أقوالُهُ. وهو بذلك يخون وظيفته؛ فحتّى المثقَّفُ المحافظ، إنّما يدافع عن قيم محافظةٍ مثل النِّظام والتّقاليد، ولا يكتفي بنشر الشّائعات، أمّا مثقَّفو الأنظمة فليسوا مثقفينَ محافظين حتى، بل هم يعبِّرون عن ثقافة الأجهزة الأمنيّة على رثاثتها.

ويبقى امتحانُ المثقَّف النَّقديِّ كامناً في عدم الانزلاق إلى رفض الثّورة؛ بدعوى أنّها فاجأَتْه، أو لأنّها لم تُفصَّلْ على مقاسه أو على مقاس توقُّعاته من جهةٍ، وفي عدم التورّط في إصدار أحكام رومانسيّةٍ على الثّوار من جهةٍ أخرى؛ حتّى لكأنّ المشهد يتألّف من أخيارٍ في صراع مع الأشرار.

الثّورة هي تلك اللّحظةُ التّاريخيّةُ التي تتحدّى فيها إرادةُ الشّعب الحرّة نظامَ الهيمنة والسّلطة وأدوات السّيطرة التي تكرِّسه من خارج دستورها وقواعد لعبتها. هي تلك اللّحظةُ التي لا يعود فيها الشّعبُ مَجازًا على ألسنة المثقَّفين ورمزًا في أذهان نقّاد الأنظمة، بل يصبح واقعًا فعليًّا عينيًّا نسبيًّا؛ له لونٌ وطعمٌ ورائحةٌ وعرَقٌ ودمٌ، يُخرِج في الثّورة أفضلَ ما فيه، وقد يُخرِج في الثورة أيضًا أسوأ ما فيه. هذا إذا ما تحوّلتْ الثّورة إلى حالةٍ من النّفي فقط، أي حالة من غياب الدّولة.

ومثلما أسلفنا، لا يكون الحكمُ القيميُّ على الثّورة، واقعاً محسوساً ملموساً لا غير، يجب فهمُه والتّعاملُ معه، بل يكون بالانحياز إليها على اعتبار أنّها فعلُ حرية ضدَّ الشرّ الكامن في الظّلم، أو بالانحياز ضدّها في موقفٍ محافظٍ يعدُّ الحفاظ على النِّظام قيمةً أسمى من الحرّيّة.

نحن نرى الانحيازَ إلى حركة المظلومين فضيلةً. ولكنّ شعرةً فقط تفصل بين اعتبار انتفاضة المظلومين ضدّ نظام الظّلم خيرًا ضدّ شرٍّ، وبين الحكم على المظلومين بأنّهم أَخْيارٌ ينتفضون ضدّ الأشرار. ليست الثّورة صراعًا بين الأشرار والأخيار، ومن يصنِّف طرفيها بهذا الشّكل يرتكب عدّةَ أخطاءٍ، قد تتحوَّلُ إلى خطايا. فهو يحمِّل المظلومين أكثرَ من طاقتهم،

ولا يصبحُ قادرًا على فهم التّجاوزات والأعمال المشينة، ولا حتّى الجرائمَ التي تُرتَكب خلال الثّورات، وهذا خطأٌ؛ كما أنّه لا يصبح متجرِّئًا على نقدها حين يشخّصها، وهذه خطيئةٌ. وعلاوةً على ذلك، فإنّه يُعمِّمُ هذا الحكمَ دون فهم طبيعةِ الأنظمة وبنيتِها وضرورةِ تغييرها. ويسير في اتِّجاه خطيرٍ هو تغيير الأفراد العاملين فيَها، وكأنّ ذلك تصفيةٌ للأشرار، من دون تغيير طبيعة النِّظام بالضّرورة، وهذه وحدها خطيئةٌ.

وهنا أيضًا تنشأ عدّةُ إشكاليّات؛ فالثّورة على الظّلم تعني تفكيكَ نظامِ الظّلم، وليس التخلُّصَ من أفرادٍ فحسب، ولا التخلّص من جميع أفراد جهاز الدولة بالضّرورةَ. وهذا مرتبطٌ بتضييق تعريفنا للنِّظام وتوسيعه؛ فهنالك فرقٌ بين تأدية وظيفةٍ عموميّةٍ في إطار نظامِ ظلم، وبين ارتكاب الجرائم بما هي وظيفةٌ عموميّةٌ. كما أنّ هناك فرقًا بين تبريرِ القرار بعد صنعِه، وبين عمليّةِ صنعِ القرار في هذا النِّظام. أمّا صنّاعُ القرار ـ وإن كانوا في بعض الحالاتِ أسرى بنيةِ إطارِ نظام محدَّد، بغضّ النّظر عن نواياهم ـ فإنّ الثّورات لا تسامحهم على ذلك، وهذه مأساتهم الشّخصيّة التي لسنا اليوم بصدد الخوض فيها.

قد ننزلق في لحظات النّشوةِ والزّهوِ بعد خروج الشّعب متحدّيًا مطالبًا بحقوقه بعد طول صمتٍ واستكانةٍ، وقد نغرق في رومانسيّةٍ تجعل من الثّوار أولياءَ وقدِّيسين، وهم ليسوا كذلك. فهم يخرجون للثّورةِ لحظة الإرادةِ الحرّةِ تلك، وهم نتاجُ الثّقافةِ والاجتماع والاقتصاد، في ظلِّ نظامِ الحكم القائم. إنّهم نتاج قيَمه السّائدة. وأنظمة الاستبداد الفاسدةَ التي تحكم فتراتٍ طويلةً تُفسِد المجتَمعاتِ. والثوّارُ هم نتاجُ تلك المجتمعاتِ؛ وهم أيضًا نتاجُ تحدِّي النِّظام. ولكنّ التحدِّي بالنّفي، لا يعني بالضّرورةِ نشوءَ أخلاقٍ وقيمٍ جديدة.

ولا يمكننا الحديثُ عن المرحلةِ الانتقاليّة ـ بتعريفها الضيِّق ـ إلا إذا فهمنا أو حدّدنا وجهةَ هذا الانتقال، ولو إراديًّا؛ أي إلّا إذا كنّا نعرفُ الوجهةَ التي نريد أن يتّخذها الانتقال ويسير نحوَها. فحين يتلاشى القديمُ أمام أعيننا، وينتشرُ الاعتقادُ بأنَّ ما كان لن يستمرَّ ولن يكونَ، ولكنْ دونَ أن تتَّضِحَ ملامحُ الجديد، ففي هذه الحالِ ينتُج خطرُ نشوءِ حالةٍ من الفوضى بدلَ المرحلة الانتقاليّة، أو خطرُ نشوءِ مرحلةٍ انتقاليّةٍ لا نعرف شيئًا عن قوانينها وآلياتها، فيصعب أن نتحكّم فيها.

ولستُ ممّنْ يروْن أنّ الثّوراتِ إذا لم تحمل برنامجًا واضحًا ومفصّلا، فإنّها لا تستحقُّ تسمية الثّورة، فهذا غير صحيح تاريخيًا. لقد مرّت كلّ الثّورات في التّاريخ ـ دون استثناءٍ ـ بلحظةٍ من الإرادة الحرّةِ الجماعيّةِ والتحدّي، قبل أن يقومَ تنظيمٌ أو فردٌ بوضع أهداف الثّورة. والذينَ جعلوا لما يُسمَّى بـ"المرحلة الانتقاليّة" وجهةً وهدفًا، هم أولئك الذين قد يُتَّهمون بلغة اليوم بمصادرة الثّورات. فالثّورة الرّوسيّةُ لم تتفجَّر في شباط/فبراير لإقامة نظامٍ شيوعيٍّ أو اشتراكيٍّ، ولكنّ البلاشفةَ الذين استولوْا عليها في تشرين الأوّل/أكتوبر قد حدّدوا لها هذا الهدف، ومراحلَه الانتقاليّةَ تبعا لذلك. وقبْلها، لم تندلعْ الثّورةُ الفرنسيّةُ بهدف إقامة جمهوريّةٍ ديمقراطيّةٍ، وإنّما القياداتُ السياسيّةُ من النّوادي الباريسيّةِ المختلفةِ التي استولت

على الثّورة، هي التي وضعتْ لها هذه الأهداف. وقد تدرّجتْ في وضعها؛ إذ لم يكن هدفُها في البدايةِ إزالةَ الملَكيّة وإقامةَ الجمهوريّةِ. أمّا الثّورة الإيرانيّةُ التي يَتَّهِم بعضٌ من المحسوبين على مدرستها اليوم الآخرينَ في دول الرّبيع العربي بمصادرة الثّورات، فهي في مجملِ مسارِها عبارةٌ عن مصادَرةٍ لثورةٍ شعبيّةٍ، بواسطة التّنظيم الأقوى العلني الشّامل الذي كان قائمًا في إيران على المستوى الوطني؛ وهو سلك الكهنوتَ ورجال الدّين.

وقد أعقبتْ هذه الثّوراتِ جميعَها دون استثناءٍ، عمليّاتُ تصفيةٍ واسعة بالقتل؛ أي بالمحاكماتِ الميدانيّة والعلنيّة الاستعراضيّة، لتصفيةِ ما سُمِّيَ لاحقًا بـ« خصوم الثّورة ». وكان هؤلاء الخصوم - في البدايةِ - من رموز النِّظام السّابقِ، ثمّ حوكِم العديدُ من الثوّارِ، بل من صانعي الثّورةِ، وأُعْدِموا. وفي بعض الحالاتَ، حَكَم قضاةٌ لم يشاركوا في الثّورة بالإعدام على ثوّارٍ بتهمة أنّهم أعداءٌ للثّورةِ. ولم يتوقّف علم التّاريخ - بعدُ - عن التّنقيب في بنيةِ الثّوراتِ المختلفةِ وسيرورتها، وإنْ اكتفيتُ اليومَ بذكر ثلاثِ شهيرةٍ منها. ولكنّ الثّوراتِ العربيّةَ اندلعتْ في حقبة التّحولِ نحو الديمقراطيّة عالميًّا، وفي ظلِّ مزاجٍ من التذمّر و« النّكد » الذي اتّخذ شكلًا تنظيريّاً؛ يفيدُ بأنّ هناك استثناءً عربيّاً (Arab Exceptionalism) يمنع التحوّل الديمقراطيَّ عربيًّا، وكأنّ الثوراتِ جاءتْ لتلغي هذا الاستثناءَ.

فهل من حقِّنا أن نقول إنَّ الثّوراتِ العربيّةَ خرجت من أجل الدّيمقراطيّة؟

ليستْ كلُّ ثورةٍ على الاستبداد ثورةً من أجلِ الدّيمقراطيّة، ولكنّ الثّوراتِ العربيّةَ قد انطلقت أوّلا في سياقٍ عالميٍّ تُعدُّ فيه الدّيمقراطيةُ البديلَ للاستبداد، وجاءتْ - ثانيًا - بعد حراكٍ سياسيٍّ مديد طالبتْ فيه قوًى عديدةٌ بالدّيمقراطيّة في العالم العربي. وفي العقد ونصف العقدِ الأخيريْن، يمكننا الإشارة إلى أنّ فئاتٍ واسعةً من التيّاراتِ الدينيّة، قد انضمّتْ إلى مطلب الدّيمقراطيّة، وحتّى إلى الإصلاح الدّيمقراطي في الدّولةِ العربيّةِ، سواءً كان التوجّهُ لهذا المطلب أداتيًّا أو قيميًّا. ثمّ إنّ هذه الثّورات قد اندلعتْ ثالثًا؛ لأنّه لم تتمكّنْ أيُّ قوّةٍ سياسيّةٍ عربيّةٍ من الدّعوة إلى ثورةٍ أو قيادة ثورةٍ، أو من الاستئثار بتنظيمها. لقد خرجتْ الشّعوبُ إلى الثّورة من دون أن تستشير دولةً أو قوةً سياسيّةً. وبحسب رأينا، لو دعتْ أيُّ قوّةٍ سياسيّةٍ النّاسَ للخروج في كانون الأوّل / ديسمبر للاحتجاج على استشهاد البوعزيزي في تونس، أو إلى يوم الغضب في مصر يوم ٢٥ يناير، أو إلى ملءِ السّاحاتِ في تعز وصنعاءَ بالمتظاهرين، أو للتّظاهر أمامَ وزارة الداخليّةِ في دمشق، أو في ساحة المحطّةَ في درعًا؛ لما خرج النّاسُ بهذه الكثافة، أو لما خرجوا إطلاقًا لتحدِّي الموت استجابةً لنداءِ حزبٍ أو تيّارٍ سياسيٍّ. لكنْ ما كان لأيِّ ثورةٍ عربيّةٍ أن تستمرَّ، لولا وجودُ عددٍ كبيرٍ من المسيَّسين والتيّاراتِ السياسيّةِ فيها؛ فالأحاديّة الأيديولوجيّة لم تتمكّنْ منها، والتعدديَّةُ السياسيّةُ مغروسةٌ فيها.

إذن، هي ثوراتٌ ضدَّ الاستبداد؛ تَرفعُ مطالبَ الحريّة، وتقييدَ السّلطةِ ومراقَبتَها، وفصلَ الأمنِ عن تدبير حياة الناس اليومية، وعن القرارِ السياسيِّ والاقتصاديِّ، واستقلالَ القضاء، ومحاربةَ الفسادِ. وتحقيقها، يعني إنتاجَ آليّاتِ الحكمِ الدّيمقراطي. كما أنَّ التعدديّةَ السياسيّةَ

القائمةَ في الثّورات، وعجز أيِّ تيّارٍ على أنْ يقودها وحده، هو أمرٌ يشي أيضًا بالنّتيجة نفسها. إنّها ثوراتٌ ديمقراطيّةٌ من أجل إقامة أنظمةٍ ديمقراطيّةٍ. ولدينا أكثرُ من دليلٍ على أنّ هذا كان المطلبَ المُجمَعَ عليه، في أيِّ لحظةٍ معطاةٍ خلالَ الثّورات. لذلك أيضًا حين سُجِّلتْ لحظةُ سقوطِ النِّظام (بغضّ النّظر عمّا إذا كانَ قد سقط فعلًا أو لا، بتنحّي هذا الحاكم أو اعتقال ذاك)، توجّهتْ القوى السياسيّةُ مباشرةً نحو وضع دساتيرَ ديمقراطيّةً، وإجراءِ انتخاباتٍ... وغير ذلك ممّا عهدناه في الدّولِ التي شهدتْ ثوراتٍ أو حركاتٍ شعبيّةً أو حتّى إصلاحاتٍ أعقبها تحوُّلٌ ديمقراطيٌّ.

وكل من يحاول أن يحيد بالثورة العربية عن هذا المسار إنما يقوم بفعل مضاد لتلك البدايات والمنطلقات.

لكنْ أين تقع مشكلةُ المرحلةِ الانتقاليّة عربيًّا؟ هل تكمن المشكلةُ في بروزِ مظاهرَ سلبيّة بعدَ الثّورات؛ مثل التّجاوزاتِ الجنائيّةِ والعصبيّاتِ الدينيّة والجهويّة؟ لا، لا تكمن المشكلةُ هنا. فحين يُرفع غطاءُ الاستبدادُ المُحكَم عن مجتمعٍ رزَح تحته عقودًا طوالًا، تخرج مثل هذه الظّواهرِ إلى العلن. فهل تكمن المشكلةُ في تعدديّةٍ فاقتْ ما توقّعناهُ: أحزابٌ تنشأُ وتنشقُّ، وينشقُّ شِقَّاهَا، وتتكاثرُ مثل الخلايا الأميبية التي تنقسم على ذاتها، وصحافةٌ تَكتبُ أيَّ شيءٍ عن أيِّ شيءٍ دون تحقيقٍ استقصائيٍّ، وشائعاتٌ تُثار وتُجترُّ وتُعادُ إثارتُها من جديدٍ حتّى تفقد أي صلة لها بالواقع؟ لا، فمن الطّبيعي - بعد هذه المرحلة الطويلة من انعدام الحرّية - أن يَعُدَّ النّاسُ أيّ حريّةٍ عن التّعبير رأيًا، وأيّ شائعة - أو حتّى افتراءٍ - وجهةَ نظرٍ، وأيّ كلام موقفًا، وأيّ تشهيرٍ نقدًا، وأيّ اعتراضٍ - مهما كانَ مغرضًا - معارضةً لها حقوقُ المعارضة. فالنّاس بصدد اكتشافِ حريّتهم، وهناك من اعتاد المعارَضةَ إلى درجة أنّه مستعدٌّ لمعارضةِ موقفه ذاته، إذا ما وافَقْتَه عليه.

لا تكمن المشكلةُ هنا، بل في عدم فهم التيّاراتِ السياسيّةِ الرئيسةِ للأمور التّالية: أوّلا، أنّ الثّوراتِ لم تكنْ حزبيّةً، ولا في خدمة مصالح حزبٍ من الأحزابِ. وثانيًا، أنّ الانتقالَ إلى الديمقراطيّة يجب أن يُتَفَقَ عليه؛ فما من حزبٍ هنا يستولي على الثّورة، ويضعُ طريقًا إلى نظام أحاديٍّ غير ديمقراطيٍّ. وبناءً عليه، لا بدَّ من الاتّفاق بين الأحزاب والقوى الرئيسةِ في المجتَمع. وليس المقصودُ الاتّفاقُ على برامجها وآرائها بشأن أفضلِ اقتصادٍ وأفضلِ سياسةٍ خارجيّةٍ للبَلد، ولا الاتّفاقُ على محاصصةٍ توافقيّة، وإنّما المقصودُ هو الاتّفاقُ علىَ قواعدِ الديمقراطيّة؛ التي بموجبها هي فقط، يتنافسون ويُعارضون ويصدرون الصّحفَ. ونعني بذلك التّواطُؤَ على نظامِ الحريّة، ما دامت الحريّةُ هي الهدفُ، وعلى النِّظام الذي تُحفَظ فيه الكرامةُ ما دامت الكرامةُ هي الغايةُ، وعلى النِّظام الذي يمنع الفساد والاستبداد، إذا كان هذا هو المُبتغي. لم يكن بإمكان الأحزابِ والتيّاراتِ السياسيّةِ العريقةِ في إسبانيَا إطلاقًا، أن تحقّق مثلًا انتقالًا سلميًّا نسبيًّا إلى الدّيمقراطيّة بين عاميْ ١٩٧٨ و١٩٧٩، بعد أربعة عقودٍ شبيهةٍ بتلك التي عشناها، لولا أنّها توصّلتْ إلى معاهدةٍ دستوريّةٍ بينها، جرى الاتّفاقُ فيها على

مبادئ الدّستور، ثمّ أمكن الاتّفاق على الدّستور نفسه في البرلمان عام ١٩٧٩. وبعد ذلك، وقع تنظيمُ التّنافسِ والاختلاف والخلاف والمعارضة، بموجب قواعدَ يتّفقُ عليها الجميع. وعندها أيضًا، يَحتَمِل تيارٌ سياسيٌّ رئيسٌ أن يكونَ في المعارضة؛ لأنّه يدركُ أنّ الحزبَ الحاكمَ ملتزمٌ بالمبادئ المشترَكة المتّفق عليها، والتي لا تتغيّرُ موسميًّا وبأكثريّةٍ عاديّة، وإنّما تتغيّر في فترات زمنيّة طويلة وبأغلبيّةٍ غير عاديّة.

ولا يهمُّ طولُ هذه المدّة التي يجب أن تتوافقَ فيها الأحزاب قبل أن تتنافسَ، فالمهمّ هو تحقيقُ هذا التّوافقِ الذي يمكّن من التّنافس. وفي بلداننا، بدأ التّنافسُ قبل تحقيق هذا التّوافق، وسرعان ما تحوّلَ إلى خصومةٍ. ومنذ تلك اللّحظة، لم يعُدْ الحكم على أيِّ شيءٍ موضوعيًّا، بل أصبح الحكمُ على الحكوماتِ المنتَخبة حزبيًّا، ويجري من منطلَقٍ حزبيٍّ ضيّقٍ يهدف إلى إفشالها. كما صار الحكمُ على دورِ الجيشِ حزبيًّا، والحكمُ على ضروراتِ تحقيقِ النموّ فئويًّا، والحكمُ على التحوّل الدّيمقراطيّ ذاتِه حزبيًّا. في هذه اللحظة أيضًا، تمكّنتْ فلولٌ من النّظام من استعادة شرعيّتها؛ لأنّ الهدفَ لم يعدْ تصفيةَ النّظام القديم وبناءَ نظام جديد، وإنّما صار إلحاقَ الهزيمة بالحزب المُنافس وإن كان مشاركًا في الثّورة. فأصبح التّحالفُ مع عناصر النّظامِ القديم مسألةً ثانويّةً جائزةً.

وأخيرًا، وبعد فترةٍ من الذّهول الدّولي من الثّورات العربيّة، فسح هذا التّنافسُ غيرُ المنضبط بين الأحزابِ، المجالَ من جديد للدّول الأجنبية ذات الأجندات، للعبث بقواعد اللّعبة الدّيمقراطيّة، من خلال دعم هذا ضدّ ذاك؛ ومنها دولٌ عربيّةٌ عارضتْ الثّورات وعمِلتْ ضدّها.

الأمر الثاني هو أنّ الثّورات العربيّةَ قد انتقلت في بعض البلدان إلى الانتخابات وبناء النّظام الجديدِ، قبل أن تنتهي ثوراتٌ في بلدان أخرى. ومثلما أسلفنا، إنّ الفضاءَ العربيَّ هو فضاءٌ يصلنا بالآمال والخيبات، وبالأحلام والآلام. وكما أثّرتْ الثّورةُ التي حصلتْ في بلد مثل تونس في الوجدانِ، أكثر ممّا أثّرت في العرب الثّوراتُ الواقعةُ في إندونيسيا وإيرانَ والتحوّلاتُ الديمقراطيّةُ في جنوب أوروبّا وأميركا اللّاتينيّة، كذلك أثّرت أيضًا المشاكلُ التي أعقبت ثوراتٍ عربية في ثوراتِ الأخرى الجارية.

من هنا، رأينا أنّ هناك مشكلةً تتمثّل في عدم عمق الرّؤية المتعلّقة بالمسؤوليّة عن المرحلة الانتقاليّة وبناء الديمقراطيّة، من حيث أنّها مسؤوليّةٌ عابرةٌ للأحزاب، ويتحمّلُها الجميعُ. كما أنّ هناك إشكالًا يتمثّل في عدم الوعي بأنّ المسؤوليّةَ تخرج عن نطاق البلد الواحد؛ بمعنى أن تدرك القوى السياسيّةُ في كلِّ بلد من بلدان الثّورة أنّها مؤثّرةٌ في الشّعوب العربيّة الأخرى، وأنّ هذه المسؤوليّةَ شرفٌ عظيمٌ، وليستْ عبئا.

ويتمثّل الأمر الثّالث ـ الذي هو مرتبطٌ بالثّاني ـ في سرعة تحوّل الصِّراع بين المواقف إلى صراعٍ بين هويّاتٍ وثقافاتٍ دينيّةٍ وعلمانيّةٍ. وما زلت أعتقد أن هذا استقطابٌ ينبغي تجنُّبه. وفي حالة المشرقِ العربي، يسهلُ الانقسامُ إلى طوائفَ؛ وهي كارثةٌ للتعدّدية الدّيمقراطية.

وذلك شأنٌ يحتاج إلى وقفةٍ طويلةٍ في موضعٍ آخر... فهناك شعرةٌ تفصل تحويلَ الثّورةِ إلى صراعِ هويّاتٍ عن الاحتراب الأهلي، أو عن نموذجٍ تختلط فيه الثورة مع الاحتراب الأهلي، أو حتى حربٍ أهليّةٍ تختلف أخلاقُها وقيمها ومآلاتها تماما عن قيم الثورات ومراميها، وتجعل الحسمَ القيميَّ بالانحياز شبهَ مستحيل.

هذه إشكاليّاتٌ راهنةٌ، قد تُطيل الطريقَ وتعيق التحوُّلَ، ولكنّها لن تمنعَهما. والضمان الرئيس المتوفر حاليًا هو مشاركة المجتمعات في السياسة والمجال العام إلى درجة تجعل إدارة عجلة التغيير إلى الخلف غير ممكنة. قد يتعلّمُ الإنسانُ من أخطاءِ الآخرينَ وتجاربهم، وقد يتعلّمُ من أخطائه هو وتجربته. والطّريق الثاني أطولُ من الأوّل وأكثرُ إيلامًا، ولكنّها في النّهاية شعوبٌ خرجتْ لاستبدال استبدادٍ بنظامٍ من الحقوقِ والواجباتِ، وتغييره بنظامٍ يحفظ حريّةَ المواطنِ وكرامته، وليس استبدالهُ باستبدادٍ من نوعٍ آخرَ. وهذا ما سيكونُ بالثّورةِ أو بالإصلاح في العالم العربي. وليس سرّا أنّنا منحازونَ إلى هذا التّغيير؛ فالانحيازُ إلى الثّورة هو التّذكرة لنقدها. أمّا من وقف ضدّ التغيير وضد الثّورة، ويقف حاليًا ضدّ الانتقال الدّيمقراطي، فلا يُعَدُّ موقفُه نقدًا، بل حربًا على التّغيير، وتمسّكًا بالماضي، أملًا في استدعاءِ لحظةِ الانقلابِ على الثّورة؛ وهذا هو معنى الثّورةِ المضادّة.

حوار

منبهر بشجاعة المتظاهرين السوريين والعرب
وسعيد لأن الثورات حصلت خلال حياته

أمين معلوف: نعم... الاسلام يتوافق مع قيم الديمقراطية وحتى مع العلمانية

بعد انتخابه عضواً في الأكاديمية الفرنسية في مقعد كلود ليفي ستروس، يتحدث الكاتب اللبناني أمين معلوف، الحاصل على جائزة الغونكور سنة ١٩٩٣ عن روايته «صخرة طانيوس» لمجلة لوبوان الفرنسية عن ثورات الربيع العربي وقضايا أخرى.

• ماذا تمثل الأكاديمية الفرنسية لكاتب لبناني اكتشف الأدب عبر اللغة العربية والذي، كما يقال، يحب المحادثة باللغة الإنجليزية مع أقاربه؟

• مثل الكثير من اللبنانيين، كنت أتكلم، منذ طفولتي، ثلاث لغات: العربية، الفرنسية

والانجليزية. العربية هي اللغة التي كنت أتكلمها في منزل والدي، وقد واصلتُ المحادثة بها مع أبنائي كي لا ينسوها. الانجليزية كانت لغة أسرة والدي. حين هاجرت جدتي من القرية لتستقر في بيروت في سنوات الثلاثينات كان هدفها في المقام الأول إتاحة الفرصة لأبنائها الستة للدراسة في الجامعة الأمريكية. جدتي بنفسها درست عند المبشرين البروتستانتيين الأنجلوساكسونيين. في مكتبة أبي، معظم الكتب كانت باللغة الانجليزية، في هذه اللغة قرأتُ «دون كيخوته» و «الإخوة كارامازوف». اقتحمتْ اللغة الفرنسية حياتي من خلال والدتي. درس إخوتها عند الآباء اليسوعيين في مصر، لهذا أرادت أن تجعلني أتبع نفس المسار- لتخلصني بلا شك من التأثير البروتستانتي الذي كان مرتبطاً بالمدرسة الانجليزية. وفي غضون السنوات الدراسية، أصبحت اللغة الفرنسية لغتي الرئيسية للثقافة، دون أن تطغى على العربية والانجليزية.

• كيف استقبل لبنان انتخابكم عضواً في الأكاديمية الفرنسية؟ أي معنى أضفى لبنان على الحدث؟ وكيف ينظر لبنان إلى شخصكم، بناءً على تاريخه العريق الحافل بالكفاح والاستشهاد؟

• تميز رد الفعل في لبنان بالتأثر والحماس. توقعتُ ذلك نوعاً ما، لكن ليس إلى هذه الدرجة. ويُفسر ذلك بأسباب ودوافع تتجاوزني كشخص. صحيح أن اللبنانيين لديهم حساسية لما يحدث لأبناء وطنهم في الشتات، وصحيح أيضا أن الأكاديمية الفرنسية تتمتع بمكانة مرموقة لم يتم أبدا التشكيك في مصداقيتها. لكن أنت على صواب حين تشير إلى أن هناك شيئا آخر يتجاوز اعتباري الشخصي. في الرسائل العديدة التي تلقيتها، تم التشديد على فكرة معينة بإلحاح كبير: نحن نمر بمرحلة تاريخية قاتمة جدا، وهذا الحدث (انتخابي عضوا في الأكاديمية) جاء بمثابة شعاع نور. إذا كان لي أن أشرح في بضع كلمات قلق اللبنانيين في صيف ٢٠١١، فإني أقول: أن سوريا اهتزت بسبب الأزمة الكبيرة التي تعيشها والتي من المرجح أن تتفاقم في الأشهر المقبلة، وقد يكون لها تأثير كبير على دول الجوار. في لبنان، الناس منقسمون حول هذه القضية، البعض يتمنى سقوط نظام الرئيس الأسد، والبعض الاخر ينتابه الخوف من عواقب هذا الانهيار على المنطقة.

• سوف تشغل مقعد كلود ليفي ستروس. هل أنت قارئ ألوف لأعماله الفكرية؟

• تسحرني أعمال ليفي ستروس وتصيبني بالرهبة. بدأت في قراءة أعماله في الجامعة، كنت أدْرس آنذاك علم الاجتماع، وكانت الانتربولوجيا مادة في غاية الأهمية، والعديد من كتبه كانت في المقرر الدراسي. وهذا ما لا يجعلني قارئاً ألوفاً لأعماله، لأن المرء لا يقرأ بنفس الطريقة حين يقرأ لاجتياز امتحان في الكلية أو لكتابة مديح للأكاديمية. سوف أخصص إذن الشهور القادمة لقراءة أعماله وإعادة قراءتها. لقد تعرفت دوماًعلى نفسي في رؤيته للعالم

التي ترفض التعصب العرقي لأن ليفي ستروس كان ينادي بالمساواة في الكرامة بين جميع المجتمعات البشرية.

• بشكل عام، أي مستقبل تتوقعونه للفرانكوفونية؟ ألن يكون هذا المستقبل مجرد «وهم»؟

• أؤمن بمستقبل اللغة الفرنسية، لكن ليس على الشاكلة التي قد يتصورها المرء كما حدث منذ بضع عقود. أترجم رؤيتي بتعبير رمزي: لا يجب أن تكون الفرنسية اللغة الأضعف للذئاب، بل الأقوى للحملان. اسمحوا لي أن أشرح فكرتي: إذا نظرنا إلى اللغة الفرنسية كمنافس للغة الانجليزية على مستوى التفوق العالمي، فإننا لن نحقق النصر في المعركة، إذا نظرنا إلى الفرنسية كموجه في معركة كونية من أجل التنوع اللغوي، آنذاك يمكن أن نكسب المعركة، ويجب علينا أن ندير هذه المعركة بحماسة وقوة.

• يتزامن انتخابكم عضواً في الأكاديمية الفرنسية مع «الربيع العربي». ماهو تحليلكم للاضطرابات الحالية؟

• أعيش هذه الأحداث، منذ اليوم الأول، بنوع من الثمالة والنشوة غير قادر على تصديق ما يحدث. كما لو أن أخي التوأم كان في غيبوبة لفترة طويلة وأن كل الأطباء توقعوا جميعا أنه لن يستيقظ أبداً من غيبوبته، وفجأة نهض وأخذ يتكلم. أنا سعيد لكوني عشت لأرى ثورات الربيع العربي. كثيرا ما تم الاستشهاد منذ بداية السنة بهذه العبارة الجميلة لهولدرلين الذي يقول، بشكل جوهري، «حيث يوجد الداء الأسوأ، ينبثق العلاج المنقذ». تبدو لي هذه العبارة صائبة، ليس فقط في حقيقتها الشعرية، بل أيضا فيما يخص التحليل السياسي. بعدما حُرموا من الحرية، من الكرامة، من المستقبل، أصبح الشعور المهيمن على العرب أنه لم يعد لديهم أي شيء سيخسرونه. إلى درجة أن أصبحوا انتحاريين تماما خلال العقد الأول من هذا القرن، تُرجم هذا الشعور بالهجمات القاتلة بالاستناد إلى إيديولوجية رجعية. لكن سرعان ما تبين أن هذا الطريق ميؤوس منه. وظهرت طريقة أخرى للتضحية أكثر نبلا وأكثر فعالية. طريقة الرهبان. التضحية بالحرق (كما فعل البوعزيزي)، أو تعريض الصدور للرصاص. فجأة أصبحت التضحية وسيلة خلاص لحضارة وجدت نفسها في مأزق منذ قرون. هذا حدث كبير ولم نسبر بعد أغواره ولم نقدّر حجم الآثار المترتبة عن ذلك، سواء بالنسبة للعرب كما هو الشأن أيضا للإنسانية جمعاء.

• هل تشك في مدى توافق الإسلام مع الديمقراطية؟

• حول هذا السؤال الجوهري، اسمحوا لي أن أقسم جوابي إلى اثنين. هل أعتقد أن الإسلام يتوافق مع الديمقراطية. جوابي هو «نعم»، يمكنني أن أقدم مجموعة من الحجج، ثم

أعمل على طرحها ثانية للبحث مثيراً جملة من الاعتراضات، لكن أكتفي في هذا الموضع بأن أعبر لك عن قناعتي الشخصية. نعم، أعتقد أن الإسلام يتوافق مع قيم الديمقراطية، بل وحتى مع العلمانية. السؤال الآخر الذي يطرح نفسه اليوم، هو معرفة ما إذا كانت الشعوب العربية قادرة بعد نهاية الاضطرابات الحالية، أن تحدد المكانة المناسبة للدين في المجتمع، كي لا يتعدى ويتطاول كثيرا على الحياة السياسية، وتعريف المواطنة وتطوير القوانين، وما إلى ذلك. وهنا أجد نفسي مضطراً أن أقول، أن في هذه اللحظة التي أجيب فيها على سؤالك، لا أعرف بالضبط ما مكانة الإسلام في هذه الثورات. ليس هناك شك في أن الدين قد لعب دوراً هاماً في الانتفاضات، يكفي، للاقتناع بهذا الأمر، أن نتذكر أن تلك الحشود التي كانت تسجد في الساحات العمومية، أو ببساطة كون أن الأحداث الكبرى خلال الثورات كانت تحدث يوم الجمعة بعد الصلاة... لقد اندلع نقاش عميق حول هذه القضايا الجوهرية. آمل أن يتم الجدل حول هذه المسألة في جو يسوده الانفتاح وبعيداً عن العنف وأن يؤدي إلى التحديث السياسي والاجتماعي. لكن اليوم أشعر أني غير قادر على التنبؤ بنتائج هذه المباحثات.

● **أعتقد، أنه من المفروض أن تكون متأثراً بشكل عميق لعدم تحقق «الربيع العربي» السوري...**

● أنا منبهر بشجاعة المتظاهرين. في كل الدول العربية، وفي سوريا كما في أماكن أخرى. ما قدمه لنا التاريخ في سنة ٢٠١١ هو ملحمة ذات حجم هوميري، لكننا في حاجة إلى بضع سنوات كي نعي بشكل عميق ما حدث.

● **في نظركم، ما تأثير هذه الانتفاضات على مستقبل لبنان؟**

● أنا مهتم للغاية بالقضايا التي تخص مستقبل لبنان. لطالما كان لبنان البلد العربي الأكثر ديمقراطية، ويجب أن يكون في طليعة التحديث السياسي والاجتماعي. لكن نظام الحكم في هذا البلد ما زال عتيقاً، وثقل الطائفية خانق، وأخشى أن لا يتمكن بلدي الأم من التكيف مع الوقائع الجديدة. وأعترف لك أني أراقب من بعيد بقلق كبير ما يحدث في المنطقة.

● **ألا تخشى بعد مرور هذا الربيع الجميل، أن نشهد عودة «الهويات القاتلة»؟ وبعبارة أخرى، أن تتولى النزعات القومية بشكل ناكص ورجعي استعادة الأنظمة الديكتاتورية؟**

● لا يمكننا استبعاد أي احتمال. ماحدث في عام ٢٠١١، هو تأكيد قوي من قبل الشعوب العربية عن رغبتها في الحرية والكرامة. حول هذه المسألة لن نعود إلى الوراء، بل

انفتح عهد جديد يجب أن يتم فيه إنشاء مؤسسات ديمقراطية، إقلاع اقتصادي، ضمان رفاه المواطنين، وتلبية طموحاتهم الكبيرة... وسيتم هذا المشروع بالضرورة على مدى عدة عقود، يمكن أن يحدث خلالها الأفضل أو الأسوأ.

● **حين ستحضر «جلسات القاموس» الشهيرة، أية كلمة تود تعريفها؟**

● أنا مفتون بعلم الاشتقاق، خصوصا اشتقاق الكلمات التي أسميها «المهاجرة»، بمعنى الكلمات التي قامت برحلات بين مناطق لغوية مختلفة. إذا كان لي أن أختار كلمة، فإني سأختار كلمة «وردة». ظاهريا، يبدو أصل الكلمة واضحا، فكما نعلم، ينحدر من اللغة اللاتينية. ثم قامت هذه الكلمة برحلات من اليونانية، فالعربية، فالعبرية، فاللغات الهندو-أوربية. كل هذه اللغات الشرقية والغربية نهلت من نفس الينابيع... أود أن أومن أن صلات قرابة ثقافية تُنسج من خلال الهجرة.

ترجمة: محمد الجرطي

حوار

ماركسي فوضوي يعتبر أن نهاية الرأسمالية لا يعلم بها غير الله

سلافوك جيجيك:

بعد الثورات العربية صار التغيير الجذري في العالم ممكناً

حاورته: سميرة المنسي

نادراً ما تتطابق شخصية مفكر مع موضوعاته كالفيلسوف والمحلل النفسي والناقد السينمائي السلوفيني سلافوك جيجيك، فهيأته توحي بأنه قادم للتو من أدغال الثوريين القدامى، أو أنه لا يزال ثابتاً في إطار الصورة النمطية التي شكلتها كتب التاريخ عن جنون الفلاسفة. ولعل سخريته اللاذعة من الحدود المفروضة على مفاهيم حق الاختلاف التي رسمتها ثقافة ديمقراطية العولمة وما بعد الحداثة في أي سجال ديمقراطي، بالإضافة إلى أطروحاته حول مناطق اللاشعور التي لا يوجد فيها حسب نظرياته وعي زائف ووعي حقيقي، لأن الوعي بحد ذاته يكتنفه الغموض، هي من الأسباب التي جرَت خلفه ألقاباً

مثل: أكثر الفلاسفة المعاصرين شهرة وإثارة للجدل، ونجم الفلسفة المتمردة، والفيلسوف الذي يرفض الحوار الفلسفي، والفوضوي الماركسي الذي يعترف بأن نهاية الرأسمالية لا يعلم بها غير الله.

يراهن سلافوك جيجيك على التغيير الراديكالي، ويعتبر نفسه شريكاً للفيلسوف الفرنسي آلان باديو في تحرير النظريات الفلسفية من الأقبية الأكاديمية، كي تساهم في قراءة معضلات حياتنا اليومية، وما يساعده على إتقان هذه المهمة تناغمُ قدرته الفطرية الفائقة مع مهاراته في توظيف الفلسفة وعلم النفس لفرض تصور مغاير للأشياء وصدم كل ما هو مألوف في الثقافة السائدة.

وهو يقول في السينما: تقوم هوليوود اليوم بدور مراسل صحفي من الجبهة الايديولوجية الأمريكية، بحيث تستدرج المشاهد ليشارك في سرد الضياع الذي يعصف بدوافع الذات الانسانية، وبما أن الشك عنصر أساسي من عناصر الموضوعية، فلا بد له ان يظهر في الشخصيات (التي إلى جانبنا) وهذا (الصدق) يكشف بتقنية ذهنية وبصرية عالية (جانبنا المظلم) غير أن الإضاءة تحجب قراءة ما يدور في أعماقه، وفي المقابل فان أعداءنا ليسوا بشراً بل آلات قتل متصالحين بالكامل مع رغبات الانتقام. وجميع هذا يحشره الجيش الإسرائيلي ووسائل إعلامه دفعة واحدة في شخصيات عملاء الموساد الذين يطاردون الإرهابيين الفلسطينيين المهووسين بالانتقام. حينما نشاهد هوليوود الإسرائيلية لا يمكن أن نشعر بشيء آخر غير البغض الشديد تجاه شخصيات الموساد الذين يقومون بقتل الفلسطينيين بدم بارد وبدون حضور أي دافع من دوافع الذات وعدم يقينها، فهم غير مضطرين لتفسير ذلك لأن «قيامنا بواجبنا» يعني تحليل سياستنا العسكرية التي تحتم علينا تقديم الواقع الفعلي وليس إظهار الرحمة، مثلما يحتم على العالم أن يفهم أن الجندي الإسرائيلي ليس قاتلا ولا بطلا، وإنما بشر وقع في مصيدة التاريخ والحرب كما وأننا لن نسمح لوحشية الحرب أن تعرقل ممارسة حياتنا الحميمة».

ولد سلافوك جيجيك في سلوفينيا وهي إحدى جمهوريات الاتحاد اليوغسلافي السابقة عام ١٩٤٩، وأصدر عشرات الكتب منها: الالتزام الصعب» و«من قال شمولية»، «الدمية والقزم»، «مرحبا بكم في صحراء الواقع» وآخرها «مرحبا بكم في الزمن المثير» وهو العمل الذي يقدم رؤيته للمتغيرات العالمية الراهنة والتي يمكن اختزالها في عبارته: التغيير الجذري أصبح اليوم ممكنا.

وفي هذا الحوار الخاص وافق جيجيك ضاحكا على طلب حصره في رؤيته السياسية للثورات العربية وعلى محاولة عدم التقافز بين نظرياته الفلسفية حتى لا أكتشف لحظة انتهائه من إثبات إحداها بأنه قد انتهى فعلا من عرض نقيضها.

* كيف ترى المشهد التالي: تصحو الشعوب العربية فجأة، فيصبح المستحيل ممكنا في العالم العربي، يسقط طاغية تونس ثم طاغية مصر، ينشغل المجتمع الدولي في المراهنة على

سقوط الطاغية التالي، يستشرس القذافي ويذكر الولايات المتحدة بأن الديكتاتوريات هي حصنها الوحيد ضد القاعدة وإرهابها الإسلامي، لا تجيبه واشنطن، فيعلنها حربا مقدسة ضد الغزو الصليبي، تستيقظ دول تحالف الناتو من ذهولها وتنسى انها تشكل ٧٠٪ من الاحتياط العسكري في العالم.

ـ هذا المشهد يستدعي مقولة: أننا نرى الشر يرقص على أنقاضه، فالغرب الذي ألغى إرادة الشعوب العربية وتحالف مع طغاتها، ها هو يلتف على أزماته، ويحاول اقناع الشعوب العربية بأنه يرقص معه على أنقاض طغاته وليس على أنقاضه هو.

القضاء على الإرهاب الإسلامي وضمان حقوق المرأة في العراق وافغانستان كانت سردية الولايات المتحدة الأمريكية الرسمية، ولكن سياستها الحقيقية هي إنتاج الإرهاب والتطرف بأشكاله المختلفة، سواء كانت دينية او عرقية او قومية.

إن الدوافع الانسانية المفاجئة التي ساقتها قوات الناتو خلفها لاحتلال ليبيا، تشبه نادرة حدثت خلال الحرب العالمية الأولى، فقد بعثت ثكنة ضباط الجيش الالماني برقية إلى ثكنة ضباط الجيش النمساوي في ذلك الوقت تقول: الوضع في جبهتنا كارثي، ولكنه ليس جدياً، وكان رد ثكنة ضباط الجيش النمساوي: الوضع في جبهتنا جدي ولكنه ليس كارثياً.

بهذه الصورة يعطي الغرب أولوياته. وما تمر به شعوب الدول العربية الأخرى قد يكون جدياً ولكنه ليس كارثيا، ووضع شعب اليمن لا كارثي ولا جدي. المشهد مثير للغاية، وربما نصبح في الايام القادمة شهودا على مرحلة لا تصدق وتتصف بالجنون الكامل.. هل يتوقع احد ان ترسل الامم المتحدة قوات حلف الناتو لتحرر الشعوب من طغاتها؟

حمى التغيير الدائرة في الوطن العربي تكشف الوجه الحقيقي لديمقراطية الغرب، وحربه على ما يسمى بمحور الشر والإرهاب الإسلامي، هل نعرف أحداً كان إرهابياً قبل ان تجنده المخابرات الأمريكية؟ والغريب ان الجميع يعرف ذلك، ويعرف كيف تخلق الولايات المتحدة أعداءها ولماذا تتخلص منهم. أظن باننا نقترب من ولادة مرحلة جديدة وخطيرة، وحتى ندخل فيها يترتب على يساريي العالم أولا تشييد تمثال ضخم لجورج بوش، لأن سياسته الحمقاء أطاحت بالهيمنة الأمريكية ودمرتها.

• هل لا تزال ثورة الشعب الليبي تحمل اسم الثورة بعد ان حملت سلاح حلف الناتو؟

• لا ادري، ولكن ما يحدث أستطيع تسميته بالتوازن الكارثي، لأن الثورات العربية تمر في الوقت الراهن بمرحلة لا احد يستطيع المراهنة على نتائجها، ولكنها بكل تأكيد بارقة امل تشق طريقها بثبات لقلب دور العالم العربي الذي عمل الغرب على ترسيخه طوال الحقب الماضية، العالم العربي كان مجرد جدار عازل سد الطريق أمام أي تغيير محتمل داخله، أو ليعبر من خلاله إلى مناطق آسيوية وافريقية أخرى.

وأعتقد ان مصيبته الاساسية هي افتقاده القاعدة اليسارية العلمانية، وأتمنى ان يتدارك

الشعب العربي ذلك وخاصة في ليبيا، ويسعى إلى احداثها، حتى لا يقع فريسة السياسة الدولية كما حدث في أفغانستان الثمانينات، وعليه ان يتعظ من فشل التجربة الاشتراكية في اوروبا الشرقية التي اكتفت بالوصول للسلطة.

الفيلسوف الفرنسي آلان باديو وضع ثلاثة أشكال مختلفة لفشل الثورة: الأول يتمثل في هزيمتها المباشرة من قبل عدو يسحقها ويخضعها ببساطة تحت سيطرته، والثاني يتمثل بالهزيمة التي يقودها النصر نفسه وذلك حين تتبنى الثورة المنتصرة مشروع عدوها ليصبح نظام ثورتها الداخلي، والثالث حين تصبح سلطة الدولة التي ناضل الشعب ضدها هي هدف الثورة لتنفيذ طموحات الشعب، وفي هذه النقطة يكمن فشل الثورة الحقيقي وربما الساحق، والتعريف الفطري الصحيح له هو: اكتفاء أي ثورة بالوصول إلى سلطة ترسخ فيها كل طاقاتها، يعادل خيانتها، لانها فشلت في استحداث بديل حقيقي لنظام اجتماعي وسياسي مرتبط بتفاصيل مجتمعها اليومية، وفي تبني إستراتيجيات متواضعة وبسيطة بعيدة عن السلطة، تعمل بألية شعبية مؤثرة هدفها التغيير الجذري والحازم.

أرى في الثورة المصرية انطلاقة تمرد الشعوب العالمي، وفيها أيضاً تتحدد هويتنا جميعاً، وبقدر وضوحها توضحنا، ولا تحتاج لتحليلات محللين اجتماعيين أو سياسيين، وهي على العكس من الثورة الخمينية في ايران التي لم يجد اليساريون الايرانيون في ذلك الوقت فيها طريقا اخر غير ارتداء عمامة الخميني لتهريب ايديولوجيتهم. في تونس ومصر كان الأمر عكس ذلك، لقد اضطر الاخوان المسلمون إلى اخفاء عماماتهم وتبني خطاب العدالة الاجتماعية والحرية العلماني، لم يجدوا مفرا من ترديد لغة المتظاهرين العلمانية وهذا برز جليا بالصلاة المشتركة في ساحة التحرير التي توحد فيها المصري المسلم والمصري القبطي، تلك الصلاة كانت الاجابة المثلى على رفض الشعوب العربية لأي عنف ديني وطائفي أنتجته حكوماتهم وسوّقه محافظو اوروبا الجدد. ثورتا تونس ومصر رد صريح على ان العدالة الاجتماعية والسيادة الوطنية والحرية هي التي تطالب بها الشعوب وليس الحرية الفردية أو حرية السوق الحرة. ومن جانب اخر عبرت ثورة مصر عن رفعة التضامن بين متظاهري ساحة التحرير ومتظاهري عمال ولاية ويسكونسين الأمريكية في نضالهم الذي لا يعرف عنه الكثيرون ضد حاكم الولاية ومشروعه الفاشي في القضاء على حقوق النقابات العمالية.

ان خيار الشعوب الوحيد في هذه الأوقات المثيرة هو الوحدة وفعل كل شيء يبدو مستحيلا ضمن النظام السياسي القائم، والايمان بان الواقعية لن تتحقق الا بطلب المستحيل، ومصر وتونس علمتانا ذلك.

كل ما ارجوه هو تغيير حقيقي ينهي هذه المرحلة المؤلمة من تاريخ الشعوب العربية لتستطيع شق مستقبلها بديمقراطية، ورغم عدم تفضيلي لما تسوقه مفردة «ديمقراطية» لانها تفتح الابواب حتى نقول: الديمقراطية تعني الديمقراطية الغربية، والديمقراطية الغربية تمر في أزمة حقيقية؟ وان سألنا بأي معنى، نجيب: لأنها فرغت من محتواها وهذا الأمر قد

لا نلحظه بسهولة، بسبب ديمقراطيتها التسويقية، وبهذه المناسبة أحب دائما ذكر التالي: قبل أسبوع من الانتخابات البريطانية التي فاز بها توني بلير، كنت في بريطانيا، وشاهدت محطة تلفزيونية تجري تصويتاً بين مشاهديها على أكثر شخصية سياسية يكرهها الشعب البريطاني، أجمع الناخبون على اسم توني بلير، وبعد مضي أسبوع فاز توني بلير ـ أكثر شخصية سياسية يكرهها الشعب البريطاني بالانتخابات العامة، وهذه إشارة واضحة تؤكد فشل الانتخابات البرلمانية على قياس رأي الشعب واختياراته.

وقبل قبيل أعوام أعاقت الحكومة البريطانية تنفيذ اصلاحات تربوية، فقام الطلاب باحتجاجات اتسمت بالعنف والمواجهات مع رجال الأمن، هذه اشارة أخرى تؤكد ان الديمقراطية الرأسمالية لا تقيس نبض الشعب ولا تقترب من مطالبه الحقيقية، لذلك خرج الطلاب إلى الشارع لعرض مطالبهم، وسوف يخرج طلاب اوروبا وشبابها إلى الشارع مرة ثانية وثالثة، ليقولوا لا عمل لدينا ولا أمل.

• ولكن السؤال المطروح حاليا هو ماذا سيحدث غدا ومن سيجني ثمرة الثورة العربية السياسي، خاصة وان هناك اراء تقول ان موافقة العالم العربي على دخول قوات حلف الناتو ليبيا أوقع الثورات العربية في دائرة الفوضى الخلاقة التي صاغتها الولايات المتحدة في عهد بوش الابن وبدأت في تنفيذها بعهد اوباما؟

• ربما فكل شيء يدل في الوقت الراهن على عولمة الحروب الأهلية لتحل محل نظام العولمة الذي خضعت له ملايين البشر في الحقبة الماضية، ويدل أيضاً على طلاق وشيك بين الديمقراطية والرأسمالية الذي تكشفه حالة الطوارئ المعلنة في الولايات المتحدة واوروبا ضد الهجرة غير الشرعية، لأن الراسمالية في أزماتها تتخلى عن ديمقراطيتها، الجميع يعرف كيف تخلت الولايات المتحدة عن الديمقراطية حينما عاقبت كل من رفض الحرب على العراق، وحينما تطابقت مصالحها مع مصالح البنوك إبان ازمتها الاقتصادية عام ٢٠٠٨، في ذلك الوقت كان على الجميع نسيان الديمقراطية لانها لا تحل الازمات. ربما بعد عولمة الحروب الأهلية، ستجد الولايات المتحدة الوقت الكافي للحديث عن الديمقراطية وعن غيابها هنا وهناك.

• هل تتفق مع الرأي القائل ان تعاطف مثقفي الدول الغربية مع متظاهري تونس ومصر بدأ عندما تأكدوا ان فلسطين غائبة من قائمة احتجاجاتهم؟

• ولهذا، هو تعاطف كاذب ومخادع، لأنه نابع من ثقافة المؤسسة الاستعمارية وشروطها، والدليل على ذلك الصراع الدائر بينهم حول كيفية تحويل مجرى ثورة الشعوب العربية لما يخدم المصالح الغربية. العالم أصبح متأكدا بان الثورة العربية سينبثق عنها نظام دولي جديد، والغرب يعمل على تأويل ثورات الشعوب العربية واحتوائها في أجندته، ويعمل مثقفوه في هذه الأثناء على تحديد سقف ثورات الشعوب العربية بالديمقراطية الرأسمالية، ويقولون ان الشعوب العربية تريد فقط تطبيق ما عندنا: الديموقراطية البرلمانية الرأسمالية الليبرالية، ولأنها

لا تملك أيديولوجيا سياسية واقتصادية واجتماعية واضحة سوف تطبق الديمقراطية الغربية. هذا النفاق برز أيضاً خلال الاحتجاجات التي نظمتها المعارضة الايرانية، فقد انبرى مثقفو الغرب للدفاع عن المعارض الايراني حسين موسوي وعندما اتضح لهم ان الرجل ليس مغرما بالليبرالية البرلمانية الغربية وانما يكافح من اجل ثورة ايرانية حقيقية رفعوا أيديهم واقلامهم عنه وقالوا: الموسوي يتفق مع الخميني ويعارض احمدي نجادي.

أكثر ما يزعج مثقفي الغرب هو الاعتراف بان وراء الشعوب العربية ثورة عربية اصيلة لانهم يعتبرون أي تغيير تطالب به المجتمعات الدولية يجب ان لا يخرج من نطاق الديمقراطية الغربية الرأسمالية، و غير ذلك لا يسمونه تغييرا، وانما تعصب قومي أو تطرف ديني.

ان الخطر الاكبر يكمن في تصديق وهم الديمقراطية الغربية وتحديد مبادئها الرأسمالية كصيغة نهائية لكل حركة تغيير تطالب بها الشعوب وذلك بهدف إجهاض أي محاولة لتغيير أسسها بشكل جذري، واعتقد ان الشعوب العربية تحتاج في هذه المرحلة إلى التحالف مع المعارضة الايرانية، خاصة في ظل الفراغ الهائل الناجم عن غياب مؤسسات المجتمع المدني والاحزاب اليسارية الفاعلة، ومن غير ملء هذا الفراغ ستقع ثوراتهم في الهيمنة الغربية وسياستها الدولية الليبرالية، ومن افرازاتها التطرف الديني والطائفية التي لم تنته بعد في العراق وافغانستان.

• اذن هل اعتبار الديمقراطية الرأسمالية الاطار النهائي والمحدد لكل حركة تغيير تطالب به الشعوب هو الذي دفع مثقفي الغرب إعلان حالة الطوارئ لحماية ديمقراطية اسرائيل من حرية الشعب العربي؟

• بكل تأكيد، لقد قلت مثقفي الغرب وهذا يعني ان هناك ثقافة، وأول إنتاجات ثقافة الديمقراطية الرأسمالية بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية هي ثقافة الخوف من تهمة معاداة السامية التي أراحت ضمير المجتمع الغربي من محاسبة جرائم اسرائيل، كما أراحت ثقافة الخوف من تهمة الانتماء للشيوعية من محاسبة الولايات المتحدة على جرائمها في شتى بقاع الارض. ومن أبرز انتاجات ثقافة الديمقراطية الغربية اليوم، ثقافة الخوف من المهاجرين والإسلام. اوروبا الشرقية والغربية كانت تخضع حتى وقت قريب لسيطرة حزبين رئيسيين هما حزب اليمين (الديمقراطي المسيحي المحافظ الليبرالي الشعبي الخ) وحزب اليسار (الاشتراكي الديمقراطي الخ) أما اليوم فان حزب اليمين هو من يتصدر الواجهة، ومن أجل نشر ثقافة عولمته الرأسمالية تسامح مع قضايا مثل حقوق الاقليات الدينية والقومية ودعا إلى الحرية الفردية مثل الاجهاض والحرية الجنسية أي بمعنى إعطاء الشخص حق النوم مع كلبين، ولكن ليس من حقه الانتماء لاي افق سياسي خارج المنظومة، ومن جانب اخر بدأ بتأسيس ودعم ميليشيات يمينية متطرفة لترويع المهاجرين وطردهم، واكبر مثال على ذلك ايطاليا برلسكوني، حيث اصبحت فوبيا الخوف من المهاجرين المطلب الوحيد الذي يحرك الناخب الايطالي عند صناديق الاقتراع.

أظن ان اللحظة المناسبة قد حانت لتدرك شعوب الدول الغربية لماذا تهدد الديمقراطية الحقيقية حريات الشعوب ولماذا لا يمكن لاسرائيل العيش الا في محيط مقموع ولماذا لا نفهم ان حرية الشعوب العربية هي الطريق الوحيد من اجل رؤية مصير ابعد من معاداة السامية. اسرائيل بالمناسبة تكشف يوما بعد يوم عن وجهها الحقيقي فهي دولة مغلقة على طائفيتها ومن يحاول انتقادها يتهم فورا بمعاداة السامية، وهذا ما حدث معي عندما كتبت عن طائفية اسرائيل في صحيفة ليموند. أنت فلسطينية وتعرفين ان أكثر ما يصيب اسرائيل بالهستيريا ويوقعها في حالة هذيان هو رؤية فتاة اسرائيلية برفقة شاب فلسطيني، هذه الظاهرة تحاربها دولة اسرائيل بكل الطرق، وفتحت مراكز الصحة النفسية لمعالجة هؤلاء الفتيات من ميولهن العاطفية تجاه الرجل العربي. وهذا يطرح السؤال التالي: ماذا يحدث لو لم يحدث شيء، والاجابة: لا شيء ومن هذا اللا شيء لا احد يرى حجم الصراع الحقيقي، لأن تحايل اسرائيل القذر وتسويق الغرب لديمقراطيتها حشر جرائم دولة اسرائيل في زاوية (نزاع متبادل بين طرفين). عندما كنت أقول لاصدقائي الإسرائيليين اليساريين، أنظروا ماذا فعلت بكم إسرائيل، لقد سمحتم لها ان تحول ما قدمه اليهود عبر العصور إلى جرائم عنصرية، كانوا يجيبونني: قد يكون صحيحا اننا نضطهد الفلسطينيين، ونحرمهم من حقوقهم، ولكن هذا لا يعني ان نسمح لهم كل يوم باسقاط قنابلهم فوق رؤوسنا؛ لماذا لا يقبلون التعايش معنا؛ ولماذا لا يكفون عن ممارسة الإرهاب ضدنا. ولكن بعد نشر موقع ويكيليكس الحقائق التي تؤكد ان السلطة الفلسطينية في رام الله قدمت من أجل هذا التعايش الكثير، وكانت كريمة للغاية وبطريقة لم يتوقعها احد جاء رد هؤلاء الاصدقاء: بنسيان غزة ستصبح الامور افضل مع الضفة الغربية، وفي هذا الاتجاه المرعب تريد إسرائيل ان يسير مصير الشعوب العربية.

حوار

ياسين الحاج صالح: اقول للسياسيين الغربيين: اخرسوا رجاء وكفاكم غباء وعجرفة!
بكر صدقي: الإسلاميون التحقوا بالثورة بعد فترة من بدايتها وكذلك قوى المعارضة العلمانية
حازم نهار: البديهي أن يعود السوريون لثقافتهم الدينية دفاعاً عن أنفسهم

في سوريا ثورة، والطريقة الوحيدة لفهمها هو بأن ننصت لما يقوله السوريون عن بلدهم. هنا سنقدّم ثلاث وجهات نظر مختلفة من المعارضة السورية. نريد أن نرى تعدّد وغنى الأصوات السورية. الآن، يتم إعادة تشكيل سوريا من خلال الثورة، هذا هو الوقت المناسب للاستماع إلى اولئك اللذين يساهمون في بناء مستقبل سوريا.

سنطرح اسئلتنا على ثلاثة كتّاب معارضين هم ياسين الحاج صالح وبكر صدقي وحازم نهار.

السؤال الأول: لماذا لم يسقط الأسد؟

ياسين الحاج صالح:

ليس هناك سؤال في هذا الشأن في رأيي. الأمر واضح جدا. السؤال المفتقر إلى إجابة واضحة هو: كيف أمكن للثورة السورية أن تستمر في مواجهة نظام لم يتوقف يوما عن

القتل منذ البداية؟ كيف أن سقوط عشرات ألالف من السوريين وتدمير مدن وبلدات وأحياء بكاملها لم يكسر عزيمة الثائرين السوريين؟ كيف نوعت الثورة في وسائلها وميادينها بحيث تهدد نظاما قويا بالمقاييس الإقليمية ومن الأشد وحشية في العالم بالسقوط؟

لكني سأعود إلى السؤال لأقول البديهي: لم يسقط النظام بعد حتى اليوم لأنه استثمر منذ البداية في ميدان تفوقه المطلق: السلاح ووسائل الحرب، ودافع عن نظامه ببسالة ودون أية ضوابط قانونية أو إنسانية أو وطنية، وتلقى دعما مخلصا من قوى إقليمية ودولية نافذة؛ فيما جرب الثائرون عليه الاحتجاج السلمي، ثم مزيدا منه ومن المقاومة المسلحة، لكنهم افتقروا إلى ما يشابه ولو من بعيد الدعم القوي العزم الذي يقدمه حلفاء النظام. القصة ببساطة أن الثورة اضطرت إلى مقاومة مسلحة لنظام قائم على الحرب، بعد شهور من محاولة فرص السوريين أنفسهم طرفا سياسيا في بلدهم بأدوات سياسية.

وفي غياب التكافؤ في التسلح والموارد والتنظيم، يبقى استنزاف النظام المعتدي، وهذا يأخذ وقتا طويلا. لا وجه لاستغراب الأمر في تقديري.

بكر صدقي:

١) سأفترض العكس، أي أن الأسد سقط بطريقة أو بأخرى. منذ تلك اللحظة سنكتشف أن «النظام» الذي بناه أبوه حافظ بتؤدة على مدى ثلاثة عقود، ليس الرئيس أو عائلته فقط. هو شبكة معقدة وخفية من المصالح والعلاقات القائمة على ولاءات وعصبيات أهلية تخترق الحدود الوطنية من جهة، وترسم حدوداً عمودية في الداخل الاجتماعي الوطني من جهة ثانية.

شكل النظام ركناً مهماً في النظام الشرق أوسطي القائم على توازنات الحرب الباردة، وحين انتهت هذه تمكن من التكيف بسرعة مع الشروط الجديدة بدءً من التسعينات: كان في صف المنتصرين في حرب الكويت، وكوفئ على ذلك بالتمديد لوصايته المديدة على لبنان وبتوريث الحكم الجمهوري لبشار الأسد. احتلال العراق غيَّر مصير النظام الذي التحق بصورة تامة بإيران. أدى موقفه من احتلال العراق (٢٠٠٣) إلى طرد قواته من لبنان.

كشفت الثورة السورية عن حجم البعد الأمني في مفهوم الحكم عند النظام: نكاد لا نرى أي مستوى سياسي في هذا الحكم القائم على الغلبة والمؤامرات والإرهاب المحض وجهاز مخيف لإنتاج الأكاذيب. تتألف واجهة النظام من بضع عائلات تربطها مصالح مافيوزية وعصبية طائفية (الأسد ومخلوف وشاليش) ونواته الصلبة من جهاز أمني يرسم «سياسات» النظام إذا جاز لنا الحديث عن سياسات.

مع بداية الثورة الشعبية انتقل مركز القرار الوطني من دمشق إلى طهران. فالنظام يتألف اليوم من إمَّعات: محمد مخلوف وبشار الأسد وأخوه ماهر وقادة أمنيين من صنف علي مملوك وأمثاله. هؤلاء لا يملكون مؤهلات رسم سياسات نظام في الزمن العادي، فما بالك بمواجهة ثورة شعبية. لقد ورثت الطغمة العائلية الحاكمة أوراق قوة كثيرة أطالت عمره، وهي ماضية

في إهدار تلك الأوراق (إسرائيل، لبنان، المسألة الكردية، المسألة الطائفية.. إلخ).

حازم نهار:

كل نظام سياسي في العالم يتألف من عدة مستويات متراكبة، كالمستوى السياسي والاقتصادي والأيديولوجي والقانوني والإعلامي والأمني، وبمتابعة بسيطة نجد أن النظام سقط في معظمها، ولم يبقَ من النظام إلا العائلة الحاكمة والعصا الأمنية وعنفها العاري.

فالنظام لم يمارس السياسة خلال عشرين شهراً، وتحول إلى مجرد أداة للقتل، كما خسر كل علاقاته مع معظم دول العالم، وأصبح منبوذاً في جميع الهيئات العالمية، ولم يبقَ له وجود فيها، وفي المستوى الاقتصادي فقدت الليرة السورية أكثر من نصف قيمتها حتى الآن، وهناك أزمة اقتصادية خانقة، وفي المستوى الأيديولوجي لم يبقَ أي رصيد شعبي لأيديولوجية البعث، خاصة مع افتراق الخطاب السياسي عن الممارسة الواقعية، أما الأداء الإعلامي فكان رخيصاً ومبتذلاً وخشبياً ولم يقنع أحداً، خاصة أنه ارتكز في تفسير الاحتجاجات على منطق أن سورية تتعرض لمؤامرة كونية أو على اتهام الثورة بأنها عصابات مسلحة. وفي المستوى العسكري انهارت مقولة الجيش العقائدي بعد أن تحول الجيش إلى أداة لقتل الشعب، والأجهزة الأمنية إلى أداة لحماية العائلة الحاكمة وليس الوطن والمواطنين.

يتطلب رحيل العائلة الحاكمة جملة شروط، بحكم طبيعة النظام الأخطبوطي الذي بنته وبحكم الخصوصية السورية، لعل أهمها وجود توافق دولي إقليمي حول المنطقة بشكل شامل. فهذه الخطوة الأخيرة في سقوط النظام لها علاقة بتوازنات القوى في المنطقة وبالوضع الهش في لبنان والعراق، وبالمصالح الإيرانية والروسية في المنطقة، وبالملف النووي الإيراني والصراع العربي الإسرائيلي، وفي هذا السياق هناك العديد من المساومات التي تحدث بين الدول.

من بين الشروط أيضاً ضرورة توافر البديل الناضج الذي يفترض أن يطمئن السوريين جميعهم، إلى جانب طمأنة العالم بأن المنطقة لن تذهب في اتجاه الفوضى. ولا ننسى أن هناك جزءاً من الشعب السوري ما زال في صف النظام أو في المساحة الحيادية، خاصة الأقليات المتخوفة من نظام حكم إسلامي، وهو تخوف واهم زاد من رصيده النظام السوري بدعايته وممارساته الطائفية.

هذه التعقيدات والتشابكات الداخلية والإقليمية والدولية لا زالت تمنع المرحلة الأخيرة في سقوط النظام، أي رحيل العائلة الحاكمة وهزيمة المؤسسة الأمنية والعسكرية المرتبطة بها.

السؤال الثاني: من هم الإسلاميون في سوريا؟ و ما هو دورهم في الثورة؟

ياسين الحاج صالح:

لا نستطيع الكلام على إسلاميي سورية كأنهم كتلة واحدة. هناك تيار سلفي كان محدودا قبل الثورة وغير منظم يبدو أنه الأكثر توسعا اليوم، سياسيا وعسكريا. وهناك

الإخوان، وقياداتهم في الخارج منذ عقود، وهم مشاركون في المجلس الوطني السوري ومهيمنون عليه، ويبدو أن لهم مجموعات قتالية في بعض مناطق شمال البلد وحماه. وبشيء من التقريب قد يمكن وصف التيار السلفي بأنه الإسلام السياسي الريفي، فيما الإخوان هم الإسلام السياسي المديني.

هناك أيضا طيف متنوع من إسلاميين مستقلين غير منتظمين في إطار محدد، هم عموما أقرب إلى التيارات العلمانية. وهناك أيضا رجال دين كانوا ضمن المؤسسة الدينية الحكومية، وخرجوا من البلد بعد تفجر الثورة، ويبدو أن بعضهم أو جميعهم يبحثون عن دور عام.

ويشترك الجميع في نزعة المحافظة الاجتماعية التي ستكون تحديا كبيرا في سورية بعد الأسدية.

لم يكن للإسلاميين دور خاص في اندلاع الثورة وفي أنشطتها الباكرة. كما في كل البلدان الأخرى شاركوا متأخرين. لكنهم يحوزون موارد وعلاقات لا يحظى بمثلها عموم المعارضين السوريين الآخرين. وعبر مسار عشرين شهرا من الحرب المفروضة سارت سيكولوجيا الجمهور الثائر، وهو سني في أكثريته، باتجاه يلاقي العرض الإيديولوجي للإسلاميين، السلفيين منهم بخاصة.

لهذا عواقبه المستقبلية لكن لا أرى كيف كان يمكن تجنبه في ظل الحرب المفروضة على السوريين.

بكر صدقي:

البيئة السورية مناسبة جداً لنمو الحركات الإسلامية. فالنظام القائم في أحد أبعاده على عصبية أقلية يشجع التمرد عليه باسم دين الأكثرية (الإسلام السني) فضلاً عن البعد العالمي لصراع أريد له أن يكون بين غرب «مسيحي» غالب وعالم إسلامي متمرد. من هذا المنظور، يمثل النظام استطالة داخلية لغلبة خارجية طاحنة. الارتباط المذهبي لنواة الحكم بإيران الشيعية لم يغيّر هذه الصورة، بل أعطاها وجهة أخرى وحسب.

لكن ثورة الشعب السوري لم تكن إسلامية الطابع، بل أقرب ما تكون إلى حركة استقلال وطني تتوق إلى الحرية والكرامة والعدالة. الإسلاميون التحقوا بالثورة بعد فترة من بدايتها، مثلهم في ذلك مثل قوى المعارضة العلمانية. يشكل الإخوان المسلمون القسم «العلماني» من التيار الإسلامي إذا جاز لنا هذا التوصيف. أما التيار السلفي الذي يتغذى على عوامل وفيرة في الشروط السورية، فهو أوسع وأقل تمركزاً في الوقت نفسه. انحياز دول الخليج العربي ضد النظام، شجع التيارات الإسلامية من خلال التمويل والإعلام المتحيزين. تكفل المال بشراء ولاءات، في حين تكفل الإعلام بتضخيم الوزن المفترض للإسلاميين. كذلك لعبت تركيا بقيادة حزب العدالة والتنمية دوراً سلبياً في تضخيم دور الإخوان المسلمين (وزنهم الراجح في المجلس الوطني لا يعكس نفوذهم الاجتماعي الحقيقي).

من جهة ثانية لعبت أجهزة النظام، طوال العقد المنصرم، بورقة الجهاديين في حربه الإرهابية

في العراق، واخترق كثيراً من منظماتهم السرية. العمليات القائمة على تفجير السيارات المفخخة هي مزيج من عمل أجهزة النظام والمنظمات الجهادية المذكورة، وقد انقلب بعضها ضد النظام في سياق الثورة.

يتناسب دور الإسلاميين طرداً مع تحول الثورة من سلمية إلى مسلحة. كاد المكون المدني العلماني يغيب في ظل قعقعة السلاح. لكن الدور المهم لضباط الجيش المنشقين في الجيش السوري الحر يستعيد شيئاً من التوازن.

حازم نهار:

ما يحدث في سورية هو ثورة حقيقية ضد نظام مستبد وفاسد، وأسباب هذه الثورة موجودة منذ زمن بعيد في الميادين كافة، في السياسة والاقتصاد على حد سواء، وقد حمل شعارات هذه الثورة مجموعة من النشطاء المدنيين، ونعرف جميعاً كيف حاول النظام بكل قدرته تحييدهم عبر القتل أو الاعتقال من أجل ترك الشارع الثائر دون بوصلة أو توجهات واضحة.

فالشارع لم يخرج من أجل إقامة حكم إسلاميّ، ولا تحرّك بإرادة رجال الدين أو الأحزاب الدينيّة، وإنما خرج ثائراً من أجل الحريّة والكرامة في وجه نظام استبداديّ وفاسد. وقد حدّد الشارع موقفه من الجميع استنادًا إلى اعتبارات المواطنة والوطنيّة ومصالح الشعب: فهو، على سبيل المثال، لم ينظر بعين الاحترام إلى عدد من رجال الدين الإسلامي كالبوطي وحسّون، ورفع في كلّ المناطق السوريّة شعاراتٍ وطنيّةً ترى الشعب السوريّ كلاً واحدًا موحّدًا. وإذا كانت هناك ملامةٌ للمتظاهرين على خروجهم من الجوامع أو على ترديدهم صيحات «الله أكبر» فإنّ هذا يحدث بسبب نظام القمع والقتل والاستبداد الذي يقوم بكلّ ما هو إجراميٌّ لمنعهم من الوجود في الساحات العامّة. ثم إنه ليس المطلوب بالتأكيد أن يردِّد المتظاهرون أثناء تشييع شهدائهم سمفونيّات بيتهوفن وموزارت!

لكن عندما نتحدث عن حركة شعبية على مدار أكثر من عام ونصف من الطبيعي أن يكون هناك تعديلات تصيبها في بنيتها وتوجهاتها، مصدرها إما ذاتي أو موضوعي بحكم الظروف السياسية والميدانية التي تحيط بها. فقد ساهم ارتفاع وتيرة عنف النظام وتجاوزه لكل الخطوط الحمر، ومحاولته إضفاء طابع طائفي لعنفه ضد المتظاهرين في ظهور ردات فعل لدى بعض الشرائح التي استجابت تحت سياط العنف للعبة النظام.

صحيح أن بعض أجزاء الحراك الشعبي بدأت تصدِّر خطاباً دينياً، لكن الصحيح أيضاً أنه عندما تترك شعباً ما وحيداً وأعزل تحت نيران نظام لا يرحم، ويحوِّل حياته كل يوم إلى جحيم، فإن هذا الشعب سيلجأ إلى ما يعينه على التحمل حسبما ورث من ثقافته، ولا يمكن هنا وضع الملامة على الشعب، كما لا يجوز النظر لهذا التغير في الخطاب على أنه غير قابل للتعديل في ظروف أخرى. ومن جانب آخر، لقد نمت توجهات الناس وقناعاتهم عموماً في ظل بيئة سياسية ـ ثقافية مسَيطَر عليها بشكل مطلق من النظام، فالنظام امتلك، لمدة

نصف قرن، الأرض السورية وما عليها، وأجهزة الدولة والجامعات والمدارس والإعلام والجوامع وغيرها، وبالتالي من البديهي أن يعود السوريون لثقافتهم الدينية دفاعاً عن أنفسهم، لكن على العموم هذا الدين الشعبي معتدل ومتسامح ولا علاقة له بالتطرف الديني.

هناك بعض القوى الدينية المتشددة، وهي قوى صغيرة الحجم، دخلت إلى الحراك الشعبي مؤخراً، وكلما تأخر العالم في مساعدة الشعب السوري على التخلص من النظام فإن تأثير هذه القوى سيزداد، خاصة في ظل المخزون المالي لدى هذه القوى وفقر القوى السياسية الديمقراطية، فهذه التيارات المتشددة تحاول الحصول على التأييد الشعبي بالاعتماد على عملها في الجانب الإغاثي الذي يحتاجه الشعب السوري اليوم.

السؤال الثالث: ما الذي سيحدث بعد سقوط النظام؟ هل تخشى من محاولة الإسلاميين إقامة دولة إسلامية و قمع النساء والأقليات إلخ.

ياسين الحاج صالح:

يتعلق الأمر بمتى يسقط النظام، اليوم، أم ربما بعد أن يدمر دمشق، كما دمر حلب وحمص ودير الزور؟ كلما طال الأمد بالحرب الأسدية، وسقطت أعداد أكبر من السوريين، وعم الدمار البلد، كانت أوضاع سورية بعد سقوط النظام أسوأ، وكان هذا أنسب للمجموعات الإسلامية الأكثر تشددا. في كل الثورات يشكل الموت والخراب الواسعين تربة مناسبة لصعود وجاذبية القوى الأكثر تطرفا. هذا ليس شيئا خاصا بسورية. لكن يرجح للتطرف أن يأخذ شكلا إسلاميا في سورية لأنه ما من عرض إيديولوجي وسياسي منافس، أو لأن هذا العرض ضعيف وغير متماسك ولا يستجيب لتطرف الأوضاع السورية، وكذلك لأن الصيغ المتشددة من التدين الإسلامي هي الأنسب كإيديولوجية قتالية في مجتمع تعرض لإفقار سياسي وثقافي مفرط.

ولا يشكو الإسلاميون من قلة الطموح السياسي. وليس هناك أي سبب لافترض أن يكون الإسلاميون السوريون مختلفين عن الإسلاميين التونسيين والمصريين في هذا الشأن، بخاصة أن شهداء الثورة السورية في أكثريتهم الساحقة من قاعدتهم الاجتماعية المفترضة، الأكثرية السنية. ونموذجهم ليس مما يجتذبني، لا على المستوى السياسي ولا على المستوى الاجتماعي. أنا في موقع الخصومة سلفا لهذا النموذج.

لكن اسمح لي أن أعبر عن شعور بالاشمئزاز من عبارة «قمع الأقليات، النساء الخ...» لأنها تبدو لي أشبه بكليشيه مكرور، استخدم كثيرا في صناعة السردية المضادة للإسلام، كمجتمعات وكدين، في الغرب في العشرين سنة الأخيرة. وقد اقترن غالبا بالتكتم على إشكال الاضطهاد الفظيعة الممارسة من قبل النظم القائمة أو التقليل من شأنها، أو بنسبتها هي ذاتها إلى «الإسلام»؛ ودوما برفض المقارنة مع مجتمعات وثقافات أخرى، وبرفض المنظور التاريخي في مقاربة الأمر، وبانعدام التعاطف، إن لم أقل بالتشفي والتحريض.

هذا ليس للقول إن «الإسلام»، والإسلام منزهان عن أشكال متنوعة من التمييز. في سياقات أخرى يمكن أن نتكلم كثيرا على ذلك.

بكر صدقي:

لا شيء يثير المخاوف أكثر من بقاء النظام الذي يشكل الخطر الأكبر على سوريا الكيان السياسي والاجتماعي. لقد خسرنا السيادة الوطنية تماماً في ظل حكم هذه الطغمة، ونكاد نخسر عوامل اللحمة الوطنية. تمكن النظام من تغذية النزعات الانفصالية لدى العلويين والكرد على الأقل. أضف إلى هذين المكونين منظمة الجيش الذي تحول إلى جيش احتلال خارجي. الخراب العمراني الهائل الذي خلفه القصف المدفعي والجوي في الأشهر الخمسة الأخيرة في المدن والريف يشكل صورة شفافة عن خراب النسيج الاجتماعي أيضاً. هذا هو الخطر الأعظم على سوريا.

لا يثير الإسلاميون لديَّ مخاوف كبيرة. هم قوة سياسية بين قوى أخرى. من حقهم العمل على مشروعهم الخاص الذي يعتقدون صلاحه. ربما من حسن حظ السوريين أن القوى الإسلامية التي صعدت إلى الحكم في تونس ومصر وبلدان أخرى، ستشكل مختبرات حية لمستقبلنا هنا إذا قيض للإسلاميين أن يحكمونا. ففي هذه الحالة سيواجهون تحديات الحكم في شروط العالم الحديث. إسلاميو سوريا سيواجهون تحديات أكبر بسبب التركيبة السكانية المعقدة في سوريا. فإما أن يعقلنوا إيديولوجيتهم تحت ضغط متطلبات الحكم، أو أن يتدهور نفوذهم الاجتماعي غير المضمون أصلاً.

حازم نهار:

هناك فرق كبير بين الكتلة الثورية والانتخابية، إذ رغم أن هناك بعض الأصوات في الحراك الشعبي ترفع شعارات إسلامية، إلا أنه ينبغي الانتباه إلى أن طبيعة الدولة لا تحدِّدها الكتلة الثورية فحسب، إنما الكتلة الانتخابية، أي مجموع المواطنين القادرين على الانتخاب، سواء كانوا مع الثورة أم لم يكونوا. وهذه الكتلة الانتخابية بحسابات بسيطة نكتشف أنها مع إقامة الدولة المدنية.

المجتمع السوري مجتمع متنوع إثنياً وطائفياً، وتشكل فيه الأقليات الدينية حوالي ٢٥٪ من التعداد السكاني، والأقليات القومية حوالي ١٠٪، وهذه جميعها لا تطمح لإقامة دولة دينية، كما يمكن القول أن الكتلة الدينية السنية الأكبر في المدن هي كتلة مدنية ديمقراطية. ولا نبالغ أيضاً إن قلنا إن المزاج العام لدى غالبية السوريين ينحو باتجاه إقامة دولة مدنية ديمقراطية، وإذا كان هناك بعض الأصوات الدينية المتشددة فإن مصدرها هو تأثير ظروف القتل الهمجي الذي يقوم به النظام على نفوس الناس. إذ إن المزاج الديني العام في سورية هو مزاج معتدل ومتسامح، وحتى التيارات الدينية القوية، كالإخوان المسلمين، هي في معظمها مع دولة المواطنة المتساوية.

على العموم، القضية الجوهرية في سورية ليست اختيارا أيديولوجياً بين الإسلام والبعث،

إنما هي بين الوقوف إلى جانب القاتل أو إلى جانب الضحية، ولا يجب أن يغيب عن أذهاننا أن النظام السياسي القائم يدعي العلمانية زوراً وبهتاناً، فهو يفتقد من حيث الجوهر إلى أهم أسس العلمانية وهي الحرية، المواطنة المتساوية، واستقلالية أجهزة الدولة عن النظام الحاكم وحزبه وأيديولوجيته.

السؤال الرابع: ما الذي يستطيع الغرب فعله؟ وما هي طبيعة المساعدة التي يحتاجها السوريون؟

ياسين الحاج صالح:

لو كنت سياسيا لقلت للساسة الغربيين: اخرسوا رجاء، وكفاكم غرورا وعجرفة! هذا ما أحب قوله لهم أيضا دون أن أكون سياسيا.

أكثر من ٦٠٠ يوم انقضت من ثورة السوريين وسقط ٣٥ ألفا على الأقل من الثائرين والسكان المدنيين، وهذا في عالم يتكلم أمثالكم ممن يحتلون مواقع مهيمنة في النظام العالمي كثيرا عن القانون وحكم القانون. وخلال ذلك لم تمدوا يد عون للسوريين، متذرعين مرة بغياب البديل، ومرة بعدم وحدة المعارضة، واليوم بوجود مجموعات جهادية. تركيزكم منصب دوما على النتائج وليس على الأسباب. تريدون بديلا جاهزا ناجزا في مجتمع تعرض للتفكيك وقطع أية رؤوس سياسة أو ثقافية مستقلة طوال نصف قرن؛ ثم تركزون، وتبالغون في التركيز، وأنتم المسيطرون على النظام الإعلامي الدولي، على ما هو نتاج جانبي للحرب الأسدية التي تجري أمام عيونكم، الجهاديين، كي تغطوا أنكم لا تفعلون شيئا، أو تفعلون فقط ما يكفي كي تطول المحنة السورية وتسقط سورية في لجة دمار لا ينتهي. ولا شك أن هذا ما يدخل السعادة على قلب «جهادييكم» الخاصين، المجموعات السياسية اليمينية ووسائل الإعلام اليمينية وحلفاء إسرائيل المتصلبين (هل بينكم من ليسوا حلفاء متصلبين لإسرائيل أصلا؟). لكن هل تعتقدون أنكم ستبقون في منأى عن نتائج ذلك؟ إذن فأنتم أغبياء، عدم المؤاخذة.

لا تفعلون شيئا لوقف قتل السوريين على يد نظام حرب مسلح، ولا تقدمون للسوريين سلاحا يدافعون فيه عن أنفسهم (وأنتم في قمة مصنعي السلاح ومصدريه في العالم)، ولا تسمحون لغيركم بأن يمدهم بسلاح دفاعي، ولا تسهمون حتى في إغاثة النازحين واللاجئين السوريين إلا بشح شديد، وأنتم أغنياء العالم، فماذا تريدون؟ ولماذا ينبغي لكلمتكم أن تكون مسموعة؟ وبأي حق يعطي أمثال كلنتون وكاميرون أنفسهم موقع الناصحين أو الموجهين، ويريدون فرض السياسات والخطط؟ ولماذا تتوقعون أن يكون لكم تأثير على سير الأحداث في سورية في اتجاه يناسبكم؟ علما أن أبرز أثر لسياستكم حتى اليوم هو ظهور وصعود الجهاديين. اخرسوا رجاء!

بكر صدقي:

الواقع أن بوصلة النظام الرادعة كانت دائماً غربية، وبالأخص أميركية. ما كان لحافظ أسد أن يجتاح لبنان في ١٩٧٦ إلا بموافقة أميركية، ولا أن يواصل وصايته عليه بعد ١٩٩١ إلا بموافقة أميركية، ولا أن يورث رئاسة سوريا لابنه بشار إلا بمباركة أميركية ـ أوروبية. كذلك سحب قواته من لبنان في ٢٠٠٥ بعدما قررت الولايات المتحدة وفرنسا طرده من هناك. واستعاد شيئاً من نفوذه في لبنان بعد حرب ٢٠٠٦ (كجزء من النفوذ الإيراني) في ظل السياسة الخارجية الأميركية التي رسمت في تقرير بيكر ـ هاملتون) القائمة أساساً على محاورة طهران ودمشق بدلاً من الصراع ضدهما.)

كان بوسع الولايات المتحدة أن تساعد على التعجيل في سقوط النظام لو أرادت ذلك، من غير أن تخوض حرباً ضده، الأمر الذي لم تطالب به مختلف قوى المعارضة السورية على أي حال، بخلاف المعارضة العراقية ضد نظام صدام التي طالبت بذلك صراحةً. منذ شهر آب ٢٠١١ طالب أوباما بشار الأسد بالرحيل، ولكن تبين فيما بعد أنه لم يكن جاداً في ندائه هذا بما يكفي لإقناع قاتل الأطفال السوري بالتنحي. ما زال بإمكان الولايات المتحدة أن توفر من دماء السوريين وأن تسرع في انهيار النظام إذا أرادت ذلك. ولن يكلفها الأمر تدخلاً عسكرياً مباشراً. النظام لا يفهم إلا لغة القوة، ويكفي التهديد بها لردعه عن مواصلة القتل والتدمير. ١٩ شهراً من حرب النظام على الشعب ولم تقم كلينتون بزيارة واحدة لدمشق كما فعل كولن باول في ٢٠٠٣. هذه هي «سياسة الانخراط» (على وصف تقرير بيكر ـ هاملتون) التي كان من شأنها تغيير وجهة الأحداث في سوريا. أعني الانخراط في التهديد الجدي الرادع، بدلاً من الانخراط في الحوار على ترتيبات القوة في الشرق الأوسط. ولكن ما هي مصلحة الولايات المتحدة في الضغط على النظام بما يكفي لإطاحته؟ هنا مربط الفرس.

حازم نهار:

لقد لعب الغرب دوراً سلبياً، ولم يتعامل بجدية مع الوضع في سورية، وظهر بمظهر غير المكترث لأرواح السوريين حتى اللحظة، ولم يسمع السوريون من قادته غير الدعوة إلى رحيل النظام، وبعد صمته لمدة عشرين شهراً أصبح يتخوف اليوم من الإسلاميين في سورية، وهو تخوف واهم أو يوضع كتبرير لتقاعسه عن القيام بدور إيجابي في حماية المدنيين السوريين، وينسى أن التأخر في معالجة الأزمة يسمح بنمو التطرف بشكل أو بآخر.

ولا ترتبط مسألة حماية المدنيين بالتدخل العسكري المباشر بالضرورة، لكن يمكن ترجمتها بطرق عديدة فيما لو توافرت الإرادة السياسية لدى الغرب.

على الغرب أن يقوم بتحديد موقفه بوضوح من النظام السوري: هل يريد فعلاً للنظام أن يرحل، فإذا كان كذلك يمكنه وضع برنامج لحماية المدنيين يأخذ خصوصية الوضع السوري في الاعتبار، كما يمكنه على الأقل تقديم المساعدة الإغاثية والطبية الكبيرة كجزء ضروري لدعم صمود الشعب السوري، وهذا ممكن إما مباشرة أو عبر الإفراج عن أموال النظام السوري

في الخارج وتسليمها للمنظمات السورية الإغاثية.

يضاف إلى ذلك إمكانية قيام الغرب بتبني برامج لتدريب الكوادر المدنية القادرة على تحمل مسؤوليات إدارة الدولة والمجتمع في المستقبل

باعتقادي هناك الكثير يمكن للغرب أن يقوم به، وهذا يحتاج أولاً إلى قرار سياسي واضح إلى جانب الشعب السوري بإسقاط النظام السوري.

اعداد وترجمة: عدي الزعبي

نشرت هذه المقابلة باللغة الإنكليزية في موقع «اوبن ديموكراسي» في ٢٩ تشرين الثاني ٢٠١٢

سياسة وادب

ميخائيل شيشكين: النظام الروسي مجرم... المسؤولون لصوص والتلفزيون الرسمي مومس!

انسحب ميخائيل شيشكين أحد أهم كتاب روسيا المعاصرين، من تمثيل روسيا في واحد من أهم الفعاليات الأدبية الكبيرة لأنه لا يريد ان يكون صوتا ل »بلد صادر فيه السلطة نظام اجرامي وتحولت الدولة فيه الى هرم من اللصوص».

شيشكين، الذي فاز بأهم ثلاث جوائز أدبية روسية بما فيها بوكر الروسية، والذي سبق له ان سافر مع الوكالة الفدرالية للصحافة والاعلام العام ليشارك ضمن وفد الكتاب الروس في معرض اكسبو اميريكا للكتب عام ٢٠١٢، رفض المشاركة مرة اخرى في معرض الكتاب نفسه لعام ٢٠١٣ بعد ان كان قد وافق مبدئيا على المشاركة، لكنه غير رايه لاحقا، «ليس لأن جدول اعمالي لا يسمح لي بالمشاركة، ولكن بسبب اعتبارات اخلاقية».

يقوم أدب ميخائيل شيشكين على تحديث الأدب الروسي الكلاسيكي. قال عن أعماله في حديث له: » انا لا اكتب روايات بل نصوصا اجيب فيها على اسئلة تهمني. أقول في رواية «سقوط قلعة اسماعيل» ان الحياة هي عدو يجب الاستيلاء عليه كما نستولي على القلاع، ثم اتضح لي في رواية «شعرة فينوس» ان روسيا هي بقعة صغيرة في ملكوت الله والعدو الرئيسي هو الزمن ويجب مواجهته وقهره. اما في رواية «مراسلات» فكنت اجيب اجابات اخرى عن تلك الأسئلة ومنها فكرة ان الموت ليس عدوا بل هبة وسعادة مثل الحب،

وانك في لحظة ما تدرك ان ظهورك في هذه الدنيا امتياز كبير يجب الاستمتاع بكل ثانية منه ولولا موت أقاربك لما فهمت الغاية من مجيئك الى الدنيا ومغزى وجودك فيها».

شيشكين من مواليد عام ١٩٦١ والده كان عسكريا بحارا شارك في الحرب العالمية الثانية وأمه مدرّسة اوكرانية كانت تعمل مديرة في مدرسة ثانوية في موسكو وقد اعفيت من منصبها بعد اقامتها امسية ادبية عن الشاعر الطليعي فلاديمير فيسوتسكي.

درس شيشكين الانكليزية والالمانية وبعد تخرجه عمل زبالا وعامل طرقات وصحافيا ومدرسا ومترجما.

يقيم الكاتب في زيوريخ السويسرية بعد ان هاجر من روسيا عام ١٩٩٥ واشتهر بعد نشره في روسيا قصته الأولى «درس في الخط» ثم نشر روايته الأولى «ليلة واحدة تنتظر الجميع» عام ١٩٩٣، ثم روايته «سقوط قلعة اسماعيل» التي يحكي فيها قصة محام يبرئ أما قتلت طفلها فتقوم بصفعه، وقد فازت الرواية بجائزة بوكر الروسية، كما فازت روايته الاخرى «شعرة فينوس» على جائزتي «الكتاب الكبير» و«الكتاب الروسي الأكثر قراءة» وهذه الرواية تحكي قصة مترجم في السفارة الروسية يتعامل مع اللاجئين من روسيا الذين يختلق كل واحد منهم حكايات ليحصل على حق اللجوء السياسي في سويسرا حيث يقوم المترجم بمساعدة اللاجئين على اختلاق قصص مقنعة للسلطات بحيث تمنحهم اللجوء.

روايته الأخيرة «مراسلات» فازت ايضا بجائزة «الكتاب الكبير» عام ٢٠١١ وتتصاعد مجريات الرواية مع مراسلات تتجاوز الزمن بين شاب شارك في حرب روسيا والصين عام ١٩٠٠ وعشيقة له تعيش في عالم اليوم بحيث تسائل الرواية قوانين الزمن بحيث تحوّل الموت الى صديق لا عدو.

إحدى أفكار شيشكين الأساسية في رواياته ان الانسان حين يكتب الكلمات يخلق عوالم جديدة لا يصيبها الهلاك وبذلك تكون الكلمة هي أساس الكينونة البشرية.

أعمال شيشكين ترجمت الى اكثر من عشر لغات وقد أثنى نقاد كثيرون على أسلوبه في النثر فاعتبره احدهم انه يصل بين اساليب كتاب كبار مثل تولستوي ودستويفسكي بتقاليد بوشكين»، وأنه «ان شيشكين يتعامل مع مواضيع عالمية مثل الموت، القيامة والحب» (ف. سونكين، ملحق التايمز الادبي، ٨ / ١٠ / ٢٠١٠) كما تمت مقارنته بكتاب روس وعالميين مثل انطون تشيخوف وفلاديمير نابوكوف وجيمس جويس، وقد أقر شيشكين بتأثره بكتاب مثل تشيكوف وتولستوي وايفان بونين قائلا: «بونين علمني ان لا أقبل الحلول الوسط، وأن أؤمن بنفسي، اما تشيكوف فأورثني حسه الانساني وبأنه لا يمكن ان يكون هناك شخصية سلبية مطلقة في نصك. ومن تولستوي تعلمت ان لا أخاف من كوني ساذجا» (فيليب تابلين، «روسيا وراء المانشيتات»، ٩ / ١ / ٢٠١٢).

رفض شيشكين لتمثيل روسيا في معرض اكسبو امريكا ٢٠١٣ أدى لموجة من ردود الفعل السياسية والأدبية في روسيا. ها هنا ترجمة لرسالته الشهيرة:

الوكالة الفيدرالية للصحافة والاتصال الجماهيري
والمكتب الدولي لمركز بوريس يلتسين الرئاسي
٢٧ شباط، ٢٠١٣

السادة الأعزاء

شكرا لكم على دعوتكم لي للمشاركة في فعاليات الوفد الروسي الى «بوك اكسبو امريكا ٢٠١٣»، معرض الكتب الدولي في نيويورك الذي سيعقد بين ايار ٣٠ الى ١ حزيران من هذا العام.

اتفهم أهمية مشاركة كاتب في هذا النوع من معارض الكتب للترويج لكتبه في امريكا وبلدان أخرى. هذه فرصة فريدة للتواصل مع الناشرين والقراء الأمريكيين، حيث ان سوق كتب اللغة الانكليزية ما تزال مغلقة عمليا امام كتاب من بلدان مثل روسيا. خصوصا ان نفقات السفر والاقامة في الولايات المتحدة (وهذه ليست نفقات قليلة) يتكفل بها الطرف الروسي.

على الرغم من ذلك، فانني أرفض دعوتكم. ليس بسبب ان «جدول اعمالي لا يسمح لي» ولكن لاعتبارات اخلاقية.

لقد وافقت على عروض مشابهة منكم عدة مرات في الماضي وقد شاركت في معارض كتب دولية كعضو في وفد الكتاب الروس، لكن الأوضاع في السنة الأخيرة قد تغيرت.

في اي بلد يحترم نفسه، تقوم الدولة، من خلال مؤسسات ومنظمات متعددة، بدعم تطور كتابها في الخارج، وتدفع لترجمة اعمالهم، وتدعو كتابا للمشاركة في معارض كتب دولية، وما الى ذلك. على سبيل المثال، في النرويج يتم ذلك عبر مؤسسة «نورلا»؛ في سويسرا، يتم عبر «برو هيلفيتيا». من الطبيعي، انه بالمشاركة في وفد رسمي، لا يمثل الكاتب نفسه وكتبه فحسب ولكن يمثل ايضا البلاد والدولة.

تطور روسيا السياسي، واحداث العام الماضي تحديدا، خلقت وضعية غير مقبولة ومهينة لشعبها وثقافته العظيمة. ما يحصل في بلادي يشعرني، كروسي وكمواطن من روسيا، بالعار. وفي المشاركة في معرض الكتاب كعضو في الوفد الرسمي وبالاستفادة من ميزات الفرص المعروضة لي ككاتب، فانني في الوقت نفسه أحمل مسؤوليات كوني ممثلا للدولة التي اعتبر سياستها مهلكة للبلاد ولنظام رسمي أرفضه.

ان بلادا استلم السلطات فيها نظام اجرامي، وحيث الدولة فيها هرم من اللصوص، وحيث تحولت الانتخابات الى مهزلة، وحيث المحاكم تخدم السلطة وليس القانون، حيث

هناك سجناء سياسيون، وحيث تحول التلفزيون الرسمي الى مومس، وحيث يمكن لقطعان من الدجالين ان يمرروا قوانين تعيدنا الى القرون الوسطى ـ هذه البلاد لا يمكن ان تكون روسيا.
لا يمكنني ولا اريد ان اشارك في وفد رسمي روسي يقوم بتمثيل روسيا تلك.

سوف أمثل، وأريد أن أمثل روسيا أخرى، روسياي، البلد الحر من الدجالين، بلاد لديها بنية دولة تدافع عن حرية الفرد، وليس حرية الفساد، بلاد ذات إعلام حرّ، وانتخابات حرة، وشعب حرّ.

من الطبيعي ان يكون هذا قراري الشخصي ولم أقم باستشارة كتاب آخرين مدعوّين الى نيويورك؛ كل كاتب منهم حر بالتصرف بناء على قناعاته واخلاقياته ومسؤولياته.

مع الاحترام
ميخائيل شيشكين

اعداد وترجمة:
حسام الدين محمد

لغة

أبجدية رائعة مع بعض الثغرات

رفيق شامي

لو سألت عربيين عن عدد حروف الأبجدية العربية فإن من المؤكد أن أحدهما سيجيب: «ثمانية وعشرون حرفاً بالطبع» ويجيب الثاني ـ حائراً أمام السائل الغريب ـ هامساً ومخالفاً للأول: «لا، بل هي تسعة وعشرون حرفاً، أنا متأكد يا سيديَ».

تضارب الجواب وعدم دقته يوقع السائل في حيرة، فالسؤال ليس حول عدد رموز اللغة الصينية التي يحتاجها أديب صيني متمكن من هذه اللغة والتي تتراوح بين ٢٠٠٠ و٥٠٠٠ رمز.

حتى في عام ٢٠٠٩ ستجد هذين العددين ٢٨ و٢٩ في أغلب كتب تعلم اللغة العربية والخط العربي، وكذا في صفحات الإنترنت وفي ذاكرة كل العرب.

ا ب ت ث ج ح خ د ذ ر
ز س ش ص ض ط ظ
ع غ ف ق ك ل م ن و
ه لا ء ي

خط نسخ

ا – ب – ت – ث – ج – ح – خ – چ
– د – ذ – ر – ز – س – ش – ص –
ض – ط – ظ – ع – غ – ڠ – ف –
ڤ – ق – ك – ڬ – ل – م – ن – و – ۏ
– ه – لا – ء – ي – ڽ – ى

أمثلة حديثة



وحديثة جدا على التمسك بما يسمى خطأ حرف لا.

ولكن من أين أتى هذا الاختلاف؟

تمتلك الأبجدية العربية ثمانية وعشرين حرفاً والحرف التاسع والعشرين هو «لا». هذا «الحرف» ليس حرفا بل كلمة (تدعى رسمياً أداة) تتألف من حرفين هما: «اللام» و«الألف»، وتستعمل هذه الكلمة كأداة نفي أو نهي.

أحرف الألفباء أو الأبجدية العربية:

أ ب ت ث ج ح خ د ذ
ر ز س ش ص ض ط ظ
ع غ ف ق ك ل م ن ه و لا ي

لوحة بالأحرف العربية كما سادت خطأ لقرون

الملاحظ بأن الحرف ما قبل الأخير ليس بحرف، فهو يتألف من الحرف الأول في الأبجدية «ألف» (الحرف الأول من السطر الأول) والـ«لام» (الحرف السادس من اليمين في السطر الثالث في اللوحة أعلاه).

ولكن كيف قبل ملايين العرب ـ بمن فيهم الأدباء والفلاسفة وعلماء اللغة من الأحرار والمتمردين، من مصلحين ومتزمتين لغويين مثل هذا الخطأ الفادح؟ كيف تعامى هؤلاء الذين يتناقشون أحياناً ويتشاجرون شهورا إن لم نقل سنينا طوالا حول شكل من أشكال الشعر أو تصريف فعل من الأفعال عن أبجدية تعلّمتها أجيال من تلاميذ العربية تتكرر فيها الأحرف؟ كيف يمكن لكل هؤلاء الذين لا يرحمون شاعرا غرق في بحر شعره، ويستلون سكاكين نقدهم الساخرة لينهالوا بها على خصمهم الذي تاه بين فاعل ومفعول به وكأنه مجرم حرب، أو يسخرون من أحدهم لأنه ضل طريقه في متاهات كان وأخواتها وإن وخالاتها. كيف كان لهم أن يتعاموا عن حاجات أبجديتهم الملحة للإصلاح؟ كيف خفي عن ناظرهم أن أبجديتهم المحبوبة تعاني من نقص؟ أو أن يصمتوا لهذا النقص أو الشائبة التي ألمت بأحرفهم وهي حجر الأساس في كل فكرة من أفكارهم لأكثر من ألف سنة؟

الجواب على هذا السؤال له علاقة بتاريخ هذا الحرف وبالمجتمع العربي نفسه، وقد روي الكثير من الأساطير حول حرف الـ«لا». وأنا أسميها أسطورة لأن إسنادها ضعيف، ولم ترد في أي من كتب الحديث الموثوقة. من النوادر الأكثر شهرة والتي تُروى في هذا السياق، أن

أبا ذر الغفاري سأل النبي العربي :

« يا رسول الله كل نبي مرسل بم يُرسل؟ قال : بكتاب منزل، قلت : يا رسول الله، أي كتاب أنزل على آدم؟ قال : أ ب ت ج . . إلى آخره قلت يا رسول الله، كم حرف؟ قال تسعة وعشرون . قلت : يا رسول الله، عددت ثمانية وعشرين . فغضب رسول الله حتى احمرّت عيناه ثم قال : يا أبا ذر، والذي بعثني بالحق نبياً ما أنزل الله تعالى على آدم إلا تسعة وعشرين حرفاً . قلت : يا رسول الله، فيها ألف ولام؟ فقال عليه السلام : لام ألف حرف واحد أنزله على آدم في صحيفة واحدة ومعه سبعون ألف ملك، من خالف لام ألف فقد كفر بما أنزل على آدم، ومن لم يعد لام ألف فهو بريء مني وأنا بريء منه، ومن لا يؤمن بالحروف وهي تسعة وعشرون حرفاً لا يخرج من النار أبداً » .

النص هذا يخالف أولاً كل المعلومات الوثيقة عن النبي العربي بتسامحه الكبير في كل شؤون اللغة . أليس من الغريب أن يصدر عن النبي الوعيد والتهديد بالنار الأبدية من أجل حرف مركب، وللمرة الوحيدة وبمناسبة لا تستدعي هذا الغضب أو العنف؟

أليس من الغريب ثانياً أن يزعم أبو ذر الغفاري، وهو المؤمن الثوري النقي والذكي أنه عدّ ثمانية وعشرين حرفاً ثم يقرّ أنها كانت تسعة وعشرين؟

وثالثاً هناك خطأ كبير يهدم مصداقية هذه الرواية أن النبي العربي قال : « أ ب ت ج » وهذا ترتيب للأحرف نظمه لأول مرة نصر بن عاصم الليثي في عام ٩٠ للهجرة!

أليس من الواضح الجلي أن من اخترع هذا الخبر المضحك هو من نفس طينة من يدعي اليوم أن اللغة العربية ليست مقدسة فحسب لأن القرآن كتب بها، بل هي مقدسة هكذا دون كل اللغات من أيام آدم وحتى القيامة . مقدسة بإعجازها وعصمتها عن الخطأ لمصدرها الإلهي وهي لغة الجنة! أي أن اللغة العربية لم يطورها ويخترعها الإنسان، بل نزلت كما هي من السماء على عكس كل لغات العالم التي تعد أكثر من ٦٠٠٠ لغة . وسنعود لتبيان الحقيقة في مصدر اللغة بعد قليل . لكن الأهم الآن النظر إلى ما نتج عن هكذا تصور .

لنفرض أن الحديث صحيح، فهل كان أبو ذر الرجل الوحيد بين صحابة وأتباع النبي العربي الذين علموا علم اليقين أن النبي، كإنسان عظيم، يظل إنساناً كما قال النبي في أكثر من مناسبة حين غضب وشتم من أغضبه ليعود بتواضع مذهل، لا يمكن إلا للعظماء أن يتحلوا به، وليستغفر الله عما قاله ويؤكد أنه إنسان .

إذا كان ذلك صحيحاً فلماذا صمت آلاف الخبراء عبر القرون عن خطأ كهذا؟ وعلموا أطفالهم أبجدية بخطأ واضح للعيان . وهي بالتالي الأبجدية الوحيدة في العالم التي تحتوي على حروف مكررة . ما سبب صمت آلاف العلماء والكثير ممن كان يجيد القراءة ويحب اللغة والكتابة آلاف السنين؟

تحول بعض التفاسير العرب إلى شعب من الرهبان القديسين، لطيف، مؤمن، حساس يخشى أن يدوس على ذبابة لكي لا يقطع رزق أولادها، ويطيع الرسول في كل ما يقوله .

الحقيقة التاريخية تقول غير ذلك. الشعب العربي ليس أفضل ولا أسوأ من الشعوب الثانية. ولذلك لا أعتقد أنهم لم يصلحوا اللغة حرصا منهم ألا يخالفوا نبيهم.

وكبرهان لغوي أدبي أسأل قرائي وقارئاتي: هل انتقد الرسول العربي مهنة أكثر من صنعة الشعراء؟

ألم يخصّ القرآن الكريم الشعراء بسورة خاصة (السورة ٢٦) تظهر بما لا يدع مكانا للشك ازدراء إلهياً للشعراء: «(٢٢١) هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ (٢٢٢) تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (٢٢٣) يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ (٢٢٤) وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ (٢٢٥) أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ (٢٢٦) وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ».

ألم تؤكد الآية القرآنية ٦٨ من سورة يس على تضاد كلي بين ما يقوله النبي وبين الشعر وتبرئته منه وكأن الشعر إثم: «وما علّمْنَاهُ الشّعرَ وما ينبغي لهُ إن هوَ إلا ذكرٌ وقرآنٌ مبينْ».

من حديث للرسول قوله عندما سمع شاعراً: «لأن يمتلئ جوف الرجل قَيحاً يُريه خير من أن يمتلئ شعراً» رواه الكثيرون.

وقد قيل الكثير في القديم والحديث لتخفيف وقع هذه الصفعة للشعراء. قيل إن الآية نزلت خصيصاً ضد الشعراء الذين ناصبوا النبي العربي العداء في مكة. وكان الشعراء آنذاك بالفعل أبواق دعاية الأقوياء (ولا زال أغلبُهم في بلادنا على هذه العادة النجسة). وقد ضايقوا النبي العربي مثل أمية بن أبي السلط، لذلك كان لا بد من مواجهتهم وقيل أن النبي أهدر دم الشاعر كعب بن زهير، وقيل أيضا أنه أمر بقتله. وكان كعب قد تمادى في شعره البذيء على نساء المسلمين ونبيهم. وأهدر النبي دم عدة شعراء وأمر بقتلهم لأنهم هجوه وهجوا الإسلام بصفاقة ومنهم الشاعر أبو عفك والشاعرة عصماء بنت مروان والشاعر عبد الله الأدرمي وغيرهم.

لكن النبي العربي، بتسامحه، وحكمته، عفى عن كل من أظهر التوبة عما قاله ووعد ألا يعود لسابقاته، وهناك أمثلة عديدة على ذلك، نورد منها قصة إسلام كعب بن زهير وهو شاعر مخضرم وإبن الشاعر الشهير زهير بن أبي سلمى وكان قد هجا الإسلام فأهدر النبي دمه فأتي الشاعر يطلب الرحمة من النبي وألقى «لاميته» الشهيرة:

بانت سعادُ فقلبي اليومَ متبولُ
متيّمٌ إثرها لم يفدَ مكبولُ
نبّئتُ أنّ رسول الله أوعدني
والعفوُ عندَ رسول اللهِ مأمولُ

وقد سر النبي العربي أيما سرور وعفى عن كعب وزاد في ذلك فخلع عليه بردته ولذلك سميت هذه القصيدة «البردة».

أحب النبي شعر حسان بن ثابت الذي مدح فيه النبي وذم أعداءه كما رثى موتى المسلمين. وتقدم ليصبح شاعر الدعوة الإسلامية وكان النبي يزيد من عزمه على المضي قدما.

وهكذا لا يصح تبسيط موقف الإسلام من الشعر إلى أحادية رفضه بل إن الصورة الحقيقية معقدة ويصلح وصفها بمصداقية كما يلي: أن النبي العربي وعلماء الإسلام الأوائل قبلوا الشعر المؤمن الذي يساهم في انتشار الإسلام وفضائله ورفضوا كل شعر آخر يعنى بالخمر وبالفسق والمجون وملذات الحياة والعشق والحرمان من الحبيب والكفر بالدين والخالق ومدح الخلفاء والأغنياء بدجل ورياء وذم الآخرين ببذاءة ما بعدها بذاءة... إلخ. لكن هذا الممنوع يشكل بالتأكيد محتوى ٩٥٪ من الشعر العربي إن لم يكن أكثر. ما يهمني في الموضوع أن هذا الشعر غير المستحب لا من النبي العربي ولا من شرعه أخذ موقع الصدارة في الأدب العربي منذ العهد الأموي وحتى يومنا. فأين كان هؤلاء المؤمنون المهذبون كالرهبان عندما كان الخلفاء يمنحون آلاف الدنانير (وهم بحاضرهم لا يزالون يفعلون ذلك ولكن بالدولار لأن بعض الشعراء العرب لا ثقة لهم كأسيادهم بالعملة العربية) لقصائد تافهة منافية لكل ما نصه الإسلام؟ ولماذا تصدر الشعر القمة الأعلى في هرم شعبية ما يقال وما يكتب بالعربية؟

من هذا كله تتبين هشاشة الاختباء وراء حديث منسوب وغير مسنود للنبي العربي عن الأبجدية التي لم تؤذ مسلماً ولا نصرانياً ولا يهودياً.

لكن لنترك هذا التهويل السلفي ولنسأل بمزيد من الإلحاح. لماذا لم يلتفت الأولون لقدسية اللغة العربية ولا للحظة واحدة واجتهدوا لتطويرها بسرعة وتواتر فائقين أثناء القرنين الأولين لنهضة الإسلام وضبطوا كل شاردة وواردة فيها بقاعدة اخترعوها دون أن تكون آنذاك مقدسة ثم توقف تطورها ومنع إصلاحها لا بل مسها منذ بدء انحطاط الثقافة العربية لمدة تقارب الألف سنة؟ نعم، حُنِطَت اللغة بتقديسها ولم تنعم بأي إصلاح كذلك الذي قام به العبقري الخليل بن أحمد الفراهيدي.

وبالمناسبة، فلقد حدد الفراهيدي وفيما بعد تلميذه العلامة الكبير الشهير سيبويه (٧٥٦- ٧٩٦) عدد أحرف الأبجدية بتسعة وعشرين حرفاً وهي الثمانية وعشرون التي نعرفها وأضاف إليها الهمزة معتبراً إياها حرفاً كاملاً وتبعه تلميذه العبقري سيبويه في الإصرار على أن الهمزة حرف مستقل على عكس العلامة المبرد الذي اعتبر عدد الأحرف ثمانية وعشرين حرفا لا غير. وقد أكد العلامة اللغوي أحمد بن فارس (توفى عام ٣٩٥ هـ/ ١٠٠٥ م) صاحب معجم «المقاييس» أن عدد الأحرف ٢٨ حرفا.

كل هؤلاء العباقرة الذين تدين لهم العربية بالفضل لم يأخذوا ما يسمى حرف «لا» بعين الاعتبار.

ترتيب الحروف واليقين بالحاجة لحروف أكثر

من يبحث في أصول اللغة وقواعدها يكتشف شيئاً جميلاً ألا وهو الجو الجميل المعطاء الذي ساد أيام النهضة العربية وسمح لهؤلاء العلماء جميعاً بنقاش أمور لغتهم الأساسية دون أن يتهمهم أحد بالكفر. كان كل شيء موضوع على بساط البحث والجدل، حتى ترتيب

الحروف لم يكن بديهياً.

كان الخليل بن أحمد الفراهيدي السباق إلى تدوين اللغة وترتيب ألفاظها على مخارج الحروف بحسب نطقها، وكانت الأبجدية المتعارف عليها آنذاك هي أبجدية بثمانية وعشرين حرفا لحساب الجمل: أبجد، هوز، حطي كلمن، سعفص، قرشت، ثخذ، ضظغ.... لكن الفراهيدي رتب الحروف ابتداء من حرف (العين) الذي ولع به لأنه يصدر من أعمق وأقصى نقطة في الحلق وبعد هذا الحرف رتب الأحرف حسب مخرجها ونطقها من الحلق تدريجيا إلى أن وصلَ إلى الحروف التي تصدر عن الشفاه. وقد سمى الخليل كتابه هذا باسم أول حرف اعتمده، «كتاب العين». وحسب علي القاسمي يعتبر معجم «كتاب العين» (القرن الثاني هجري الثامن ميلادي) أول معجم عربي. ولا يزال إلى اليوم قدوة لمن يعمل.

هذا الكتاب بني على أساس صوتي، لذلك يعد الفراهيدي أول من قدم دراسة صوتية منظمة في تاريخ الفكر اللغوي عند العرب، ولا عجب في ذلك لأن الخليل هو صاحب علم العروض وله باع طويل في الموسيقى، فهو يعد أول من تذوق الحروف سماعاً ليتعرف على مخارجها. وقد جاء بعده من حذا حذوه. لكن سيبويه لم يتبع في ترتيب حروف الأبجدية معلمه. أبجديته بدأت بالهمزة وانتهت بالواو:

ء. ا. هـ. ع. ح. غ. خ.ك. ق. ض. ج. ش. ي. ل. ر. ن. ط. د. ت. ص. ز. س. ظ. ذ. ث. ف. ب. م. و

وقد لاحظ الأقدمون (سيبويه، الجواليقي، الأصمعي إلخ) الحاجة الماسة لأحرف جديدة للتعبير عما يعرب من ألفاظ أجنبية تحتوي على حروف لا يقابلها ما يساويها في العربية. ولم يخفَ عن هؤلاء أن الكثير من المصطلحات العربية ينحدر من أصول أكادية، آرامية وعبرية وفارسية وهذه اللغات بدورها اشتقت الكثير من العربية سالفاً ولاحقاً، وهذا لأن العرب قبل وبعد ظهور الإسلام كانوا على علاقة وطيدة بجوارهم في حوض البحر الأبيض المتوسط وحتى أعماق إيران والهند وجنوب أوروبا وإفريقيا. وقد قام أحد الباحثين بتحليل نص عربي بحوالي ١٠٠٠ صفحة من القرن التاسع فوجد فيه ٢٢٦ مصطلحاً من أصل أجنبي تتوزع على اللغات التالية ٨٤ آرامية، ٤٢ إيرانية، ٢٩ يونانية، ٢٢ إثيوبية، ٢٢ أكادية، ١٤ عبرية، ٤ عربية جنوبية، ٤ لاتينية، ٣ هندية، وواحدة قبطية.

هذا الاختلاط مع الثقافات الأخرى كان أخذاً وعطاء، لذلك أضاف سيبويه إلى الأبجدية ستة حروف لتصبح أكثر قدرة على احتواء المفردات الجديدة، فصار عدد الأحرف خمسةً وثلاثين حرفاً، وهذه الستة هي فروعٌ من التسعة والعشرين، وهي كثيرةٌ يؤخذ بها وتستحسن في قراءة القرآن والأشعار، فلها وجود في القراءات القرآنية والشعر مما يكسبها صفة الفصاحة وهي: النون الخفيفة، والهمزة التي بين بين، والألف التي تمال إمالة شديدة، والشين التي كالجيم، والصاد التي تكون كالزاي، وألف التفخيم.

ثم أضاف إليها حروفاً ثمانيةً يصفها بأنها غيرُ مستحسنةٍ ولا كثيرةٍ في لغةِ من لا ترتضى

عربيته، ولا تستحسن في قراءة القرآن ولا في الشعر بل وضعت لتحيط باللهجات المحلية المعروفة آنذاك، ولا يزال كثير من اللهجات العربية اليوم تستعمل هذه الأحرف بتحويل القاف مثلا إلى ما يقارب الألف (في عامية دمشق آضي بدل قاضي، آل بدل قال . . . إلخ) أو الجيم المصرية (أيضا في عامية جنوب سوريا وحوران) . وهذه الفروع هي :

من يبحث في أصول اللغة وقواعدها يكتشف شيئاً جميلاً ألا وهو الجو الجميل المعطاء الذي ساد أيام النهضة العربية وسمح لهؤلاء العلماء جميعاً، نقاش أمور لغتهم الأساسية دون أن يتهمهم أحد بالكفر. كان كل شيء موضوع على بساط البحث والجدل، حتى ترتيب الحروف لم يكن بديهياً.

لكن سيبويه لم يكتب صيغة أو شكلاً لهذه الأحرف والأصوات لأنها ليست فصيحة وقد ذكر في المقدمة بعد تحديد عددها أنها لا تعرف إلا بالمشافهة فالحرف عاجز عن إيصال حقيقتها للقارئ.

وقد حدد العلامة الكبير أبو القاسم الزمخشري (١٠٧٤-١١٤٣) في كتابه « المفصل في صنعة الإعراب » عدد الأحرف العربية بثلاثة وأربعين حرفاً . وقسمها كسابقيه من العلماء بين حروف الأصول (٢٨ + الهمزة) وستة حروف متفرعة لأصوات مقبولة وفصيحة كما يقول الزمخشري ووصف بقية الأحرف (ثمانية) بأنها مستهجنة ٨ .

. . . .

وسنأتي بالتفصيل على ما ينقص الحروف العربية وعن محاولات إصلاحها الطيبة والسيئة النية، ونقدم اقتراحاً لإمكانية سد ثغرات الأبجدية العربية وتحديثها ودون تغيير شكل الحروف الحالية ودون المساس بالقرآن الكريم، لتكفي متطلبات العصر الحديث وتصبح قادرة على صياغة كل الكلمات دون اللجوء إلى فتح قوس وكتابة الإسم باللاتيني لعجز حروف العربية الحالية عن القيام بهذه المهمة.

فصل من كتاب «قرعة جرس لكائن جميل»، منشورات الجمل، ينشر بالاتفاق مع دار النشر والكاتب

هوامش

القلقشندي، صبح الأعشى، المطبعة الأميرية، القاهرة، ج ٣، ص. ١١ .

٢ سنن أبي داوود، سنن إبن ماجه، سنن الترمذي، صحيح البخاري وصحيح ومسلم

٣ وقصة هذا الشاعر مأساة تراجيدية من العيار الثقيل ولست أدري لماذا لم يتناولها مسرحنا حتى اليوم. كان أمية شاعرا فذا وكان حنفيا موحدا عاصر الرسول العربي وحسده لأنه على ما يبدو إنتظر عشرات السنين ليكون هو نبي شبه الجزيرة، ويأس من أن النبي أتى في قريش، فحقد وذم النبي ومدح خصومه ورثى قتلاهم في موقعة بدر. ويكفي المرء قراءة شعره ليتبين مدى خطورة هذا الشعر الفذ وإقترابه من مشارف الدعوة لدين جديد. كان لأمية أتباع ومؤيديين في كل أنحاء الجزيرة العربية، ويقال أنه أول

من إخترع لفظة «اللهم» والتي أخذ بها العرب فيما بعد. وان النبي العربي قال عندما سمع بعض شعره الديني: كاد ليسلم، أو كاد ليسلم في شعره. وفي حديث للنبي العربي قال: آمن شعره وكفر قلبه، أو آمن لسانه وكفر قلبه. وهو حيث مسند بشكل جيد.
بالغ بعض المستشرقين بخبث متعمد بدور أمية وتأثيره على صياغة القرآن وقد دحض باحثون ومفكرون عرب وأوروبيون هذا القول المغرض الذي يهدف الإساءة للإسلام. أنظر البحث الرائع عن أمية بن أبي السلط ومأساته وملابسات منع أشعاره وتأييد بعضها من قبل الرسول العربي في موسوعة جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، بيروت وبغداد ١٩٩٣، ج٦، ص. ٤٧٦ - ٤٩٦
٤ توفى فقيرا معدماً عام ٧٨٩ م. وكم يسرني اليوم أن ارى أن باحثة ومفكرة كبيرة كالسيدة يسرى عبد الغني عبدالله تهدي كتابها الكبير «معجم المعاجم العربية» الصادر في بيروت عام ١٩٩١ إلى الخليل بن أحمد الفراهيدي بكلمات تدخل العقل والقلب بدون إذن. تقول: «رجل أعطى الكثير، ما أجدرنا أن نعطيه حقه إحتراما وتقديراً.» وللكاتبة أبحاث مهمة في صلب الثقافة العربية، وهي لا تملك فقط قدرة كبيرة على البحث المثابر والهادئ ولغة جميلة بل شجاعة تدهش أشجع الرجال
٥ ابن فارس الصاحبي، أحمد، دار الكتب العلمية، لبنان ١٩٩٧، ص. ٦٣
٦ القاسمي، علي، مجلة اللسان العربية العدد ٤٦ ص. ٥٨
٧ فيشر، فولف ديتريش، الأساس في فقه اللغة العربية، ترجمة سعيد بحيري، مؤسسة المختار، القاهرة ٢٠٠١، ص. ٢٨-٣٩
٨ الزمخشري، ابو القاسم محمود بن عمر،المفصل في علم العربية، دار الجيل، بيروت بدون تاريخ، ص. ٣٩٤ يُسمى الكتاب هكذا في دار النشر هذه وهو صورة لطبعة قديمة بعنوان يختلف قليلا: «المفصل في صنعة الإعراب» وقد صدرت نسخ عديدة الكترونية (يمكن تحميلها) وككتاب. واحد في دار ومكتبة الهلال، بيروت، ١٩٩٣) وطبعة ثانية بغلاف أرخص من ذات الدار (٢٠٠٣)، وآخر عن دار الكتب العلمية (١٩٩٩) ونسخة حديثة عن مكتبة الآداب للطباعة والنشر (٢٠٠٦) وما هذا التراكم إلا دليل على رواج كتاب الزمخشري وفوضوية السوق العربية للكتاب وإهمالها لأقل حد من التنسيق.

المحكيّات والفصحى

عادل بشتاوي

الأصل في الكلام النطق لا الكتابة، وأساس الكلام المحكيّات لا الفصحى التي ابتكرها، كما يبدو، كتبة الملوك والكهنة والشعراء، وغيرهم. ويمكن تحديد بعض الكلام الذي يرجّح البعض ابتكاره أول زمان النطق، فهو كلام الحاجة. ويمكن استعراض المنحوتات البسيطة التي عُثر عليها صدفة في موقع المچر، جنوب غربي جزيرة العرب، وتفحّص بقايا عظام السمك والطيور والحيوانات في الموقع، والاستنتاج أنها كانت بقايا ما أكله أهل الموقع قبل ألوف السنين.

ويمكن أن يسأل المرء نفسه، أو الآخرين، من أين جاءت محكيّات العرب؟، ويمكن أن يسأل نفسه والآخرين من أين جاء الكلام؟ وتبدو الاجابة بسيطة فلا يشترط إثبات وجود هذه الحيوانات اكتشاف منحوتاتها لأن الناس يعرفونها في كلامهم، ولو لم تكن لفظاتهم لما كان في الكلام اليوم أسماء الجمل والعنز والثعبان والظليم والأيل والسمك، وغيرها العشرات. ولو لم يكن معظم هذه الحيوانات في البيئات التي عاش فيها الناس قبل ألوف السنين لما ابتكر الناس اللفظات التي دلّت عليها.

وقول البعض إن اللغة نظام حي يتطور باستمرار صحيح، لكن الانسان في بيئته الطبيعية لم يبتكر كلاماً للدلالة على أشياء أو حيوانات لا يعرفها في البيئة، أي انّ كلامه واقعي عموماً. ومن يفكّر بالكلام الذي يسمعه اليوم ربما اكتشف أنه خليط من كلام الأزمان كلها،

فعلى الألسنة بعض النوى اللغوية التي ابتكرها أهل الزمان الأول في العصر الحجري، وهي النوى على ألسنة الناطقين بالعربية في القرن الحادي والعشرين، كما هي، أو في اشتقاقاتها.

ويستطيع الباحث في محكيّات العرب الاستنتاج أن محكيّة الشام غير محكيّة مصر ومحكيّة مصر غير محكيّة المغرب ومحكيّة تونس غير محكيّة اليمن، فهذا يقول «تم (فم)» وهذا يقول «بؤ»، وهذا يقول «مرّة» والآخر «كثير» والثالث «برشة»، وذاك يقول «شلونك» والثاني «أزّيك»، وهكذا. ويستطيع الباحث نفسه الاستنتاج أن مظاهر الاختلاف في لفظ المحكيّات أقل من مظاهر التشابه أو التماثل، وأن ناطقين بالعربية الحديثة من قريتين مختلفتين، واحدة في موريتانيا والأخرى في جنوب العراق، سيستطيعان في النهاية التفاهم على معظم ما يريدان التفاهم في شأنه إذا تجاوزا كلام البيئة الذي يختلف من مكان إلى آخر، فعلى الباحث ألا يتوقع أن يستخدم ابن بيئة زغوان في تونس كل كلام ابن بيئة دير الزور في سورية.

وإحلال لفظة جديدة محل لفظة محكيّة قديمة يمكن أن يعني اقتلاع القديمة من نسيج الكلام، وهذا في المحكيّات مثل قلع الضرس، لذا في المحكيّة أقدم الكلام، فهو إذاً طبيعي، والكلام الطبيعي يخلو من البديع وينفر من الصنعة لأنها تستولد معاني جديدة ربما لم يوفّق مبتكرها في تحقيق الارتباط الواضح بين المعنى الأصلي والمعنى المستعار. أما بديل البديع والصنعة في كلام المحكيّات فهو الأمثال والصورة والتشبيه، وبعض حالاته تتسم بطرافة يندر وجودها في كلام النصوص. ومن الأمثلة الشائعة وصف الكثير الحركة بأنه «مثل بيضات المغربل»، باستحضار صورة المغربل وهو يهز المنخل يميناً ويساراً، وتشبيه الكسول ومن لا يطلب العمل للارتزاق بمن يجلس تحت شجرة تين ويفتح فمه في انتظار سقوط الثمرة فيه، أو «طب الجرة على تمها (فمها)، البنت بتطلع لأمّها».

والقول الأخير ملفت لأنه يكشف للباحث أحد أهم أسباب استتباب كلام المحكيّات عبر الألفيات في العموم، ذلك أن أقرب فردين في معظم الأسر هما الأم وابنتها. والابنة بالطبيعة أم أولادها عندما يحين الوقت، وستكون ابنتها الأقرب إليها، مثلما ستكون ابنتها يوماً أم بناتها، وسيستمر هذا الوضع ما استمرت الحياة.

وبما أن محيط معظم النساء بيوتهن وبيوت جاراتهن، فإن انفتاحهن على محيط المجتمعات العام كان أقل عادة من الرجال، مما ساهم عموماً في استتباب كلامهن مقارنة بالرجال، وانتقال الكلام من الأم إلى البنت ومن البنت إلى بناتها، فهو كلام ابتكره الناس لحاجة فرضت نفسها، واصطلحوا عليه بالتوافق، ولا حاجة لابتكار كلام جديد له المعاني نفسها، مثلما أنه لا حاجة لاكتشاف طريق جديد إلى أميركا فمكانها معروف.

ولا يجد أهل المحكيّة غضاضة في استعمال كلام مستورد مثل «الراديو والتلفزيون والكومبيوتر والبامبرز»، وغيرها، لأن كلامهم الأصلي لا يتضمن لفظات مناسبة للدلالة على أشياء مهمة مثل هذه صار التعبير عنها حاجة. وإذا تبدّت مثل هذه الحاجة ساق أهل

المحكيّات على المستورد من الكلام قواعد كلامهم. ولفظة «ظلام» من كلام العربية الحديثة، لذا لا نجده على لسان أهل المحكيّة ففي كلامهم لفظة أدق هي «العتمة» (من كلمة أصل معناها الموت أو ظلمة الموت)، لكن إذا نطقوا كلمة «ظريف» أبعدوا التسنين من نطقها. وإذا نطقوا كلمة مثل «ذكّرني» لفظوها بالزاي (زكّرني)، فنطقهم صحيح لأن الأصل بالزاي لا بالذال كما في الآكادية: zakāru.

وللخوف أصل طبيعي، فـ«خوف» هي الكلمة الأكثر شيوعاً في المحكيّة لا «الرهبة» أو «الرعب» أو «الارتعاد»، فهذه من كلام الأديان، وكلها، وغيرها، لاحقة على «خوف». ويستخدم أهل المحكيّة في حالات الخوف الأشد لفظة «رعب» مشددة: «رعّبتني». وهذا تعبير عن خوف طبيعي آخر متأصل، كما يبدو، في العقل الكامن، هو الخوف من الرعد، وهي من نسائل *رع، مما يمكن أن يعني أن الكهنة، قبل خمسة آلاف سنة وربما أكثر، لجأوا إلى ظاهرة طبيعية مثل الرعد لم يستطع الناس معرفة سببها لتخويف «الرعيّة» من «الراعي»، أي مرسل الرعد، فهذا أصل الكلمة التي تنتمي إلى الفصيلة اللغوية الدينية رع عر.

وملفت في المحكيّة أن فعل الرؤية هو «شفت» لا «رأيت» أو «نظرت»، لكأنه فعل من الشف، وهو ضرب من الستور يرى ما وراءه فهو ليس فعلاً طبيعياً. وأقدم كلام النظر *رأ، لكنه مهموز متغير، فيقال: «رأى» و«رأت»، لكنه للمتكلم «أرى»، أي «أرأ»، فهذه ليست نسيلة بل سابقة ثلاثية. لكن في المحكيّة وريني، أو ورجيني، بمعنى «أرني»، فهذه من نواة مختلفة هي *رن، والرنو هو «النظر المديد».

ويستخدم أهل المحكيّة النور أو الضوء بالمعنى نفسه تقريباً، لكن استخدام «نوّرني» يكشف أصل النور في الكلام، وهو النار، فإنما النور في الأصل هو الضوء الذي ترسله النار لا غير. وكلا النور والنار من أصل ثنائي واحد هو *نر (نار) وقرينته *رن، فهذه وحدة لغوية مدهشة، وفصيلتها (رن نر) من الفصائل اللغوية الحرجة لاتصالها باكتشاف طريقة إيقاد النار في الوقت الذي يناسب الانسان لا الوقت الذي يناسب الطبيعة، كما في اشتعال الحرائق نتيجة الصواعق أو الاحتكاك الطبيعي الشديد.

والأنف في محكيّات العرب منخار (منخر) أو خشم. ونخر الشيء «ثقبه»، كما ينخر الدود الخشب، فهذا اسم طبيعي، أو بدائي، للأنف لأن أهل الزمان الأول رأوه مثل أي ثقب آخر في خشبة أو حجر. و«أنف» سابقة ثلاثية للنواة *نف يُستخدم في محكيّات الشام ليعني توجيه تيار هوائي إلى ثقب واحد أو الثقبين معاً لطرد المخاط.

والكلام القديم جامع، فالنف هنا فعل توجيه الهواء، لكنه يعني أيضاً الهواء (نفنف)، ومنه عمل الشهيق والزفير (نفس، فهو نسيلة نف)، والنفس تعني الذات أو الذات الحيّة لأن الميت لا يتنفس، فكأن النفس كناية عن الحياة. ولو نُظرت ترجمة *نف في المعاجم لاختلف المعنى، وهذا بعض ما في ترجمتها: «روى الأزهري عن المؤرج: نففت السويق وسففته وهو النفيف، والسفيف لسفيف السويق».

ويلاحظ في الترجمة أن الشارح اعتبر *نف و*سف بمعنى واحد، لكن أهل المحكيّات يفرّقون تمام التفريق بين النواتين، فلا يقولون: «سف مخاط أنفه»، فهذا كمن يشفطه، ولا يقولون: «نف السويق»، فهذا كمن يطرده نفخاً بالأنف، بل «سف السويق». والسّفافة في محكيّات الشام مسحوق الحمّص المحمّص. لكن يقتضي التنويه أن *سف من كلام اليمن وأصل فائه باء مثلثة (p)، وهو من كلام الحضارة والصناعة بامتياز فمنه «سيف» و«سفن».

ويتضح قدم المحكيّات من كثرة المضاعف (بربر، طبطب، زلزل، فرفر، حلحل، فلفل) والمتوالف (خنجر، طنبر، عنكب، أرمل، هرول، مرهم) في نسيجها، فكلا هذين المبنيين أسبق من النسائل الثلاثية (شرب، لعب، سمع، قلب). ويستطيع الباحث اعتماد معظم معاني المضاعف في المحكيّات، كما لا غنى له عن استشارة المحكيّات لتحديد المعاني الاصطلاحية لعدد كبير من المتوالفات، والأهم من تلك وهذه، استشارة المحكيّات للوصول بسرعة إلى أقرب معاني النوى اللغوية إلى معاني أصولها الأولى.

و«أروش» (الكلام غير البيّن أو ضجة الكلام) من طريف محكيّة الشام. واللفظة، كما يبدو، ليست لغة في «قروش» بل ثنائي متوالف من «أر»، بمعنى الغزل، و«وش» أي الوشوشة، فهو، إذاً، كلام العشّاق يتهامسون به لئلا يسمعهم الآخرون. والوسوسة لغة في الوشوشة في الأصل، لكن هذا لا يحل محل الآخر في كلام المحكيّة فالوسوسة عندهم هي المخاوف والشكوك الباطنية غير المحسوسة، أي النفسانية، وهذا أصل المفهوم الذي استعاره كلام الدين في الألفيات اللاحقة وارتبط بالجن والشياطين ونحوهم.

إيقاع الكلام

يفيد الباحث في تأصيل كلام العرب والعاربة أن يستحضر دائماً طبيعية البيئة التي ولد فيها أول الكلام والجماعات البشرية التي ابتكرت الكلام في البيئات التي عاشت فيها. والسبب منطقي لأن الكلام الطبيعي لا يسبق الشيء الطبيعي الذي يدل عليه، وما ينطبق على الماضي ينطبق في حالات على الحاضر، ذلك أن إنسان العصر لم يبتكر كلام «التلفزيون» و«الكومبيوتر» قبل أن يبتكر التلفزيون والكومبيوتر. وعلى الباحث أن لا يضم إلى الكلام القديم الكلام الذي لا يوافق الزمان القديم، فلم يكن في أول الزمان الحديد وورق الكتابة والثياب المصنوعة من القماش ولفظات البديع والمفاهيم الدينية والأخلاقية التي لم يعرفها الانسان إلا في فترة حديثة نسبياً واكبت الأديان عموماً، ومعظمها سحب.

وإذا انتهى المرء إلى أن معظم الكلام ثنائي وثلاثي، فربما كان من المنطقي الانتهاء إلى أن إيقاع الكلام الأصلي ثنائي أو ثلاثي، أو أن معظمه مؤلف من حركة وسكون، أو حركة وحركة وسكون، أي تبسيطاً: «تَمْ، تَرَمْ»، وبذا يكون الثنائي «تم»، والثلاثي «ترم». والثنائي هو النوى اللغوية (حأ، خت، لح، خل، قب)، وهو مكرر النواة اللغوية في المضاعف ونواتين مختلفتين في المتوالف. أما الثلاثي فهو في سوابق النوى الثلاثية (قتل، وجد، وصل، نصح،

سجد) وفي النسائل الثلاثية، ولم يكشف البحث في الكلام غير هذه الأبنية . والبرهنة على ذلك سهلة لأن هذه المباني في النصوص كما هي في المحكيّات، وهي في الكلام قبل خمسة آلاف سنة، وربما أكثر، وفي كلام الجاهلية والعربية الحديثة، وفي كلام العصر .

والنواة *حد ليست من أول الكلام، لأن مفهوم الحدود بين الأشياء مفهوم متطوّر، لكنها ليست آخر النوى اللغوية التي ابتكرها أهل الزمان الأول، لأن مفهوم وجود الإله (إل) يتطلب وعياً أعمق بكثير من الوعي بالحدود بين الأشياء . ويمكن القول إن ازدياد وعي الانسان انعكس، في حالات، على ابتكار الكلام المعبّر عن ازدياد الوعي بأنواعه . ويمكن الافتراض أن الانسان ابتكر العدد واحد (*حد) قبل العدد اثنين (*تن / *سن) .

وحالة المثنى في العاربة (آكادية : سن / شن šinnu)، والعربية الحديثة، لكن ليس في الكثير من اللغات الرئيسية الأخرى اليوم . وسبب وجوده أن هذا العدد، في المجتمعات الانسانية الأولى التي يُقال أنها كانت ٢٥٠ـ ٦٠٠ شخص، عدد مهم، فيما كان العدد خمسة عدداً ضخماً (منه الخميس، أي الجيش الجرار)، وكان العدد عشرة يعني العشيرة، فهي من عشر، نسيلة النواة *عش .

ويمكن وصف المجتمعات التي وجدت حاجة للدلالة على عدد نعتبره اليوم بسيطاً، مثل ثلاثة، بأنها كانت مجتمعات « بدائية » . وهذا وصف منطقي استنتجه مؤلّفون، منهم المؤرخ فيليب حتي، الذي رأى أن العربية « أقرب ما تكون إلى صورة اللغة البدائية التي يعتقد الباحثون أنها كانت اللغة السامية » (تاريخ العرب، ص ١٢) . ومع ذلك تقتضي الاشارة إلى أن اللغة التي يعتبرها مؤلف في القرن العشرين « بدائية » ربما اعتبرها أهل الزمان الأول لغة غاية في التطوّر قياساً إلى كلام الآخرين في المجتمعات التي عرفوها .

ويعتمد نطق الكلام وفهمه وترديده على عدد من العوامل المتصلة بالقدرات العقلية والثقافية التي تختلف بالضرورة من شخص إلى آخر . والنطق من المهارات المكتسبة، فبعض الناس اليوم أفضل في التعبير من آخرين، وعلى المرء الافتراض أن الأمر انسحب على المجتمعات الأولى . لكن تجدر الإضافة أن كلام المجتمعات الأولى كان كلام الحاجة، والكثير من الحاجات طبيعية، والطبيعي لا يتضمن، في العادة، معاني السحب في الشعر وبعض أنواع النثر، فهذه من المظاهر اللغوية الحديثة نسبياً .

وبما أن النوى اللغوية كانت عماد الكلام في العصور التي سبقت التأريخ، فمن الممكن الافتراض أن الاختلافات اللغوية بين أفراد المجتمعات الأولى لم تكن كبيرة لبساطة بناء النوى اللغوية . وإذا استنتج المرء أن الثنائي والايقاع الثنائي أكثر شيوعاً في المحكيّات من كلام النصوص، يمكن الاستنتاج في الوقت نفسه أن نسيج المحكيّات، لا كلام النصوص، هو الوريث الأقرب إلى كلام العرب العاربة ومن سبقهم، وأن الكثير من قواعد المحكيّات قواعد الكلام الأول التي كانت قياسية في معظمها، وغاية في البساطة .

والكلام اليوم كلام نسيج المحكيّات، وكلام النصوص، ويتلاقى كلام الصنفين في

حالات، ويفترق في حالات، فربما كانت مفردة ما في النصوص خطأ وفي نسيج المحكيّات صحيحة، وربما صح العكس، فلكل لفظة حالة تتطلب دراستها دراسة مناسبة قبل تحديد بنائها ومعانيها.

ومن الباحثين من يعتقد أن كلام النصوص أكثر تآلفاً من كلام نسيج المحكيّات نتيجة أسباب منها الإسناد المعتمد على النصوص الدينية، وما نقل عن أهل الشعر، وإشاعة هذا النوع من الكلام في الكتب المدرسية والجامعية دون غيره من كلام نسيج المحكيّات التي يعتبرها بعض اللغويين من «ضعيف الكلام». وهذا وضع قائم أنتج حالة اختلال لغوي في مجتمعات الناطقين لقلة الدراسات الجادة في طبيعة نسيج المحكيّات وأصالتها.

ويمكن الرد على ما تقدم بالقول إن النصوص كلام التخليد، وإن التخليد حالة لاحقة على النطق، فهل كان في مرحلة النطق الطويلة حالات لغوية تشبه حالات المحكيّات والفصحى اليوم؟

والجواب أننا لا نعرف، فلفظ كلام من خمسة حروف أو أكثر أمر عادي لمعظم الناس اليوم. لكن الانتقال من الأصول الثنائية إلى السوابق الثلاثية قبل نحو خمسة آلاف سنة، أو أكثر، كان مشكلة لكثيرين اعتادوا النطق بكلام الاثنين لأن حركات اللفظ تغيرت عندما اجتمع في الكلام الجديد متحرك ساكن (تَمْ) ومتحرك متحرك ساكن (تَرَمْ) تتابعا بلا انتظام فتغير قياس الكلام أو وزنه وإيقاعه بصورة جذرية.

وهكذا بدأت مرحلة جديدة من طريقة لفظ الكلام، فوجد جمهور الناس صعوبة في التعامل مع تغيّر إيقاع الكلام، فسعوا إلى الالتفاف على الكلام ذي الحركتين المتواليتين في فواتح اللفظ، وتطويع باقي الكلام لاستيعاب الايقاع الثنائي بالتسكين وتقليص مدّات الحركات والتشديد الخفيف الذي لا ينتج حرفاً مضاعفاً كاملاً. ولو درس الباحث مئات اللفظات لوجد الكثير من حالات تثنية الكلام قدر الامكان، كما في: «ورّيني»، «قلتلّه»، «سمّعني»، «بعّدني»، «لعّبته ولعّبني، وقوّمني وقوّمته، وسمّعلي وسمّعتلّو» وغير ذلك.

وفي الكلام أفعال في صيغة الأمر تبدأ بالألف، بعضه لغات القبائل وبعضه إضافة أهل اللغة مثل: ادخل، العب، اسمع، اكتب، امسح، اجرح، اسعد، اشدد، اعصص، أحطط، أطلل، وغيرها، فيما تستخدم أفعال أخرى في صيغة الأمر بلا ألف، أي في مبنى الأصول الثنائية: حط!، قم!، كل!، وغيرها. وواضح في كلام المحكيّة أن تسبيق الثنائي بألف لم يكن قائماً في بداية الكلام فيقولون: شد!، عص!، حط!، طل!، وغيرها. أما في الحالات الباقية من الأمثلة فإنهم يليّنون بالألف أو الواو. هذا إذا كان فعل الأمر ثنائياً، أما في حالات النسائل الثلاثية فللمحكيّة قاعدة تحكم بعض حالات استخدام صيغة الأمر في الأفعال الثلاثية، لكنها ربما كشفت أيضاً الأصول الثنائية لهذه النسائل. ويتحقق ذلك بتسكين الحرف الأول وبإضافة حرف لين بعد الثنائي وقبل حرف الاستنسال الثالث، هكذا: سْعادْ (أصلها الثنائي سَع)، لْعابْ (أصلها الثنائي لَع)، مْساحْ (أصلها الثنائي مَس)، كْتوبْ (أصلها الثنائي

كَت)، جْراحْ (أصلها الثنائي جَر)، وهكذا.

ويُوجز بالقول إن من يعتقد أن الناس في الألفيات السابقة نطقوا بالكلام المتحرك، وأن المحكيّة وليدة الجهل لم يأخذ في الاعتبار التأثير الذي تركه انضمام السوابق الثلاثية ثم النسائل الثلاثية إلى الكلام، وإنّ بدء افتراق المحكيّة عن الفصحى قديم جداً بدأ، كما يبدو، في منتصف العصر الزراعي قبل أكثر من خمسة آلاف سنة. وتسبب الافتراق، ربما عن غير قصد، في بدء فرز شبه اجتماعي استمر إلى اليوم: كثيره عامة الناس، وقليله فئة النخبة، وفرز تعبيري: كثيره الشعر الشعبي وقليله الشعر الموزون.

ومع ذلك يُعتقد أن افتراق المحكيّات عن الفصحى في الألفيات الماضية بقي محدوداً لأن الباحث يستطيع تحديد الكثير من كلام أهل الزمان الأول والعاربة في محكيّات اليوم. وحملت العربية الحديثة من مدارس العراق إلى الكلام تغيّرات جذرية فتحوّل الافتراق إلى شرخين أفقي وعامودي واضحين لا يُرى في مسار تطوّر الكلام سبيل واضح إلى تجاوزه. وعليه يرجّح استمرار هذا الشرخ، وربما تعمّقه، فيما تتجه المحكيّات إلى استعارة الكلام الجديد من مصادره مباشرة، ويستمر القصور البحثي في التعامل مع المحكيّات بالجديّة التي تستحقها وريثة أقدم اللغات المعمّرة في تاريخ الانسان.

وتفوق أهمية الاصطلاح اللغوي في بعض الحالات أهميّة القواعد، لكن الاصطلاح، بطبعه، يتطلب اصطلاح معظم الناس. ويبدو من مراقبة عدد من المحطات التلفزيونية أنّها أدّت دوراً ملحوظاً في إشاعة انتشار نوع من الفصيحة بين فئات كثيرة من الناطقين بالعربية الحديثة، يفوق بكثير تأثير استمرار محطات أخرى في استخدام المحكيّات. ويمكن في الوقت نفسه ملاحظة جنوح البعض إلى خلط استخدام بعض خصائص الفصيحة بالمحكيّات. وهذه من مظاهر اللفظ التي ربما كان مفيداً تشجيعها، والعمل في الوقت نفسه على تجنّب التشديد المفرط على اتباع جملة اجتهادات اللغويين الأوَل لغلبة الصنعة والاصطناع على أعمالهم. وهذه نتيجة مُتوقعة لأن العربية لم تكن اللغة الأم للكثيرين، وربما كان هذا أحد أسباب غياب مباني الكلام الحقيقية عنهم وتأصيل الكلام في مشتقات الكلام لا في جذوره الثنائية، والمساهمة في تعميق الشرخ بين كلام النصوص وكلام المحكيّات، والاخفاق، بالتالي، في تحقيق اصطلاح الناس على النطق.

تراكم الكلام

يشترك معظم صنوف العلوم الانسانية في خاصيّة أساسية هي التراكم الذي تستدعيه الحاجة. والتراكم متدرج بالطبيعة، أي أن الانسان احتاج إلى التعبير عن العدد « واحد » قبل الحاجة إلى التعبير عن العدد « عشرة ». ويقتضي التراكم المعرفي العددي المواكبة بالدلالات اللفظية العددية، ومع ذلك فإن عدد الحروف الصحيحة للعدد « واحد » يساوي عدد حروف العدد « عشر »، أي ثلاثة حروف، فيما يفصل مفهوم العدد واحد عن العدد عشر ألوف

السنين.

وتبيّن بعد البحث والمقارنة أن النطق يخضع لمبدأ المراكمة المعرفيّة، مثله مثل باقي المعارف، وأن مبنى الثلاثي الصحيح حالة لغوية متطوّرة فهو ليس أصل الكلام، كما يُشاع على نطاق واسع في مؤلفات علوم اللغة والمعاجم. وإذا كان العدد «عشر» يتألف من ثلاثة حروف فمن المنطقي الافتراض أن العدد «واحد» تألّف من عدد أقل من الحروف. وللعدد «واحد» أصل قديم هو حد، لكن تبيّن أيضاً أن العدد «عشر» مُشتق من أصل أقدم هو عش. وكلا حد وعش مؤلف من حرفين، أو من «نواة» لغوية أو «مقطع أحادي»، وربما قيل عن الصنفين إنهما من بناء «الثنائي»، فهذا تعريف عام بدلالة نظر العين.

ولم يكشف البحث أصولاً أقدم من الثنائي يمكن البرهنة على وجودها، فتتابعت الدراسات البحثيّة وفق افتراض جديد ومنهجيّة جديدة: إذا كان أصل أقدم الأعداد (واحد) النواة الثنائية (حد)، فربما كان منطقيّاً الافتراض أن أقدم الكلام يتألّف أيضاً من النوى والمقاطع الأحادية، أو الثنائي. وتطلبت البرهنة على صحة هذا الافتراض تفكيك مئات اللفظات ثم إعادة بنائها بتأصيلها في النوى أو المقاطع الأحادية. وكشف التأصيل النمطي صحة الافتراض، لكنّه كشف في الوقت نفسه وجود خمسة مبان لغوية اختلفت اختلافاً جذرياً عن المباني الشائعة في مؤلفات علوم اللغة والمعاجم كافة. وطرح هذا الاختلاف عدداً من الأسئلة عن طبيعة معارف الكلام التي عرضها أهل اللغة والمعاجم في القرون الهجرية الأولى وجملة الأسانيد والمراجع في كتبهم. ولوحظ اختلاف بين قطعيّة الثبوت وقطعيّة الدلالة لم يتمكن البحث من مصالحة وجوده في ترجمات المعاجم، مما أثار الدهشة والحيرة في آن.

واقتضى تقصّي حال الكلام توسيع نطاق البحث ليشمل بعض لغات العاربة، خصوصاً الآكادية والكنعانية، أو الفينيقية بنوعيها القديم والأحدث. وتبيّن في مرحلة جديدة من البحث أن أحد أهم أسباب صعوبة تحديد مفاصل التلاقي والابتعاد في الكلام، معالجته في المؤلفات اللغوية كمفردات أساسها المبنى المعروف بـ«الثلاثي»، أي الكلام المؤلّف من ثلاثة حروف صحيحة، فيما كشف عمل التأصيل وجود هذه المفردات كعناصر في «أوعية» لغوية تشترك في نطاقات اللفظ والمعاني والحالة البيانية.

وبدا واضحاً أن التراكم اللغوي والتدرّج في اكتساب المعارف أدىا في مرحلة متطورة من حياة المجتمعات الانسانية الأولى إلى تضمين اللفظات في الأوعية المناسبة للدلالة على الحالات البيانية التي اعتبرها الأوّلون مهمة في حياتهم. مثلاً، النواة عش أصل العدد عشر لكنه أيضاً أصل «عشيرة». ويمكن الافتراض أن الانسان الذي احتاج إلى الدلالة على العدد «واحد» في زمن ما، احتاج إلى الدلالة على العدد «عشر» في زمن أبعد من الأول، ثم احتاج إلى الدلالة على لفظة مثل «عشيرة» في زمن أبعد من الزمنين السابقين.

وكلا حد (واحد) وعشر (عشرة) من الدلالات الثابتة، أي أن العدد واحد لا يمكن أن

يعني ثلاثة أو خمسة، ولا يمكن أن يعني العدد عشرة أي رقم آخر. أما العشيرة فهو مفهوم اجتماعي متطوّر. وبما أن عمر الكلام لا يُحسب بآلاف السنين بل بعشرات الآلاف، يمكن الافتراض أيضاً أن الانتقال من الدلالة على الحالات والأشياء بالنوى والمقاطع الأحادية إلى الدلالة على الحالات والأشياء باللفظات الثلاثية لا يُقاس بمئات السنين بل بآلاف السنين، وهذا استنتاج يمكن البرهنة عليه بتزمين كلام الآكادية.

وتطلّب الانتقال من التعبير عن الأشياء المجرّدة إلى التعبير عن المفاهيم مرحلة متقدمة من الوعي الانساني الذاتي، سبقتها مرحلة لم يعتبر فيها الانسان نفسه كائناً يختلف عن باقي الكائنات التي تعيش في بيئته. ويكشف تأصيل الكلام أن الانسان لم يكتسب الكثير من أشكال الوعي الذاتي، كما يبدو، إلا من خلال مراقبة الكائنات في بيئته، فرأى في بعض سلوكها الاجتماعي الكثير مما لم ينتبه إليه في سلوكه الاجتماعي. وإذا أمكن القول إن الطبيعية كانت معلم الانسان الأهم، يمكن القول أيضاً إن دور الحيوان في توسيع مدارك الانسان كان كبيراً هو الآخر، خصوصاً الطيور التي تعلّم الانسان من مراقبة أعشاشها مفاهيم العشرة والعشيرة والمعاشرة والرزق، ثم تعلم من القبّر كيف يقبر موتاه بدل ترك الجثث في العراء أولاً ثم إيداعها الجرار والتوابيت في ألفيات لاحقة، وأوحى إليه الوز في مرحلة لاحقة بمفاهيم الأوزان والزوايا، فيما استمد الانسان مفاهيم «الرتب والمراتب والترتيب والتراتبية» من الرت، أي «الخنزير البري».

وكلام العاربة أقدم المخلّد في التاريخ، ومن السهل تحديد مبانيه اللغوية الرئيسية الخمسة حتى في أقدم النصوص المخلدة التي تعود إلى نحو ٤٥٠٠ سنة. واللفظ سبق التخليد لا ريب، وبما أن أصول كلام العاربة من النوى والمقاطع الأحادية، يمكن الافتراض أن الأصول تلك أقدم بكثير من كلام العاربة لأن بعضها يتصل بأهم متطلبات استمرار الحياة مثل الماء (مأ) والطعام (كل) والجنس والحياة (أر، نك) والبيوت الأولى (بت) وحيوانات البيئة (بع، عن وفخ).

ولأقدم كلام الانسان مواصفات معروفة وُجد الكثير منها في الكلام الثنائي، فيما استبعدت الدراسة ما عرضه بعض الباحثين باحتمال وجود «لغة» أحادية الحرف سبقت ابتكار كلام النوى والمقاطع، لأن مثل تلك اللغة المفترضة عاجزة عن تقديم الدلالات المناسبة بسبب اقتصار كلامها على عدد محدود جداً من اللفظات الأحادية. وكما سبق ابتكار الأعداد الأولى ابتكار الأعداد الأكبر بألوف السنين، كذا يمكن الاستنتاج أن كلام النوى والمقاطع سبق الكلام الثلاثي وكلام الاشتقاق بآلاف السنين، لذا سبق كلام النوى والمقاطع بالضرورة كلام العاربة بآلاف السنين، وكان كلام «أهل الزمان الأول».

وأهل الزمان الأول أهل عصر الحجر وسكان الكهوف والغيران وأكواخ القصب والأغصان. والحدود الجغرافية لأهل الزمان الأول حدود بيئتهم السكنيّة والمناطق التي يتوافر فيها الماء والصيد البري، أو البحري، والفاكهة والبقول والجذور الصالحة للأكل، فإذا أتوا على ما في

بيئتهم من طعام انتقلوا إلى بيئة أخرى. ولأهل الزمان الأول حدودهم الاجتماعية في عدد نسبي صغير جداً من الأسر، وعلاقة الأسر ببعضها، وأهمية تعاون الجميع لتأمين الماء والغذاء، وبالتالي ضمان استمرار الحياة والنوع بما يشمل مقاومة الأخطار التي تهددت بقاء الناس، وأهمية التعاون للتصدي لهذه المخاطر ومنها الثعابين السامة، والسباع التي كانت في زمانهم أشد فتكاً من الأنواع التي تلتها.

وحدود كلام أهل الزمان الأول حدود ما تقدم وغيرها من الحالات الطارئة أو الدائمة التي تطلبت الحاجة للتعبير عنها والدلالة عليها ابتكار الكلام المناسب وتأمين اصطلاح الأفراد عليه. ويعني هذا أن الكلام كان كلام الحاجة الضروري للاستمرار والبقاء، وتدلّ دراسته على أن الانسان الطبيعي لا يبتكر عادة كلاماً لا حاجة له به، وهو يتعامل معه بقدر حدود تعامله مع البيئة التي يعيش فيها، فيتراكم الكلام لفظة لفظة، وجملة قصيرة وأخرى. ويساير معظم الأفراد هذا التراكم الطبيعي عن طريق سماع اللفظات وفهمما وترديدها بطريقة تضمن فهم الآخرين لها. والفهم المتبادل للكلام ليس وسيلة التواصل الأساسية في كل المجتمعات فحسب وإنما وسيلة أساسية أيضاً لاستمرار الحياة وبقاء النوع لما للكلام من أهمية حاسمة في تعبئة أفراد الأسر القديمة وتنظيمهم لجمع الطعام والتنبيه على الأخطار وتوفير الحماية المشتركة.

وبما أن الكلام كلام البيئة في عصر ابتكار الكلام، فمن الممكن، في حالات كثيرة، دراسة هذا الكلام للتعرّف على طبيعة البيئة التي عاش فيها أهل الزمان الأول. وبدراسة كلام الاجتماع، يستطيع الباحث، في حالات، تحديد طبيعة العلاقات الاجتماعية بين المرأة والرجل، والأسرة والثانية، والمجتمع الصغير والآخر. وإذا تمكّن الباحث من فرز كلام الطعام والوحش والمساكن، فربما استطاع تحديد أنواع الطعام والوحش والمساكن الأولى.

وللباحث أن يتوقع احتواء الكلام القديم على الدلالات المعبّرة عن الحالات الطبيعية لا المفاهيم الاجتماعية والعاطفيّة التي يجدها في الكلام الثلاثي مثل «الضمير» و«الحسب» و«النسب» و«الأخلاق» و«الفخامة» و«الشرف» و«الكبرياء»، وغيرها المئات من المفردات التي انتجتها حالات ألفيّة لاحقة. ولبعض الكلام عصوره الخاصة به، فمن غير المتوقع أن يجد الباحث في كلام عصر الحجر اللفظات التي فرزها العصر الزراعي، مثل «قمح، سقى، فلح، حصد، درس وخبز»، وغيرها. إلا أن الباحث يستطيع توقّع تحديد النوى والمقاطع الأحادية التي «نسل» الناس منها هذه اللفظات.

وفي معارف الكلام الاستثناءات الموجودة في المعارف كافة، لكن يمكن القول في العموم إن لكل عصر نشاطه وحالاته. وبما أن الكلام يعبّر عن النشاطات والحالات المهمة في العصر، فالكلام كلام العصر، وكلام مباني العصر. ويعني هذا أنه على الباحث في التأصيل النظر في احتمال استبعاد لفظات ثلاثية في عصر النوى والمقاطع. وإذا تحقق مثل هذا التأصيل فإن الباحث يرد الكلام اللاحق إلى السابق، والثلاثي إلى النوى والمقاطع الأحادية، والنوى

والمقاطع الأحادية إلى أصول بعضها طبيعي وبعضها مُستمد أو مطوّر من أصول طبيعية.

الثنائية اللغوية

يواجه كثيرون من الناطقين بالعربية الحديثة وضعاً لغوياً يختلف عن وضع الناطقين بمعظم اللغات الرئيسية في العالم يمكن تسميته بـ« الثنائية اللغوية » (diglossia) أساسه الاضطرار إلى النطق بلغتين لا واحدة: الأولى هي المحكيّة، والثانية الفصيحة، فيما تنطق مجموعة صغيرة نسبياً ما يُعرف بالـ« فصحى ». ومعظم الناس يتخاطبون مع أنفسهم، ومع الناس العاديين مثلهم، بالمحكيّة، فهي اللغة التي يتقنها اللاوعي لا بالتقليد في مرحلة الطفولة التي تتأسس خلالها اللغة والوعي فحسب، بل بالتأسيس اللغوي التاريخي أيضاً، لأن للمحكيّات أصل سبق العربية الحديثة بألوف السنين، وأدّت الوظيفة المتوقعة منها في تحقيق تواصل المجتمعات بنجاح مُلفت.

وتختلف القدرة التعبيرية من شخص إلى آخر، سواء كانت واسطة الكلام الفصيحة أو المحكية. كما تختلف حالات التعبير، فربما فكّر البعض بالفصيحة، وأحياناً بالفصحى، ونطق بالصنف الذي يتقنه أكثر من غيره، وربما فكر البعض بالمحكيّة ثم ترجم كلامها إلى الفصيحة، أو ربما استدعت حالة ما جمع خيوط الفكرة بالمحكيّة قبل نقلها إلى الورق أو الكومبيوتر. ولا يترجم اثنان النص ذاته بالطريقة ذاتها، وكذا الترجمة من المحكيّة إلى الفصيحة، فيصيب الإنسان في حالة ويخطىء في أخرى ويشط في ثالثة، فيما يمكن، في حالات المقابلات العلنية، ملاحظة انتقال المتكلم من الفصيحة إلى المحكيّة في حالة تشبه ما يعرف في علوم اللغة باسم « التحوّل الرمزي » (code switching) فيزج المتكلم في كلام لغة معينة لفظات أو تعبيرات بلغة أخرى يعتقد اللاوعي أنها أقدر على نقل الفكرة المطلوب نقلها، أو أن استخدامها يُحسّن صورة المستخدم أو يضعه في مركز اجتماعي أعلى من مستوى المخاطب أو في اعتبار السامع والمشاهد.

ويتعامل العقل مع الكلام بصورة غاية في التعقيد، لكن النطق المسترسل لا يتحقق إلا عندما يتولى العقل الكامن التعامل مع الجزء الأكبر من الكلام، فيصبح الكلام في هذه الحالة مثل سياقة السيارات، لا يتقنها الانسان جيداً إلا بتراكم الخبرة والممارسة، حتى أن كثيرين يستطيعون قيادة السيارات وهم يفكّرون بأشياء أخرى لا علاقة لها بالقيادة.

ويبدو أن أحد أهم أسباب افتراق الكلام إلى فصيح ومحكي تطوير السوابق الثلاثية لأن إيقاعها اللفظي ثلاثي غاير الايقاع اللفظي الألفي الثنائي الذي قام عليه الكلام. ويُعنى بذلك أن معظم الكلام قبل السوابق الثلاثية كان الحركة، بالفتحة، والسكون. لكن السوابق الثلاثية جاءت بتتابع صوتي مختلف هو الحركة (الفتحة) والحركة (الفتحة) والسكون، مما أدى إلى اضطراب إيقاع أصوات الكلام.

واستوعبت المحكيّة الكثير من السوابق الثلاثية مثل: « وقع، دخل، قتل، خبز، بخل »،

وغيرها، لكن بعض السوابق الثلاثية لم تكن مهمة للناس العاديين بعدما صار هذا المبنى من المباني التي فضّلها الكهنة والخطباء والشعراء، وهي كثيرة في كلام النصوص. وأمكن استيعاب السوابق الثلاثية المفيدة في كلام المحكيّات بعد اخضاعها للقواعد التي تحكم المحكيّات، فيما احتفظت المحكيّات عموماً بالايقاع الثنائي الذي لا يزال عماد كلامها إلى اليوم.

وفي الكلام سوابق ثلاثية لبعض أقدم الكلام، كما في السابقة الثلاثية «أكل ← كل»، لكن يُعتقد أن بعض هذه السوابق انتاج عصر لاحق، وابتكرها الناس لتوسيع نطاق معاني أصلها الثنائي، أو لاختصار أهم معاني الأصل الثنائي في كلمة متفرّدة. وهذا يعني أن قسماً من السوابق الثلاثية ربما سبق مبنى النسائل الذي طوّره الناس للتعبير عن الأشياء والحالات التي أنتجها العصر الزراعي. لذا يُعتقد أن افتراق الكلام إلى فصيح ومحكي ربما بدأ قبل أكثر من خمسة آلاف عام، أي نحو منتصف العصر الزراعي.

ويردد أهل المحكية عدداً معتبراً من كلام الضاد، لكنهم يتجاهلون عادة نطق حروف الثاء والذال والظاء التي ألحقها البعض بكلام العربية الحديثة. والقاف التي ينطقها بعض أهل المحكيّات همزة، والبعض الآخر بصوت قريب من الجيم اليمنية، أو كافاً. ويشكل بدل أربعة حروف نسبة مهمة من أبجدية تتألف من ٢٨ حرفاً، لكن هذا ليس السبب الوحيد في استمرار ابتعاد المحكيّات عن الفصيحة، وابتعادها الأكبر عن الفصحى لأن النوعين الأخيرين من الكلام محكومان بمجموعة من القواعد المتغيرة التي تتطلب من الناطق بهما الاعراب المتزامن مع النطق، والاضطرار إلى استشارة العقل الواعي بصورة شبه دائمة أحياناً للربط بين أجزاء الكلام. وهذه، وغيرها، من النتائج الطبيعية التي يمكن توقّعها عندما تتحكم النصوص بالنطق، أو في الحالات التي ابتكر بعض أهل اللغة القواعد الحديثة باستقراء الكلام القديم، فهو عكسٌ للاتجاه الطبيعي للكلام الذي بدأ بالنطق قبل أن يُضبط بالقواعد المستمدة من المنطوق لا من المكتوب.

ولكل اللغات الرئيسية قواعدها المعروفة، لكن دراسات اللغة انتقلت منذ فترة طويلة من التركيز على المكتوب إلى التركيز على المنطوق، فهو أصل الكلام في الماضي وسيكون أصل الكلام في المستقبل. ولو احتكم أهل اللغة إلى المنطوق لا إلى المكتوب، أو تعاملوا مع المحكيّات بالجدّية التي تستحقها كواحدة من أقدم ما استمر من لفظ الخلق، لما وصل الافتراق بين المحكيّات والفصحى إلى وضعه الحالي، ولما اضطر معظم الناس إلى توظيف جزء كبير من قدرات العقل الكلامية لترجمة المحكي إلى الفصيحة بدلاً من توظيف القدرات تلك لتحسين التعبير.

ويختلف الباحثون في تقييم فائدة بعض قواعد العربية، إلا أن الاتفاق أشمل في الاستنتاج أن استيعاب الناطق كل القواعد التي وضعها أهل اللغة قبل أكثر من ألف عام، إن كان ممكناً، لا يضمن تحويله إلى متكلم «فصيح». ولا يتوقع بعض الباحثين أن ينطق كل

أهل العربية بالفصحى لأن الكلام اصطلاح الناس على النطق به وحاجتهم إليه، ولا يبدو أن أهل المحكيّة يحتاجون النطق بالفصحى أو الفصيحة لضمان التواصل، ولا يجد الباحث في كلامهم تعابير مثل« ضاق ذرعاً » و« استشاط غضباً » و« لا ناقة له ولا بعير » و« أدلى بدلوه في الأمر » و« صار كالقابض على الجمر »، وغيرها.

وربما قيل إن العكس ليس واقعيّاً، أي أن الناطق بالفصحى أو الفصيحة لا يستطيع الاستغناء عن المحكيّة في البيت والشارع والسوق والمقهى، وربما لن يبدو كلامه الفصيح مناسباً لسرد تفاصيل مشاهدة ما أو نكتة ما، وقليلون هم الأزواج الذين يستخدمون الفصحى في مخاطبة زوجاتهم أو أبنائهم، وربما بدا بعض هذا النوع من الكلام صنعة في غير محلها. لذا، لا يوجد، حقيقة، سبب مقنع لحمل أهل المحكيّات على النطق بالفصحى، ولا توجد وسيلة حقيقية تضمن الاصطلاح. وعليه يتوقع البحث تسارع ابتعاد البعض عن الفصيحة لأسباب عدّة منها شيوع استخدام وسائط الانترنت الاجتماعية، وربما نشوء حالة لغوية ثلاثية تتضمن استخدام المحكيّات وبعض أشكال الفصيحة ولفظات أو تعبيرات انكليزية وفرنسية.

● النص هذا من المجلد الثاني من كتاب الأصول وعنوانه: أصل الكلام: لسانا العاربة والعربية وأصولهما الجنينية في عصر الحجر، ستصدره دار أوثر هاوس قريباً. ومعظم بحوث المجلد بحوث أصليّة تُكشف للمرة الأولى في تاريخ الكلام اقتضى تقديم أكمل صورة ممكنة لمراحل تطوّر الكلام من بداياته الأولى في عصر الحجر إلى ذروته في عصر العاربة، عندما صارت لغتهم أهم لغات العالم القديم، ولسان بعض أكبر الامبراطوريات الألفية التي قامت في العراق ومصر والشام. وستُعرض في المجلد مباني كلام العاربة كما كشفها التأصيل، وبما يتضمن الفصائل اللغوية والحالات البيانية التي ضمنت، إلى حد كبير، خلود كلام العاربة لأن الكثير من هذه الحالات حالات إنسانية في كل مكان وزمان. ووُجد من المهم تقديم صورة مناسبة عن البيئات الطبيعية التي استمد أهل الزمان الأول من طبيعتها ومن كائناتها الكثير من معارفهم الأولى، وبعض أصوات حروفهم. وكان المجلد الأول صدر عام ٢٠١٠ بعنوان: الأسس الطبيعية لحضارة العـرب وأصل الأبجديات والعد والأرقام والمقاييس والأوزان والقضاء والنقد.

هوامش

١ـ *ره ــ> رهب ــ> راهبات؛ *رع (إله مصر القديمة) ــ> رعب ــ> رعد.

٢ـ مُلفت في شرح رعد: «قال الأخفش: أهل البادية يزعمون أن الرعد هو صوت السحاب والفقهاء يزعمون أنه ملك؛ قوله تعالى: ويسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته (الرعد 31). قال الزجاج: جاء في التفسير أنه ملك يزجر السحاب. قال: وجائز أن يكون صوت الرعد تسبيحه لأن صوت الرعد من عظيم الأَشياء.» وزعم ابن عباس: «الرعد ملك يسوق السحاب كما يسوق الحادي الإِبل بحدائه». وسُئل وهب بن منبه عن الرعد فقال: «اللّه أَعلم».

٣ـ Hitti, Philip. History of the Arabs, (10th Edition, 1974), p. 12.

٤ـ نوى اللفظات التي وردت في هذه الفقرة بين مزدوجين هي: «الضمير» ــ> ضم؛ «الحسب» ــ> حص؛ «النسب» ــ> نس؛ «الاخلاق» ــ> خل؛ «الفخامة» ــ> فخ؛ «الشرف» ــ> رف؛ «الكبرياء» ــ> كب؛ «قمح» ــ> قم؛ «سقى» ــ> سق؛ «فلح» ــ> فل؛ «حصد» ــ> صد؛ «درس» ــ> در؛ «خبز» ــ> بز.



شاب يطبخ علي حطب في حي الحميدية بحمص ـ (بازن من صفحة عدسة شاب حمصي)

اقتصاد

دور مزعوم للنفط والغاز في الصراع في سورية

سمير سعيفان

ضمن سعيه لترويج أن الصراع هو صراع على سورية، وليس نزوع السوريين للحرية والكرامة، يسعى النظام لترويج فكرة كون الصراع على النفط والغاز السوري في جانب رئيسي منه، ويبرز قضيتين هما وجود الغاز والنفط في مياه شرق المتوسط مقابل السواحل السورية، وخط أنابيب غاز من قطر نحو أوروبا. وسنبدي هنا وجهة نظرنا في هاتين القضيتين بناءً على خبرة عملية في قطاع النفط والغاز في سورية منذ ١٩٩٦ حتى ٢٠١١.

المسألة الأولى: الزعم بأن وجود نفط وغاز مقابل السواحل السورية بكميات هائلة هو سبب رئيسي «للمؤامرة الكونية على سورية».

نعم، توجد احتمالات مؤكدة لوجود نفط وغاز مقابل الساحل السوري، وقامت شركة سويدية بالاتفاق مع الحكومة السورية، بمسح أولي على حسابها في المياه الاقتصادية المحاذية للساحل السوري عام ٢٠٠٧ على ما أذكر كي تبيعها للشركات التي ترغب بالاستثمار، وأعطى المسح مؤشرات على وجود غاز ونفط، ولكن كميات المخزون غير معروفة، هل هي كميات تجارية كبيرة، أم كبيرة جداً، أم هائلة؟ فالنفط والغاز يمكن أن يوجدا في أماكن كثيرة ولكنهما لا يكونان قابلين للاستثمار إلا اذا كانا بكميات تجارية مربحة. وعادة لا تعرف

كميات المخزون في أعماق البحر أو أعماق الأرض قبل أن يتم حفر عدة آبار استكشافية، كي يقوم الخبراء بتقدير كميات المخزون ورسم خريطة تواجده حتى يتم التأكد من توفر كميات تجارية وبعدها يبدأ حفرُ الآبار الإنتاجية. وهذا لم يحدث بعد، ولم تقم الحكومة السورية أو أية جهة أخرى بحفر أي بئر لأن حفر البئر في البحر يكلف نحو ١٥٠ مليون دولار تقريباً بينما البئر في اليابسة تكلف بين ١٥ ـ ٣٠ مليون دولار تقريباً.

طرحت الحكومة السورية تلك الحقول المقابلة السواحل السورية للمستثمرين الدوليين عدة مرات منذ نحو ٦ سنوات في دورات الإعلان عن الاستثمار التي كانت تنظمها كل عام، ولكن لم تتقدم أي من الشركات العالمية للاستثمار في هذه الحقول، وكانت الحكومة السورية قد فتحت باب الاستثمار للراغبين منذ سبعينات القرن العشرين، وكانت ترحب بقوة بقدوم أية شركات، لأن إنتاج النفط والغاز من الحقول القديمة في الحسكة ودير الزور كان يتراجع ووصل عام ٢٠١٠ الى ٣٨٠ ألف برميل نفط في اليوم بينما يتزايد الاستهلاك المحلي ووصل حتى ٣٤٠ ألف برميل نفط في اليوم فقط مما أدى لتآكل الفائض ووصل حتى ٤٠ ـ ٥٠ الف برميل في اليوم وكان هذا الفائض مرشحاً للتآكل السريع عام ٢٠١١ بدون أية أحداث، بينما كان الفائض أواخر تسعينات القرن العشرين نحو ٤٠٠ ألف برميل في اليوم. وهذا أدى لحرمان الخزينة العامة من موارد رئيسية كانت تشكل نحو ٤٥٪ من الموارد المحلية في فترة الذروة وتشكل المصدر الرئيسي للعملات الصعبة للحكومة، بينما لم تحقق كافة الامتيازات التي منحت للشركات الأجنبية في السنوات العشرين الأخيرة أية استكشافات نفطية تذكر في مجال النفط عدا شركة «غولف ساندز» البريطانية العائدة لرامي مخلوف عملياً، والتي وصل إنتاجها عام ٢٠١١ الى ٢٠ ألف برميل نفط في اليوم فقط. اضافة لاكتشافات غازية ساعدت بسد احتياج سورية من الغاز ولكن بدون فائض بل كانت سورية تستورد عام ٢٠١٠ نحو نحو ١٫٥ مليون م٣ غاز في اليوم من مصر عبر «خط الغاز العربي».

اذن الحكومة السورية كانت بأمس الحاجة لاجتذاب شركات كي تنقب في اليابسة أو في البحر لإنتاج أية كميات إضافية من النفط والغاز، وكان رامي مخلوف مستعداً لتقديم كل شيء للشركات الراغبة، كما فعل مع شركة غولف ساندز البريطانية، وكما فعلوا مع شركة شل الهولندية عندما جاءت أواسط الخمسينيات، فوكيلها غير المعلن هو محمد مخلوف «أبو رامي». هذا يشير إلى أن الشركات الدولية لم تكن تأمل آنذاك بوجود مخزون تجاري كبير.

أما فكرة المؤامرة القائلة بأن الشركات الأمريكية والأوروبية تعرف بالمخزون ولكنها ترفض القدوم والإنتاج بسبب «ممانعة نظام الأسد» فهي مزاعم لا أكثر. فعندما اكتشفت شركة شل النفط عام ١٩٨٥ في سورية جاءت الشركات الكبرى الغربية إلى سورية ومنها شركات أمريكية مثل شركة اكسون موبيل وغيرها وبقيت تنقب عن النفط حتى أواسط التسعينيات، ثم بدات بالانسحاب منذ أوائل التسعينات لأنها لم تجد اكتشافات جديدة

هامة. وفي عام ٢٠١١ كانت شركات شل الهولندية وتوتال الفرنسية وبتروكندا الكندية وغيرها تنتج في سورية، وكانت تسعى لتوسع استثماراتها بأي شكل. كما كانت الشركة الوطنية الصينية للنفط تنتج في سورية وكانت الصين مستعدة للاستثمار في أية فرصة بسبب حاجتها الشديدة للنفط، كما أن الشركات الروسية جاهزة وترغب بالاستثمار في النفط والغاز وغيرها شركات كثيرة.

كل هذا يبين أن ما يُقال الآن عن وجود مخزون هائل مؤكد في المياه الاقتصادية المقابلة للساحل السوري يزيد عما لدى الكويت، وعن أنه هو السبب في الصراع على سورية هو مجرد تخرصات وسببه معروف.

لكن بدء اسرائيل بالإنتاج يرفع التوقعات، والاستثمار في هذه الحقول يحتاج لشركات عالمية كبرى بقدرات مالية كبيرة وبخبرات تقنية كبيرة في التنقيب عن النفط والغاز وإنتاجها من البحر لأنه أصعب بكثير من اليابسة وأكثر كلفة.

قد يكون أحد أسباب هذا الترويج أيضاً الترويج لفكرة الانفصال وأنه سيكون لدى الكانتون الساحلي موارد نفطية هائلة، وهذا تقدير لا أكثر.

في الواقع هذا الاحتياطي هو لسورية ما بعد نظام الأسد ونأمل أن يكون بحجم مخزون الكويت مرتين.

المسألة الثانية: يُروج البعض لتفسيرات مفادها أن سبب الموقف الروسي تجاه النظام السوري يعود إلى خوف روسيا من أن النظام السياسي البديل للأسد سيقوم بالسماح بمرور الغاز القَطَري عبر الأراضي السورية باتجاه أوروبا منافساً للغاز الروسي وهذا يلحق ضرراً كبيراً بمصالح روسيا، بينما امتنع ويمتنع نظام الأسد عن تمرير هذا الخط وهذا ما دفع قطر لمناصبة الأسد العداء!!!

هذه، أيضاً، مزاعم لا أساس لها. ففي الواقع يوجد الآن «خط الغاز العربي» الذي ينقل الغاز المصري من مصر عبر العريش إلى الأردن وسوريا، والمخطط أن يتم مده الى لبنان وتركيا. وهذا الخط اعتبر مشروعاً أولياً على أمل توسيعه مستقبلاً لينقل الغاز من قطر والسعودية والعراق باتجاه أوروبا عابراً الأراضي السورية والتركية!.. ولكن كل هذا مجرد أفكار يطرحها خبراء ويتداولها سياسيون، ولم تنتقل إلى مستوى الخطة، ولم يبدأ أي نقاش جدي حول هذا الموضوع حتى الآن. ولكن أوروبا وسوريا تهتمان بهذا الخط. وقد رحب نظام الأسد بهذا المرور وسعى إليه بكل قوة لأنه يقدم له عائدات مالية كبيرة هو بحاجة إليها، إضافة إلى أنه يمنح سوريا موقعاً جيوسياسياً هاماً جداً، ولم يكن يأبه للروس وموقفهم، والروس يعرفون ذلك، ولكن المشروع لم يبدأ.

من جهة أخرى، روسيا ليس لديها أية مصالح نفطية في سورية، وسورية لديها كما بينا إنتاج صغير من النفط بلغ عام ٢٠١٠ نحو ٣٨٠ ألف برميل يومياً، وهبط الآن بمعدل النصف وهو لا ولن يكفي للاستهلاك المحلي. ولن يكون من السهل ارجاع الحقول التي أُغلقت لسابق

إنتاجها.

كانت شركة واحدة روسية هي «شركة تاتنفت الروسية» تقوم بالتنقيب عن النفط والغاز في منطقة قريبة من الحدود العراقية لبضع سنوات ولكنها لم تكتشف أي نفط أو غاز وغادرت. كما كان يوجد شركة مقاولات روسية هي «شركة ستروي غاز» نفذت مشروع مقاولات في منطقة غربي تدمر وتنفذ مشروعاً آخر، هو مشروع مقاولات وليس استثماراً أو إنتاجاً في شمال تدمر. وهذه مصالح صغيرة.

مشروع عبور غاز قطر والسعودية والعراق إلى أوروبا هو مشروع كبير آخر مؤكد أنه سيبقى لسورية ما بعد نظام الأسد.

هذان المشروعان وغيرهما يشيران إلى أن سورية لديها ما يساعدها على إعادة البناء، ولكن أي من هذا لن يتحقق ما لم يتحقق الاستقرار في سورية وعدم وجود فوضى ما بعد نظام الأسد، وأن تكون سورية خالية من أية مجموعات تستمر بحمل السلاح، وخالية من التطرف والاقصاء والانتقام، ويسودها فعلاً نظام ديمقراطي تعددي حقيقي بحيث تكون سورية لجميع أبنائها.

اقتصاد

«الأسد أو نحرق البلد»... مقولة عدمية عرت الثأرية وزادت أكلافها عن ٥٠ مليار دولار:

التهديم الممنهج للاقتصاد السوري

عدنان عبد الرزاق

لم يكن لأكثرنا معرفة ببنية «الدولة الأسدية» أن يتصور هذا الكم من الحماقة والأحقاد في الدفاع عن "الميراث" وطرائق الرد على مطالب المواطنة البسيطة إذ آثر النظام السوري الرد على الانتفاضة بأسلوب أمني عسكري منذ اندلاعها في ١٨ آذار عام ٢٠١١ في مدينة درعا جنوب سوريا، مما أدى إلى عسكرة الانتفاضة للرد على عنف النظام بعد أن تحولت تدريجياً من مظاهرات سلمية تطالب بإصلاحات إلى معارضة مسلحة وبدايات لحرب أهلية، إنْ عَبْرَ دعم من بعض دول الجوار المعنوي عبر حرف الانتفاضة، أو من خلال التسليح والدعم المالي، أو حتى من خلال الدعم غير المباشر من النظام السوري نفسه، إن من خلال التوغل بالقتل والاستفزاز، أو حتى ببيع الأسلحة للمعارضين، بحسب ما أكدت التحليلات واعتراف بعض من انشق عن الجيش السوري.

ما أخذ سوريا ـ منذ ما يزيد عن عام ـ إلى حالة نزاع مسلح وحرب يتم خلالها استخدام كافة الأسلحة، بما فيها الطيران الحربي والعمودي من قبل الجيش السوري، والرد بأسلحة ثقيلة من المعارضة، سواء كانت الجيش الحر أو التنظيمات المسلحة، ما أدى إلى آثار مأساوية على

الأداء التنموي في سوريا، إثر تدمير واسع طال رأس المال البشري والاجتماعي والاقتصادي.

وفي الآونة الأخيرة تطور أداء وتسليح الجيش الحر وبعض المجموعات المرافقة، ما أدى إلى تحرير مطارات وثكنات عسكرية لكنه، أدى خلال ذلك الى تدمير بنى لقرى وبلدات بأكملها، عدا تهديم الاقتصاد بقطاعاته المختلفة، ما أوصل الخسائر بحسب آخر الإحصاءات إلى نحو مئة ألف قتيل وأكثر من ٢,٥ مليون مُهَجَّر، وخسائر مالية إجمالية لحقت بالاقتصاد السوري حتى نهاية ٢٠١٢ قدرت بنحو ٥٠ مليار دولار.

مساهمة القطاعات قبل الثورة

قبل الصراع التناحري منذ نحو عامين والذي أخذ أنماطاً ومستويات متعددة، كانت سوريا تعيش استقراراً شكلياً ذا مؤشرات متباينة ومتناقضة نظراً للاحتكار، رغم إعلانها اقتصاد سوق اجتماعي، ونظراً لعدم الوضوح والشفافية في طرح النسب والأرقام، حيث حقق الاقتصاد السوري نتائج متضاربة، فمن جهة حقق نتائج ايجابية على المستوى الكلي (انخفاض المديوينة، نمو الناتج الإجمالي) لكن تلك المؤشرات تخفي اختلالات كاعتماد مصادر النمو على العوامل الكمية وبالذات رأس المال المادي وتضخم قطاعات المضاربة العقارية والمالية، مضاف لذلك تدني إنتاجية العامل والهدر والفساد.. أي يتأتى الاستقرار الشكلي من كونها الأقل مديونية على مستوى العالم ٥,٥ مليار دولار وهي أقل من نسبة ١٠٪ بالنسبة للناتج الإجمالي الذي يزيد عن ٦٠ ملياراً، لكنها ـ سوريا ـ كانت تعاني نوعاً من الاختناق المؤسسي الذي كرس نوعاً من الإقصاء وأنماط من التهميش طالت قطاعات وقوى إنتاجية كبيرة من المجتمع وحرمانهم من المساهمة في التنمية والإنتاج الكلي، بل وأخذ الاختناق طابع سد الأفق أو فقدان الأمل، وهو ما تجلى في فقدان المؤسسات قدرتها على تطوير الأداء والمساهمة في الناتج المحلي الإجمالي وموارد الخزينة العامة التي اقتصرت مواردها على النفط ٢٨٠ ألف برميل يومياً وعلى عائدات الضرائب التي تساهم بنحو ٦٠٪ من التمويل الفعلي للخزينة العامة، ليأتي ما يسمى مساهمة فوائض المؤسسات الاقتصادية الحكومية بنسب ضئيلة لا تتجاوز ١٢٪ بعد أن اقتصر الربح على بعض المؤسسات الاقتصادية الحكومية في سوريا «مؤسسة المعارض والأسواق الدولية، مؤسسة الاتصالات، مؤسسة التبغ ومؤسسة المناطق الحرة والمصارف» وكانت نسبة الفقر عام ٢٠١٠ تزيد عن ٢٧٪ بحسب تقرير برنامج الأمم المتحدة الإنمائي الذي أشار إلى وجود ٦,٧ مليون سوري في مستوى الفقر، أما لجهة التجارة الخارجية فالميزان التجاري السوري يعاني من عجز مزمن، إذ يبلغ معدل النمو السنوي للصادرات خلال الفترة ٢٠٠٧ـ ٢٠١٠ نحو ٧٪ وللمستوردات قرابة ١٠٪ هذا إن لم نأت على مستوى الدخول المتدنية للمواطن السوري الذي لا يزيد عن ٦٠ ألف ليرة سنوياً (نحو ١٢٠٠ $ قبل الأزمة) والتضخم النقدي الذي فاق ١١٪ـ كان هناك نسب

متعددة تترواح بين ١١٪ و١٨ ٪ بحسب الجهة المصدرة للنسبة. ونسبة بطالة تقترب من ٨,١٪، وزاد مساهمة الإنتاج الصناعي قبل آذار ٢٠١١ بسبب تنامي الاستثمارات الخاصة ليصل إلى ١٢٪ من الناتج المحلي الإجمالي الذي تنامى بنسب مرتفعة في العقد الأخير ٤,٤٥٪ عام ٢٠٠١-٢٠١٠، أما الاحتياطي النقدي الأجنبي فكان يبلغ بحسب الحاكم أديب ميالة نحو ١٨ مليار دولار والعجز في الموازنة تراجع إلى ما دون ٤٪ ولتكون كتلة الموازنة العامة لعام ٢٠١١ بنحو ٨٣٥ مليار ليرة، قبل أن يرسل النظام رسائل معنوية للمراقبين بعد الأزمة ويقر أعلى موازنة في تاريخ سوريا ١٣٢٦ مليار ليرة لعام ٢٠١٢، أما ما يتعلق بنمو الناتج المحلي الإجمالي فقيل عن نسبة ٨,١٠٪ بالأسعار الجارية.

آثار الحرب على القطاعات الإنتاجية

الزراعة:

تعد سوريا بلداً زراعياً حقق الاكتفاء الذاتي منذ سنوات لمجمل المنتجات الزراعية، بل وتصدر بعض الخضراوات والحبوب والحمضيات إلى دول الجوار وبعض الدول الأوروبية، فسوريا التي تبلغ مساحتها ١٨,٥ مليون هكتار تقسم من الناحية الزراعية إلى منطقة الاستقرار الزراعي الأولى وهي تشكل ١٤,٦٪ من مساحة سوريا والأمطار فيها غزيرة تزيد عن ٣٥٠ مم/سنوياً ومنطقة استقرار ثانية تشكل ١٣,٣ من مساحة سوريا (١)، فرغم الآثار المناخية التي ضربت سوريا خلال عامي ٢٠٠٩- ٢٠١٠ إلا أن الإنتاج الزراعي بلغ حدود الاستقرار، حيث بلغ إنتاج سوريا من القطن نحو ٧٥٠ ألف طن بعد حصر المساحات للمحافظة على المياه، إذ بلغ نحو مليون طن قبل تحديد المساحة، ووصل معدل إنتاج الحمضيات ٩٠٠ ألف طن سنويا والقمح نحو ٣,٥ مليون طن ونحو مليون طن شعير إضافة إلى تلبية السوق المحلية من الخضراوات والفواكه والزراعات الصناعية التي تصدر للخارج، وكذا لجهة الشق الحيواني، فعدد رؤوس الأغنام بلغت في سوريا قبل آذار ٢٠١١ نحو ٢٢ مليون رأسا وكانت تصدر سوريا نحو ٥٤٥٠ رأساً، ولكن تراجعت هذه الثروة إلى نحو ١٢ مليون رأساً(٢).

الآن، وبعد نحو عامين من الثورة / الحرب، تأثر القطاع الزراعي بشكل كبير ما أدى إلى خروج مساحات شاسعة عن الإنتاج وتراجع المحاصيل، فالقمح على سبيل المثال لم يزد إنتاج سوريا عام ٢٠١٢ عن مليوني طن.

كما تدمرت البنية التحتية الزراعية وشبكات الري، ناهيك عن صعوبة الوصول للمناطق الزراعية نتيجة فقدان الأمن في معظم المحافظات السورية الزراعية (الحسكة، حماة، ادلب، الرقة..) وغلاء مستلزمات الإنتاج من مواد أولية وبذار وحوامل الطاقة وفي مقدمتها المازوت، ليتراجع دور القطاع الأكثر مساهمة في الناتج الإجمالي «تساهم بخمس الناتج» إلى أقل من

١٧٪ كما اعترف وزير الزراعة السوري صبحي العبد اللهـ موقع بزنس ٢ وجريدة تشرين السورية تاريخ ٢٨-٧-٢٠١٢ـ بعد أن كانت مساهمة الزراعة تشكل ٣٤٪ من الناتج الإجمالي السوري.

الصناعة

قد يكون القطاع الصناعي من أكثر القطاعات الإنتاجية تأثراً جراء النزاع المسلح في سوريا نتيجة الدمار والنهب الذي تعرضت له المنشآت الصناعية، في قطاع الأعمال على وجه التحديد، فوزارة الصناعة اعترفتـ الوزير عدنان السخني للصحافة السورية ـ جريدة الثورة ـ أن الخسائر التي لحقت بالصناعة السوريةـ يقصد القطاع الحكومي فقط ـ زادت عن ١٫٦ مليار ليرة سورية توزعت ٨٦ مليون ليرة على قطاع التبغ، ٨٫٧ ملايين لقطاع صناعة السكر، ٩٠٠ مليون لقطاع النسيجية، ٦٫٤٥ ملايين ليرة للهندسية، ٤١ مليونا للكيميائية، والباقي للاسمنت والغذائية والأقطان. وآخر المعلومات حول خسائر الصناعة السورية بلغت ٤٢٠ مليون دولار منها أضرار مباشرة تقدر بنحو ٢٨٠ مليون دولار.

بيد أن هذه الخسائر تكاد لا تذكر إن قورنت بالخسائر التي لحقت بالقطاع الخاص الصناعي الذي كان يشكل القسم الأكبر في الناتج الإجمالي أو في التصنيع والتصدير «٦٥٪ مساهمة القطاع الخاص في الناتج الإجمالي». فقد ذكرت دراسة عن الأموال السورية المهاجرة نشرها موقع «إيلاف» الإلكتروني أن ٦٠٪ من المنشآت الصناعية الخاصة في سوريا توقفت عن الإنتاج، منها ما خرج كلياً نتيجة التهديم والقصف والنهب، ومنها ما هرب بعد فك الآلات إلى بعض دول الجوار ومنها تركيا، وأن ١٥ ألف رجل أعمال وصناعي سوري أسسوا ٣٦٥ شركة صناعية في مصر بتكاليف إجمالية زادت عن ١٠ مليار دولار.

اتحاد غرف الصناعة السورية، وفي مذكرة وجهها لوزارة الخارجية المغتربين (تاريخ ٩-١-٢٠١٣) طالباً خلالها مخاطبة الأمم المتحدة عن سرقة وتخريب وخسائر الصناعة الخاصة، وقال الإتحاد في كتابه للوزارة: إن خسائر البنية التحتية الصناعية زادت عن ٦٠ مليار ليرة، وهذا الرقم في تصاعد يومي ومستمر، مضاف له خسائر المعامل والمتاجر وخسائر المبيعات والتي لا يوجد حولها أرقام دقيقة، لكن الرقم يقدر بمليارات الدولارات بحسب ما قال اتحاد غرف الصناعة السورية.

التجارة الخارجية

من أول القطاعات تأثراً بالأزمة السورية، وحتى قبل أن تأخذ طابع الحرب الحالي، هو قطاع التجارة الخارجية، لأن بداية الانتفاضة ترافقت مع عقوبات من الاتحاد الأوروبي طالت حتى تصدير النفط السوري ما سرع في خنق الاقتصاد وضرب موارد الخزينة العامة في مقتل، كما ترافقت مع عقوبات اقتصادية عربية نتجت عن اجتماع وزراء الخارجية

العرب (٢٧-١١-٢٠١١) فانخفضت الصادرات للدول العربية بواقع ٥٢٪ لأن بعض الدول امتنعت عن تنفيذ قرارات الجامعة ووزراء الخارجية العرب الأردن ولبنان والعراق، وأبقت على بعض العلاقات، كما أن بعض الدول العربية وجدت منفذاً لعدم تنفيذ القرارات بما يسمى المواد الإنسانية، وانخفض حجم التبادل مع الاتحاد الأوروبي بواقع ٩٣٪ ومع تركيا(الشريك الإقليمي الأول) بواقع ٨٥٪ بعد أن كانت الشريك الخارجي الأول والمستثمر الأول، إذ بلغ حجم التبادل عام ٢٠١٠ أكثر من ٢,٥ مليار دولار(٣) . ولكن العقوبات وإلغاء اتفاق منطقة التجارة الحرة والاتفاقات الثنائية ألغت كل سبل التعامل التجاري، مضاف لذلك إغلاق الحدود ومن ثم سيطرة الجيش الحر عليها وعلى المنافذ الرسمية بين سوريا وتركيا.

كل ذلك أثر على المعروض السلعي في السوق السورية، وخاصة أن البديل السوري لم يكن جاهزاً، نظراً لاعتبارات عدة منها توقف المنشآت والمصانع عن العمل وخروج معظمها حتى من الأراضي السورية.

ولعل آثار قلة العرض السلعي وزيادة الطلب أثرتا على ارتفاع الأسعار، إذ دل مؤشر أسعار المستهلك إلى ارتفاع بنحو ٦٠٪ نهاية ٢٠١٢ مقارنة بآذار عام ٢٠١١ ما أدى نتيجة إلى ارتفاع نسبة التضخم التي وصلت لأكثر من ٩٠٪ في السوق الهامشية نهاية ٢٠١٢ رغم كل محاولات مجلس النقد والتسليف والضخ الدولاري في السوق للجم التضخم والمحافظة على سعر صرف الليرة.

السياحة

السياحة من أكثر القطاعات السورية تأثراً بالحرب بلا منازع، فكلمة موت ترافقت مع هذا القطاع بعد فراغ الفنادق والمطاعم بشكل شبه تام، وعدم قدوم أي سياح، سوى بعض الإيرانيين، فالقطاع الذي كان يساهم بنحو ١٠٪ من الناتج إجمالي، وصلت مساهمته عام ٢٠١٢ إلى الحدود الصفرية(٤) . نظراً لوقف قدوم السياح الخارجيين إثر فقدان الأمن في سوريا، ونتيجة تقطع أوصال المدن داخل سوريا بعد وصول النزاع المسلح لمعظم الأراضي السورية، رئيس اتحاد غرف السياحة السورية محمد رامي مارتيني قال في تصريحات صحافية «إن الحرب خفضت الإشغال الفندقي إلى أقل من ١٠٪» كما قالت تقارير صحافية منسوبة إلى جهات رسمية سورية إن خسائر القطاع السياحي تعدت ٩ مليارات دولار.

إذاً، يمكن اعتبار السياحة من القطاعات المنهارة بعد نحو عامين من الحرب وفقدان الأمن في سوريا، إذا قالت وزارة السياحة السورية أن انخفاض القدوم السياحي إلى سوريا انخفض خلال الأشهر الأربعة الأولى من عام ٢٠١٢ إلى ٦٥٪ مقارنة بالفترة نفسها من عام ٢٠١١ .

العقارات والبناء

قطاع العقارات والبناء كان الأكثر تضرراً على الصعيد المادي، بعد أن تعدى عدد المباني

المتضررة ٢,٣٦٥ مليون مبنى، ما يعني استغراق ثلاثة سنوات لإعادة إعمارها وتأهيلها فيما لو توقفت الحرب ولم يلحق الأذى مبانٍ أخرى بكلف تقديرية تفوق ٣٥ مليار دولار، أما إن أضيفت مبالغ تعويض المتضررين عن تهديم البنى والمباني فسوف تتراوح بين ٦٠ و٢٠٠ مليار دولار(٥).

ولعل السؤال هنا، أين سكن أصحاب المنازل المهدمة، وما هي الأعداد التي لم تجد بديلاً في الداخل السوري، أو التي لا تملك ملاءة للايجار، ما يعني أنها لجأت إلى دول الجوار التي آوتها بمخيمات ما حوّل أنظار العالم ـ بقصد أو دونما قصد ـ قضية حقوق شعب ومطالبه للحرية والكرامة، إلى قضية لجوء ومساعدات، ساهمت في تكريس النظرة وحرف مسار أهداف الانتفاضة، دول عربية وصديقة، كان أبرزها استضافة الكويت لمؤتمر لمساعدة اللاجئين وتجمع المانحين.

ولعل من الجدير ذكره أيضاً، أن تهديم المباني والبنى تركز على المناطق الداعمة للثورة، أو التي تسمى حواضن للثوار، إذ لم يطل التهديم على سبيل المثال مدن الساحل السوري أو مدينة السويداء، في حين طال التهديم حمص ودرعا وادلب وحلب وبقية المناطق المسماة بالثائرة على النظام السوري.

النقد وسعر الصرف

قبل التطرق للوضع النقدي، قد تقتضي الضرورة البحثية التذكير بالوضع المالي، فقد دلت الأرقام على ارتفاع عجز الموازنة العامة للدولة بشكل كبير بين عامي ٢٠١٠ ـ ٢٠١٢ من ٣,٨ ٪ إلى نحو ١٠٪ وتفاقم عبء الدين العام ليبلغ ٤٠٪ من الناتج المحلي الإجمالي عام ٢٠١٢ مقارنة ب٢٣٪ عام ٢٠١٠... ما يعني أن المجال المالي الذي أتاحه تناقص الدين العام خلال العقد الماضي ـ سوريا الأقل مديونية ـ تم استنفاده بالمطلق.

كما لا بد من التذكير أن حجم القطع الأجنبي في المصرف المركزي السوري كان بنحو ١٨ مليار دولار قبيل آذار ٢٠١١ بحسب التصريحات الرسمية، وأن سوريا كانت في طور جدولة آخر مديونيتها الخارجية.

أما لجهة النقد، فمنذ بداية الاحتجاجات الشعبية في سوريا، سلك النظام طرائق اقتصادية إلى جانب الحل القمعي العسكري، منها تثبيت سعر الصرف مترافقاً مع قلة المعروض النقدي الأجنبي في السوق السورية نتيجة عوامل عدة منها تراجع تحويلات المغتربين، تراجع السياحة وتراجع إيرادات الصادرات النفطية، ما أدى إلى قلة المعروض الدولاري خاصة في سوريا، ورافقه زيادة على الطلب، أيضاً لأسباب عدة، منها اقتصادية نتيجة تحويل الأموال للخارج، أو اقتصادية نفسية نتيجة الخوف على الليرة السورية من الانهيار، لكن النظام ـ كما أسلفنا ـ ركز بشكل كبير على حماية العملة السورية من الانهيار عن طريق التدخل المباشر من قبل المصرف المركزي وبعض شركات الصرافة المتعاملة معه، في ضخ دولاري مباشر في السوق

السورية، ولكن رغم كل المساعي والتدخل في السوق النقدية، فقد «ارتفع مؤشر أسعار المستهلك بأكثر من ٦٠٪ بين آذار ٢٠١١ ونهاية ٢٠١٢ لتخسر الليرة السورية «التضخم» ما يزيد عن ٦٧٪ بالنسبة لنشرة الأسعار الرسمية وأكثر من ٩٠٪ في السوق الهامشية السوداء من قيمتها كحد أدنى، فقد كان سعر صرف الدولار في آذار ٢٠١١ يتراوح بين ٤٧-٥٠ ليرة والآن يتراوح بين ٧٠-٧٢ ليرة رسمياً، ولا من سعر محدد وثابت في السوق السوداء إذا تعدى عتبة ١٠٠ ليرة للدولار الواحد «.[٦]

القطاع المصرفي والسوق المالي

قيل وعبر وزير المال محمد الحسين عام ٢٠٠٩ أن الإيداعات في المصارف الحكومية زادت عن تريليون ليرة سورية، ولكن وفي أول تقرير لسوق الأوراق المالية في سوريا عن تراجع الودائع «نيسان ٢٠١١» قال التقرير: إن ودائع المصارف الخاصة في سوريا تراجعت بنسبة ٣٥٪، وقال حاكم مصرف لبنان المركزي رياض سلامة: «إن أعمال المصارف اللبنانية الخاصة في سوريا تراجعت بنحو ٤٠٪ منذ بدء الأزمة، وكانت قبل الأزمة تشكل نحو ٦٠٪ من إجمالي الأصول لدى المصارف الخاصة السورية و٧٠٪ من الودائع و٥٧٪ من إجمالي القروض.

أما المصارف الحكومية فقد شهدت تراجعاً حاداً في الإيداعات لدرجة الخوف على رأس مال المصارف بعد منح القروض ما دفع وزير المال محمد جليلاتي منتصف عام ٢٠١٢ للطلب إلى المصارف بوقف القروض بكافة أشكالها والاستمرار بالتسهيلات الائتمانية القائمة فقط.

لكن المصارف الحكومية الآن تدرس إعادة منح القروض المتوقفة-بحسب صحيفة الثورة الحكومية (٢٧-١٢-٢٠١٢) لأن المؤشرات ايجابية في المصرف العقاري والتجاري ومصرف التوفير، لأن منح القروض الشخصية لن يؤثر على السيولة، لكن تلك المصارف لم تعاود منح القروض حتى تاريخه.

وفي تقرير لسوق دمشق للأوراق المالية قال حول نتائج أداء المصارف السورية الخاصة لعام ٢٠١٢٠: لقد تصدر بنك بيبلوس الخسائر ومن ثم المصرف الدولي للتجارة والتمويل ثم بنك سوريا والمهجر فمصرف فرنس بنك، وأفصح التقرير أن نحو ١١ مصرفاً سوريا خاصاً تكبد خسائر فاقت ملياري ليرة خلال النصف الأول من عام ٢٠١٢.

أما الجهة بورصة دمشق الناشئة (بدأت عام ٢٠٠٩) فثمة مؤشرات تدلل على تدهور أدائها وخسائر متوالية للأسهم المدرجة فيها، رغم مكابرة النظام السوري على الإبقاء على جلسات التداول ليعطي مؤشرات معنوية للمراقبين، وعلى سبيل المثال: بلغت قيمة التداولات ليوم الإثنين ٦ آب عام ٢٠١٢ نحو ١٢٥ ألف ليرة سورية (أقل من ٢٠٠٠$) ولتنخفض قيمة التداول في اليوم التالي ٧ آب إلى نحو ١٩ ألف ليرة سورية (نحو ٢٨٠ $) لتكون خسائر البورصة بحسب تقارير السوق نحو ٦١٫٦ مليار ليرة على أساس القيمة

السوقية لجميع الشركات المدرجة حتى نهاية ٢٠١٢، أما إن أخذنا ما لحق الليرة السورية من تضخم، فقد تكون تلك الخسائر مضاعفة.

قطاع النفط

يتراجع إنتاج سوريا من النفط تدريجياً رغم ما يقال عن اكتشافات جديدة، فسوريا التي بلغت ذروة إنتاجها عام ١٩٩٥ بنحو ٥٩١ ألف برميل يومياً، لم يزد إنتاجها اليومي قبل الانتفاضة عن ٢٨٠ ألف برميل، لتكون الصادرات يومياً بنحو ١٥٠ ألف برميل عام ٢٠١٠ بقيمة ٥,٥ مليار دولار- إحصاءات التجارة الخارجية الرسمية- ولكن نتيجة الحصار الذي فرضته دول الاتحاد الأوروبي- المستورد الأول- مطلع الانتفاضة أدى إلى تراجع شبه تام للتصدير النفطي، بيد أن تبادلات تتم مع روسيا، «الخام مقابل المشتقات وربما السلاح» وبعض الصادرات عبر العراق وإيران- مصادر غير رسمية- جعلت تقديرات عائدات الحكومة من صادرات النفط أقل من ٤ مليار دولار أمريكي عام ٢٠١٢.

في الآونة الأخيرة، سيطر الثوار على حقول نفط عدة في شمال شرق سوريا «دير الزور» بحسب المرصد السوري لحقوق الإنسان، لكنهم لم يتمكنوا من السيطرة على محطات التكرير، ما عزز شائعات، نقلتها الفايننشال تايمز، بأن نقل النفط إلى العراق أصبح ممكناً وبيعه من خلال الثوار لحرفيين عراقيين بسعر ٤٥- ٨٠ دولاراً للبرميل الواحد.

وواقع العرض لمشتقات النفط في سوريا أقل من الطلب المتزايد بكثير، لأن العقوبات المفروضة على سوريا وزيادة استهلاك الآلة العسكرية وخاصة للمازوت، قلل من توفر المادة ورفع سعرها في السوق السوداء، رغم أن الحكومة السورية رفعت أسعار المازوت مطلع العام الجاري(١٨-١-٢٠١٣) بنسبة ٤٠٪ ليصبح سعر اللتر الرسمي ٣٥ ليرة (٠,٤٠ دولار) لكن ذلك الإجراء وصف لتحسين موارد الخزينة ولم يؤثر على توفير المادة في السوق السورية.

ربما في استمرار الحياة في بعض المناطق شديدة الصراع، مثل درعا وادلب وحلب وحمص، وتجلت مساعدات رجال الأعمال السوريين عبر تشغيل بعض السوريين الهاربين من رحى الحرب إلى دول الجوار والذين بدورهم يضخونها في الداخل السوري، أم عبر المعونات المباشرة المتمثلة بالأغذية والأدوية والألبسة، وأحياناً عبر كتل مالية وصلت لمجالس الإدارات المحلية المنتخبة بعد الثورة.

كما اعترف أحمد معاذ الخطيب رئيس الائتلاف السوري المعارض بضخ رساميل بشكل مباشر إلى الداخل السوري لتصب في مجالس الإدارات المحلية.

وهناك أيضاً تحويلات من بعض السوريين المغتربين لأهليهم في الداخل، كما لوحظ بيع للممتلكات والحلي لمن لم يهاجر كي يستمر على قيد الحياة في واقع قطع كل سبل الاستمرار في بعض المناطق وفي مقدمها حوامل الطاقة كهرباء ومشتقات نفط وبعض الأغذية التي بدأ المنتفضون يعوضونها عبر بدائل وطرائق محلية أو عن طريق إدخالها من بعض دول

الجوار كتركيا والأردن.

تمويل النظام للحرب

يعتبر استمرارية النظام على الإنفاق للحرب ومنح الأجور والرواتب من أكثر المفاجآت، إذ راهن كثيرون على أن انهيار النظام السوري سيكون من بوابة الاقتصاد بعد العام الأول من الانتفاضة، وبخاصة أن الإنتاج الصناعي تأثر لحدود التعطيل ولف سوريا ركود تضخمي خانق، إذ ترافقت قلة الإنتاج مع زيادة الطلب وزيادة الأسعار وتأثر موارد الخزينة العامة، سواء عبر تراجع العائدات الضريبية التي كانت تمول نحو ٦٠٪ من التمويل الفعلي للخزينة، لأن معظم المكلفين بدفع الضرائب توقفت منشآتهم أو تركوا البلاد وهاجروا برساميلهم، وكذا تناقصت الضرائب المفروضة على الاستيراد والتصدير إثر العقوبات والمقاطعة العربية والدولية لسوريا، ليأتي النفط الذي تراجعت مساهمته جراء العقوبات المفروضة على تصديره وسيطرة المعارضة المسلحة على بعض الآبار والمناطق المنتجة، وكذا لجهة فائض بعض المؤسسات الحكومية.

وزاد كل ذلك ارتفاع الإنفاق العسكري غير المدرج اصلاً حسابات الناتج، إذ قدرت دراسات أن ٦٫٦٪ من الناتج الإجمالي السوري اقتطعت للإنفاق العسكري عام ٢٠١٢ أي ما يقارب ٣٫٦ مليار دولار.

وكان الاحتمال الأقرب للمنطق الاقتصادي حول تمويل النظام للحرب جاء من الاحتياطي النقدي الأجنبي ـ ١٨ مليار دولار ـ الذي كان في المصرف المركزي، ومن التمويل بالعجز عبر الاستدانة من إيران وروسيا الاتحادية، من المساعدات الدولية الآتية من الخارج والمنظمات الدولية الإنسانية.

كما أن نزوح ما يقارب ٣ ملايين سوري إلى خارج البلاد، ساعد ربما النظام في تركيز التمويل باتجاه المؤيدين لحربه وتمويل الآلة العسكرية، ولا يفوت عن الذهن هنا أن أهم مصدر لتمويل الحرب في سوريا تأتي من خلال الترسانة العسكرية الضخمة التي جمعتها سوريا عبر عقود بحجة التوازن الإستراتيجي مع العدو الإسرائيلي، والتي تكونت على حساب معيشة المواطن السوري وصحته وتعليمه، حيث لا يعلم حتى الآن، ما هي النسبة المئوية التي كانت تقتطع من الناتج السوري لاستيراد الأسلحة وتمويل القطاع العسكري الذي كان يقدر ـ عسكر أمن شرطة ـ بنحو ربع القوى العاملة في سوريا.

تهديم الاقتصاد وهروب الرساميل

بعد نحو عامين من الاقتتال والحرب في سوريا، بدأت تتركز الآراء ـ موالاة ومعارضة ـ أن الهدف الأساس منها كان تدمير البنية المؤسساتية السوري، اقتصادية، اجتماعية وعسكرية، حيث قدرت الخسائر حتى نهاية العام المنصرم بنحو ٥٠ مليار دولار، ما يعادل ٨١٫٧ من

الناتج الإجمالي السوري في عام ٢٠١٠ ولتتوزع الخسائر ٥٠٪ خسائر في الناتج المحلي و٤٣٪ أضرار في مخزون رأس المال و٧٪ في زيادة الإنفاق العسكري.

أما قطاعياً، فقد كان نصيب الخسائر الأكبر قد لحق قطاع التجارة الخارجية ثم النقل فالاتصالات فالصناعة، ليصل تراجع الاستهلاك إلى نحو ٤٢٪ من خسائر الناتج، وبالتالي يتراجع الإنفاق الاستثماري العام والخاص بسبب تراجع إيرادات الخزينة العامة وازدياد المخاطر.

ما يعني يقدر أن تؤدي الحرب في سوريا إلى نمو سالب في الناتج المحلي الإجمالي بنسبة ٣٫٧٪ لعام ٢٠١١ ونحو ١٩٪ لعام ٢١٠٢ وكذلك لجهة المالية العامة إذ تدلل التقديرات والدراسات أن الحرب في سوريا ستؤدي إلى عجز حاد في عجز الموازنة العامة يصل لنحو ١٨٫٥٪ نتيجة محدودية العائدات وزيادة الإنفاق على الحرب وعلى مؤيديها، ويصل العجز التراكمي في ميزان المدفوعات لنحو ١٦ مليار دولار، ما سيستنفد الاحتياطي النقدي «١٨ مليار قبل الحرب» هذا إن لم يستنفد على استيراد الأسلحة وتمويل الرواتب والأجور ومصاريف الحرب أصلاً.

وعن هروب الأموال ورؤوس الأموال.. فقد أفرزت الحرب أرقاماً كارثية بهذا الصدد أيضاً، فبعد فرز المجتمع السوري مع الانتفاضة الشعبية أو ضدها، وبعد أن طالت نيران الحرب كل المدن والمنشآت وأوقفت إلى حد بعيد عجلة الاقتصاد، بدأت الأموال السورية تتجه إلى البورصات العربية والعالمية، في ظن من أصحابها أن الحرب لأجل، ولكن بعد استمرار المعارك والقصاص من المنشآت الصناعية، نهباً وتهديماً، بدأت الرساميل تتجه لدول الجوار بشكل خاص، الأردن لبنان مصر، حيث قالت الأرقام ـ كما ذكرنا ـ أن نحو ٦٠٪ من المنشآت الصناعية الخاصة في سوريا توقفت عن الإنتاج، منها ما خرج كلياً نتيجة التهديم والقصف والنهب، ومنها ما هرب بعد فك الآلات إلى بعض دول الجوار ومنها تركيا، وأن ١٥ ألف رجل أعمال وصناعي سوري أسسوا ٣٦٥ شركة في مصر بتكاليف إجمالية زادت عن ١٠ مليارات دولار.مرحلة ما بعد النظام

عندما يسقط نظام الأسد في سوريا، رغم عدم وجود موعد محدد للسقوط، وأخص في واقع تراجع الدول التي دعمت الثورة في بداياتها ولكن جدلاً، عندما يسقط النظام ستبرز المطالب الشعبية التي تركز على كل ما كان يعانيه المواطن من سوء في توزيع الدخل وسوء في العدالة الاجتماعية وتساوي الفرص والحريات، ويطالب بنظام مدني ديمقراطي تعددي، لأن سوريا كما قلنا، من الصعب أن تحكم بلون واحد أو أن يسمح شعبها الذي ضحى بآلاف القتلى، أن تعاد الديكتاتوريات ويحكم بنظام إقصائي فردي. وستكون البلاد أمام استحقاقات كثيرة تتأتى من ارتفاع تكاليف إعادة إعمار المدن التي هدمتها الحرب بشكل متباين (درعا، إدلب، حلب، حمص، حماة، ريف دمشق، دير الزور، الرقة..) وتكاليف إعادة المهجرين المقدرين بنحو ٣ ملايين مهجر وخلق فرص عمل لهم وللعاطلين أو الذين فقدوا فرص عملهم أثناء الحرب، تكاليف إعادة تأهيل وإصلاح القطاع الحكومي، صناعي

خدمي وعسكري، تكاليف إعادة تأهيل وتشغيل المنشآت التي كانت ترفد الخزينة العامة بالموارد وعلى رأسها النفطية.

مضاف إلى ذلك تكاليف وتعويضات للمصابين وآل قتلى الحرب والتكاليف المعنوية على مستويات عدية منها إعادة الثقة بالمناخ السوري، سواء للسوريين المهاجرين للعودة، أم لرأس المال العربي والأجنبي ليأتي ويستثمر بإعادة إعمار سوريا.

ولكن كيف يمكن أن يتم كل ذلك، وتؤمن التكاليف إعادة الإعمار والحياة لسوريا وللسوريين، أعتقد أن ذلك سيحدده شكل الحل وسرعته والدول التي ستفرضه، فإذا ما سار الحل السياسي الذي بدأ يطرح حالياً وتم إبعاد شخص الرئيس والإبقاء على بعض نظامه سيكون الحل من خلال مؤتمر وطنيٍ عام يضم كل السوريين بمختلف انتماءاتهم ومشاربهم لتحديد ملامح الفترة المقبلة سياسياً، ويليه مؤتمرات إعمار ومؤتمرات للمانحين ويكون دور الخليج العربيٍ، وأخص السعودية وقطر، الأهم في تمويل إعادة الإعمار، كي تفي تلك الدول بعهودها أولاً، وليكون لها دور على الأرض، ويكون لها أصوات تواجه من خلالها المد الشيعي الإيراني.

خلاصة:

يبدو أن مهمة السوريين في نيل حرياتهم والوصول إلى دولة مدنية تعددية يسودها القانون والعدالة الاجتماعية ليست من السهولة كما ظن البعض، أو كما حدث بالنسبة لدول الربيع العربي، لأن ثمة تبدلات داخلية وخارجية أتت على طبيعة وشكل وربما أهداف الثورة، ما يعني عدم إمكانية تحديد إطار زماني لنهاية الحرب الدائرة في دمشق وبالتالي تحديد الأضرار والتكاليف والخسائر التي يمكن أن تنتج عن ثورة وحرب وصفت بأنها الأبهظ ضمن الثورات التحررية في العصر الحديث، إن لجهة التكاليف والخسائر المالية، أو حتى الاجتماعية والبشرية.


20" BICYCLE

سياسة

اسألوا هذه الفئة من الفلسطينيين عن الثورة السورية !

سليم البيك

لعلّ شعبنا الفلسطيني، بفصائله، أكثر الشعوب التي أصابتها الثورة السورية بالإرباك. إرباك أحدثته مواقف الفصائل الفلسطينية من الثورة، وقبل ذلك تاريخ هذه الفصائل وعلاقاتها المَرَضِيّة مع نظام حافظ الأسد الذي لم يألُ جهداً في احتواء قضية هذا الشعب، فنجح بقدر ولاء بعض الفصائل له، وفشل بقدر عداوته مع ياسر عرفات تحديداً.

الحديث هنا عن الفصائل بمعزل عن الشعب بصفته العامة، أي عن قواعد وقيادات أهم القوى السياسية، والتي يمكن تقسيمها إلى فتح، حماس، الجبهتين الشعبية والديمقراطية، ثم الفصائل الثلاثة التابعة تماماً وتاريخياً للأسد. لكل من قيادات هذه الفصائل موقفها المحدّد بتناقضاته الخاصة، ولكل من هذه القيادات قواعد تابعة تبرّر هذه المواقف بمعزل عن مدى أخلاقيتها.

حركة فتح، التنظيم الفلسطيني الأكبر، المحسوبة على النظام العربي الرسمي والتي لا تقل سوءاً عن أي من أنظمة مبارك وبن علي المخلوعَين، هي، من ناحية نظرية، حركةُ تحرير وطني فلسطيني كانت يوماً من بين التنظيمات الثورية الأكثر جاذبية في هذا العالم، من ناحية أخرى هي حزب سلطة يتمتع بكل مساوئ هذه المكانة عربياً، من ممارسات ممنهجة في

قمع الحريات إلى الاعتقالات والتعذيب والابتزاز مروراً بالفساد والمحسوبيات، وعلى مستوى متقدم عالمياً، إضافة إلى استحداثها طبقتها الخاصة اجتماعياً مدمِجة بين رجال السياسة الانتهازيين ورجال الأعمال الجشعين.

حركة فتح إذن أقرب إلى أي من أحزاب السلطة في بلدان الثورات العربية، لكنها اختارت أن تكون حذرة تجاه ثورات هذه البلاد، فلا تؤيد مطالب الشعوب في العدالة والحرية من جهة، ولا تؤيد جهراً قمعية الأنظمة الساقطة، وتحديداً نظام مبارك أبا السلطة الفلسطينية وفتح. وكذلك بخصوص الثورة السورية ونظام حزب البعث الذي تفوّق عالمياً وتاريخياً ـ وكماً ونوعاً ـ بقدراته القمعية الدموية التي لا يتردد في استهلاكها حتى أقصاها، التزمت «فتح» الحذر والسكوت.

تكون هذه، فتح، كموقف رسمي، لكن الكثير من كوادرها وأنصارها لن ينسوا تلك العداوة الموسمية بين زعيمهم التاريخي أبو عمار وبين دكتاتور سوريا حافظ الأسد ثم ابنه بشار، ما انعكس على مواقفهم فجاءت بمجملها مؤيدة للثورة.

أبناء الجيل الحالي من فتح كبروا على اتفاقات سلام وعلى قادة كأبو مازن وصائب عريقات وأبو علاء قريع ومحمد دحلان وآخرين يمثلون أسوأ ما يمكن أن يكبر عليه أبناء تنظيم هو وريث أساسي (شكلي ومشوه) لثورة أقامها شعب على مدى سنين. هنا أسأل: هل الموقف المؤيد ـ وإن بخجل ـ للثورة في سوريا لدى أبناء فتح أو معظمهم آت من موقف إنساني عام، أم أخلاقي تجاه ثورات الشعوب وتحديداً شقيقهم السوري الذي قدم للثورة الفلسطينية ما لم يقدمه غيره، أم لنقمة قديمة جديدة يحفظونها في قلوبهم تجاه النظام السوري بأَسَدَيْهِ؟

لا يحمل الجيل الحالي من أبناء فتح تلك الروح الثورية التي حملتها أجيال سابقة، لا يحملونها لقضيتهم وحالهم في عاصمتهم رام الله تحكي ذلك، فكيف يحملونها لقضيةٍ غيرها، إن افترضنا شكلياً أن هنالك حدوداً فاصلة بين القضيتين؟

نترك فتح ذات التأثير الأكبر والبائس على الساحة الفلسطينية لننتقل إلى حركة حماس، الخصم اللدود، العدو في أكثر من مرحلة في تاريخ شعبنا، لحركة فتح. حماس كانت التنظيم المدلل للنظام السوري، النظام البعثي الأمني (العلوي سياسياً)، فيما حماس التنظيم الإخواني (السني سياسياً).

كانت الحركة رأس حربة كذبة محور «الممانعة» التي كانت دمشق حاضنته السياسية. في السنة الثانية للثورة انقلبت حماس على النظام، فللقادة حساباتُهم السياسية، قد لا نعرف منها إلا القليل، أما ما أراه فهو أن قيادة حماس انحازت لقواعدها المتدينين بتشدّد، سياسياً وفكرياً واجتماعياً، ما يتناقض مبدئياً مع النظام السوري صاحب العداوة التاريخية مع التنظيم السوري للإخوان المسلمين، فانحازت قيادات حماس لقواعدها كما انحازت وعادت لعقليتها الإسلامية/السنية وتراثها الإخواني، ولن أصدق ما قاله خالد مشعل بأن النظام السوري وقف مع حماس في الحق ولن نقف (كحماس) معه في الباطل.

بعد سنين أُقعدت فيها حماس في حضن النظام البعثي مستثيرة غيرة بقية الفصائل واليسار منها تحديداً، أسأل: هل كان موقف الحركة، قيادة وقواعد، مؤيداً للثورة السورية لأنهم مقتنعون بحرية الشعوب وبعدالة هذه الثورة، أم لحسابات طائفية طفت على السطح بعد أن طفا الطابع الإسلامي للثورة؟

من حماس ننتقل إلى اليسار الفلسطيني بتنظيميه الأساسيين، الجبهتين الشعبية والديمقراطية. التنظيمان، أسوة باليسار الرسمي صاحب التراث الستاليني عربياً وعالمياً، لا يكتفيان بتأييد النظام، بل يبرران جرائمه بحق ثورة الشعب السوري ومظاهراته السلمية، وبحق الكتائب المسلحة التي شكلها هذا الشعب دفاعاً عن ذاته بعد أن عجزت سلمية مظاهراته عن ردع ذخيرة الجيش السوري وقوات الأمن هناك.

تتخذ الجبهتان موقفهما في تناسق تام مع مواقفهما من دكتاتوريات أخرى ميزتها جرائمها تجاه شعوبها، من ستالين إلى ميلوسوفيتش إلى الصين وكوريا الشمالية مروراً بجميع الأنظمة الشيوعية التي موّلت اليسار العربي بما فيه الجبهتين، دون أن ننسى رعاية صدام حسين وحافظ الأسد ومعمر القذافي الكريمة لليسار الفلسطيني، مادياً وبمراحل متفاوتة، كما أن لقيادات هذه التنظيمات رؤوس خدّرتها فكرة الحزب الثوري والنظرية الثورية التي حالت بين هذه الرؤوس وبين فكرة الثورة العفوية التي يطلقها ويقودها الشعب لا القائد الخالد ولا الحزب الطليعي.

ننهي بمرور سريع على تنظيمات لم تتعدّ كونها فروعاً أمنية للنظام السوري تنخر في الجسم الفلسطيني من الداخل، هنا أتكلم عن الصاعقة وهو التنظيم الفلسطيني في حزب البعث، والجبهة الشعبية ـ القيادة العامة وهو تنظيم أحمد جبريل الذي يجرم بحق الفلسطينيين في مخيم اليرموك وغيره، وحركة فتح ـ الانتفاضة التي مثّلت في الثمانينات ما تمثله جبهة أحمد جبريل الآن.

ما تتميز به هذه التنظيمات عن الجبهتين الشعبية والديمقراطية أن الأخيرتين تكتفيان بموقف سياسي وبتبرير جرائم النظام تجاه الشعبين السوري والفلسطيني في سوريا، وأن التنظيمات الثلاثة هذه، وتحديداً جبهة جبريل، تشارك النظام عملياته الإجرامية على الأرض، وأن للجبهتين قواعد تتبع قياداتها في مواقفها السياسية، وللتنظيمات الثلاثة مرتزقة يقبضون مقابل خدماتهم.

هذه إذن مواقف فتح وحماس والجبهتين الشعبية والديمقراطية وثلاثة تنظيمات مرتزقة. وهم بمجملهم يمثلون قدراً لا بأس به من الشعب الفلسطيني، بعضهم يؤيد الثورة وبعضهم يؤيد قامعها، ولكلٍ منهم أسبابٌ قد لا نعرف منها إلا القليل. لكن ماذا عن الشباب، عن الحراك المدني، عن الفئة الفاعلة في المجتمع الفلسطيني (في الوطن والمخيمات والشتات) والناشطة فيه سياسياً واجتماعياً وثقافياً؟ الفئة التي لم تعد تُلحق موقفها السياسي بتنظيمات شاخت وما يزال قادتها «التاريخيون» متشبثين بكراسيهم في المكاتب السياسية واللجان

المركزية؟ الفئات ذاتها التي أشعلت الثورات في كل من تونس ومصر وسوريا، ماذا عن هذه الفئات في المجتمعات الفلسطينية؟

ماذا عن المثقفين الذين تحرروا من تعميمات الأحزاب التي تحول «الديمقراطية المركزية» دون الخروج عنها إلى انحراف فكري؟!

لست هنا أقدم شعباً فلسطينياً ينكر الثورة على غيره، ولا أقول بأن الفلسطينيين إن أيدوا الثورة السورية فلأسباب تخص عداوة زعيمهم مع الأسد أو أخرى طائفية، بل أحكي هنا عن الإفلاس الأخلاقي والسياسي للتنظيمات الفلسطينية ممثلة بقياداتها، تنظيمات تشكّل عبئاً على شعبها الذي بات ينفر منها، تنظيمات تحتاج هي نفسها إلى ثورات داخلية. بل إن أسلوب الحياة السياسية الفلسطيني برمّته يحتاج إلى ثورات تستحدث أحزاباً جديدة وحركات شبابية تشبه هذا الزمن، تشبه هذه الثورات التي أشعلها الشعب لا الأحزاب، حركات تشبه المجتمع والفاعلين فيه، الناشطين الشباب غير المحكومين بقرارات «ختايرة» أحزابهم الأبديين، وهذه هي الأكثرية الآن، هذه الأكثرية الفاعلة وهي وحدها القادرة على إحداث ثورة على النظام السياسي الفلسطيني الرسمي (فتح في الضفة وحماس في غزة) وعلى النظام السياسي الفصائلي ولوثات الجبهتين الشعبية والديمقراطية، وحتماً النظام الاحتلالي في انتفاضة إن اندلعت سيطال لهيبها هذه الفصائل، اسألوا هذه الفئة من الفلسطينيين عن الثورة السورية.

قراءة

آليات السيطرة الغامضة: متاهات نظام الأسد

أمجد ناصر

قد يكون صدور الترجمة العربية لكتاب «السيطرة الغامضة» للكاتبة والأكاديمية الأميركية ليزا وادين في هذه الوقت السوري الحاسم مجرد مصادفة. فهذا الكتاب، الصادر عن دار رياض الريس للنشر، يتناول حقبة الرئيس السوري حافظ الأسد من خلال قراءته للخطاب السياسي السوري الرسمي والرموز والاستعراضات التي عمدت إليها أجهزة السلطة الحاكمة لخلق ظاهرة القائد الذي سيظل على رأس شعبه «إلى الأبد»، فعلى يد الأب بدأت صناعة «الأبد الأسدي» المستنقع بالدم، المرصع بعظام الضحايا، في عهدي الأب والابن على السواء.

إن صدور كتاب ليزا وادين ـ الذي وضع في الأصل كأطروحة جامعية ـ متزامناً مع هذا الوقت السوري الدامي كان مجرد مصادفة على الأغلب، ولكنها المصادفة التي يقال إنها خير من ألف ميعاد، فهو كتاب بحثي رصين قضت مؤلفته سنين عديدة في جمع مادته الأرشيفية ومحاورة سوريين وسوريات من مختلف التيارات السياسية والمذاهب الطائفية أثناء إقامتها في سوريا، وشخَّصت فيه، ببراعة، المكوّنات التي قام عليها نظام حافظ الأسد، واستمرت في العمل من دون تعديل جوهري في عهد ابنه. وبهذا المعنى ليس كتاب وداين عملا دعاويا

ولا هو سيناريو لملمت أوراقه، على عجل، لترافق الدراما السورية الواقعية التي تفوقت، بما لا يقاس، على أي دراما تلفزيونية أو سينمائية.

نقرأ الكتاب ـ الذي نقله إلى العربية نجيب الغضبان ـ فنقع على تواصل مثير للدهشة لحكم الابن (بشار) كأنه امتداد لا شغور فيه، تقريباً، لحكم الأب (حافظ)، ومن دون تغير كبير في أحوال البلاد التي أُخضعت لحكم مزَجَ، بمكرٍ، مرةً، وقسوةٍ، مرةً أخرى، بين شعارات الأيديولوجيا القومية (البعث) والقبضة البوليسيةً الصارمة والاستئثار العائلي بمراكز القرار والتقديس المطرد لشخص الحاكم.

الانقلاب

أخرج من كتاب ليزا وادين قليلاً كي أستعرض وصول مقاليد حكم سوريا إلى يد بشار الأسد. نتذكر أن الرئيس السوري السابق حافظ الأسد كان أحد أركان انقلاب ٢٣ فبراير/ شباط عام ١٩٦٦ الذي قاده صلاح جديد، رجل البعث القوي في تلك الفترة، ضد حكم بعثيّ، أيضاً، مثَّله زعيم الحزب ميشيل عفلق في «القيادة القومية» وأمين الحافظ في رئاسة الجمهورية.

لم يكن حافظ الأسد في الصدارة، تلك المنزلة احتلها صلاح جديد، وإن توارى وراء الرئاسة شبه الفخرية للدكتور نور الدين الأتاسي، وتشير الأدبيات التي أرَّخت لحزب البعث في سوريا إلى أن خلافات حادة اندلعت بين صلاح جديد وحافظ الأسد على خلفية تعميق المحتوى اليساري لحزب البعث الذي أخذ يقترب في ظل قيادة صلاح جديد، من مفاهيم الماركسية اللينينية، وهو توجّه ناهضه على ما تقول تلك الأدبيات، حافظ الأسد ذو الميول السياسية المحافظة والمتطلّع إلى انفتاح أكبر على العالم الغربي.

غير أن انفجار الموقف بين الرجلين لم يحدث إلا في عام ١٩٧٠، عندما قاد الأسد انقلاباً على رفيقه صلاح جديد وأركان النظام القائم الذي شغل فيه الأسد حتى تلك اللحظة منصب وزير الدفاع وقائد القوات الجوية. اعتقل صلاح جديد، وسائر أركان قيادته، وأطلق حافظ الأسد على انقلابه اسم «الحركة التصحيحية»، أي الحركة التي ستصحح المسار «المنحرف» لحزب البعث بقيادة صلاح جديد.

ومن المعروف بالطبع أن صلاح جديد توفي في السجن بعد نحو ثلاثة وعشرين عاماً من الاعتقال، فيما أُطلِق سراح الرئيس نور الدين الأتاسي كي يموت خارج السجن بعد فترة قصيرة من اطلاق سراحه.

كان انقلاب حافظ الأسد على رفيقه صلاح جديد آخر انقلاب عسكري تعرفه سوريا، حيث دخلت البلاد حالة من «الاستقرار» القائم على قبضة أمنية صارمة لم تعرفها البلاد من قبل، أخمدت كل صوت معارض للنظام وأمَّنت لحافظ الأسد فترة طويلة من الحكم استمرت نحو ثلاثين سنة، ومكّنته بالتالي من توريث الحكم الجمهوري، في أول سابقة عربية من

نوعها إلى ابنه ومدّه ببعض «الاستقرار».

كان حافظ الأسد، كما هو معروف، يعد ابنه الأكبر باسل الذي تلقى تربية عسكرية لخلافته غير أن حادث سير على طريق مطار دمشق أودى بحياته فانتقلت عملية «التأهيل»، حثيثاً إلى الابن الثاني بشار الأسد، طبيب العيون الذي لم يكن قد بلغ السنَّ القانونية التي ينص عليها الدستور السوري لرئاسة الجمهورية عندما توفي والده عام ٢٠٠٠، فجرى تغيير تلك المادة الدستورية سريعاً كي تناسب عمر بشار الذي كان في الخامسة والثلاثين من العمر، بينما كانت المادة المعدَّلة من الدستور تنصُّ على أن يكون عمر رئيس الجمهورية أربعين عاما.

الأخ الأكبر

أعود إلى كتاب «السيطرة الغامضة» لليزا وادين الذي أقتصر مقاربتي له من زاوية «صناعة الدكتاتور» أو «تقديس الزعيم»، يبدو حافظ الأسد، كما تقرأ وادين فترة حكمه، شبيها بالأخ الأكبر في رواية «١٩٨٤» لجورج أورويل. إنه «حاضر في كل مكان وهو عالم بكل شيء»، هذا ما دأب الخطاب السياسي السوري الرسمي على تقديمه للسوريين.

لم يكن الأمر كذلك في بداية حكمه ولكنَّ صورة «القائد الخالد» راحت تظهر شيئاً فشيئاً إلى أن أصبحت «أيقونة» الحياة السورية العامة، لم يعد هناك مكان ليس فيه صورة أو تمثال لحافظ الأسد، ففيما كان زعماء البعث السابقون يتوارون وراء شعارات الحزب، ليس لهم صور ضخمة في الشوارع وبالكاد يطلون مباشرة على «الجماهير»، عمد أركان حكم حافظ الأسد بتشجيع منه إلى تحويل «المجرد» (القائد) إلى ملموس.

لم يعد «الرفيق المناضل» شبحاً في مقر «القيادة القطرية»، ولا مجرد عسكريٍّ ببزةٍ كتانيةٍ في وزارة الدفاع، إنه حاضر في حياة السوريين اليومية، صوره وتماثيله في كل مكانٍ، تراه في كل عدد من الصحف اليومية وفي مقدمات نشرات الأخبار التلفزيونية، وعلى واجهات المباني العامة بصور تبلغ أربع أو خمس مرات الحجم الطبيعي.

صناعة الصورة

إذا كانت صور حافظ الأسد قد بدأت في الظهور بُعيد حركته «التصحيحية» فإنها لم تبلغ حديَّ التعظيم والتقديس سوى في فترة لاحقة، وليست هناك بداية محددة لظهور محاولات التعظيم. تقول الكاتبة إن مصادرها في دمشق أخبرتها أن حافظ الأسد هو الذي شجَّع هذا الاتجاه في الوقت الذي رأى فيه وزير إعلامه جورج صدقني (١٩٧٣ ـ ١٩٧٤) أن وضع صور الرئيس على أغلفة الكتب المدرسية «يثير (حساسيات دينية)»!

ويبدو أن الفضل في النقلة التي عرفتها حملة تعظيم الأسد وترقيتها إلى مستوى التقديس تنسب إلى وزير إعلامه الشهير أحمد إسكندر أحمد (كما يشير إلى ذلك باترك

سيل في كتابه عن حافظ الأسد)، الذي أدار الإعلام السوري بدءاً من عام ١٩٧٤ وحتى وفاته عام ١٩٨٣ .

توضح ليزا وادين أن أحمد إسكندر أراد من خلال العمل على تعظيم رئيسه وصولاً إلى حد القداسة أن يواجه توترات الحياة السورية العامة أثناء المواجهات العنيفة مع «الإخوان المسلمين» التي توّجت بمجزرة وقعت في حماة راح ضحيتها نحو عشرين ألف مواطن سوري عام ١٩٨٢ .

ما يبدو مهما في حملة تعظيم شخصية حافظ الأسد أنها استطاعت أن تحوّل الاهتمام من الحزب والسلطة إلى شخص الرئيس نفسه، فلا صورة تعلو على صورته، وحتى الشعارات والأفكار والمفاهيم التي سبقته، ولم يكن له فيها يد، بدت من صنعه ومن لدنه. في ما مضى كان الحزب هو السلطة العليا في سوريا، الحزب هو قائد الدولة والمجتمع، فصار حافظ الأسد، بُعيد سنوات قليلة من استيلائه على الحكم، هو الحزب وهو القائد وأصبح الحزب مجرد لافتة، أو ورقة توت تستر عري نظام فردي لا مرجع له سوى الرئيس القائد.

اختراع سوري بحت

اقتبس حزب البعث، ونظامه في سوريا، الكثير من المفاهيم النظرية والتطبيقات العملية من الأنظمة الاشتراكية الأوروبية الشرقية لكن «تقديس القائد» كان إضافة سورية خالصة، قد تشاطرها فيه دولة اشتراكية واحدة هي كوريا الشمالية، عدا ذلك لم يكن للأمين العام للحزب أو رئيس الجمهورية في «المنظومة الاشتراكية» السابقة هذا الحضور الكليّ الضاغط الذي بدا فيه حافظ الأسد في حياة السوريين.

تقول ليزا وادين في كتابها «يصور حافظ الأسد في الخطاب السياسي السوري المعاصر، عموما، على أنه حاضر في كل مكان وأنه عالم بكل شيء، ويظهر الأسد من خلال الصورة المنشورة في الصحف بصورة «الأب» و»المناضل» و»المعلم الأول» و»منقذ لبنان» و»القائد إلى الأبد» و»الفارس الشهم» (في إشارة إلى أنه صلاح الدين الأيوبي المعاصر) اقتفاء لأثر صلاح الدين الأصلي الذي استعاد القدس من سيطرة الأعداء الصليبيين. (...)

وتشهد الأيقونات ذات الصبغة الدينية والشعارات التي تزين الأبنية ونوافذ السيارات وأبواب المطاعم، «بخلوده»، وتشكل هذه الحالة إحدى العلامات المميزة للنظام الأسدي. لكن هذه الصورة المفروضة على السوريين لم تخلق، برأي ليزا وادين، قناعة عميقة بجوهرها، فالاصطناع فيها واضح، والسوريون يستهلكونها على مضض، فلم تكن تلك الصورة هي التي ركّعت السوريين وكتمت أصوات معارضتهم للنظام بل آلة قمعه الرهيبة.

وفي هذا السياق تلاحظ الكاتبة أن الحماسة التي كان يبديها الجمهور العريض لأي ظهور لجمال عبد الناصر، مثلاً، في مناسبة عامة لم تكن هي نفسها التي يبديها الجمهور السوري (ناهيك عن العربي) لحضور حافظ الأسد في مناسبات مماثلة، حتى وإن كان

عدد «الخارجين» لتحيته مماثلا، فثمة شيء مصطنع في الحالة الثانية، ثمة شيء ممسرح فيها، ثمة إعداد مسبق من المطبخ الداخلي لصانعي صورته لابراز «حضوره» الجماهيري. فالسوريون ـ كما تقول ليزا وادين ـ قد أجبروا في وقت من الأوقات على «تطويع مواهبهم» لخدمة الدعاية الرسمية، فـ«الشباب طالما دعوا للمشاركة في المسيرات التي تنظم من قبل (المنظمات الشعبية)، والشعراء وأساتذة الجامعات والفنانون والكتاب المسرحيون مطالبون، بشكل دوري، بالمساعدة في ترتيب الاستعراضات الشعبية وأن يسهموا في الحفاظ على مظاهر تعظيم الأسد، كما يطلب من اتحادات العمال والفلاحين وأعضاء المنظمات المهنية أن يحيوا الشعارات والمظاهر التي تمجد» الحزب والرئيس.

سياسة «المقاومة»

وبصرف النظر عن ما إذا كانت محاولات صنع أسطورة الأسد وتقديس شخصه قد نجحت في «تطويع» السوريين أم لا، فإن مواهب حافظ الأسد الشخصية غير الكارزمية في طبيعتها وجوهرها تكمن في مكان آخر، إنها في إنتاجه نظاماً أمنياً متاهياً بامتياز، في ذلك العدد من أجهزة الأمن التي لا تكتفي بمراقبة المواطنين وإحصاء أنفاسهم، بل ربما في مراقبة بعضها بعضا.

بالإمكان، هنا، إضافة «السياسة الخارجية» إلى مواهب الأسد الأب، فقد تمكّن الرئيس الراحل من صنع سياسة خارجية قائمة على الجملة القومية وفكرة مقاومة المحتل والأطماع الغربية في المنطقة للتغطية على سياسته الداخلية المرتكزة إلى تركيع المواطنين عبر أجهزته الأمنية المتعددة. كما استخدم حافظ الأسد في براعة أيضاً، الموقع الجيوبوليتيكي السوري لإدامة نظامه ومدّه بشرايين حياة وأطواق نجاة كلما ضاقت عليه السبل، وها هي الجغرافيا السياسية السورية تعمل بكل كفاءة.

لكن «سياسة المقاومة» السورية اكتفت، غالباً، بالإنشاء السياسي والبلاغي ولم تتعد ـ في قضية الجولان المحتل مثلاً ـ حدود الكلام، إذ لم تشهد جبهة تشرف على حدودها قوات دولية الهدوء المطلق الذي شهدته الجبهة السورية مع إسرائيل. إنها الجبهة التي كان يسترخي على حدوده فيها جنود «القبعات الزرق» تحت سماء لا تعكّر صفوها طلعة طيران سورية واحدة، أو تخرق هدوءها رصاصة واحدة من الجانب السوري. وهذا لا تراه، للأسف، بعض القوى اليسارية العربية التي تقف، صمتا أو علنا، مع نظام يقصف شعبه بصواريخ «سكود» وربما بالأسلحة الكيماوية.

وبين نظامي الأب والابن تغيرت شعارات «المقاومة» ولم يتغير محتواها، ففي عهد حافظ الأسد كانت هناك شعارات «الصمود والتصدي» و«التوازن الإستراتيجي» مع إسرائيل، الذي لم يتحقق قط، فيما تميز عهد ابنه بشار في شعار «الممانعة». ورغم فراغ محتوى هذه الشعارات إلا أنها أمنت للنظام موقعاً خاصاً بين الدول العربية التي عقدت صلحاً منفرداً مع

إسرائيل أو تلك التي تسعى لإقامة علاقات معها من تحت الطاولة.

بقاء سوريا في منتصف المسافة بين الحرب والسلم هو استراتيجية مدروسة ورثها الابن من عهد أبيه وسار عليها، ونجحت في بقاء النظام كل هذا الوقت من دون «مغامرة» عسكرية أو سياسية تنال من بريق «مقاومته» و»ممانعته.

تحطيم الرموز

وأخيراً لم تكن مجرد مصادفة أن تبدأ الانتفاضة السورية ضد النظام الأسدي بتحطيم «الأيقونات»، من درعا إلى الرقة مروراً بكل مدينة وبلدة وصلتها الانتفاضة، كانت تماثيل حافظ الأسد وابنه باسل والصور العملاقة لبشار الأسد هدف المنتفضين الأول. أدرك شباب الانتفاضة أنَّ تحطيم النظام مادياً يبدأ بتحطيمه رمزياً. كسر جدار الخوف يبدأ من الأنصاب التي تمثل رمزاً للخوف والتركيع والقهر.

كما أن ليس من الصدفة في شيء أن المدن والبلدات السورية التي تجرأت على تحطيم رموز «التطويع» هي التي تعرَّضت إلى تنكيل أكبر من غيرها. لم يسقط نظام بشار حتى الآن على المستوى العسكري (قد يكون سقوطه مسألة وقت) ولكنه سقط على المستوى الرمزي. الانتفاضة السورية أفقدته «شرعيته»، حطَّمت أيقوناته وأزاحت، جانباً والى الأبد، هالات الخوف والقداسة التي أحيطت بها.

يقال إن النظام السوري براغماتي ونفعي وكاظم للغيظ وإنه قليلاً ما يستشعر الإهانة التي توصف عادة بأنها أمرّ شعور يخالج العربي، ولكني أزعم أنَّ هذا الشعور بالإهانة، بل بالرعب، قد أحسَّت به الحلقة العائلية الحاكمة في سوريا عندما كانت ترى «أيقوناتها» تتهاوى واحدة بعد الأخرى. كل تمثال عائلي سقط، كل صورة عملاقة للأب والابن والأخ هوت على الأرض كانت تهزُّ الحكم من أعماقه، وتؤسس لسقوطه.

سياسة

سوريا : فريسة الأسد

فرج العشة

غداة موت الأسد الأب نُصِّب الأسد الابن: بشّار. والمعروف أنه لم يكن مرشحاً لهذه المهمة. فقد كان أخوه «باسل» الوريث المفضل للوالد. لكن القدر عبث بالإطارات. فوجد نفسه، أراد أو لم يرد، الوريث الضروري للخلافة. ويمكن القول أن غالبية السوريين استبشروا به خيراً. فهو طبيب العيون المهذب الخجول. بمعنى أرحم من أبيه الراحل وعمه المنفيّ (رفعت)، غاضين الطرف عن طريقة تنصيبه المفضوحة عندما قام «مجلس الشعب» بتعديل الدستور، في جلسة خاطفة، كي يتناسب شرط عمر الرئيس مع عمر شبل الأسد. كان السوريون مدركين لطبيعة السلطة التي تحكمهم بمقتضى: مات الأسد عاش الشبل. ثم أن التاريخ قد يحتمل تزويرات كبرى إذا كانت النتيجة صائبة.

عمّ تفاؤل رحب داخل سوريا تطلعا إلى الإصلاح والانفتاح. وظهر الشبل من ذاك الأسد نجماً لامعاً في مؤتمرات «القمة العربية». يتحدث بحيوية ممانعة شابة ويطرح تحليلاته الاستراتيجية الذكية لطبيعة التحديات التي تواجه «الأمة» وكيفية مواجهتها، بلغة متفلسفة: «لأن التحديات هي التي تحدد ما هي الحلول..» على حد تعبيره.

وكان معظم زملائه العِتاق، من الطغاة المؤبدين، ينصتون إليه بامتعاض، متحدثين في أنفسهم: إلى متى يستمر هذا «الزميل الغر» في إزعاجنا بالحديث عن: «مآس تكبر وتصغر، وتستمر، ومخطط بياني، الذُرى فيه تدل على ذروة استهداف العرب والحضيض فيه يدل

على الحضيض في الأداء وفي الواقع العربي . . . »؟

لكن سرعان، بمعنى بضع سنوات، ما تبخرت الأقوال الفارغة من الأفعال . فهو، في الجوهر السلطوي، يحكم سوريا بالطريقة التي كان يحكم بها أبوه . فرغم الإصلاحات والانفراجات الداخلية التي أحدثها وبدأت مبشرة، ما كان له، حتى لو أراد، أن يخرج عن الدور المرسوم له بحسبان توريثه الحكم كان ضروريا لمصلحة العائلة . الطائفة الحاكمة وليس لمصلحة سوريا الوطن . وحيث تحولت، على يد الأسد الأب، مهمة حزب البعث التاريخية من بعث النهضة والقوة في الأمة إلى بعث الطائفة والعائلة في حكم مفاصل الدولة؟! بدليل أنه لم يمض سوى حوالي ستة أشهر على تفتح « ربيع دمشق » في الجو الإصلاحي المُشاع عقب تنصيب « بشّار » العام ٢٠٠٠ حتى عُصف به على أيدي الأجهزة الأمنية التي نفذت أوامر السلطة العليا بتجميد نشاط المنتديات الفكرية والثقافية والسياسية .

وعلى قصر الفترة (٦ أشهر تقريباً) إلا أنها شهدت مناقشات سياسية واجتماعية ساخنة من ناحية، ومن ناحية أخرى فقد كان لها صدى ما زال يتردد في النقاشات السياسية والثقافية والفكرية السورية حتى اليوم . كان ربيع دمشق فرصة رأي فيها الكثيرون طريقاً نحو التغيير الديمقراطي في سورية بالتوافق ما بين السلطة والمجتمع، مما قد يجنب البلاد الكثير من العثرات . خصوصاً بوجود معارضة سورية، وطنية، تؤمن بالتغير السلمي والتدريجي، وظهور موقف من قبل الإسلاميين يتلاقى مع مواقف المعارضة الأخرى .

لم تكن حركة ربيع دمشق تستهدف سلطة « الأسد الشبل » . بل كانت على استعداد تام للالتفاف حوله ومساندته في مسيرة الإصلاح والتغيير، نحو تحول ديموقراطي سلمي وتدريجي . وليأتي يوم، كما قال« الأسد الشبل » لوفد إعلامي أمريكي، يتخلى فيه عن منصبه عبر صندوق الاقتراع . كان يجتهد، بحسبان، للتعويض عن شرعيته المزورة (دستورياً) بإحداث انفراجات اقتصادية ملموسة، وتنفيسات سياسية طفيفة، وجدت تعبيرها في توسيع، محسوب ومراقَب، لهامش حرية الرأي، حتى صار مسلسل « بقعة ضوء » أحد كبائر علامات تسامحه المائزة من باب انتقاد الفساد والإفساد وبعض ممارسات استبداد الأجهزة الأمنية . ولكن بشرط توقفه عند مستوى الحكومة دون تجاوزها إلى حيز النظام (العلوي ـ بضم العين، حتى لا نقول العلوي ـ بفتح العين) !

ولأن « الشبل » ورث حكم الأب فقد ورث معه، كذلك، وبالضرورة، أركان حكمه : جنرالات المؤسسة العسكرية وشتى أنواع أجهزة والأمن وطبقة الخدمقراط، وفوق كل ذلك حزب البعث الشمولي، بخطابه المحنط ولغته الخشبية، متسلطا على الحياة السياسية . ولأنه رهين ما ورث صار صنيعة ميراثه . وحدث أن انفجرت وراء ظهره لبنان .

لم يكن انفجار موكب رفيق الحريري إلا القشة التي قصمت ظهر الوجود السوري في لبنان . كان عليه، لو كان يريد حقاً نقل سوريا خارج منظور قبر الأب، سحب الجيش السوري من لبنان منذ لحظة وصوله إلى السلطة، دون أن تفقد سوريا مكانتها في لبنان،

بل كانت لتزداد قوة... لكنه ما كان ليفعل سوى ما فعل. فهو، في نهاية التحليل، مجرد واجهة تلطيف إصلاحي. كريم «نيفيا» لترطيب وجه السلطة العائلية ـ الطائفية المتجهم الممقوت. كان يطلب الإصلاحات على جاري: «اطلب التحايلَ ولو في الصين»!. بمعنى اعتماد المبدأ الصيني في تسريع الانفتاح الاقتصادي مع فرملة الانفراج الديموقراطي. أي لبرلة الاقتصاد مع الإبقاء على نهج الحزب الأوحد الحاكم. وثمة تصريح لبشّار إلى صحيفة الشعب الصينية خلال زيارته لبكين، حين قال: «سأقوم بـ زيارات لعدة مواقع اقتصادية وتكنولوجية، وسأحاول الاستفادة من خلالها من التجربة الصينية.. ومعنا وفد كبير من رجال الأعمال ومن المسؤولين أيضاً بهدف الاستفادة قدر الإمكان من التجارب الصينية.»

لكن ذلك لم يخدم التنمية الاقتصادية ولا التنمية السياسية. فهو لم يكن ليجاري «حاكمية» الصين الحكيمة. حيث تغيرت القيادات الصينية للحزب الشيوعي وللدولة عديد المرات. وقام مشروع التحول الاقتصادي التنموي على أساس بعث الصين قوة اقتصادية كونية عظمى (ثاني اقتصاد عالمي اليوم). بالطبع لا وجه للمقارنة بين مقدرات الصين ومقدرات سوريا إلا من باب كشف سذاجة التحايل «البعثي». فالحكم ظل في العائلة «الأسدية» فيما حزب البعث، «قائد المجتمع»، ليس، في واقع الأمر، سوى إجراء إقطاع سياسي في خدمة (العائلة ـ الطائفة) المسيطرة على مفاصل السلطة: سياسياً وعسكريا وأمنيا واقتصاديا وثقافيا... بالقمع والفساد والإفساد. ولأن ما أطلقه «شبل الأسد» من وعود لم تكن سوى نيوب شبل يبتسم.

انتفض الشعب السوري، عندما نضجت الظروف أوان «الربيع العربي» المتطهِّر بنار «بوعزيزي». انبثقت الانتفاضة السورية الشعبية: سلمية سلمية سلمية... فردَ عليها بشار، الحاكم بأمر خيال أبيه صاحب «حماه»، بالحديد والنار. فكانت أسطورة الحارة في مسلسل الدم والدموع والأمل العنيد. اندلعت الشرارة الأولى في «درعا» لكن هذه المرة لم تكن «درعا ـ ٢٠١١» وحدها مثلما كانت «حماه ـ ١٩٨٢». في «درعا» على الحدود الجنوبية مع الأردن ثار الأهالي مطالبين قوات الأمن بإطلاق سراح أبنائهم الصبية الذين كتبوا شعارات تطالب باسقاط النظام بتأثير من ثورات الربيع العربي. فجاء الرد الأمني بالرصاص الحي حتى داخل حرم «الجامع العمري». لكن التظاهرات انتشرت في ربوع المحافظات والمناطق السورية رافعة شعار «حرية حرية» الذي تحول فيما بعد «الشعب يريد إسقاط النظام» بعدما أعلن الطاغية الابن، طبيب العيون «المهذب»، حربه التدميرية الشاملة، بكل ما تحت أمرته من جيش مطيع وشبيحة قتلة مأجورين. فكان لفعله الدموي التدميري رد فعل عنفي تحرري مضاد، تمثل في تشكيلات الجيش السوري الحر. دون أن نغفل تسرب مقاتلي الأصولية «الجهادية» الباحثين دوما عن تذاكر للحظوة بـ الحور العين. لكنهم ليسوا صناع ثورة. إذ أن عماد الجيش السوري الحر مسلحون مدنيون وجنود وضباط منشقون. بينما عماد جيش «بشار» كتائب الأقلوية المزودة بأعتى الأسلحة وإليها أدواته الحكومية والمخابراتية والحزبية

والشبيحة المليشاوية والشبيحة الإعلامية التابعة عن خوف أو مصالح أو لتورط مصيرها بمصير النظام.

ليس بشار ذلك الطاغية الفرد. إنه واجهة لديكتاتورية عائلية ـ طائفية حاكمة في الدولة والجيش والحزب. سلطة قائمة على موروث شبحي للطاغية الأب الحاكم من قبره. وبالتالي لم يكن الطاغية ـ الابن لينظر إلى معالجة الأمر إلا من طريق الحل الأمني على طريقة أبيه وفق «نظرية حماه» وكان مقتضاها التدمير الشامل لنقطة التمرد (حماة) بما يشمل المحيط الحاضن لها بغض النظر عن مساحة التدمير التي تلحق بالبنى التحتية والمدنيين في محيط الأهداف المستهدفة. فقد كان من أهداف العملية أن يطال الدمار والموت الأبرياء أيضا وهم الأكثرية الغالبة، بقصد ترويع ليس فقط سكان «حماة» وإنما كل السوريين بأن الأسد لا يرحم إلا من يخنع... ومعروف أن الإسرائيليين طبقوا «نظرية حماة» التدميرية تحت عنوان «نظرية الضاحية» في حربهم التدميرية على لبنان في يونيو (تموز) ٢٠٠٦. إنه جوهر «نظرية حماه» نفسه ومنطق آلياتها ذاتها نجده في أسلوب ابن الأسد بشار في رده السلطوي التدميري الدموي على الرفض الشعبي السلمي للنظام البعثي الاستبدادي المتحجر.

خارجياً.. راهن النظام البشاري على الموقف الروسي والصيني، وتحديداً الروسي، الذي أعاد إلى الأذهان فيتوات الحرب الباردة. ثم الدعم الإيراني المفصلي، عسكريا واقتصادياً، متصلاً بدعم «حزب الله» وما يمكن أن يفعله من جهة جر إسرائيل طرفاً عدوانيا تدميريا في مشهد «الربيع العربي» إذا ما انقلبت الأمور راساً على عقب.

إن الوضع في سوريا مفتوح على أسوأ السيناريوات. ومن المؤكد أن روسيا والصين لا تناصران النظام السوري لذاته. وهما قوتان عظميان تدركان جيدا أنه مجرد نظام عائلي ـ طائفي بغيض لكنه بيدق من الضروري اللعب به على رقعة الاستراتيجية الدولية، في سياق تحالفهما الضمني ضد الأمبراطورية الغربية المهيمنة (أمريكا ـ أوروبا). والبيدق قد يتم التخلص منه في سبيل كسب نقلة متقدمة. وبالمعنى السياسي البحت فإن الامبراطوريتين (الروسية والصينية) تعانيان من مناطق تفجر داخلي ذات طبيعة دولية: التيبت والإقليم الإسلامي شنغ يانغ الواقع شمال غرب الصين والشيشان وغيرها من الجمهوريات الإسلامية الآسيوية غير المطمئنة في الامبراطورية الروسية، عرضة للثورة والتمرد.

ولكن لماذا اكتفى الروس والصينيون بالامتناع عن التصويت الذي يعني الموافقة ضمنيا في الموضوع الليبيي؟

هنا يدخل العامل الجيوبولتيكي الاستراتيجي الإقليمي الفاعل. فسوريا، عكس ليبيا، تواجه إسرائيل ويحدها لبنان حيث حزب الله المدجج بقدرات حربية نوعية متميزة، أفرادا وتسلحاً، وهناك إيران على وشك إعلان قيام الإمبراطورية الفارسية بخطاب إسلامي شيعي بينما أراضي الإسلام المقدسة واقعة تحت سيطرة عائلة آل سعود التي تعتمد على الغرب كي تأمن من التهديدات الخارجية: منذ مصر عبد الناصر إلى عراق صدام حسين والآن إيران آيات

الله.

ويبقى أخر رهانات نظام بشار الأسد لحفظ بقائه ونظامه وسلامة طائفته التهديد المبطن باستخدام الأسلحة الكيميائية. وهو رهان شمشوني. وقد يلجأ إليه في لحظات اليأس الأخيرة ضد شعبه وربما ضد إسرائيل لإشعال حرب إقليمية واسعة. وعندها سوف تحل الكارثة التي لا يمكن لأحد أن يتصور ما بعدها. إذ أن ما سيطال إسرائيل من هكذا كارثة لن يقل عما قد تحدثه من قتل ودمار في سوريا ولبنان وربما إيران. والغرب يدرك ذلك. لذلك يستبعد حل التدخل العسكري فيما بشار يستعجل بكل قوة القتل والتدمير لديه فرض الهزيمة على المعارضة المسلحة. غير مكترث، عمليا، بالانشقاقات المتوالية في جيشه، بحيث فاق تعداد الجيش الحر الستين ألفاً. ومع ذلك فالحرب لا تزال طويلة. ويتوقف تضيق الخناق حول رقبة النظام على تسارع توسع رقعة الانشقاقات العسكرية عنه بأعداد هائلة. وحتى ذلك الحين فإن النظام الأسدي الذي أعلن حرب السلطة الحاكمة على إرادة المحكومين، سيظل مسيطراً على مفاصل الدولة بفعل القوة العسكرية الضخمة ومصادر الإيرادات المالية والمؤسسات الإدارية الحكومية والوسائل الإعلامية الرسمية وخضوع ساكنة غالبية دمشق/ العاصمة. ولأن الابن الطاغية وجد نفسه يواجه متلازمة «حماة» في كل أنحاء سوريا، اسقط في يده فكرة النصر الحاسم، لا سيما وقد أصبحت قضية الشعب السوري قضية دولية. ومن هنا عمد (بشار) ومعه أركان السلطة الطائفية الأقلوية، إلى تحويل معادلة الصراع من مجال المواجهة الواضحة بين نظام حكم ديكتاتوري ومحكومين ثائرين عليه إلى حلبة صراع دموي تختلط فيها الأوراق الطائفية والإثنية داخليا بأوراق المتصارعين إقليميا ودوليا على سوريا الجيوبولتيكية كل حسب مصائرهم ومصالحهم.

لا شك أن نظام الأسد وبعثه ودولته سوف يندثر. لكن ماذا سيحدث بعد اندثاره؟!..
إنه سؤال برسم المستقبل المنظور!



مقاتل في الجيش السوري الحر (بيت سحم) ـ بعدسة شاب دمشقي

دراسة

الثورة على مستوى المفاهيم

عدي الزعبي

كان من نتائج القمع الطويل في العالم العربي، تثبيت منظومة مفاهيم ملائمة للقمع، تسمح للديكتاتورية بأن تبرّر نفسها فكرياً. حدث ذلك بطرق مختلفة، أهمها تفريغ المفاهيم من أي مضمون ملموس ومُعاش، كما حدث مع مصطلحي الحرية والاشتراكية. لذا على الثورات العربية إعادة النظر بمنظومة المفاهيم السائدة التي تشكّل الإطار الفكري المشترك الذي نستخدمه. التغيير المطلوب على مستوى المفاهيم يشكّل قطيعة مع الأنظمة القائمة، والمنظومة الفكرية المرتبطة بها. يبدو لنا أنّ هذا التغيير محوري لأسباب متعدّدة. على الأرض، أعاد الناس الحياة لبعض المفاهيم التي فُرّغت من مضمونها، كالحرية والعدالة الاجتماعية. من جهة أُخرى، بعض المفاهيم، كالليبرالية والعلمانية واليسار والإسلام السياسي والطائفية والدولة المدنية والدينية إلخ، بحاجة لتوضيح، وربما تغيير في رؤيتنا، في سياق البحث عن حلول للمشاكل المطروحة، وفهم التغيير الحاصل وعلاقته مع المنظومة الفكرية السائدة. يحتاج كل من هذه المفاهيم إلى جهد ودراسة مختصّة على حدة، في سياقات مختلفة. هنا محاولة أولى لطرح موضوع الثورة على مستوى المفاهيم.

ينطلق هذا المقال من المقولة التالية: منظومة المفاهيم التي نمتلكها ونستخدمها ليست ثابتة. هذه المنظومة مرتبطة بالظروف المكانية والزمانية وتتغيّر تبعاً للواقع المعاش والعياني. المفهوم الجامد والنهائي، من وجهة نظر فلسفية، يرتبط بجوهر ثابت أزلي قبْلي. الجوهر

يجعل المفهوم ثابتاً وقابلاً للاستخدام، بغض النظر عن التغييرات والسياقات المختلفة لهذا الاستخدام. من جهتنا، لا نريد القول أنه لا يوجد ثبات نسبي للمفاهيم. ولكن نريد القول أن المفاهيم قابلة للتغيير، ولأسباب مختلفة. لا يوجد مفاهيم ثابتة ونهائية خارج السياقات الاجتماعية ـ اللغوية.

سوف نتناول الموضوع في هذا المقال من زاويتين. سنبدأ بعرض نظري ـ لغوي للمفاهيم المفتوحة. في القسم الثاني، سوف نقترح أن الإجابة على الأسئلة المطروحة حول طبيعة ما يجري في سوريا، بحاجة لأن تعيد النظر بمفهوم الثورة ذاته. المقاربة النظرية في القسم الأول، سوف نطبّقها عملياً على مفهوم الثورة في القسم الثاني.

كرسي فتجنشتين وطيور أوستن الناطقة

المفاهيم المغلقة هي مفاهيم نهائية ثابتة، يحاول البعض الوصول إليها لفهم العالم وتفسيره. على العكس من ذلك، نقترح أنّ المفاهيم مفتوحة وقابلة للتغيير تبعاً لاهتمامات البشر وأهدافهم وآمالهم وظروفهم. المفاهيم المغلقة ترتبط بجوهر خالد أزلي قبلي. السؤال حول الجوهر سؤال قديم يعود إلى أفلاطون وآرسطو. في محاورات أفلاطون نجد أسئلة من قبيل، ما هي الشجاعة؟ ما هي العدالة؟ إلخ. السؤال هنا، هل الإجابة التي نقدّمها لهذه الأسئلة نهائية؟ نعتقد أن لا. لشرح ما نعنيه بالضبط بالمفاهيم المفتوحة، سوف نعطي بعض الأمثلة من أعمال فتجنشتين وج. ل. أوستن.

في تحقيقات فلسفية، يعطي فتجنشتين المثال التالي: «أقول «يوجد كرسي هناك» ماذا لو ذهبت لآخذه وإذ به يختفي فجأة؟ فإذاً هو ليس كرسيا بل وهماً. لكنّنا نراه من جديد بعد بضع ثوان ونتمكّن من إمساكه، إلخ. إذن فالكرسي كان هناك فعلاً ولم يكن اختفاؤه إلا وهم» ولكن افترض أنه يختفي بعد ذلك بوقت قليل ـ أو يبدو وكأنه قد اختفى. فماذا ينبغي أن نقول الآن؟ هل لنا قواعد جاهزة لمثل هذه الحالات ـ قواعد تقول إن كان هناك شيء من هذا القبيل يمكن أن نسميه «كرسي»؟»١

أوستن يناقش المثال التالي: إذا كنتَ جالساً في الحديقة تراقب الطيور، ورأيت طائراً صغيراً في الحديقة يغرّد، ثم فجأة، أخذ هذا الطائر يقتبس من رواية فرجيينا وولف «السيدة دالووي». هل أستطيع القول أنه طائر؟ أم لا، لأن الطيور لا تتكلّم؟ أوستن يقترح أننا لا نعرف، في مثل هذه الحالات، ماذا نقول. اللغة ليست جاهزة للتعامل مع الحالات الاستثنائية. هناك عدة احتمالات. أحدها هو أن ننحت كلمة جديدة لمثل هذه الكائنات. أو قد نستخدم نفس الكلمة، طائر، لتشمل الطيور المتكلّمة. أو ربما سنقول أنه ليس طائرا حقيقيا، أي أن نميّز بين الطيور الحقيقية، تلك التي لا تقتبس الروائيين، والطيور غير الحقيقية، تلك التي تقتبس وولف وكاواباتا وغيرهما.

بالطبع، ليست كل الأمثلة متخيّلة. المثال التالي واقعي: قبل اكتشاف البجع الأسود في

أستراليا، كان الاعتقاد السائد أنّ كل البجع أبيض. مع اكتشاف هذا النوع من البجع في أستراليا، تمّ توسيع مفهوم البجع ليشمل البجع الأسود.

هذه الأمثلة تقترح ما يلي: لا توجد منظومة مفاهيم ثابتة ونهائية، تتيح لنا وصف العالم من حولنا، أو التعبير عن أنفسنا في كافة الظروف. في الظروف الاستثنائية، عندما نواجه حالات استثنائية، لا سابق لها، لا تساعدنا منظومة المفاهيم التي نمتلكها على التعبير عن أنفسنا، أوعلى وصف العالم من حولنا. في مثل هذه الظروف، نحن مدعوون لاتخاذ قرارات تتعلّق باستخدامنا للمفاهيم. بهذا المعنى، المفاهيم مفتوحة وقابلة للتغيير. على العكس من ذلك، فكرة الجوهر تقترح أن المفاهيم مغلقة، ثابتة وأزلية.

في سياق الفلسفة الأنجلو ساكسونية، كان لفتجنشتين وأوستن أهداف مختلفة، تتقاطع احياناً، في رؤيتهما للفلسفة واللغة وعلاقتهما بالواقع. بالنسبة لنا، سوف نقتطع هذه الأمثلة من سياقها الفلسفي ـ اللغوي الأوسع، وسنركّز على فكرة المفاهيم المفتوحة.

هذه المقدّمة النظرية سوف تساعدنا في محاولة إعادة النظر في بعض المفاهيم السائدة. الثورة هي الحالة الاستثنائية، واللغة، مع منظومة المفاهيم المرتبطة بها، ليست مؤهّلة للتعامل مع هذا الظرف الاستثنائي. أي أنّ المفاهيم السائدة ليست جاهزة لاستيعاب الواقع المتحرّك. لذا فالثورة هي أيضاً ثورة على مستوى المفاهيم. في القسم التالي سوف نناقش مفهوم الثورة نفسه من هذه الزاوية.

مفهوم الثورة

نقترح أنّ مفهوم الثورة، كمعظم المفاهيم، هو مفهوم مفتوح وقابل للتغيير. ما يعنينا هنا بشكل مباشر هو النقاش حول ما يجري في سوريا، هل هي ثورة أم لا؟ تبعاً للتحليل السابق، قد لا يكون الجواب ببساطة إيجاباً أو سلباً.

بدايةً، أهمية السؤال حول توصيف ما يجري في سوريا لا ينبع فقط من أهمية التوصيف القانوني للأحداث الجارية. هذا أمر مختلف، لا نود الدخول في تفاصيله هنا. ما يعنينا هنا هو أنّ التوصيف الذي نطلقه على الأحداث في سوريا، سواء كان ثورة، أم تمرّدا، أم انتفاضة، أم حربا أهلية، أم مؤامرة دولية، يحمل حكماً أخلاقياً. هذا التوصيف يحمل معه أيضاً تصوراً للحلول ويحد أو يفعّل من مشاركتنا. على سبيل المثال، الأنظمة العربية، ومن يواليها، تسمّي الأحداث الجارية مؤامرات. الإعلام الغربي يطلق على ما يجري في سوريا مصطلح حرب أهلية. المشاركون في الأحداث، يطلقون على ما يجري في سوريا ثورة. تعكس كل من هذه التسميات أحكاماً أخلاقية وتصورات للحل، وطريقة المشاركة فيما يجري. من هنا أهمية أن نفكّر في مفهوم الثورة بحد ذاته، وعلاقته بالأحداث الجارية.

إذن، هل الأحداث الجارية ثورة٢؟

يبحث البعض عن جملة شروط يراها جوهرية في أية ثورة. من هذه الشروط وضوح

الأهداف والقيادة الفاعلة الموحدة ومشروع فصل الديني عن الدنيوي وتحرير المرأة وحماية الأقليات. وقد نضيف مشروعا بديلا لليبرالية الاقتصادية ومواجِها للعولمة يقف في وجه الامبريالية والصهيونية.٣ هذه الشروط تتكرّر في كتابات محلية، معارضة للنظام أو موالية له، وفي كتابات غربية أيضاً. يبدو هذا تصوراً جوهرياً لمفهوم الثورة، وعلى الأحداث الجارية في الواقع أن تستجيب لهذه الشروط. إن استجابت، فهي ثورة، وإن لم تستجب، فهي ليست كذلك. نرى هذا التصور لمفهوم الثورة إشكالي لسببين:

الأول، تغيب بعض هذه الشروط عن الثورات العربية، ولكنها تغيب أيضاً عن معظم الثورات في التاريخ. غياب القيادة الموحدة عن الثورة الروسية، المتمثل في صراع المناشفة والبلاشفة لم يكن عائقاً أمام الثورة. ربط الديني بالدنيوي، كان في صلب فكر الإمام الخميني، قائد الثورة الإيرانية. التحالف مع الانكليز كان عنصراً رئيسياً ساهم في نجاح الثورة العربية الكبرى. ينطبق هذا التحليل على كل الثورات: أحد الشروط السابقة يغيب عن الثورة دائماً. ليست هذه مبرّرات لعدم تحقق الشروط في الثورات العربية، ربما كان من الأفضل لو تحققت هذه الشروط جميعها. ولكن غيابها لا يمنع أن تكون هذه الأحداث، التي لم تحقق الشروط مجتمعة، ولكن حققت بعضاً منها، ثورات فعلية٤.

ثانياً، وهو الأمر المرتبط مباشرةً بالمفاهيم المفتوحة، ليست الثورات العربية تكراراً لثورات سابقة. كل ثورة لها ظروفها الخاصة، المكانية والزمانية. لا توجد ثورات متطابقة، ولا حتى الثورات العربية الحاصلة الآن. من هنا، صحيح أنّ الثورات العربية لا تشبه بشكل كامل الثورات المعروفة في التاريخ. ولكن لا يجوز أن يكون هذا سبباً لرفضنا التعامل مع ما يجري بصفته ثورة. ليست الثورات مفاهيم جاهزة مكتملة يعود إليها البشر، كلما أرادوا فهم الأحداث، ليجدوها في المعاجم. الثورة، كمعظم المفاهيم الأخرى، مفهوم متحرك صنعه البشر وغيروه وأضافوا إليه. ما يجعل الثورة ثورة، هو ممارسة البشر لحرياتهم، وقدرتهم على كسر القيود، بكل الأساليب الخلاّقة الممكنة. ليس للثورات مفهوم نهائي ثابت. الواقع المتحرك يفرض علينا أن نستخدم مفاهيم متحرّكة. باختصار، لا يوجد مفهوم جوهري للثورة، سابق على الأحداث الجارية في الواقع.

إن أراد البعض رفض الثورة في العالم العربي، لأنها لا تشبه الثورات المعروفة في التاريخ، فهذا يعبّر عن رؤية جوهرية للمفاهيم. ما نطلبه هو أن لا نحكم على ما يجري بناءً على نماذج سابقة مكتملة. بالمقابل، ليس المطلوب التخلّي عن أية محاولة لتعريف مفهوم الثورة. على العكس، المطلوب هو أن ننظر إلى المفهوم نفسه كمفهوم مفتوح قابل للتغيير بشكل دائم. تضيف الثورات العربية لمفهوم الثورة بعداً جديداً. علينا أن نحاول فهم هذه الإضافة، بأبعادها المختلفة. بالنتيجة، نرى أنّ مفهوم الثورة بحد ذاته يتجدّد في سياق الثورات العربية. الثورة على الأرض يجب أن تترافق مع ثورة على مستوى الفكر، إعادة تعريف مفهوم الثورة خطوة أولى في هذا السياق.

ثورة على مستوى المفاهيم

ما قلناه عن الثورة أعلاه، ينطبق على معظم المفاهيم التي نستخدمها. في سياق الثورة، والبحث عن حلول لمشاكلنا والإجابة عن أسئلة مستجدّة، قد نحتاج لإعادة تعريف بعض المفاهيم. نرى أنّ التفكير بالمفاهيم كمفاهيم ثابتة، سيمنعنا من الوصول إلى إجابات شافية وحلول تتوافق مع الواقع.

ما نستخلصه مما سبق هو أن علينا أن نعيد النظر بمنظومة المفاهيم التي نستخدمها. لا يجوز أن نغرف من قيم وأساليب ولغة ومفاهيم الديكتاتورية٥. هذا العمل بحاجة لدراسة تفصيلية على مستويات مختلفة. لا يجوز الحكم على الأحداث الجارية بناءً على منظومة مفاهيم مكتملة تعود إلى حقبة الديكتاتورية، للأسباب التالية. أولاً، لا توجد مفاهيم ثابتة أزلية. ثانياً، منظومة المفاهيم التي نستخدمها تحمل إرث الديكتاتورية بطرق مختلفة. لمواجهة الواقع وما يطرحه علينا من إشكاليات، علينا أن نعيد النظر بالمفاهيم. الثورة على الأرض يجب أن تترافق مع ثورة على مستوى المفاهيم. ما نقترحه هو أننا نستطيع تغيير المفهوم ذاته، سواء الثورة، أو الديمقراطية، أو العلمانية. الحلول التي نجترحها قد تحمل شيئاً من الجدّة، وقد لا تطابق نماذج سابقة. الأمر بحاجة لدراسة تفصيلية، للأسئلة المطروحة وإمكانيات الإجابة ضمن، أو خارج، نطاق منظومة المفاهيم الحالية. في هذا المقال، ناقشنا فكرة المفهوم المفتوح بشكل نظري، كما وردَت عند فتجنشتين وأوستن. ثم حاولنا أن نستفيد من هذه الفكرة في الاجابة عن السؤال: ما الذي يجري في سوريا؟

نأمل في مقالات لاحقة أن نناقش أهمية إعادة تعريف مفاهيم الطائفية والعلمانية والديمقراطية، في سياق محاولة الإجابة عن الأسئلة المطروحة حالياً. هذا العمل بحاجة لمجهود جماعي. الثورة أيضاً، بأحد أبعادها، دعوة للعمل الجماعي، والنقاش المفتوح.

هوامش

١ فتجنشتين، تحقيقات فلسفية، ترجمة عبد الرزاق بنور. ص ١٨٠.

٢ في مقالي المشترك مع محمد العطار، «ثورة أم حرب أهلية» في موقع مجموعة الجمهورية، ناقشنا هذا السؤال من زاوية أخرى: هل ما يجري في سوريا حرب أهلية أم ثورة؟

٣ ما يلي هو قراءة أولية للخلاف حول توصيف ما يجري في سوريا، و ليس دراسة أكاديمية لمفهوم الثورة من وجهة نظر العلوم السياسية. نأمل بأنّ بحثا أكاديميا كهذا في مرحلة لاحقة سيأخذ بفكرة المفهوم المفتوح.

٤ هذا الانتقاد يتعلّق بالمفهوم الواحد للثورات، وهو وجه آخر للتصور الجوهري للمفاهيم. سوف نناقش هذا الجانب من التصور الجوهري للمفاهيم في مقالة لاحقة.

٥ في هذا السياق، حاولتُ في مقالات سابقة إجراء مراجعة من هذا النوع. انظر مقالي في القدس العربي «العلمانية والليبرالية في سوريا» و »في تأنيث المفاهيم السياسية». ينظر في هذا السياق أيضاً مقال ياسين الحاج صالح «وطنيون و خونة وطائفيون» في موقع المدن، ومقال سينشر قريباً لمحمد العطار، «عن الدلالات الممكنة لشعارات الثورة السورية».

رسالة إلى أخي المسيحي في سوريا

عزالدّين عناية

لا شك أن تاريخ بلاد العرب منذ حقبة الاستعمار البغيض، وحتى عصر الطغاة، الذين نشهد اندثارهم، الواحد تلو الآخر، يتلخص في غياب مفهوم المواطنة وحضور مفهوم المغالبة. وقد ترافق ذلك التاريخ الثقيل مع أفول تدريجي للمسيحية في ديارنا، ليس من ناحية تناقص عدد أتباع المسيح فحسب، بل وأيضا من ناحية تواري أعرافهم وامحاء طقوسهم. فلم تشهد المسيحية في بلاد العرب، طوال تاريخها، انحسارا مثلما شهدته في أزمنتها الأخيرة. لا سيما بعد أن تفاقمت أزماتها في عصر حُماتها الكذبة، ممن أوهموا الداخل والخارج بحرصهم الشديد على حمايتها، وفي الواقع كانوا يحتمون بها. فضمن مسرحيات باهتة، استوزروا من شاؤوا وصعّدوا من ارتضوا إلى ما سُمّي بمجلس الشعب، للفوز بشهادة زور تزكّي «الحكم الرشيد». في الحقيقة بقي التفرد بالسلطة على حاله، وصنع مغتصبو إرادة الشعوب بنى اجتماعية خانقة للوجود المسيحي، وللإبداع المسيحي، ثم ألقوا تبعات فعلهم على من سواهم.

غدت الأرض التي عمّر فيها الصليب، على مرّ الدهور، طاردة لأبنائها بعد أن كانت حاضنة. وفي ظلِّ تلك الأجواء تمثل الوعيُ المغيّب جلاديه حماةَ الديار، بعد أن تراقصوا

أمامه، طورا بشعارات الأمة الواحدة التي «لو صُبّت جهنّم على رأسها واقفة»؛ وتارة بشعارات العلمانية الفاتنة «الدين لله والوطن للجميع». مع ذلك كان المسيحي، رفقة صنوه المسلم، يهوي إلى مكان سحيق، مُسخ فيه الإنسان وحُوصر فيه الإيمان، حتى جاء يوم عُجاب أشرقت فيه الشمس من بلاد المغرب، أيقظ فيه جيلٌ ثائرٌ أجداثنا المقعّرة.

ومن الطبيعي، أن من شبّ وشاب في ظل النظام القديم، أن يخشى هول الزمان الجديد. لذلك يدبّ تخوّف بين شقّ من الناس. يتوجّسون من الراهن ومن الآتي، من الجلاد ومن الضحية، من الطغاة ومن الثوار، على حد سواء. فهذا الزمن الجديد الذي أهَلّ، ليس كما عهدنا، من صنع القائد ومن فضائل المعلّم، بل ورشة مشرعة لا يكتمل البنيان فيها، يشارك الجميع فيها بلا استثناء ولا إقصاء. وربما ذلك ما تعجز أذهاننا عن إدراكه، فنحن بحقّ لا نفقه الثورات ولم نعهد مخاضها، وإن جاريناها وأجهدنا أنفسنا في فهمها. فقد سبق أن صوّروا لنا انقلاباتهم على هيئة ثورات، فشوّهوا إحساسنا وأفسدوا ذائقتنا. مع ذلك نحاول أن نستعين بلغتنا الركيكة، وبلادتنا المعهودة، لنستوعب ما لا نقدر أن نستوعب. وليس خافيا أنه كلّما اقتربت ساعة خلاصنا داهمتنا الشكوك من كل صوب، من فرط ما دُمّر الإنسان فينا.

مع ذلك نرى رأي العين عصرا بهيّا يطلّ، يشهد ميلاد إنسان جديد، وهو عصر نعيش مخاضه ونكابد معمعانه، لم يُنجَز ولم يكتمل، ومن جرائه بتنا في ما يشبه الدوار المستمر من فرط هوله. فيه إنسان جديد يشتاق أن يصلّي دون خشية من العسس، ودون تلصّص على المواعظ والخطب. جيل يودّ أن يفك أسْرَ المؤمنين، مما ران على القلوب من كدر. فأنى التفتّ ترى الإنجيل محاصَرا، والمسيحي مطارَدا.

فأنا على يقين أن تاريخنا في بلاد العطش يسير صوْب الرويّ، يسير باتجاه تحقّق المواطنة، وباتجاه بناء الوطن بعد أن فقدنا الوطن، ومن لم يدرك ذلك لم يفطن بعدُ إلى علامات الزمن. فكل من يفكر بعقلية طائفية يخاف من قادم التغيير في سوريا. حولوا الإنسان إلى متشكك على الدوام، يَعدُّ كل تحوّل مؤامرة محبوكة، وكل ثورة مؤامرة مشبوهة. ذلك مرادهم، يريدون شعوبا مهزوزةً، ضيقة الأفق.

مع ذلك أقدّر خشيتك، لأن ما تخشاه أخشاه، وأُجِلُّ دمك الزكي لأنه دمي. وأحزن إن رحلت أو أصابك مكروه أن أتيه أنا. فقدرُنا أن نعيش سويا، أو نموت سويا، في الأرض التي استودعنا الله. ليس أتباع المسيح من المخلّفين في زمن تضطرم فيه القلوب، فلكلّ مشربه، وحتى «أحِبّوا أعداءكم باركوا لاعنيكم» هي جهادٌ أكبر لمن يفقهون.

في قرطاجنا العزيزة، أخذْنا الطاغية الفار وآله أخْذَ عزيز مقتدر، وعلى حين غرة.. ولو سنحت له الفرصة لأباد كافة إخواننا من الذين هادوا، في الحارة الكبيرة والحارة الصغيرة، في جزيرة جربة الآمنة، حتى يقلب ظهر المجن، غربيا وعالميا، على طلائع الزاحفين، وينعتهم بباطل القول، بالمتطرفين والإرهابيين والشياطين. وهو منطق شلّة الطغاة في أي أرض حالمة،

لا يتوانون عن ارتكاب أفظع أنواع الفجور. إلى حد الآن، في سوريا الأبية، عنف «الضرغام الصغير» موزع بالتساوي على رؤوس الأشهاد، لم يدّخر ديرا أو مصلّى، لم يدخر شيخا أو وليدا. مع ذلك أخشى مكرَه، أن يطبق عليكم كماشة الطغيان، ففي تشريدكم نجاته، وفي إجلائكم عن دوركم حجة له. بمختصر العبارة، في سفك دمائكم حياته وفي تيهكم خلاصه، ولذلك لن يتوانى عن ارتكاب أشنع المجازر فيكم، تشفّيا أو إثارة لإخوانكم في الدين، الأباعد منهم والأقارب. فبقدر ما يعلو صراخكم طلبا للنصرة، يُقنِع المستضعفين منكم بالتولّي والمشفقين عليكم بتثبيطكم.

لكن الجيل الجديد أخذ زمام أمره بين يديه، لم ينتظر فتاوى الشيوخ ولا مباركة الإكليروس. ولم يفت من عزمه موالاة رجال الدين للسلطان، فهو يعي ما دهاهم لذلك، ليس محبة له، أو تقديرا لدوره، وإنما اتقاء لشرّه ودرءا لعنفه.

أخي القابض على الجمر في يوم عصيب، أقرأ في صمتك الجليل ريبة.. ليست فقط من سلالة الطغيان، بل ومن حملة القرآن. ولذلك لن أقول لك إني خرّيج السربون ولا هارفارد، حتى أوهمك بحداثتي وأستميلك لقولي، ولكنني زيتوني من تلك الشجرة السامقة في أرض الخضراء. وأصدقك القول: إن شيوخنا لطالما لقّنونا هراءً بشأن التوراة والإنجيل، ولطالما رددوا على مسامعنا «حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون». آليت على نفسي ألا أُداري رعونة متفقّهينا ممن تستهويهم مقولات الذمّة، والجزية، وترديد فتاوى عفّى عليها الزمن، بألا يقرع أتباع المسيح أجراس الكنائس، وألا يظهروا صلبانهم، وألا يُعلوا أبنيتهم فوق أبنية المسلمين، وأن يُمنعوا ركوب الخيل، وأن يتزيوا بزي خاص بهم. أعجبُ لهؤلاء كيف يجلّون المسيح وينكرون إنجيله!؟ فأنا بصدد إعادة قراءة كتابي المجيد في عصرنا الجديد، فالناس لديّ صنفان: «إما أخ لي في الدّين أو نظير لي في الخلْق».

فلننظر في الأمور بأعين بصيرة، أوليست السياسات المقيتة السائدة في بلداننا منذ عقود، هي التي هجّرت وشرّدت أتباع عيسى وأحمد؟ ملايين تركوا أوطانهم بسبب القهر والعسف، ولا أظن أن أيّا منّا كان في مأمن من شرّهم. ولذلك إن شئنا أن نُشفى من هذا النزيف الذي يستنزف ديارنا، فلنقل للظالمين ظلمتم وما عدنا نطيق صبرا، اغربوا عن وجوهنا، وذلك أضعف الإيمان. فهل من اختلس عمرنا، نتركه مجددا ليصادر مصيرنا وقد حانت ساعة النفير؟ إن تنازَلْنا عن ماضينا فلن نفرّط في مستقبلنا.

ليست أوضاع المسيحية في سوريا أفضل حالا من أوضاع المسيحية في مصر، ولا أوضاع المسيحية في لبنان أفضل حالا من أوضاع المسيحية في العراق. ولا تغرنّ الأعداد ولا نواقيس الكنائس التي تُقرع. فإن لم نعش اضطراما بالفعل فنحن نعيشه بالقوة، ما دامت ترهقنا ثقافة الرعايا وتعوزنا ثقافة المواطَنَة. أذكر كلمة لناشط في الحوار المسيحي الإسلامي، قال لي يوما: إن أبناءنا في لبنان الصغير لا يعرفون بعضهم البعض، يعيشون في كنتوناتهم الطائفية والعلائقية، أولهذا نقول إن حال المسيحية في لبنان بخير، معاذ الله إن كانت أفضل!؟

للأسف لم نتعلّم من ماضينا، فدرسُ تدخلات القناصلة الأجانب في طوائفنا وفي كنائسنا، في كبائرنا وفي صغائرنا، إبان عهد الرجل المريض، لم يُفدنا بشيء. لم ندرس التاريخ، ولم نشأ تدريسه لأبنائنا، بخلاصة لأن تاريخنا المسيحي مصادَر لأن إنجيلنا مطارَد. عقودٌ مضت ونحن نزعم الحوار الإسلامي المسيحي، ونطلبه مع الأباعد ونتغاضى عن جيراننا وأهلنا. نبحث عن الخيلاء، حتى يقولوا عنا: منفتحين ومعتدلين وحداثيين وعلمانيين، ولم نفز بشيء. فما زال الغرب عند دأبه القديم، ينتابه إحساس مفرط، مشوب بأعراض العصاب، كلما دنا من الإسلام وهَمّ بتناول المسلمين.

عدت لا أثق بالغرب، حين يزعم انشغاله بمسيحيي الشرق، لأن انشغاله موزّع على المواسم. يعرف أن لنا ألف كنيسة وكنيسة، وألف طقس وطقس، مع ذلك حين تلمّ بنا النوائب ينادي أتباعه لا غير، يناديهم بالاسم: يا كاثوليكي يا تبيعنا، ويا أرثوذكسي يا نجينا، وهكذا دواليك، وأما من دونهم فهم في عداد العوام.

وفي زماننا الحديث، حين دبّ الوهن في مسيحية العرب تقاسمتها كنائس الأغراب، بحثا عن أن تضمّ من خلالها شيئا من سحر الشرق، وعلّها تفوز من خلالها بشيء من طهر المسيح وحزن البتول. مع أنّ أتباع المسيح ليسوا كائنات متحفية مشاعة للآخرين ليزيدوا بها رصيد مدخراتهم الروحية. فمنذ أمد بعيد، مسيحيتنا الواهنة لا تدري ماذا تفعل، لذلك سهُل إغراءها وتطويعها. ولأجل كل هذا نريد مسيحية أبية.

إذ سابقا حلّت جلّ الجماعات الكنسية الوافدة بأرضنا، بدعوى الحفاظ على المسيحيين، لكن الأمر ما كان حفاظا على أهلنا بل تأزيما وتفجيرا لأوضاعنا. خبرنا ذلك مبكرا في مسعاهم الأثيم لإقامة ما سمي بلبنان الكبير (١٩٢٠)، لبنان مفصول عن جذوره، على غرار ما فعلوا معنا في فلسطين السليبة. غير أن ذلك المسعى في إنشاء «كيان مسيحي» نقيّ تهاوى، وبالتالي لم يبق سوى التعويل على دكتاتورية الأقلية داخل الأكثرية، وهو ما نجحوا فيه، إلى حد مّا، في بلاد الأرز، التي ما إن يندمل فيها جرح حتى ينفتح آخر.

وفي عصرنا الحالي، ربما الشيء الأكثر تهديدا للمسيحية العربية، بموجب ما لحق هويتها من فتور وتفسّخ، أن تجابه كنائس عابرة للقارات، غدت بارعة في التحكم باقتصاد المقدّس على مستوى عالمي. وما نشهده من تراقص أمام المسيحية في سوريا في أيامنا، تارة من قبل الروس وأخرى من قبل الروم، هو فصل من فصول ذلك التنافس المحموم. ولا نزعم أن المسيحية العربية الحالية قادرة على خوض غمار المنافسة، في ظل التشظي الذي يستنزفها والتبعية التي تقيّدها. ولكن الثورات المحتدمة، وأساسا منها في قلب بلاد الشام، فيها ما يبشر بميلاد روح جديدة. فكما خرجت المسيحية الأولى من رحم تجربة درامية في التاريخ، يبدو الشرق الجديد على موعد حاسم مع تشكّل عناصر ملحمة روحية جديدة.

طيلة عصر الطغيان ضاق فهم المسيحية لدينا، كما ضاق فهم الإسلام، حتى بِتنا نرى خلاصنا في طمس ذاكرتنا، والحال أن خلاصنا ما بين التنزيل والتأويل، ما بين النقل والعقل.

ولذلك لن أقول لك سبيلنا في ما نستجلب من ديمقراطية، وعلمانية، وحقوق بشر. فتلك حجة الواهن، لأن المجتمعات الحيّة، وببساطة، لا تستورد حلولها ولكن تبدع حلولها. ولذلك المجد لله في الأعالي وعلى الأرض السلام وبالناس المسرّة.

سؤال

ولكن، متى يثور الكتّاب على أنفسهم؟

عمر قدور

من المفهوم ألا يأخذ أثرُ الثورة في المجال الثقافي اهتماماً كبيراً الآن، فأنظار الجميع، بمن فيهم الكتّاب، مشدودة إلى ملاحقة تطورات الثورة الميدانية، ومن المؤكد أن ما يكابده السوريون جراءِ أعمال الإبادة التي يقوم بها النظام تدفع ببعض الأسئلة الثقافية إلى مستوى الترف الفكري. بل إن وحشية النظام دفعت بالكثير من المساءلات المهمة إلى الخلف، وفي الطليعة منها فسادُه الذي بات مسألة هامشية الآن أمامِ دمويته، على الرغم من ترابط موضوعَي الفساد والقمع، إذ لا يخفى أن الأول كان دائماً المدخل اللاأخلاقي لتبرير كل شيء، بما في ذلك القتل والإبادة.

البشرى غير السارة هي أن الكتّاب والمثقفين لمِ يكونوا بعيدين كلياً عن بعض مستويات الفساد في النظام، لا يغير من هذه الحقيقة التحاقُ الغالبية منهم بركب الثورة أو التعاطف معها، ولا يخفف من وطأتها العديدُ من الأعذار والذرائع التي تصبّ المسؤولية على المستوى القمعي للنظام، من دون أن تتفكر في مستوياته المتعددة، ومنها الثقافي. وإذا كانت بعضُ مستويات الفساد غيرَ قابلة للمساءلة على المستوى القانوني أو الاجتماعي، حالياً أو بعد سقوط النظام، فحري بأصحابه ممن يدّعون انتماءهم للثورة أن يبادروا إلى مناقشته وتفكيكه،

لا بنيّة التشهير، أو الانتقام، أو حتى جلد الذات، وإنما بنيّة التعلم من ذاك الدرس المرير وعدم تكراره مستقبلاً، أو قطع الطريق على أية سلطة قادمة ترغب في تكراره.

سنرى، على سبيل المثال، أحد الناشطين الإعلاميين في الثورة، وقد كان من قبل إعلامياً مقرباً من النظام وله مدائح مخصصة لرأس العصابة، نراه يروي قصة تحدث في أثناء وجوده في مكتب ضابط أمني كبير، القصة كما يسردها تشير إلى كونه ضيفاً عزيزاً على ذلك الضابط مع أنه يركز أصلاً على الإذلال الذي تعرض له شخص آخر آنذاك. لا يكلّف صاحبنا نفسه عناء تبرير وجوده على هذا النحو المعتبر في مكتب الضابط الكبير، وطبعاً لا يعتذر عن تلك العلاقة المشبوهة، ومن المرجح أن العديد من القرّاء لن يخمّن ما كان يحدث في تلك الغرف السوداء من علاقات وأسرار يكون المثقف أحياناً طرفاً فيها.

في الواقع ليس مهماً ذكرُ اسم هذا الشخص، فهو ليس حالة متفردة في الوسط الثقافي والإعلامي، وكان هناك العديد من الارتباطات التي تتراوح مستوياتها بين النظام والكتّاب، الأمر الذي لا يبرئ قسماً منهم من شبهة التورط في النظام بالمعنى الواسع للكلمة.

لسنا هنا بصدد كتّاب النظام المعروفين وأبواقه، فهؤلاء أقل شأناً من أن يأخذوا حيزاً من النقاش؛ المسألة تتعلق حتى بكتّاب نسجوا علاقات جيدة مع النظام، واستفادوا على نحو أو آخر من الميزات التي يقدمها، في الوقت الذي حافظوا فيه على صلات طيبة بالمعارضة، وقدّموا أنفسهم بوصفهم خارجين على السلطة! نعم، صارت هذه من الممارسات الشائعة خاصة في عهد الأسد الابن، وليس المقصود هنا صلات المثقف، الاضطرارية ربما، بالمنابر الحكومية التي يحتكرها النظام، فهي في المحصلة ملكية عامة من حق جميع السوريين التواجد فيها على قدم المساواة. المقصود أولاً تلك المنابر التي أنشأها رجالات النظام بالأموال المنهوبة أصلاً من الشعب، والتي خرجت إلى العلن بفجور، وأُنشئت بعض المنابر الثقافية والإعلامية بغية غسيلها، أو بغية استقطاب المثقفين وإغرائهم بمكافآت تُعدّ مرتفعة وفق المعايير السائدة محلياً.

يعرف الكثيرون عرّابي تلك الصلات، ومن المؤسف أنه كانت لأولئك العرابين صلاتٌ واسعة في الوسط الثقافي، بل أضحت لهم مكانة مرموقة حتى ضمن أوساط تدّعي مخالفتها للنظام. وقد كانت هذه الوضعية تتيح للكثيرين المروق بين الضفتين، إما بذريعة عدم معرفة مصادر الأموال، وهي ذريعة مكشوفة، أو بذريعة عدم توفر البدائل وبالتالي وضع هذه الصلات تحت حكم الضرورة، فيما لم يكلف البعض خاطره تقديم أي مبرر على الإطلاق.

الشريحة الأخيرة بالذات يبدو أنها لا تستشعر أي خطأ في ذلك الماضي، لذا لا ترى في انتقالها إلى ضفة الثورة حدثاً يستدعي التبرؤ منه، ومرة أخرى لا ترى نفسها ملزمة بتقديم أي تبرير لانتقالها.

لم يعد مستغرباً، وفق مواصفات تلك المرحلة، أن تتسع الفجوة بين ادعاءات المثقف في نصه وبين ممارساته، وإن بقي جزء كبير من الأخيرة في الخفاء. بل إن «النجوم» الصاعدين لتلك الفترة أسسوا لنمط جديد من التفاهم الخفي مع السلطة، في الوقت الذي تسمح

فيه الأخيرة لهم بهامش من الاستقلالية وحتى ادعاء معارضتها، وتتيح لهم امتيازات على حساب أقرانهم عبر سماسرة ثقافيين ممولين مباشرة من رجال المخابرات.

مع الأسف ثانية، لم تكن هذه الوصفة مذمومة على نطاق واسع، وقوبلت بالتساهل الذي قوبل به الفساد المستشري عموماً، أما انعكاسات ذلك على النص فلم تخضع لأي نقد، بما أن النقد كان مغيباً بدوره. هكذا انتعشت نصوص وأسماء تملك من السلطة الخفية أكثر بكثير مما تملك من الموهبة، وأتاحت لها هذه الوضعية الغامضة كسب حضور واسع في الداخل والخارج، وكان من المتوقع أن يتبادل أصحابُها المدائح والتزكيات والترويج هنا وهناك في الوقت الذي يجري فيه التعتيم على مواهب لم تعرف طريقها إلى الانتهازية بعد، أو ترفض الغوص في وحولها.

مرة أخرى؛ لم يكن فساد بعض المثقفين ليمر من دون إفساد الجو الثقافي بشكل عام، ولم يكن ليمر من دون أثر على النصوص المنجزة، وفي الواقع إن نظرة متأنية إلى النصوص الرائجة في تلك المرحلة تكشف عن العتبة المتدنية من الإنجاز الفني.

لا يقلل من هذه الخلاصة بعضُ الادعاءات الثورية لبعض النصوص، وبخاصة الادعاءات السياسية التي بقيت ضمن المقولات المباشرة أو ضمن المنجز الفني التقليدي، فالعبرة هنا هي في تراجع الهم الإبداعي، ومن ثم تراجع قيمة الإبداع، بالقياس إلى هموم التكسب والشهرة التي تركب عادة ما هو جاهز وناجح، وتؤسس بدورها لتكرار النمط ذاته وتكريسه، بدلاً من تجاوزه والتأسيس لما هو جديد.

على ذلك.. يبدو المثقف مُطَالَبَاً اليوم بمساءلة نفسه عن تلك المرحلة، ليس فقط على صعيد الممارسات الشخصية وإنما أيضاً مساءلة النصوص التي لم تمتلك الجرأة الإبداعية، واكتسبت حضورها من تصالحها مع المنجز والسائد. وإذا كان مفهوماً في أثناء الثورة أن تنزاح المعاييرُ الإبداعية لصالح الهم المباشر فلا ينبغي أن يؤسس هذا ثانية لاختلاط المعايير الإبداعية على نحو ما كان يحدث سابقاً.

إن واحدةً من الخدمات الجليلة التي يقدّمها المثقف للثورة، بالمعنى العميق للثورة، أن ينجز نصاً إبداعياً يليق فنياً بها، وهذا بلا شك يختلف عن الشعارات التي تُطلق في المظاهرات، مع حفظ الاعتبار والتقدير للمظاهرات وللمشاركين فيها من كافة الشرائح الذين لولاهم لربما تأخر طويلاً هذا النقاش.

يروّج البعض لمقولة أن الثورة تجبّ ما قبلها، ربما يكون هذا صحيحاً، ولكن بشرط أن يترافق مع فعل تطهيري حقيقي قوامُه النقد المرير لما سبق. وأن يخرج السوريون مضحّين بأرواحهم لمقارعة أعتى الأنظمة فذلك مدعاة لأن يتمتع المثقف بجرأة موازية ليثور على ثقافة السلطة وعلى نفسه أيضاً، بخاصة عندما تنجح السلطة في إفساد الثقافة والمثقفين على نحو الذي حدث في سوريا. ما لم تتمتع الثقافة السورية بهذه الجرأة ليس مستبعداً أن تنطبق عليها مقولة مغايرة هي: «أسيادكم في الجاهلية أسيادكم في الإسلام».

قانـون

سورية دولة القانون

خطيب بدلة

حيثما تجولتَ في شوارع المدن الرئيسية السورية تعثر على ملصقات إعلانية فاخرة كتب عليها عبارات من قبيل:

سوريا دولة القانون.
أنا سوري.. إذن أنا أحترم القانون.
القانون يحمينا جميعاً.. لذلك.. نحن جميعاً نحترم القانون.

كما بثت وسائلُ الإعلام التابعة للنظام السوري إعلاناً مصوراً فيه رجل يمشي في أحد الشوارع بمدينة سورية، ويجتاز لوحة تدعو إلى احترام القانون، ثم يتوقف، ويمسك اللوحة بكلتا يديه، بمحبة واحترام.. وإذ يجدها مائلة يسويها، لتأخذ لها الكاميرا لقطة واسعة، ويتابع طريقه بأكابرية بادية.

هذا الكلام، من الناحية النظرية، رائع، ولكن، تعالوا نستعرض بعض القوانين السارية المفعول في سوريا..

حالة الطوارىء

● أصدر مجلسُ قيادة الثورة (الذي قام بالانقلاب البعثي) الأمرَ العسكري رقم ٢ بتاريخ ٨/٣/١٩٦٣، القاضي بإعلان حالة الطوارىء في البلاد. أتبعه بإصدار المرسوم رقم (٦) المتعلق بـ (مناهضة أهداف الثورة).

ملاحظة: بقي قرار إعلان حالة الطوارىء ساري المفعول حتى تاريخ كتابة هذه المقالة.. ذلك أن إلغاء قانون الطوارىء الذي حصل بتاريخ ١٩/٤/٢٠١١ كان عملاً إعلامياً دعائياً ليس إلا.

أمن الدولة

● في عام ١٩٦٨ صدر المرسوم (٤٧) القاضي بإحداث محكمة أمن الدولة العليا..

ملاحظة أولى: كان ذلك في عهد حركة ٢٣ شباط/ فبراير ١٩٦٦ التي قادها صلاح جديد ومجموعة من الضباط كان بينهم حافظ الأسد الذي تولى وزارة الدفاع التي اختصت بالهزيمة العسكرية والانسحاب الكيفي من الجولان..

ثم انقلب حافظ الأسد في أواخر ١٩٧٠ على رفاقه، وأودعهم السجون، واستولى على سوريا وحولها إلى جمهورية ديكتاتورية وراثية من الطراز الكوري الشمالي.

ملاحظة: حينما ألغيت محاكم أمن الدولة في سوريا بتاريخ ١٩/٤/٢٠١١.. تحت ضغط الثورة السورية الكبرى، قال أحد الخبثاء:

أصبح الحال الآن، بعد إلغاء محكمة أمن الدولة، أحسن.. ذلك أن قتل السوريين وزجهم في المعتقلات، من دون محاكم، أسهل على نظام الأسد، وأسرع!

المخابرات العامة

● أصدر الرئيس السوري نور الدين الأتاسي المرسوم التشريعي رقم (١٤) لعام ١٩٦٩ المتضمن إحداث إدارة المخابرات العامة.

المادة (١٦) منه: لا يجوز ملاحقة أي من العاملين في إدارة أمن الدولة بسبب الأعمال التي يقومون بها أثناء تنفيذ المهمات المحددة الموكلة إليهم إلا بموجب أمر ملاحقة يصدر عن المدير.

رفقاً بالطغاة

نصت المادة /٧٤/ من قانون التنظيمات الداخلية لإدارة أمن الدولة وقواعد خدمة العاملين فيها الصادر بالمرسوم التشريعي رقم /٥٤٩/ تاريخ ٢٥/٥/١٩٦٩ (عهد صلاح جديد أيضاً) على ما يلي:

لا يجوز ملاحقة أي من العاملين في إدارة أمن الدولة أو المنتدبين أو المعارين إليها أو

المتعاقدين معها مباشرة أمام القضاء، في الجرائم الناشئة عن الوظيفة، أو في معرض قيام العامل بها قبل إحالته على مجلس التأديب في الإدارة واستصدار أمر ملاحقة من قبل المدير.

أمن البعث

● أصدر مجلس الشعب الذي عُين أعضاؤه بتوجيهات من القائد التاريخي حافظ الأسد قانون أمن حزب البعث العربي الاشتراكي رقم (٥٢) لعام ١٩٧٩.

إعدام بسبب الرأي

● أصدر مجلس الشعب الذي عُين أعضاؤه بتوجيهات من القائد التاريخي حافظ الأسد (نفسه) القانونَ رقم (٤٩) الذي يحكم بالإعدام على من ينتمي، مجرد انتماء، إلى جماعة الإخوان المسلمين، وبقي هذا القانون ساري المفعول حتى هذه اللحظة (٢٠١٣).

ومن الأشياء التي تجعل خصيتي المرء تتدليان من فرط الدهشة هو أن هذا القانون صدر بأثَر رجعي!!.. فإذا كان زيد من الناس قد انتسب إلى جماعة الإخوان المسلمين في سنة ١٩٥٦، فرضاً، وانسحب رسمياً من الجماعة في أواخر سنة ١٩٧٢، وأمضى فترة لا بأس بها مستنكفاً عن العمل السياسي، ثم استطاع الرفاق المناضلون من جماعة الرفيق خالد بكداش إقناعه بالانتساب إلى الحزب الشيوعي، فانتسب في سنة ١٩٧٧، وأصبح (في نظر الإخوان المسلمين) شيوعياً مارقاً، خاسئاً، زنديقاً، فإن القانون ٤٩، مع ذلك، يحكم عليه بالإعدام!

حماية المجرمين

بتاريخ ٢٠٠٨/٩/٣٠ أصدر بشار الأسد المرسوم التشريعي رقم /٦٩/ المتضمن تعديل قانون العقوبات العسكرية في سوريا.

التعديلات حصرت ملاحقة عناصر الشرطة والأمن السياسي والجمارك المتهمين بممارسة التعذيب بالقيادة العامة للجيش والقوات المسلحة (على الرغم من إنهم يتبعون إدارياً لوزارة الداخلية وليس للقيادة العامة للجيش والقوات المسلحة).

تسريح تعسفي

أصدر الديكتاتور حافظ الأسد النظام الأساسي للعاملين في الدولة الصادر برقم ١ بتاريخ ١٩٨٥/١/٢ وتنص المادة ١٣٨ منه على ما يلي:

١٣٨ / ١- يجوز، بمرسوم، صرفُ العامل من الخدمة دون ذكر الأسباب التي دعت لهذا الصرف، وتصفى حقوق العامل المصروف من الخدمة وفقا للقوانين النافذة.

١٣٨ / ٢: إن مراسيم الصرف من الخدمة وفقا لأحكام هذه المادة غير قابلة لأي طريق من طرق المراجعة أو الطعن أمام أية جهة أو مرجع وترد الدعاوى التي تقام ضد هذا النوع من

المراسيم أيا كان سببها.

١٣٨ / ٣: لا يسمح باستخدام العامل المصروف من الخدمة بموجب هذه المادة وذلك مهما كانت صفة هذا الاستخدام إلا بقرار من رئيس مجلس الوزراء يجيز ذلك.

(ملاحظة: يمكنني القول، من دون أن أشعر بأي ندم، بأن قوانين دول العالم التي شُرِّعَتْ عبر العصور لا يُعقل أن تكون احتوت على مادة تتضمن كل هذا الإجرام)!

النظام العام

حينما دخل الضباطُ، وصفُّ الضباط، والجنودُ، وعناصرُ الأمن الموالون للجنرال حافظ الأسد إلى دمشق (بالأخص دمشق) وحلب وبقية المدن السورية الكبرى، بدءاً من خريف ١٩٧٠، شرعوا يستأجرون بيوتاً، يسكنونها حينما يكونون في وقت المبيت.. أو تسكن فيها عائلاتهم..

وعلى الفور.. طُويت من القانون المدني السوري المادةُ التي تسمح للمالك بـ (تخمين) البيت المُسْتَأجَر، ورفع مبلغ الإيجار مرة كل سنتين..

وعلى الرغم من موجات التضخم النقدي الكبرى التي جعلت ثمن البيت الذي كان في حدود مليون ليرة يصل إلى عشرات الملايين من الليرات السورية، بقيت أجرة البيت في حدود مئتي ليرة، أو ثلاثمئة ليرة، أو خمسمئة ليرة في أحسن الأحوال..

وقد فعل هؤلاء (العسكرُ) في البيوت التي استأجروها الأفاعيل، فكان الواحد منهم، إذا انتهت مدة خدمته، يؤجر البيت لأخيه، أو ابن عمه، أو ابن ضيعته، دون الرجوع إلى المالك المؤجر..

والمحاكم المختصة بالنزاعات الإيجارية أخذت حسبها الله وتعالى، ونعمَ الوكيل، وصارت ترضى بهذا الظلم الذي يقع على المالك، وتنظر إليه على أنه (مشيئة) خارجة عن إرادة الحق والقانون والبشر.. وصاروا يجيبون من يسألهم في هذا الموضوع قائلين:

ـ لقد أصبح هذا جزءاً من النظام العام!

(تخيلوا: النظام العام في سورية الحبيبة يقوم على الاغتصاب والسلبطة)!

إمعاناً في الاغتصاب

معلومٌ، أيضاً، أن بعض الضباط، إذا وجدوا منزلاً مغلقاً، لا يعرضُه مالكُه للإيجار، كانوا يكسرون القفل، ويحتلون المنزل، فإذا راجعهم المالك بشأنه كانوا يُشبعونه لكزاً، وضرباً، و(تبكيساً)، وسباباً على محارمه، ويطلبون منه أن يُراجع مكتب البريد، في كل رأس شهر، لاستلام الأجرة.. (التي يحدد الضابط المستأجِر مبلغها بحسب ما يملي عليه وجدانُه)!

فخر

النتيجة المنطقية التي وصلنا إليها، في ظل هذه القوانين، أن المواطن الذي يعيش في أية دولة محترمة في العالم، يحق له أن يفخر بأنه يحترم القانون.. بينما يفخر المواطن السوري بأنه (لا) يحترم القانون!!!..

ملف اوراق

اعداد:
ابراهيم اليوسف وحليم يوسف





شعراء كرد يكتبون باللغة العربية

ابراهيم اليوسف

إن من يتابع الأدب السوري، بشكل عام، والشعر السوري، منه، بشكل خاص، يجد أن المبدع الكردي، عاش في ظل سياسات النظام الشوفيني المفروضة عليه، في إطار طمس ملامح وهوية كل الإثنيات السورية، في إطاراللغة الواحدة، بل ومحاولة فرض طريقة التفكير الواحدة، والتصفيق للقائد الأوحد، من خلال ممارسة ما سمي بـ «سياسة التعريب»، هذه السياسة التي بدأت تترجم، منذ وصول حزب البعث العربي الاشتراكي إلى دفة السلطة، عبر انقلاب ٨ آذار ١٩٦٣، وان كانت بوادر التأسيس لسياساته التمييزية قد بدأت قبل ذلك، وكان الكرد السوريون في مقدمة من تم استهداف لغتهم، وتاريخهم، وتراثهم، وفلكلورهم، بل ووجودهم، وأكثرمن دفعوا الضريبة، وقد بدأت محاولات طمس هويتهم من خلال فرض التعليم باللغة الواحدة، بل وإصدار قوانين وتعليمات تقتضي بمنع التحدث في المدارس والدوائر الرسمية بغير اللغة العربية، وكان الهدف في المقام الأول: منع اللغة الكردية، لغة حوالي أربعة ملايين كردي، مما أدى لنسيانها من آلاف الأسر، في عدد من مدن سوريا، وأريافها.

قدر الكردي أن يتعلم منذ نعومة أظافره، بلغة غير لغته الأم، وينسى لغته في البيت، لساعات طويلة، بل وأن ينال العقاب من معلم المدرسة، ومديرها، إن أخطأ وتحدث ولو همساً إلى شقيقه بلغته الأم، أو لأنه لم يتعلم اللغة الجديدة، جعله يعيش لغتين: إحداهما لغة البيت المقموعة، والثانية لغة المدرسة، والمعلم، وكتب القراءة، والرياضيات، والعلوم،

والتاريخ، وكان – غالباً – ما يحاول إجادة هذه اللغة، مع مرور السنوات، ليكون في عداد مقدمة من يستظهرون مفردات معاجمها، وقواعدها، وقصائدها، يحاور بها زميله، ويكتب بها وظيفته، ويؤدي بها امتحانه، حتى يكون من عداد الناجحين في نهاية العام الدراسي!

إن انتزاع الكردي، من عالم لغته، واللغة هنا حاضنة روحه، وتراثه، وحضارته، دفعه لكي يغترب عن روافد ودعامات مهمة في عالمه، ليتنفس برئة أخرى، بالإضافة إلى رئته، وهو ما جعله يعيش اغتراباً، وغربة، في آن معاً، هذا الإحساس، أدى بنصه إلى أن يتوتر، بتوتر روحه التي تعصف بها أعاصير الألم، وهو يحسُّ بنوستالجيا شديدة، لملامح خصوصيته، فلا يفتأ يعبر عنها، في فضاء نصه، كي تكون القصيدة عنده وعياً جمالياً بالحياة، وأداة لتأكيد حضوره، وهويته، مقابل كل ما يواجهه من تحديات، وهذا ما جعل علاقته بقصيدته استثنائية، بل غالباً ما كانت سفيرة موقعها هذا إبداعياً!

ثمة آلاف القصص والحكايات والروايات التي كان الكرد يتبادلونها في ما بينهم، حول مدى معاناتهم من عصا الرقيب في فرض اللغة الأخرى على أطفالهم، حيث لا خيار سوى هذه اللغة، إلى ذلك الحدّ الذي يمكن لمثل هذا الرقيب أن يسيء إلى لغته، بدلاً من احتفائه بها، لاسيما وأنها قد تحيله إلى لحظات الألم الشخصي، ويكاد لم ينج أي كردي، من استفزاز مثل ذلك الرقيب الذي ينفذ ما أملي عليه – في الغالب – منخرطاً في اللعبة المرسومة، وإذ بها أخطر من ذريعة المعلم، أو الشرطي، بل هي ترمي إلى أبعد من ذلك، إنها ترمي إلى محو أثر شريك في المكان، وبانٍ له، من حديقة الوطن التي تبدو – في ظل حضور الوعي والاعتراف بالآخر– لوحة فسيفسائية، لا أجمل، ولا أغنى منها البتة!

ومن القصص التي تحضر ببالي – هنا – ونحن في صدد إعداد أول ملف للشعر الكردي للعدد الأول من مجلة «اوراق»، هو أن أحد العاملين في أسرة تحرير إحدى المجلات الناطقة بالكردية، ضبطت معه في مطلع تسعينيات القرن الماضي نسخ من العدد الجديد لمجلته التي تصدر سراً، وبإمكانات طباعية متردية، وما كان من أجهزة الأمن التي اعتقلته – في حلب – الا أن تعاملت معه، وكأنه هو من زرع صحراء بعض مناطقنا بالسموم الكيميائية، لقاء أجر بخس، إذ تم توقيفه في زنزانات ومنفردات هذه الجهات، بعد أن تعرض للتعذيب الوحشي، وكان من جملة ما تعرض له، ممارسة التعذيب عبر المكبس الكهربائي، بحقه، بعيداً عن القضاء، وبعيداً عن إمكان السؤال من قبل أهله عنه، ليرمى في الشارع، بعد كسر عموده الفقري وشلله.

كان ضبط ألفباء كردية، أو معجم لغوي كردي، أو جريدة أو مجلة كرديتين، أو حتى مجرد قصيدة غزلية، يعد في عرف مثل ذلك الرقيب جريمة كبرى، حيث يتعرض حاملها للاعتقال، والتعذيب، إلى مدة طويلة يحددها مزاج الأجهزة الأمنية، في ما إذا كان مضمون هذه الأوعية النشرية، بعيداً عن السياسة، وليس فيها اسم: كردستان – أو الوطن – أو أية إشارة من عداد الممنوعات لدى نظام، كل ما يتعلق بحرية الرأي فيه ممنوع.

ولعل من فضائل الثورة السورية المباركة التي كسرت آلة الخوف، وشوكة النظام، أنها في الوقت نفسه عرّفت السوري على شريكه المكاني، أكثر، بعد أن أفلح النظام، وعلى امتداد عقود متتالية في زرع الريبة والتوجس في نفوس المكونات – جميعها – كي تعزز القطيعة بين طرفي ثنائية: أنا، نحن / الآخر، الآخرين، وذلك في سياق تشويه صورة الشريك الكردي التي كرسها، في دوائر وأوساط غير قليلة البتة، ولا تزال آثار ذلك في وعي بعضهم حتى الآن، ولما يتخلص منها بعد. (وأفرحني كثيراً أنه أثناء استعداداتنا في هيئة التحريرلإعداد العدد «١» من مجلة «أوراق»، انني تقدمت –وبعفوية – باقتراح نشر ملف للشعر الكردي المكتوب بالعربية، فلم تتوان أسرة التحرير عن الموافقة الفورية، لأقترح أن نعمل أنا والزميل حليم يوسف في إعداد هذا الملف، وهو ما تم بسلاسة، وشفافية، ولكم كانت فرحتي كبيرة، وأنا أجد زملائي وهم: فرج بيرقدار– حسام الدين محمد – خطيب بدلة وغيرهم يستحثوننا للاستعجال في تقديم الملف).

أجل، على هذا النحو، تنشأ ازدواجية اللغة عند الكردي، حيث اللغة الرسمية، ولغة المعرفة والعلم، ولغة الثقافة، ولغة المدرسة، والجامعة، والوظيفة، هي غير تلك التي ترسخت في روحه، مع حليب طفولته الأول، وانفتحت عليها أذناه، وهو يسمع حكايات جدته، أو يمارس الألعاب مع أقرانه في الحي، أو القرية، ما يجعله يتعلم اللغة بحساسية عالية، حيث يسبر أعماقها، ودلالاتها، فتتعايش اللغتان معاً، وتترافدان، وهما تغذيان المعجم الفردي والخيال الخاصين، كي يكون موضوعه التعبيري الأول الذي يكتبه مائزاً، ذا ألق غير عادي، وتكون رسالته الأولى – في ما إذا امتلك موهبة الكتابة – ذات نكهة فريدة، ولتكون هذه اللغة – العمودالفقري – في النص الإبداعي الذي سيكتبه، لها بهجتها ووهجها ودهشتها، كي تتطور تدريجياً، في ما لو امتلك جذوة الحماس، في ترجمة حساسية علاقته بالعالم.

لم يجد الشاعر الكردي، وهو يعيش الحالة الاغترابية عن لغته الأم مناصاً من أن يكتب قصيدته باللغة التي تعلم بها، ويشكل معجمها جزءا كبيرا من رصيده اللغوي الحياتي، إلى تلك الدرجة التي بات غير قادر على الكتابة الا بها الا اذا اجتهد بشكل خاص في ممارسة الكتابة بلغته الأم، بحيث نجد، على امتداد الأجيال الشعرية في سوريا، من يكتب باللغة العربية، حيث أن هناك من غدت هذه اللغة لغته الوحيدة، لاسيما في ما إذا كان منتمياً لبعض المدن الاخرى، بعيداً عن المناطق الكردية، والمناطق ذات الأكثرية الكردية، وتجلى ذلك – أكثر – في سبعينيات وثمانينيات وتسعينيات القرن الماضي، حيث كان سليم بركات أحد أبرز الأصوات الشعرية السورية، التي كتبت باللغة العربية، وليس بلغته الأم التي لم يكتب بها، بعكس حامد بدرخان الذي كتب بالعربية – وظهرت نتاجاته في ثمانينيات القرن الماضي وهو ينتمي إبداعياً لجيل سابق – إلى جانب لغته الأم الكردية التي كتب بها، في السنوات الأخيرة من حياته، وقد كانت له كتاباته بأكثر من لغة أخرى.

إذا كان هذا الاسمان، استطاعا أن يحفرا عميقاً، في الإبداع السوري، وكان قارىء

قصيدتيهما يعرف أنه أمام قصيدة مختلفة، لها رموزها، وأسماء أماكنها، وروحها – وإن كان لكل من هاتين التجربتين خصوصيتيهما والرؤى الخاصة بصاحب كل منهما – وهو ما دعا الشاعر الفلسطيني خالد أبو خالد، لأن يشير إلى هذه الخصوصية التي مضى بها، أبعد، شعراء جيل الثمانينيات الذين سجلوا فتوحات جديدة، خارجين من معاطف هذين العلمين، وإن استفادوا من حضورهما الطافح، كعلامتين إبداعيتين بارزتين، وكانت عودة الشعراء الكرد إلى ابراز الرموز الكردية بمثابة نوع من المواجهة، وهذا ما استفز الرقباء، حيث مورس التعتيم على تجارب مبدعين كثيرين، وتم رفض طباعة العديد من المخطوطات، بل إن هناك من أبعد عن مجال عمله، وصودرت نسخ كتبه من المكتبات، رغم كتابته لقصيدة حداثية، في مجموعة تمت الموافقة على نشرها.

وفي ما إذا كانت رموز الشاعر الكردي الذي يكتب بالعربية قد استفزت الرقيب، فإن لجوء بعض الشعراء – الجدد – آنذاك، إلى كتابة قصيدة تستوفي شرطها الحداثي، بعيداً عن المباشرة، زاد من توجسه وريبته، فصار يتعامل مع هذه القصيدة وكأنها أدوات تقويض سلطة سيده، وكانت القصيدة تنشر على نطاق واسع، يتلقفها القراء، سواء أتضمنتها احدى وسائل النشر، أو في ما إذا كانت مجرد مخطوط، وكأن في تلك الشفرات، التي تتضمنها، رسائل، لا يتلكأ المتلقي عن فكها، ويحس من خلال تفاعله معها أن صوت الجمال، يقف في خندق المواجهة مع آلة الاستبداد، إلى جانب قصيدة جكرخوين، تيريز، بي بهار، ملانوري هساري، ملا أحمد بالو، كلش، محمد علي حسو، خليل محمد علي.. إلخ، التي كانت تكتب باللغة الأم، ويستظهرها الناس، بل تغنى، في تلك الفترة التي كانت الأغنية – لاسيما أغنيتا محمد شيخو وشفان..وغيرهما..– من أبرز أدوات المواجهة الفعلية التي استعصت على الرقيب، عبر تناقل الكاسيت، مسهمة في بلورة الحس القومي، والإنساني، وإدانة المستبد.

تميزت قصيدة الشاعر الكردي الذي يكتب باللغة العربية، أنها استفادت من مزاوجة ثقافتين في ثقافة واحدة، حيث راحت تنطلق من لحظة عناق إبداعات أبي تمام، والمعري، والمتنبي وابن عربي وابن الفارض – على سبيل المثال – مع قصائد الخاني، والجزيري، وغيرهما من أعلام الشعراء الكرد، ماجعل إقدامه على الاشتقاق والتوليد اللغويين، ورسم الصورة المختلفة، بكل ما تحملها من شراسة وحنو، من تمازج الواقع والفنتازيا، الالم والحلم، وغير ذلك من الثنائيات، والمتناقضات، والمتضادات، التي تتواءم ضمن فضاء نصه، من سمات قصيدته.

يكاد نص الشاعر الكردي الذي يكتب قصيدته بلغة غيرلغته الأم، يكون رهناً للانفتاح على كم هائل من الحزن، حيث تظهر في صورته أرومة الحرائق، والمجازر، ورحلة التيه، والضياع، مقابل الإصرارعلى الحياة، وإيجاد موطىء قدم، في مواجهة حالات محو الهوية التي يتعرض لها، وهو ما يتجسد في أشكال عديدة، سواء أكانت أسطرة أبطاله، بأسمائهم الكردية، أو بث روح التاريخ في جغرافياه التي تتعرض للانصهار، والابتلاع، والغياب،

كمحاولة منه لاسترداد الماضي، فنياً، وجمالياً، كي تكاد قصيدة الحب أن تغيب – نهائياً – لولا إشارات سريعة، في نصوص بعضهم، راهناً روحه، وخطابه، لمهمة أسمى، حيث يتم التركيز على أداء نصه لوظيفته، في أكثر من مستوى، جمالي، ومعرفي، إلى الدرجة التي يمكن التأكيد فيه أنه ليس من إبداع ترفي لدى هذا الشاعر، حتى وإن نادى ب «لا وظيفية الفن»، وكسرربقة الأيديولوجيا، بيد أنه كان يظل – على الدوام – محافظاً على تكنيك قصيدته، ما جعلها موضع اهتمام أقرانه من المبدعين، بل والنقاد السوريين.

وإذا كانت رموز هذا الشاعر، وأساطيره، وأمكنته، وتواريخه، حاضرة في قصيدته، فإن لم ينس البتة الكتابة عن بردى، وقاسيون، وحيوات الناس البسطاء، من حوله، متلمساً حلمهم، ومعاناتهم، من دون أي فكاك عنها، وهي إحدى ثيمات قصيدته، التي نظر بعضهم إلى إشاراتها، هاتيك، بشزر وردة فعل، وليس من قبيل أنها إغناء للإبداع السوري، لاسيما وأنه يكتب بلغته، لأنه كان أمام محاكمة تجرى له، على أحاسيسه، ومشاعره، وحقه في الأنين والعويل، أمام ما تعرض له إنسانه، من عذابات تاريخية، تطفح بها ذاكرته الجريحة.

إن عدم تمكن هذا الشاعر، الكتابة بلغته الأم، بما يحقق لديه المعادلة الفنية التي تعتمد ـ قبل كل شيء ـ على معجم لغوي شخصي، لم يتمكن – في الغالب – من الإحاطة بكنوزه، وتفجير مكامنها، وطاقاتها الهائلة، فإنه جعله يوظف مفردات كردية، هنا أو هناك، ما يضاف إلى خصيصة تناوله لمجمل الأدوات الأخرى، على طريقته، كي يجعلها مختلفة، أقرب إلى روحه، ورؤاه.

وإذا كان الشاعر الكردي الذي يكتب بالعربية، قد دفع ضريبته – غالية – أثناء انخراطه في المشهد الثقافي، الإبدأعي، السوري، والعربي، العام، فإنه ظل – في أعماقه – رغم ممارسته دوره الإبداعي، على نحو رفيع، مائز، إلا أنه لم يتمكن من التخلص من السؤال الكردي، في بعده المشروع: ثمة لغة مهددة بالمحو، وعليك إغناؤها، بإبداعك، ما كان يدفعه لتضخم الإحساس بهذه العقدة، وهو أمر على جانب كبير من الحساسية، والخطورة، في ما إذا علمنا مدى اعتباره مارقاً، من قبل بعض ضيقي الأفق، من الإنتلجنسيا السورية الذين راحوا يحاربونه، وتحضرني هنا، حادثة، جرت معي، وهي أني ذكرت اسم الشاعر الكردي الكبير جكرخوين، حيث أهديته قصيدة، قائلاً ما معناه: أنت أيضاً لك معطف يخرج منه الشعراء، ما دعا رئيس فرع اتحاد الكتاب العرب، في إحدى المحافظات السورية، لكتابة تقرير إلى الاتحاد، قال فيه ان جكرخوين، شاعر، قومي كردي.. إلخ، وهوما رواه لي حكم البابا انذاك، أما عن القيمين على الثقافة، وعدائهم لنا، نحن الذين كنا نكتب بلغتهم الأم، في مناطقنا، فحدث ولا حرج، حيث تصرف بعضهم في هذا المجال، بكل ما لديه من حقد وشوفينية، ولؤم، وخبث، هي بعض مفرزات ثقافة الكراهية التي تربى في كنفها، وإن كان هذا الأنموذج – وللحقيقة – هو القليل.

وفي ما لو دققنا، في تأثير شاعر واحد، كتب باللغة العربية ـ وهو سليم بركات ـ الذي

تفاعل في بدايات تجربته مع أسماء الستينيات، والسبعينيات التي سبقته، أو واكبته، ليرسم مساره، المختلف، فإننا نجد أن أدونيس نفسه، استفاد في ما بعد من بعض فتوحاته، وإن كان الأمر يبدو أوضح في تجربة محمود درويش – وهو السابق عليه – حيث تبدو آثار بصمات بركات واضحة، وفي هذا ما يدل على أن الشاعر الكردي الذي يكتب بالعربية، لم يترك تأثيره، على القصيدة السورية – ومن خلال أعلى وأرفع أنموذج حداثي سوري/عربي – بل وإن بل أثر في أعلى وأرفع أنموذج حداثي عربي، استثنائي، وفريد، هو محمود درويش، وهو تأثير في الشعريتين العربية، والعالمية، في آن!

وبدهي، أن أية دراسة للشعر الجديد في سوريا، لا يمكن أن تكون دقيقة، فيما إذا تم تجاهل الأصوات الكردية التي ساهمت في رسم ملامحها، فهي أكثر من أن تحصى في وقفة سريعة – كهذا الأمر الذي يستحق تناوله في دراسات خاصة، منفردة، وذلك لأن الشعر الكردي المكتوب بالعربية لم يتم تناوله إلا من قبل قلة من الدارسين، وظلت هذه الدراسات تنوس بين: الإطراء، والعسف، بعيداً عن إحكام الأدوات النقدية، وسطوة العلاقات الشخصية، والشللية، واستجداء النقد، أو اكتراؤه، وكل هذ ما يحدث في المشهد الثقافي، في ظل ثقافة التزوير.

يضم هذا الملف كوكبة من شاعرات وشعراء كرد، كتبوا بلغة أخرى، غير لغتهم، وهم ينتمون إلى أجيال متعددة، حيث ان فيهم من كتب منذ سبعينيات القرن الماضي، ولا يزال، كما أن فيهم من كتب في العقد الاول، أو حتى الثاني من الالفية الجديدة، وهو –في الحقيقة – لا يمثل إلا جزءاً طفيفاً من المشهد الشعري الكردي المكتوب بالعربية، بيد أننا سعينا الى جلب نماذج عدد لا بأس به، من أوائل شعراء الثمانينيات، على نحو خاص، لأنهم – في نظري – استطاعوا أن ينشروا قصيدتهم على نطاق واسع – كي تعرف بهم، فلم يتوانوا عن إعلان كرديتهم، وتقديم أنفسهم سفراء أهلهم وقصيدتهم، وهوما يسجل لهم، وكان ذلك تحدياً كبيراً، لاسيما وأن هؤلاء جميعاً، لم يجدوا تلك المؤسسة الثقافية التي تحتضنهم، بل أن أصواتهم كانت – غالباً – ما تصل إلى المتلقين، أسرع من خطاب السياسي الكردي الذي ظل، نظراً لطبيعة ظروف المرحلة، أسير بيئته وجماهيره، بعيداً عن التفاعل في الفضاء المكاني الأوسع.



طريد الشهوة

إبراهيم بركات

وأنثاي لا تتعرّف عليّ إلا وأنا، أُلّملم بقاياي
من حوافي حلمتيها الثرّيتين، وتمنحني فرّصة أخرى
ثمّ نتمرّد معاً، على كلّ الوصايا، لنتجاوز المألوف في
بؤرة أشتهاء نلوّذ إليها ساعة الرغبة

بوسّعكِ أن تؤمئي ليّ بالرحيل صوب عينيكِ، دون شارة البدء
أتخطى أبجدّية الخجل، كي أخاطب جسدكِ الواهن
تحت جنح أجراس الحنين
ونختلس معاً ما تبقى من الوقت، في كينونتنا اللامتناهية
وبغبطة غير عادية سنمارس طقوسنا المعتادة خفيةً

بوسّعكِ وقتذاك...
أن تكشفي عن كامل أنوثتكِ، وممتلئة إنت بمتعة رعشة مشتهاة
وأنا أسير إيحاءاتكِ التي تغري شفتيّ الهائمة في محيط نهديكِ
كأطباق الآلهة
كائنين يملآن خواء غرفة ذات ضوءٍ ونار

وجهكِ قبالة مرايا الشبق، وأنوثتكِ تجاهر نهمها
أما أنا فمنبهرٌ بنيازكك المضاءة بقربي
وإنت تلتقطين بتلابيب شهوةٍ باغتتكِ لتوها، كي لا تفوتكِ لحظة ترتوي منها حتى الثمالة
وهكذا يبدأ الكرنفال بعبث طفولي، ومراهقةٌ ولدت فينا من جديد

بوسّعكِ
أن تتهيئي لملاقاتي في أية لحظة، كأننا في لقاؤنا الأول
أو تنتظري عبوري بمحاذاتكِ
أو نسير معاً إلى الحديقة، نستلقي على قارعة العشب
ريثما أنتهي من تلاوة القصيدة، ستدّاعبين فراشات التي تحوم حولكِ
أو تكتبين لي وظيفتي المدرسية، لأتحاشى عقابكِ

برهة وسأستردّ كامل قواي، لأقدم قلبي قرباناً للآلهة،
حين يخلو المكان إلا من كلينا
لنفترش الحديقة منهمكين إلا من ما تلبسّكِ من الظمأ
وقتذاك سأطوّق خصركِ بساعدي، في لحظة توّحد وعناق

سأمكث قريباً ها هنا
كي يكون صداي مؤلماً
ولئلا تتخطاني أهازيج مسائكِ
لأتيمم بزبد أنوثتكِ...
ثمّ أنتظر.......
ريثما تفيض منكِ، حرارة العناق
أبقى هائماً على جسّد القصيدة، حين تتقمّصكِ
وإنتِ تتلمّسين ما بقي لي من الأنين
وكنيزكٍ متماوج ارخي بظلالي على بياضكِ
ثمّ أخاطبكِ بأسمائكِ المستعارة كلهّا

ثمة أشياء تتكسّر في مطبخ القلب...!



مقاطع طويلة من نص قصير

ابراهيم حسو

العصافير
العصافير
التي كانت على معصمك.
كيف ستهدأ اذا ما رحلت.

و أنت نائمة
ضعي قلبك في مكان امن
شفاهك على الكومدينة
عيونك على طرابيزة الى جانب السرير.
حلمك على أقرب طاولة.
و انتبهي لابتسامتك ان لا تنكسر
و أنت تخبئينها في الخزانة.

أريد دليلاً اخر

انك امرأة من لحم و دم
و ليس الهاً .

كم أتعّذب من أجلك
لأني الوحيد في حياتك .

من كثرة
ما أفكر بك
نسيت ملامحك .

حتى
و أنت لست معي
فأنا
أحبك .

أريدك أن تخرجي مني
لأضمك .

منذ أن دخلت حياتي
تكومّت سنواتي على بعضها
و صرت مثل باقة زهر في يد العشاق .

تكبر الدمعة في عيني
عندما تحادثني
تلك المرأة التي قطعت السهول و الجبال
و سكنت بين ضلوعي .

ثمة أمر يثير فضولي دائماً
أن أتبلّل بظلك .

أريد أن اتغيّر
اصبح رجلاً بكل مقاييسك

حبيباً بكل ما يحمله قلبك
شاعراً بكل ما تعني القصيدة
أريد أن أتغيّر و حسب.

أردت أن أفكك أزرار قميصها
لا لأرى صدرها
فقط ارى قلبها.

منذ أن أحببتك
لا أعرف
لما كلما أتجهت شمالاً أو جنوياً
تحط على كتفي عصافير زرقاء و حمراء.

كنت
سأبقى
الا أنني مضيت.

أنا ذلك القطار، الذي خرج عن سكته، و صار في خبر كان.

ايها الحب تعال
لأدّلك على بيتك الجديد.

الحب هو ذلك الالم الذي نرضى عنه دائما

كل ما أفكر به الآن
أن تعود مياهي الى أنهارك
و قلبي الى صدرك.

ألقى بنفسه الى الحب
صديقي الذي لم يبلغ ١٦ سنة.

حّبذا
حّبذا ايّها الحب . .

منذ البارحة
أطفأت نور قلبي و نمت فيه . .
منذ البارحة
أنا و الكآبة وجهاً لوجه .

يراودني شعور قديم جديد
اني ميت منذ ٢٠ سنة
و أن ما أتنفسه و أكله و أشربه و أحسه
ليس سوى تخييل لانسان يعيش في العدم .
لكنك أنت
أنت وحدك من مسكت بيدي
و دلتني على الطريق الصحيح، علمتني الحياة .

نسيانك صعب
و تذكرك ألم
أريد ان أحب امرأة
يُسهل نسيانها
و يُصعب تذكرها .

بعد و قبل كل كأس عرق
أكتب لها مسبقاً
وبالكلمات المتكررة نفسها
(اسف)
(اعتذر)
(هذه اخر مرة)
منذ البارحة و أنا ابحث عن حجة جديدة .

أعرف أني مخطئ دائماً
و أنك على الصواب دائماً .

لكن
المشكلة أننا نختلف على هذا أيضاً.

على كل حال
ما بقيت من آثار السهرة
رذاذ عصير البرتقال المبعثر على المخدات الصغيرة
بضعة قطرات عرق على الكنبة
آثار قبلات محروقة على شرشف الطاولة
ندب ضحك أو قهقهات متقطعة على السجاد
و بقع دم على السرير.



أَمْلُكُ... لا شيءَ

أديب حسن محمد

يا ربّيَ العاهلَ..
يا ربّي.
خُذْ كنْزي،
وبقيّةَ أملاكي،
وشهيقي،
وحشائش صمتي،
ترْعاها قطعانُ الصخْبِ.

واتركني وحْدي،
مُنْفرداً في قلب الوحْشةِ،
دون ندامى،
أو صحبِ.

اترُكْ لي قلبي...!!

فلَدَيَّ شواغِلُ لا زالتْ
تنتظر الدَوْرَ لكي تأتي:
كقصيدةِ حبٍّ،
خاليةٍ من كِلْمة: حبِّ.

كهواجس ماءٍ،
ما زالتْ عذراءً،
رهينةَ عتْمتها
العطشى في الجبِّ.

فكنوزي،
لنْ تكفي أصابعكِ العشْر
إذا عدّتها،
وجيوشي بالحبِّ أراها،
في السلمِ تفوزُ وفي الحرْبِ.

تفهَمُني حيْناً امرأةٌ
إنْ قَطعَتْ أوصالي..حنانيها،
وتنطّى حَجَرٌ للرأْبِ..!!

أملكُ يأساً ذهبيّاً،
في الدربِ المُفضي لـ«لا دربِ»

أملك ما لا يمْلكه،
كلّ رجالكِ،
إنْ جاؤوا من كلّ طريقٍ،
أو صوبِ.
....
أملكُ...
«لا شيءَ»
وذلك حسْبِي.



يخططُ لينساك...!؟

أحمد حيدر

لديه ألفُ سَببْ
ألفَ شَجرةٍ مُمزقةٍ
(شعوب من نَدمٍ)
في أشلائه
ليبذلَ ما في وسعهِ
قبلَ أن يَأخذ رَشفةً
منْ قهوتكِ الباردة

ويبحث عن مَخرج
لهذهِ الورطة
التي عَذبتهُ مراراً
وينزع كشاهد ضغينة
بقناعٍ من الرضا
هذهِ الأغصان اليابسة
منْ حَنينهِ المشتعلْ :

أخطاءٌ متكررة
تَعقبُها الحسراتْ
صُعُوبّة التفاهُم
في حقولِ الضبابِ
مَعَ مَنْ حَولهِ
أعذارٌ غيرمعقولة
لايمكن الوثوق بها
لمنْ يَحفرُ حفرة لأخيهِ
ويهيلُ التراب بلا شفقة
على مشاعرهِ
أبهى أحلامهِ
ذكرياتٌ بلا أمان
كحياتهِ المضطربة
رداءة الطقس
في أغلبِ أوقاتهِ
سَرابٌ يلوحُ من بعيد
حماقاتٌ بلا تردّد
حبٌّ من طرَفٍ واحدْ
محاولاتٌ بائسة
من غيرِ فائدة
في رأبِ الصدعِ
بينَ الينابيع وأحاديثكِ
صقيعُ روحهِ وحضنكِ
غرّتكِ والريح
عطشهُ ومائكِ
ـ عفواًـ فمُكِ الصغير
قميصكِ الأحمرودمه
كحلُ قصائدكِ ودموعهِ
مالايريد أن يبوحَ بهِ
حرصاً على طهارة
أزهار ركبتكِ
وصَدى انفاسكِ

في أعماقهِ
حرصَاً على دموعِ الطفل
الذي يبكي في عينيك
على روحهِ المنكوبة
كلما يلمحهُ في مرآتكِ
لدَيه ألفَ سَببب
ألفَ شَجرةٍ مُمزقة
في أشلائهِ
وكمّا يَنبغي
على عاشقٍ فاشلٍ أن يفعلْ
(فاشلاً خالدا)
وهو في أسوأ أحوالهِ
أن يَضعَ نصبَ عينيهِ
النِهاياتِ المؤسفة
ويتوارى بهدوءٍ
بعيداً بعيداً
في تابوتِ الألمْ...!!؟



أربعون

جان دوست

(عن المرايا المتكسرة في الداخل، عن حبر النسيان)

إلى جان دوست
في اقترابه الأربعين من الموت

ذات مساء ربيعي منعش، بكى. بكى كثيراً. خائفاً من الضوء والحياة، خارجاً من عتمته المائية، ناظراً إلى وجوه الحاضرين! هذه أمه وقد أنهكتها ساعة المخاض وآلام الولادة، تلك أخته، وقد سارعت إلى وضع سرته بين كتب والده، حتى يصبح متعلماً، عندما يكبر. وتلك... تلك هي الداية العجوز «خجو»، وهي تؤكد لأمه أن من أنجبته ذكر، مشيرة إلى ما بين فخذيه.

يلفونه في قماط أبيض، ويضعونه في حضن جده الذي لم يعد يبصر إلا بقلبه.

- لقد سميناه باسمك!!

يتحسسه الجد الضرير، يشمه، ثم يرفعه قليلاً في الهواء، لتتلقفه أيد مرتجفة ويقول:

- تفوح منه رائحة الحبر، من سكب الدواة على حفيدي؟!!

«أي حبر وأي دواة؟»، يتساءلون: «يا للتعاسة!! لم يعد جدنا يفرق بين رائحة الدم

وعبير الحبر».

• • •

الحبر، هو الألم في أكثف درجاته. هو الألم سائلاً على القراطيس. الحبر هو دم الكلمة

• • •

أكتب بحبر النسيان، أسيل كما الحبر على دروب الغربة، ولا أحد يقرأني!!
ألذلك أقول: أموت منذ أربعين عاماً، ولا أقول: أعيش منذ أربعين؟!!
آآآآه... الأربعون!! باغتتني كما امتحانٌ أولي للموت.

• • •

ليس للذكريات سوى طعم الرماد في حلقي، يحترق العمر فيصبح رماداً، أمَا من جمرة في هذا الصقيع!؟

كانت حارة «سَيْدان»، ضيقةً على طفولتنا، إلى الشرق منا «كانيا عَرَبان»، والسلاحف والسرطانات الحمراء، إلى الغرب ينتصب مخفر الشرطة، مثل خريف أصفر، لايهمنا منه سوى جمع الخرز الملون المتناثر حول أسواره الشاهقة، ما كنا نعلم أن وراء كل خرزةٍ شهقةُ سجين وأنّةُ مكروب.

إلى الجنوب جبل «مشته نور» بشجيرتي التوت المزدانتين بأقمشة اليائسين من العاشقين والمرضى. إلى الجنوب الكهوف المرعبة والوادي الذي كنا نسميه «َفْيْدَا حَمَّامى».

وإلى الشمال قطار يجر وراءه حدوداً وسياسات وأعماراً تائهة في براري الله. إلى الشمال ألغام تبرهن بقطع الأرجل وزهق الأنفس، أن ثمة عهوداً ومواثيق لا يتقنها الكرد في متاهاتهم.

يصرخ كردي في سوق كوباني، وهو يرينا رجله المقطوعة من الركبة: «أنا لا أفهم يا شباب لماذا هذه الألغام؟ هناك في الجهة الأخرى تبغ، وهنا شاي، نأخذ الشاي إلى هناك ونجلب التبغ، تبادلُ سلع يعني، فلماذا أفقد رجلي... ها؟»

لايلتفت الرجل إلى الأعلام المرفرفة في كل جانب من الحدود، يظنها خرقاً مثل خرق «شيخ نور»، لا يلتفت الرجل إلى اللغتين المختلفتين اللتين يتكلم بهما كل جندي في كل طرف، هو يقول: «في سوق (سروج) كما في سوق (كوباني) نتكلم لغة واحدة، فلم الألغام!!»

آهِ أيها المسكين.. يا ذا المعادلات الساذجة والمنطق الكردي، تقيس بالأشبار ما يقيسه خصومك بالفخاخ والمكائد!

اللغم لغة فقدت تأنيثها وانتهت بحرف الميم!!

• • •

كنا محاطين بالموت إذاً، الموت غرقاً في الشرق، رعباً في الغرب والجنوب. وفي الشمال.. الموت تمزقاً على سفح لغم. أو حسرة في امتطاء صهوة طوروس.

ألهذا تراني دائم الإحساس باقتراب الموت؟

• • •

من منزلنا في حارة سيدان إلى سكة الحديد التي تشطر الأرض مثل جبنة كوجرية، مسافة عشر دقائق مشياً على أقدامنا الحافية، بشرط خطواتنا المتسارعة، كثيراً ما كنا نلهو على السكة، نضع عملاتنا المعدنية عليها، منتظرين القطار ليمر عليها ويجعلها أكبر!! هكذا كانت عقائدنا الطرية: كلما كان الشيء كبيراً، كان ذا قيمة أكبر.

من الجهة الأخرى من الحدود، كنا نكاد نسمع بقبقة الماء في الأباريق، كنا نكاد نرى البخار يصعد متلوياً من كؤوس الشاي (القاجاخ) في يد القرويين المستندين بظهورهم إلى جدار منزل طيني ما.

في المساء كان دور الكبار، ليدونوا مآثرهم على الحدود التي لا يعترفون بها: أحمال من التبغ والشاي على ظهور الحمالين، سيارات اللاندروفر الأفعوانية في انطلاقاتها تنتظر في الغابة. أحياناً يمزق السكون عواء ابن آوى أو انفجار لغم أو رشة من الرصاص.... ثم.... جثث.. ومآتم ونصب الفخاخ أمام طفولتنا التي ما من لهو فيها سوى لعبة (عسكرجي قاجاخجي: العسكر والمهربون)

• • •

المرايا

كل مرآة فخ نسيان، تسيل صورتك عليها حبراً، فلا تحتفظ منك بشيء، تنساك...؛ هي التي تتذكرك بكل تفاصيلك، ما دمت منتصباً أمامها. فكيف إذا المرايا انكسرت!!

مرآة الصيف

لم يبقَ من صيف طفولتي سوى عامودا، عامودا التي كنا نراها، إذ نصعد قمة «مشته نور»، كان أحدنا يحلف بقبر الشيخ صالح، قائلاً: ألاتسمعون ناي «أوسي شارو» وهبوب الريح على سنابل القمح في حقول «آشي علاوي؟». أنظروا.... تلك هي منارة الجامع الكبير.

قريبة كنا نحسبها، وكانت بعيدة بُعْدَ صيفٍ عن ثلوج كانون.

كل صيف كان والداي يأخذانني إلى عامودا، كانا يقولان سنذهب إلى «ولات».

مختبئاً تحت عباءة أمي، أو وراء جبة والدي، كنت أنكمش على نفسي في عربة القطار المتجه من كوباني إلى القامشلي، وكان المفتش التركي يدخل العربة مدققاً في الركاب والتذاكر، غافلاً عن أن تحت المقاعد ركاباً صغاراً، لا يريد أهلوهم دفع ثمن تذاكرهم: «إنهم صغار، لا يفقهون فكيف نقطع التذاكر لهم؟؟». هكذا إذاً، كنا مجرد أمتعة، وكان علينا أن نتذوق طعم القيظ، كلما اقترب المفتش من مقصوراتنا.

مرآة أمي

اشترتها قبل عرسها بأسبوع، من أحد أسواق ماردين، كانت معلقة على الجدار الشرقي من غرفتها، مذ وعيت، على يمينها قرآن في غلاف من المخمل الأسود المطرز بخيوط ذهبية، وعلى اليسار «تقويم الصباح» الذي كنت أول من يرمي ورقته الأولى في بداية العام. لم يسمح القدر لأمي أن تستعرض أنوثتها في تلك المرآة، كانت مشغولة بأحزانها، بعامودا، وبتحضير العشاء لوالدي القادمِ من المسجد، متجهماً دائماً.

تلك لم تكن أماً، بل نوراً تكثف في هيئة بشر، أليست هي التي بكت على أفعى قتلناها في الدار!! أليست هي التي كانت ترش القمح للنمل حتى لا يتعب!!

كان والدي يحبها ولا يفصح، احتجتُ إلى موت أمي كيف أعرف أنه يحبها، وعندما ماتت ذات ربيع قاتل، أغلق أبي المكان، أغلق غرفتها التي تعبق برائحة الحبر وخبز التنور، محاولاً اصطياد زمن لا يعود في شباك حزنه النبيل.

المرايا التي.....

المرايا التي شربتْ حبرَ أرواحنا

المرايا التي قادت الأربعين من العمر إلى هذه المصيدة

المرايا التي شهدت موتنا

المرايا التي شهدت حبنا

والمرايا التي شهدت حبر ميلادنا، يَفِرُّ كضوء المغيب على دفتر من رخام القبورْ

إنها عمرنا

إنها عمرنا

تَكسَّرَ، حتى تشوَّه فينا الزمان.

مزيد من الحبر... مزيد من العمر

ما خفي على القارئ في النص أعلاه، يبدِّدُ غموضَه قليلٌ من حبر النسيان:
المساء الربيعي: ١٢ آذار ١٩٦٥
خجو: الداية التي نسيها الموتُ فتذكرتْها الصاعقة.
حارة سيدان: قطعةٌ من «عامودا»، كادت أن تغرق «كوباني» في الحبر وخبز التنور.
شيخ نور: رجل من «كوباني» كان العشبُ ينبت في أثر خطواته.
الشيخ صالح: جدي الذي أصبح أعمى في آخر عمره، رأى حريق سينما «عامودا»، وهو ملتحفٌ بعباءته في «كوباني»، فبكى، قبل أن تبكي أمهات الأطفال.



شذرات

جميل داري

١

للثلج رائحة السماء
وللسماء مواكب الوطن البعيد
ولنا القصيدة نرتديها حين يشتد الظلام
وحين يحترق الهواء
للثلج قامته المديدة من هنا
حتى أقاصي جرحنا العالي السحيق
فلا تلمي حلمنا المنثور في النفي الوباء
سندك أعناق الرياح
ونحصد الموج الذي قد هزه البحر الغريق
هذي خطانا منذ دهر موغل في الانتظار
هذي رؤانا نحتسيها كالنبيذ على أناشيد النهار
هل نحن إلا موتنا الزمني يغلقنا
كأنا كوة وسط الجدار
هل نحن إلا موسم الزمن الجديد

زمن يعلمنا
إذا هبت رياح الشعر كيف ينتصر العبيد

٢

يدان مضيئتان في ظلام العالم
ولوعة تستفيض بنهر القصيدة
وكأنها تحاول الطيران الى السماء
ففي الأرض ما يكفي لتدمير الروح وإبادة الحلم
وكأنها تعطر مجد القلب بحلم يتسامق حتى مطلع الفجر
شذرات وإضاءات في عتمة الكون والنفس معا
ورغبات في تسلق جدران الأبدية
حلم خصيب كما زهرة في حقول اليباب
حلم يعبر الروح التواقة إلى الفرح في عالم تحتله جحافل الحزن والخراب

٣

الحب بوتقة الصلاة
سفر إلى الموت الذي يحيي الحياة
هو موعد ما بين قلبين استفاقا
فإذا هما يتبادلان الشوق جمرا واحتراقا
مطر تأخر عن مواعيد الغيوم
وسماء حلم برعمت فيها النجوم

٤

من فؤادي العاشق المضطرب
أحتسي صوتك..هيا اقتربي

اجعليني غيمة نائمة
خففي عني سماء التعب

لست إلا طائرا مستيقظا
ألثم الفجر بصمت مسهب

منذ عينيك وفجري طالع
من ينابيع الخيال الأرحب

راسليني بالإشارات أنا
شبه أمي وقلبي صبي

منذ دهر أذرع الحلم أنا
مثل طفل باحث عن لعب

أقتفي آثار روحي باحثا
عن صلاة خلف أفياء نبي

سيدي يا أيها الوقت غدا
سفر الأنجم بين الغيهب



رحّالة

حسين حبش

يَرحلُ كما يَحلو لمزاجِ قدمَيه المحيّرتَين. يقطعُ المَسَافات الطويلة ويعبرُ الجسور الخَطِيرة دونَ أدنى شكٍّ بأنّه سيعبرَها حتى ولو كَانَ ذلكَ على جثته. يشربُ الماء من الينابيع ويسبحُ في الأنهارِ العميقة.

يرضعُ الحليبَ الطّازج من أثداء الذئبات، ويقول لهنّ: شكراً لكنّ أيتها الأمهاتُ الشَرسات.

يستريحُ تحت شجرة دلّبٍ ويتأمّلُ شقوقَ الوديان بشَهوة مثيرة.

يركضُ وراء أرنبةٍ فزعة ويهدئ من رَوْعِها بجزرةٍ تخرجُ كسَهمٍ من قلبه.

يتمرّغُ بالعشب ويقلّد حَركة الطيور في السّماء.

يُمازحُ السَنَاجبَ ويرمي إليها حبّات البندق، وهو يتقافزُ مثلها هنا وهناك.

يسقي زهرةً ويأخذُ أجرَه منها نفحة عطرٍ، هامساً لها: «من يمتلكُ الأزهارَ ليسَ بحاجة إلى الله».

إن جاعَ يطرقُ الأبوابَ كعابر سبيل، يطلبُ خبزاً يتقاسمه مع أخوته العصافير.

يعشقُ أول إمرأة يُصادفها ويطبعُ على جبينها قبلةً كأنها إمرأته منذ ألف عام.

لا يبالي إن اهترأ قلبه من الحبِ أو الرذيلة، ويقولُ له: شكراً لكَ يا قلبيَ الكبير.

يرقدُ قربَ جدولٍ رقراقٍ، وينامُ ملءَ الكوابيس. يفتحُ عينيه، فجأة يرى لبوة تكمنُ بقربه، بكلِّ برودٍ يقولُ لها: صباحُ المَخالبِ أيتها اللبوة، ويسألها دونَ اكتراثٍ: أتفترسينَ الشعراء المهوّلين؟.
تديرُ اللبوة وجهها وتركضُ بعيدةً عنه!
يشدّ حقيبته على ظهره ويضعُ وجهته القادمة نصبَ الغرابة.
لا يحملُ عبء وطنٍ أو بيتٍ أو إمرأةٍ أو طفل. وطنه هو المكان الذي يحلُّ فيه ويملأه بماء الفتنة، وبيته حيث يفترشُ الأرض ويسكرُ على أعشابها النّدية، وإمرأته حيث كل النساء اللواتي يُصادفهنّ في ترحاله، وليَكن طفله عصفوراً، فراشةً أو نجمة...
ها هو ذا الآن يقفُ على رابيةٍ عالية. يجمعُ كلّ قواه ويركلُ على مؤخرة الحزنِ، صارخاً بأعلى مَوته: سألتهمكِ أيتها الحياة، سألتهمكِ... فأينَ المفر؟

٢

رحلَ، يرحلُ وسيرحلُ...
لم يتركْ بحراً إلا وملّحَ به جَسَده، ولا جبلاً إلا وطبطبَ على رأسه.
لم يتركْ غابةً إلا ونهلَ من خفاياها، ولا أرضاً إلا وزرعها بجنونه.
لم يتركْ لغةً إلا وتعلّمَ منها أقذعَ الكلمات وأكثرها ضَرراً وشروراً!
يتخطّى كلّ حدود، ويقولُ: شكراً لقدمَيّ القويتين.
يجدُ نفسه في كلِّ مكانٍ، ويقولُ: شكراً لروحي الهائمة في أرجاء العالم.
عاشَ في أكواخ الفقراء وصارَ واحداً منهم. دخلَ قصور الأغنياء ولم يطق العيشَ فيها.
عرفَ الفنادق والحانات والأرصفة كما يعرفُ أباه وأمه وأخوته وأصدقاءه.
عرفَ التّشردَ كما يعرفُ جوربيه الممزقين. شربَ، ثملَ، دخّن وملأ العالم بطيشه وهذيَانه.
أحبَّ الأشجار أكثرَ من البشر والطيور أكثرَ من الطائرات والخريف أكثرَ من كلّ الفصول.
أحبَّ الليل وأخذه من يديه، قائلاً له: يا أعمى كم أنكَ تُضيء قلوبَ الشعراء.
عرفَ البرد والتَحَفَه. خبرَ لكْنة الثلج القوية، ولم يبالِ!
لم يأخذ هذيان الزوابع على مَحْمَلِ الجِّد، وجهه كانَ يناطحُ دوماً وجه الرّيح.
إنْ ماتَ فلن يستكينَ في قبره، سيتركه إلى قبرٍ آخر. من مقبرةٍ إلى مقبرة،
سيصادفُ قدماءَ الموتى ويسمعُ قرقعةَ عظامهم وهم يتناكحون
وحديثي الموت وهم يتفسخون. سيقابلُ المحكوم عليهم بالجحيم والمحكوم عليهم بالنّعيم والذين يتأرجحونَ على الصِّراط المستقيم.
هو الرحّالة الأبدي، هل يَجرؤ أحدٌ أن يقولَ له: لما لا تَستكين؟

سيحاسبه الله، ويقولُ له: يا ربي ماذا فعلَ هذا المجنون الحزين لتحاسبه؟
سيحاسبُ الله ويقولُ له: يا الله لماذا خلقتني على صورة مجنونٍ ولم تخلقني على صورتكَ الطّاهرة؟
عرفَ اليأس وحزنَ لأجله، لأنّه كانَ مثله لا يطيقُ الفرحَ الزائل.
هتكَ عرضَ الخيبة لكنّها اخترقته كرصَاصَةٍ ليست طائشة!
مشَى حتى اهترأتِ الطرقات وتشقق باطنٍ قدميه
تسَاقطتْ سَلامياته واحدةً تلوَ الأخرى، وقالَ لا بأسَ من ذلك: «السفر أجمل».
في كلّ حياته لم يملكْ نقوداً. الخرْدَة كانتْ تكفيه!
حياته كانتْ دوماً على شَفير الهاوية، وقلبه كانَ دوماً على شَفرة الوجود..
كانَ يقولُ بعنادٍ للحياة: جُودي أيتها الحياة، جُودي عليّ ببخلكِ، فأنا أحبكِ بكلّ شَغفي وكَرَمي الهائل.

٣

حلّ ضَيفاً على حديقة العميانِ
رآهم يجتمعونَ حولَ فيلٍ ويتحَسّسونَ جَسَده
كانَ أحدهم يقولُ هذا حصانٌ. يقولُ آخرٌ لا بل هو بغلٌ. يقولُ ثالثٌ لا لا، أنه جملٌ ضخمٌ.
يقولُ الأخيرُ لا لا، بلا شكّ أنه حمارٌ طاعنٌ في السنّ.
أمّا هو فقد همسَ لهم: يا أصدقائي، الذي تتحسّسونه هو جسدُ الفراغ، والذي تلمسُونه هواءٌ،
والذي تنشغلونَ به هو خيالكم.. تماماً كما الشعراء المجانين أنتم!
يحدّقَون به فجأةً، بريقاً حادّاً يشعّ من عيونهم...
يصَرخون في وجهه بصوتٍ واحد: أتسخرُ منّا يا هذا؟ أتكذّبُ رؤيتنا يا أعمى؟
قهقه حتى وقعَ على ظهره، وقالَ: أيا ليتني كنتُ مثلكم!
تذكّرَ بورخيس، وهو يقولُ: «لو استطعتُ أن أعيشَ حياتي ثانيةً سأحاولُ أن أرتكبَ أخطاءً أكثر».
وتخيّلَ كيفَ كانَ يضعُ يده على رأس البشر، ويكتشفُ الحميرَ منهم فورا!
تذكّر أعمى المعرّة، وهو يعالجُ الألم بالغفرانِ ولا يغفرُ لأحد.
تذكّر ساراماغو، وهو يقودُ عميانه في أرجاء المدينة، وهم يعيشونَ فتكاً وخراباً...
تذكّر عاشق جانيشيرو تانيزاكي، وهو يثقبُ عينيه ليتساوى مع عشيقته العمياء، في العماء.

تذكّر شيخ قريته الضرير، وهو يقرأ من كتابِ الله ليجمعَ الملائكة من حَوله،
وتذكّر كيفَ كانَ يجمعُ كلّ الشياطين من حولِ الشيخ الضرير.
الآن فتحَ قلبه، فرأه أعمى بالكامل. فَرِحَ، فَرِحَ بذلكَ من أعمقِ أعماقِ عماه!

٤

المَطر يَضربُ بقوةٍ على زجاجِ نَافذته
يُخْرِجُ رأسَه ويقولُ: أيها المَطر أضربْ هَا هُنا على رأسي.
تَماماً على الجُمجُمة المصقولة بعناية فائقة!
أريدُ أن تفرّ من أمامكَ عفونة العقل ومَهازله المُسْتديمة!
أريدُ أن يذوبَ تحتَ نقراتكَ القويّة ملح الحكمة وقيحُ اليقين
أريدُ أن تتفتّتَ صَخرة الهدوء ويتَهاوى عرشُ المُحرمات
أريدُ أن تعملَ بمعولكَ الرّطب على مَورُوثَات اللطافة والهدوء.
أريدُ أن أبقي على الجنونِ مُشعّاً، مُتلألئاً، فَاتناً، عَجيباً وغريب الأطوار.
أريدُ أن تشهقَ الكائنات من الدّهشة وتردّدُ: يا لعظمة هذا الجنون
يا لجنونِ هذا الرحّالة العظيم.

بون ٢٠١١



قصائد

خضر سلفيج

الأمهات

يموت الورد حين تغادرنا الأمهات
على ندى يبعثر نعشه
وينثرنا على مشجب الحزن يتامى.
تموت الحديقة
تموت أعمارنا
يموت مسك العائلة.

كثيرا ما ينحني الموت للحياة

كثيرا ما ينحني الموت للحياة
ذلك الذي يغيبُ
برفقة الظلّ
ويعدو في كفن

كأنه الغريب يشيبُ
على مائدة في مقهى بعيد
ويبصر الفتيان من حوله كبوة الهاوية.

كثيرا ما ينحني الموت للحياة
ذلك العاري بهالة قفطانه
يزور الحديقة
ولا أحد
يلقي على نيامها
كسالى الوحدة
مفاتيح الزهور.

مقام العمر

حين نكبر بعد نصف قرن من الطفولة
سنعيد قراءة رسائلها
الحياةُ
ونحرس ثوبها من سعال الضجر
هكذا نلتحق بالطرف الآخر من القرن
نلوذ بندى ً،
كل مافيه حكايا.
مقام العمر
هذا الأميرُ المجهول على مملكة
ضائعة المفاتيح.

للموت أجراسه ُ.. هنا أو هناكَ
وأنت المحاصر ُفي فمك الثمرُ الشاميُّ؟
بماذا يملح لو فسد الملحُ؟
شجرٌ يبادُ وقادة هاربون
ضيوفٌ لأعدائهم.

نهرا من الشجن الأخضر الآن يرحل نحو البلادْ

لهذا الخضار نشيجُ الضحايا
وفي مقلتيكَ نداءُ الطيور البعيدة.

من يجالسك الآن في خلوة الهوى
لصمتك الآن أجراسُهُ
حلمهُ الأبديَّ
فأنت الذي تأخذ الأرضُ في وجههِ
طفلها البربريَّ الجميلْ

كنت حيّا كهذي الحجارة
منغلقا
كاللغات القديمة
أكثر صمتا من البحر في موته
كجذر يسيجه العشب والرمل
مخترقا بالزمان
جنائزية التعب الميت
ومشتعلا بالفرادة.

جسدك
فضاء يمر به العابرون إلى الأمسيات
إلها نقيا
تواريخ من فرح عابق
هنا ليس غير احتفال في لحظة الأبد.



شياطين الشعر

خلات أحمد

لا يأتون
إلا وانا في كامل الهوس
صحيحةً جداً،
وأشبهني.
يسلسلون للماء الصلوات
يربتون على قلبي الوحيد
وبمرح، يسدلون جفوني على الحب.
كأسٌ أخرى
وأُشبهني،
وأكون ناضجة
للحب والصلاة.



أنين المنفى

طه الحامد

على خاصرة البحر
تركت أوراقي وجواز سفري،
وبقايا كسرة خبز رسمتُ عليها تضاريس أمكنتي
ووجوه أحبَّتي وبقايا أشعاري
وخيبتي.
هناك يعتكفُ صمتي وجرحي
وغناء المراعي للمطر.
أوَّاه أيتها البلاد المغمورة بالشموس
مازلت تسكنيني.
نزيفُ صوتكِ أنا، وحشرجةُ الياسمين الدمشقي
وهديلُ اليمامِ المحتضرْ.
أنا وطيفُكِ وهمسُ الرِّيحِ للشجر.
هنا
يراودني ذاكَ الغبارُ
ورائحةُ (الكاز) في الفانوس

ومشهدُ قطيعِ النعاجِ في البراري،
خصلاتُ شعرِكِ أيتها الريفيةُ والقمرْ.
هنا
أتلاشى
كالفتيلِ المحترقِ في عتمةِ الكهفِ
يابؤسَ ليلي
لا رنةَ خلخالٍ، ولا عطرَ القرنفلْ.
هنا في غربتي عن الحقولِ وبيادرِ القمحِ
ورائحةِ البابونجِ وخضرةِ العوسجْ
أراقصُ الصمتَ
وثمالةَ السهرْ
هنا
ليلُ الغربةِ
كالتابوتِ يعزفُ للكيبوردِ نشيدَ الموتِ والضجرْ.
لا شيءَ خلفَ نافذتي سوى ندفَ الثلجِ
وصخبَ الريحِ الخرساء.
و وميضَ وجهِكِ، وبقايا ذكرياتٍ لمواسمِ طيشِنا
ومساءات
كنا فيها نقطفُ عناقيدَ العنبِ
المختمرْ.
هنا
هسيسُ لهاثِ الشامِ
يوقظني
أنا نصفُكِ !
أأنت نصفي ؟!
إذاً :
لنغني بلاداً من قوسِ قزحٍ..................
بنا سوف
تكتملُ القصائدُ،
ويمضي النايُّ في عزفه للأقاليم؛
للتراب والماءِ والحجر.
أيَّها المنفيُّ

تلك
الأماكنُ البعيدةُ......
مازالت
حبلى بالأناشيد؛
تُوسِّدُ حلمكَ الأخضر
أواهُ
ياوطني
دعني
أفني بين أضلعك
ماتبقى من روحي
فداكِ هذا النبضُ
فلكَ وحدَك
القوافي تنهمرُ
وتنحدرُ من أعلى العين
مثلَ نهر
أواهُ
يا أمكنتي دعيني آتيكِ
حلماً؛ طائراً يغني على أشلاءِ سنبلةٍ
تناثرت بين شغافِ الترابِ وعويلِ السهولِ للمطرْ.



عطار الرسول

طه خليل

أنا عطار الرسول محمد.. خذني الى حمص.!
معي كراريس الصحابة.. وأختام الماركسيين..!
معي حجر لجلخ ذي الفقار.. و معي حزام بنت ابي بكر..!
معي صولجان النجاشي.. وطاووس الفارسي سلمان..
فقط ارمني قرب السلمية..

انا قياف الدم... والطريق الى حمص دم...
لن أضيّع طريق حمص!
انا العطار.. دهنت شعر محمد قبل حجة الوداع!
وتتبعت ظله يوم جاء الى حمص...

جاء قبلي... وتأخرت عنه قليلا..!

•••

انا عطار الرسول . .
معي خصلتان من شعر فاطمة . .
أبيعه للعلويات . . تميمة تعيد إليهن حبيبا غاب . . أو استعار جناحين من يمام . . !
معي حناء الحميراء . . للسنيات . .
يخضبن به خط الشوارب . . كاد يظهر على وجه الشهيد . .
ومعي خوف هاجر . . وكعب إسماعيل يطفر ماء من حجر السلمية . .
معي المتعبون . . وخاتم النبوة . . نسخته من بين كتفي ابن هاشم . . !
معي وجل للحالمين . .

معي قلق هواء . . يستقر على كتفي . .
معي غضب بن الوليد يوم بدر . . والدم العلى سيفه . . !
معي صرخة حمزة . . وزغرودة هند . !
فقط أوصلوني للطريق . .
الطريق دم . . وأنا قياف العديّة . . !

• • •

إلي بدموع الحبيسات . . المنتظرات وراء الأبواب . .
إلي بالقتلى . . أبادلهم ياسمينا بالتاريخ . .
ها التاريخ يحني ظهري . . ولست في خريف العمر . . !
ها هي الصحائف . . ورماح الغواية . . ونحل الصبر في دم السجناء . !
إليكم بأبواب حمص . . تجدونني هناك . . أضع عطارتي . .
بخور للاستذكار . . مسك للتوابيت . . وكحل لعين الغزالة . . تقف على المنصات تصيح :
« سوريا لنا . . . ! » .

تعالوا ندبّج للقتلى مدائح من صنوبر . . وتين . !
تعالوا . . ! نهيل التراب على غرة البيرقدار . .
ونسأل حمص عن ليلها . . عن الحديد يسيل على أبوابها البحرية . . !
أوصلوني فقط الى طريق السلمية . .
من هناك سأتتبع دم الشهداء . .

انا عطار محمد.. وصاحبه..
لم تذكرني كتب الصحابة...
وسقطت من ذاكرة عثمان.. وعمر..!
ومن جرح في خاصرة الحسين!
انا الهواء الذي مر بالغدير.. يوم الغدير.!
وأنا الوشاح الأخضر... يهفهف على النار..!
أنا عطار النبي!

•••

كنت على بئر أريس.. يوم أضاع عثمان خاتم محمد...
وأخذت رمل البئر.. رميته بين حوائجي..
ها نقش الخاتم عليه..
سأختم لكم ما حاجج نبيكم الروم.. والأعاجم..!
ومعي ناووس المطران في مرو..
ومعي كد النصارى ليزد جرد بن شيرين..

سآخذ بضاعتي إلى حمص..
مرروني قبلها بصفين.. لأرى دم عمار بن صفية هل أزهر سلماسا..؟
ومرروني بشريعة الفرات.. يوم عطش الإمام.. وجفلت خيل المتحاربين.!
يوم اجتمع الرهط على قتل عثمان، فنهاهم عبدالله بن سلام : "يا قوم لا تسلّوا سيف الله فيكم.. فوالله إن سللتموه، فلن تغمدوه.!".
معي ما كان في جيب معاوية، دقيق من قلامة أظافر الرسول.. ذرها في عينيه يوم مات!
معي خفة أبي موسى الأشعري..
معي دهاء عمرو بن العاص.!
معي ندم الخوارج يوم النهر.!

سأرمي بضاعتي في حمص.. وأنام قليلا..

أنا عطار الرسول..!

• • •

قال معاوية ليزيد وهو على فراش الموت:

«يا بني! لقد كفيتك الشد والترحال.. ووطأت لك الأمور.. وأخضعت لك رقاب العرب.. انظر أهل العراق، فان سألوك أن تعزل عنهم كل يوم عاملا فافعل، فان عزل عامل أيسر من أن يشهر عليك ألف سيف، وانظر أهل الشام فليكونوا بطانتك وعيبتك، فان رابك من عدوك شيء، فانتصر بهم فإذا أصبتهم فاردد أهل الشام الى بلادهم، فإنهم إن أقاموا بغير بلادهم تغيرت أخلاقهم، واني لست أخاف عليك أن ينازعك في هذا الأمر إلا أربعة نفر من قريش: الحسين بن علي، وعبدالله بن عمر، وعبدالله بن الزبير، وعبدالرحمن بن أبي بكر، فأما ابن عمر فانه رجل قد، وقذته العبادة، وأما الحسين بن علي فهو رجل خفيف، ولن يتركه أهل العراق حتى يخرجوه، فان خرج وظفرت به فاصفح عنه، وأما ابن ابي بكر فان رأى أصحابه صنعوا شيئا صنع مثله، ليس له همة إلا في النساء واللهو، وأما الذي يجثم لك جثوم الأسد ويراوغك مراوغة الثعلب فان أمكنته فرصة وثب، فذاك ابن الزبير، فان هو فعلها بك فظفرت به فقطّعه إربا إربا، واحقن دماء قومك ما استطعت.».

معي كحل ميسون بنت بحدل يوم رمته على قبر معاوية!

ومعي دهشة خال كان تحت سرة نائلة الكلابية.. وضع الرجال رؤوسهم عليه وماتوا!

يا لقوم أجتمعوا على قتل الحسين!

و معي خرز أزرق كان على ناصية فرس الحر.. يوم طأطئت رأسها لابن بنت رسول الله.

معي عيون شمر بن ذي الجوشن... يوم تقدم إلى ابن فاطمة!

أريد الوصول إلى حمص!

أنا عطّار الرسول

• • •

معي غبار علق برجل زينب من كربلاء الى الشام!

معي رذاذ دم.. رماه الحسين في السماء.. وهو ينظر لسهم حصين بن نمير!

معي يد تنضح ماء في الشتاء.. وتيبس في الصيف.. كعود!
ومعي رمح سنان بن انس النخعي..!
ما كان في جسده الا ثلاث وثلاثون طعنة.. وأربع وثلاثون ضربة.. غير الرمية..!
معي دم كثير..
فقط اوصلوني الى حمص!
أنا عطار الرسول!



القيامة

عبدالمقصد حسيني

جئت على عجل لأضمد ما بقيت في يديك الريح
في عيونك سرب أدعية احترقت
لم انتظر القيامة.. ليحاسبني.. الجالسون في عرش المحاكمة
جئت.. الثورة في مجدها.. في المخاض.. أركض معهم
الناس يتأبطون مواويل وأسماء قتلاهم..
أحلام ترفرف بعمق
جئت يا بني.. لم انتظر عزرائيل.. خالفت الوعد المبين
نفضت عن الجسد شلال الحسد.. مشيت في القرى مع اليزيدين
نتحاور في فقه الكتاب الأسود
في حكمة الموت
لم انتظر القيامة
ليدلني الملائكة.. إلى الحوريات وجوقة الصالحين
جئت أحضن الثورة.. في الوجوه ضوء ابيض.. انه التاريخ
سقيناه بالدم المقدس
يا بني.. نثرت في يديك الفرح.. نتأبط الحزن منذ

غادرنا القرى
لم أصبر حتى القيامة.. لفقت ما خسرته في الماضي
من علوم الوراثة

٢

يا بني تركت في القبر الوقت الشرير.. خفايا النسيان
هذيان الجهات
نسيت أسماء أعلام القدر
لم أتحمل الصبر حتى الحساب.. صياحهم يتساقط فوق شفتي
كفقاعات المطر
أنا احن إليهم
الناس يهتفون.. حرية..حرية..
أنضم إليهم كرف جراد
منذ زمن بعيد
تركت القرى.. حداداً على مراسيم الجفاف.. وغياب الأمن
طردت الغيوم من شفاة المخاتير
حشرت في الوجوه لعنة الزمن
الآن.. كتبت نصوصاً تكتظ بفقه الزنا.. والمواخير والمومسات
والحيوانات..وعلوم الشهوة
لم اخسر مزامير التمرد
يا بني.. احترق شقيقي عنوة
لازلت أضمه إلى البياض
كانتفاضات الكرد
القبر سجن انفرادي
ليوسع الله حي المقبرة.. لأمدد يدي.. وأصفق
للثورة
واجلس.. انثر حولي كالغيوم نصوصاً..كأسي

٣

أريد أن أعيش طليقاً

أحب الفصول وأنقش في شفاه عشيقاتي المجد المذبوح
أريد أن تطرد من جسدك الخجل
وطبول المديح
جئت.. يا بني لا أتحمل طقوس القيامة.. وفرقة الاستقبال
ومهربي الدفوف
أنضم إلى هيجان القدر المقيد في بارات دمنا
أحبهم.. واشد على صلواتهم
ينقعون الحرية بماء الذهب.. ورقصات القرويين
في البياض نجوماً كقوس قزح.. تضيء أرض الله
نقشت أسماء العشيقات.. والمدن التي دفنت في المغيب
برجالها.. وأطفالها
جئت يا بني.. لم انحني للطواغيت.. والبرابرة.. دوماً اركع أمام
البسطاء الذين أياديهم فارغة حتى من الضوء
أحمي حقوقهم
بزق من أصابعهم حتى همسة ريح
أشعر بطعم الحرية كطعم ليمون
أنني احبك
أكثر يا بني
لأول مرة نتقاسم المتعة في البلد
والخسارة في السوق

٤

يا بني تركت المقبرة .. جئت عاشقاً.. في شفتي صهيل الحروف
وبلاغة النصر
تركت سيفي المسلول في القبر معلقاً
انتظر القيامة
لأخذ حصتي من الغنائم
تسللت المواخير في عرش البلاد بحثاً عن مكان
يضمد نزيف المتعة.. نقشت على خدود المومسات
دول أحزاني وإمارات الشوق
تسلقت الجبال

هنالك غيمة أبلل حنجرتي بحبوب الطاعة
أنا شقيق القلق
وعم النسيان
كل ضالع في البكاء وهو من السلالة
شربت الخمور حتى فتق قلبي كالينابيع
ورويت البياض بالهذيان المقدس
وحيداً في العراء وأضمد القيامة بالصبر

٥

ارتجف كعصفور في القبر.. ليأتي العرافون ينقبون في حويصلتي
عن بقايا الكلمات
يا بني..
انضم إلى الحراك..٠ لأحضن البلاد
أنها القيامة أضمها إلى قلبي
المقبرة الموحشة والمزخرف بطيش الزمن وطواغيت
العزلة المترامية لا معسكر لها في طبوغرافية القدر
القمر الساطع في بحيرة الغيهب على أسوارها ترفرف الرايات
أطفال يبحثون عن أسمائهم التي نزعت من أكبادهم
الصغيرة عنوة
كالديوك يفرشون عويلهم في الساحات
يا بني.. غنائم القيامة.. من الوسائد.. والستائر
وقصوراً... حصتي أوزعها على هؤلاء الحفاة
أنهم عراة
في مماليك النهب
يبحثون
عن اختفاء البلاد من التاريخ

٦

أنقش عراكي في سرير الندم
يا بني.. تحت إبطي تراتيل الثورة

أركض
أشد على الأيدي بعمق الجرح النازف
أراك مقيداً
حزيناً
فوق حواجبك موكب الأسرى
انزوي في كتابة نصوص عن المتعة
في البياض.. فحولة النهر
أمضي
كما أريد من الشوق

لنبقى أقوياء
نكون حليقي الرؤوس لندفن عزيمتنا في الحريق
نمارس تمارين الكذب
لنخرج في عصيان ضرير
ونحضن الخرنوب في العيد.. ونهتدي بحكمة الثعالب
نكون رجالاً بعيون شريره كعيون القطط ونتأبط مسدسات
من الورق المقوى لنحرس البلد من الطواغيت
النهار حملته من الغصن المنكسر
الأصدقاء في نوم عميق
نسوا الجهات.. لا تصافحهم هم أشرار
لا تشتري من السوق البلاغات.. والمزامير
اعلم أين سقط الصاعقة والغيمة تركض
البشر طغاة.. إذا تبارزت النطفة اعلم انه شرير
حاول تكون هادئاً
كالحمائم
فالقناصين
بانتظار ترفرف جناحيك

الجزيرة منكوبة عقلياً
مصاب بسكتة قلبية.. بنزيف الفناء.. بطاعون الوهم
من يسعف؟
من يداوي نبة الظل؟

الانتحار في حقول الرماد
من يوقظ من معسكرات الغيهب لحضور مؤتمر الاستقساء
فوق جزيرة المريخ
الجزراويون في عصيان الجفاف أمام باب القيامة
يلمون مجدة شرودهم
الجراحون بترت من أصابعهم لهفة هواء
الكرد بترت من عيونهم منهج الصحة
والوافون اقتادوا إلى الجحيم لضماد النجوم في بحور الأرق
والسؤال عن فقهاء الغيب لفك الحصار عن الريح
من يوقظهم؟
ويرشدهم
الأقاليم المنهوبة.. والمبتورة بحكمة الرصاص الأرعن
من سجلات الندم
من مواثيق الحيل
والخجل المحفور في حقول الرهج
الكرد يبتكرون حلف الصمت

٧

مصاب في علوم الشفق المنكسر.. نتحاور في بازار الشهوة
عن النجوم التي شاركت الانتفاضة
عن الخوف الأزرق المعلق كالأحجية في كتف السيل الجارف
من بؤبؤة الشوق إلى حاضنة الغياب
الأجداد رموا في الزوايا مواويل.. ورايات
عقول تكتظ بخفايا المورثات اللوطية
بشريعة الحوار الأعمى
أنهم سلفيون حتى في تحريم الضوء
في بهو الله..
كل نجمة مربوط بحجر ارعن
كل نهر أسير غيمة
أنهم نورانيون في التنجيم
في مزوالة سفك السر أمام الضريح

الكهنة يقراون البيان
أنها الإرث العاق منذ النهضة لابتكار حروف الطاعة
في مدارس التصوف.. وثورة اليقين على تخوم المغيب
ونهوض الأحزاب في مسلخ السلالة
البلاد بحاجة إلى صلاة الرحمة
لينتخب الجزراويون
الفكر الضرير



استدراكات

عمران علي

أدركت الآن..
وأنا أعبر الجسر
كم كنت مشوهاً
في هذي المدينة
وذاكرتي مثقوبة
فالنهر يتجه صوب الجنوب..
وجسدي الشمالي يمتد غرباً
كم كانت نحيلة الطفولة
وكم كنت ميتاً.

—

متأخراً أتيت..
وعلى ناصية الحرف
أفرغت ما خبأته لك
من عنب الكلام
وفي منتصف الحلم..

أيقظني بجدارة
سائس الخيبات.

—

هذه السماء لي..
ولن تهدرها أجنحتي
وهذا الأزرقاق.. أيضاً لي
لن أبيح مياهي
في ملوحة الزبد.

—

سيدة الكنائس..
قارع الأجراس أنا
وصدى النحاس
يداي حبل الوقت
تتسلقان أعمدة الصلاة
و ترتلان القيامة
على زنار فستانك
و المنذور للريح.

—

يليق بك..
أن تسرحي على تخوم الليل
ضفائرك
يليق بك..
أن تملي على كتفي
واحات أنسدالك
ويليق بكتفي..
أن ينام على نيزك سقوطك
مملوءاً بالضوء.



حزنٌ مفرطٌ في الحزن

فتح الله حسيني

حكمة البلاهة
أن تنتهي الفتاة، هكذا كما اعتادت أن تتيهَ
لتعاد محادثاتنا المشروعة
على بعد ألم
والقائمون علًى قيامة الحجر
يعيدون ما بذخته الأسئلة
في حضرة
الأسئلة
كأنهم
يعيدون مراحل الآثام
وهم هادئين
مستذكرين، جراحات تليق بثوانيهم المتآكلة في عصرٍ
تصفيق المجانين، بركة الخالق على شحوب مريديه.
فمن للحجر يا حُجرة الفقهاء في
تل الشعير

الراقدون
ماتوا، هناك، في حجراتهم،
متمسكين ببكاء التراب وأساه..
حكمة البلاهة
متاهةٌ
والساكنون على أطراف المدينة، تلفظهم أقاويل الباذخين
وهم يتأهبون لاستلام متاريس الحياة من الحياة
ينتشرون في أركانٍ ما عادت تصلح للكلاب
مأخوذين بالتعب وراء حفلات التعب..
يَمَسّدون صباحاتهم كما يمسدونَ نسوةً من جليد
تقلقهم زوجاتهم الممدات والمهدودات أمام أبواب المنازل التي لا تشبه المنازل، فيظلون ممزقين كثيابهم حتى صباحات النائمين
ينتفضون على اللاشيء
وعلى أحلامهم الصبيانية
تاركين ورائهم
جيوشاً
من الحافيين وسط الشوارع
وفوق السطوح البعيدة
وما زالوا
يحلمون
ببشارات
وبأولاد يشبهون تفاصيل كآباتهم في
زحمات الأرصفة الصديقة
يشبهونهم في بؤسهم
يشبهونهم في حماقاتهم
يشبهونهم في موتهم المتمسك بهم
وهم ينتفضون....
ويثورون
كما لم يسبق إن ثار أحدٌ من قبلهم
ـ وعلى مرأى الحماقات ـ
في وجوه الطيعين..

صباحهم الأول، هلعٌ
وصباحهم الأوسط، هلعٌ
وصباحهم الأخير، هلعٌ يخيم على جسور وقبعات المدينة
وهم :
ينتشلون الغبار من الغبار
بأياديهم
وأرجلهم
وعيونهم
ومقدماتهم ومؤخراتهم
كأنهم
ينزعون الهمّ من الهمّ
كخفافيش الهدوء في فضاءات
لا تتسع إلا لهمهم
والظهيرة
تحرق ظهورهم المحمية بنياشين وهمية، بأبهة الشمس
ولا يكترثون..
يغربلهم الكون
بفوضى تناثره على جباههم وما ينتظرونه من مكافآت
فيظلون سارحين
هؤلاء المساكين
ليلهم ليلٌ، ونهارهم نهار
وللوقت المهدور يزف حنين المارقين
يعطسون
بملء أعضائهم
كما تعطس السيجارة
على
حديقتها

• • •

لتواريخهم المرمية في أُبهة التراب

حزنٌ مفرطٌ في الحزن
مؤجج بالبكاء
ومدجج بالأحزمة المربوطة
حول خصورهم
كما
كان
البكاء
شيئاً
قاتلاً
دون مناجاة، يربطون أرجلهم الغاطسة بأسى الطين،
بالأرض الودودة
لئلا تخيفهم الأيام المبتدأة
فينهزمون كما ينهزم الرُّعاة
من
غدر
الذئاب
وعويل الظلام
يتأملون الخشوع الربانيّ
بوجلٍ قاتلٍ
بوجعٍ مكهّربٍ
بأنينٍ مبتور
بألسنة لا تنطق إلاّ لشتم الأطفال
والأوطان
وأعباء المخنوقين

فينادون :
نحن عبادك « المتوسلين «
ياربّ الجمرات والفقهاء

• • •

المساكين، يرتبون أسرتهم الملونة بالصلوات أمام مدافئ خشبية

كما كان الضباب يرتب نكهة الأبراج والبنايات الشاهقات
والعفة مدفونة
بين فوضى القبور
* كهامش
المساكين
الذين لم يحلموا
بالأليزيّه
وفخذيّ الإمبراطورة
وسيقان النيويوركيات
أمقتهم
وهم
هامدون
كالموتى..
* هؤلاء المساكين، يأتون من أعمالهم اليومية، فيظلون ممددين على طفرات
آبائهم، الذين رددوا لهم، أمداً، في بداءة العمر الذي لا يشبه الأعمار،
قوانين القمع والمنع
والعيب والحرام. بينما زوجاتهم العاطلات في كل شيء، يسردن على
أسماعهم المثقلة بالتعب وربّ
التعب، مشاكل المارقين والطافشين و الخانعين.
يأتون مساءً
من قبور، كانت ملاذهم، نهاراً كاملاً
تلتف حولهم
مراياهم المكسرة وزوجاتهم وقططهم وما لا يدركون من أبناء
فيأكلون ما يسرّه المشتهي لهم.
ثم
يدخنون
أوجاعهم ..
بكسلٍ مهدٍ..
ومهدوِد
ومهدود.



وجوه

فدوى كيلاني

وجوه تنزل ظلالها في ماء البحيرة
وأنا أسحب السماء إلى حقيبة يدي
أبتهل إلى الموسيقا . .
ترقص على أنغامها شلالات الماء
لتدير دولاب الهواء
وأطفال صغار يرتقون سلالم الأفق
حيث أصابعهم تأتي بسكاكر ونجوم
كان كرسيي الخشبي يحثني
أن ألحق بهم
عالياً
من يمكن أن أصحبه ؟
سؤال . . . أرميه في ذاكرة الساعة
لأرى صورتي على هيئة طفلة من رذاذ
تأخذ خرجيتها من « بابا سيد » .
وتهرع بعيداً في بساتين « ديرك » .

بعيداً عن دورة غربتها
ما دام أن اسماً واحداً
سيجمعني
طوال هذا الشتات
أرى شلالات أخرى ترقص
على أنغام الموسيقا نفسها
هي دموعي ......!

•••

صيف
كلّما مر يوم
كنت أرميه بعيداً
جعلته درجاً في سلم
وأنا أصعد نحو عرشك
وأقول: لقد دنا ضيفنا
كم كنت أتلذذ بعري الروزنامة
لكن ما يحدث الآن
أن روزنامتي باتت تستعيد
كل ما افتقدته
من ورق في التاريخ
عبر هرولاتها
منذ أمك حواء
وحتى قميصي الذي تستأثره
بيد أني
ظهرت
في مجرد حلم
حيث في أول امتحان
فحسب
وجدت نفسي
وحيدة في المعركة ....!



أنا البلاد لم أمت

شهناز شيخة

بلادي الجميلة
بعد كلّ ما تساقط من زنابق
وأنت تحزمين النرجس البريّ
في دمكِ...
تجدّلين بالخزامى
حزنك الكبير
أبحث في شرفات دمارك
... عن قهوتي وقلبي
تنزع النجوم قبّعاتها
تنزل السماء خاشعةً
إلى ربا يديكِ!
حيث الطغاةُ في أفول
يجرجرونَ خلفهم
بكاءكِ... المرير
بقلبي ألمّ إليكِ النهار

أغلق كلّ أسواق النخاسة
أطرد عنك تجّار الكلام
أنا طفلك الشريد
أعود إليك!
ألمّ إليكِ
هزيع الغناء
أسمع صوتك يهمس
في أذن ذاك الشريد
من شهورٍ نزفتُ
ولم أمت يا صغيري
نسيتُ وجه الحقول
خذني إليها
بمعجزةٍ أو بسحرٍ
سأنسى كلّ ما عشتُ
من رُهاب
أجدّدُ روحي
وآمنتُ إني أحب الحياةَ
أحب الحقولَ...
أحب السماء...
لذلك يا صغيري الشريد
ظمئتُ وجعتُ
اغتُصبتُ على قارعةٍ مارقة
قُتلتُ... سُجنتُ
صُلبتُ... وقُطّع لحمي
لم أجد لي قبراً هناكَ
بين الياسمين
لذلك عدتُ
ألملمُ أزهاري
أنظف مائي وشمسي
أعلنُ في وجه هذا الظلام
عناقيد أقماري
في وجه قاتليّ

انبثاق أشجاري
وبين يديّ سماءٌ ستعلو
كمئذنةٍ أو كنيسة
أو صلاةٍ يزيديّ
على كتفِ الشمس
يرتّلُ سرب يمام
أعلنُ في وجه قاتليّ
إني حملت السلام صلاةً
شمسي أمام الباب
عظيمةٌ كجرحي
لذلك عدت
أغسل وجه صباحي
أعلن لعالم
يغضّ الفجرَ عن روضي
هي الريح تكسّر أصابعها
على قدم موجتي
أنا البلاد التي رغم أنف الريح
لم أمت... !!



في أعالي البحار

لقمان ديركي

من سيقول لي أين تقع أعالي البحار، من؟!
من سيقول لي، ماذا بعد هذا القوس الأخير الأزرق
من سيقول لي ما لم تقله كتب الأسفار
هناك في أعالي البحار؟..

هناك حيث تأخذني الأمواج كيفما تشاء
وسط العواصف
تحت الأمطار
على لوح من سلام
هناك في أعالي البحار

حيث لا تسمع عواء الذئاب
ولا تلمح فضة القمر
هناك
وسط البُعدِ والظلام

هناك في أعالي البحار

لا جبال
لا سهول
لا أنهار
لا وديان..
فإلى أين يودي الصراخ
هناك في أعالي البحار

وتصرخُ
ولا صدى
لا أنحاء
لا شيء سوى العاصفة
وهي تحمل مع صفيرها الصراخ
هناك في أعالي البحار

وتصرخُ
لا للاستنجاد
لا للاستعباد
ولا للدعاء
تصرخُ كي تُفلِت الأحزان
لتطيرَ وتتوه
في الظلام
وسط العواصف
تحت الأمطار
هناك في أعالي البحار

حيث لا نسور
لا ضباع
لا غربان
لا ولا حتى قُرشان
لا ضوء

لا أنوار قرصان
في قلب الوحشة
في خلايا الوحدة
بين ثنايا اليأس
ويلفُّك الظلام
على ذروة اللا أمل
هناك في أعالي البحار.



أُتابعُ حريتي

لقمان محمود

في الحلم، أُعانقُ البعيدَ
حيثُ تَستيقظُ الذكرياتُ
بلا ندم.
قلتُ أعرفُ هذه الأرضَ
لكنْ، لا أملَ هناكَ في انتظاري
ولا أملَ هنا
: فكلُّ ما حولي
تكرارٌ غيرُ واضحٍ
لنجاة مرتبكة
تُقيسُ أعماقيَ الحزينةَ
بقلقٍ
خالدٍ
ورغمَ ذلكْ، فأنا هناكَ
طَوْعَ طفولتي العنيدة
أتابعُ أسرابَ العصافيرِ

أتابعُ حُرّيتي
في طريق الجراح القديمة.

إمتحان الحرية

أُتابعُ حياتي
: أنا النهرُ الجريحُ
في الأراضي الميتةْ.

لي رسالة الماءِ
أينما ذهبتُ.
لي أثري.

تمرَّدتُ على سُلالتي
لأُحقّقَ حسرةَ المياه
قلتُ لسُلالتي:
حسرةُ المياهِ هي اليابسةْ.

لقد قطعتُ جميع شراييني
في إمتحان الحريةِ
: كي أموتَ في حضنِ ربيعٍ
منتصبَ القامةِ
أو في حضنِ خريفٍ
منحنيَ الظهر.

أنينُ جدودي،
: (جدوديَ الأمواج)
يعذّبني، يقتلني
منذُ آلاف السنينِ.

فحتى الآنَ لم أسمع
أنَّ أخاً من أخوتي،

: (أخوتي المد والجزر)
قد حقّقَ النجاح

في الهروبِ،
في الخلاصِ.

كل ما أريده
يا سُلالتي المياه
: أنْ أموتَ وحيداً
ولا أكونَ معكم سجيناً أبدياً
في البحرِ.

سلالمٌ لصعود الموتى

محتشداً بالموتِ
أصعدُ سلالمَ الغيبوبةِ
لأخبر أمي
كي لا تنتظر سنابلها.
: أمي لا تنتظري
فحنطتك ضدَّك.
لكني محتشدٌ بالموتِ
و الوقتُ طبيبٌ متأخرٌ
يرفع السلالمَ
لصعود الموتى
فوقعتُ كمن يقعُ في نوم سبقه نومٌ آخر، ثم يمضي لينام وإلى الأبد، تاركاً لغيبوبتهِ تقشير الوقت، أو وضع صيغةٍ نهائية لمسألة الإنتحار، فسمعتُ من يقول: أين وصيتكَ، قلتُ: أبي ماتَ دون وصية، و أمي كذلك. لكنه أعارني قلمه

و أجبرني على الكتابة، و بينما أنا منكبٌ على كتابةٍ
لا تنتهي، كانتْ أمي واقفة تحدِّق في أصابعي، لم أندهش،

بل تملّكني خجلٌ جعلني أخفي أصابعي القصيرة جداً إزاء
أظافري الطويلة، و لا إرادياً قلتُ: الأظافر رئات الأصابع،
لكنها قالتْ: أصابعكَ نارٌ في يد الحريق، فأخفيتُ أصابعي
بين كومة الأوراق، متوسِّلاً بنظرتي تفسيراً، بينما كان
الدخان يتصاعد من الأوراق متوسِّلاً إلى النار أنْ يتخفّى في
ثياب الرماد، صحتُ بصوت عالٍ: أمي لمْ يصب يداي بأيِّ
حروق، إنتابني حينها خجلٌ لا يوصف لتصرفي الطفولي،
و كي أخفي الطفل الذي لا يتركني، صرتُ أطقطقُ أصابعي
كي أريح خجلي، و لكن لم يطقْ معي إصبعٌ واحد، فرفعتُ
رأسي، كانتْ أمي كوقوفها الأول تنظر إلى محاولاتي
اليائسة، فإبتسمتُ لأجتاز هذا الفشل، فصرتُ أسحبُ
إصبعي، فبدل أن أسمع الطقةَ كنتُ أسمعُ أنينَ الألم و هو
ينسحب من الإصبع ليستقر في الكف الذي خسر إصبعاً،
فكلّما سحبتُ إصبعاً بقيَ في اليد المسحوبة، حتى وجدتُ
اليدين بدون أصابع، فأظهرتُ الطفل الذي أخفيته ليترجم
أنينَ الألم في الكفين إلى دموعٍ يسبقه كعادة الأطفال
بكاءً شديداً.
سحبتني أمي من يدي وعلى مسافة ثلاثة أمتارٍ تركتني

محدِّقاً في مرآة الخزانة الكبيرة، والتي عمرها خمسون عاماً،
للوهلة الأولى مسحتُ عيني من الذهول، فبدلَ أن أرى نفسي كنتُ
أرى أبي، فتذكّرتُ أطفال طفولتي طفلاً طفلاً، حتى أنني سمعتُ
نفسي أردّدُ أغنية الطفولة و الخاصة برؤية الآباء، فردّدتُ طفولتي
حرفاً حرفاً على أبٍ يقلّدني في المرآة، فصرتُ أغني: أبي إسرقِ
الماء، لأكون نهراً. ثم إلتفتُّ حولي، لم أجد أمي، فصرتُ أخبَطُ
يدي في المرآة، ثم رأسي، حتى ظننتُ أنَّ جسمي أيادٍ لا تحصى،
فصرتُ أخبطُ أخبطُ حتى سالَ مني ماءٌ كثير.

لم أنتبه إلى نفسي، إلا أنَّ آذان الفجر- كعادته - كان المنبه
الوحيد لموعد نومي، فتمدَّدتُ على الأرض، بينما روحي كانت
تنسرب نقطة نقطة من فتحةٍ صغيرةٍ في أسفل الباب،
و شعرتُ أن الماء بدأ يتنفسُ الصعداء، و بدأت الغرفة

تنحسر عن أعضائي ببطءٍ مميت، لأرى قلبي يسيل في
مكان، و كليتي في مكانٍ آخر، وكذلك جميع أعضائي
كانتْ تسيل.

لا أعرفُ كم مضى عليْ و أنا أسيل، لكنَّ أخي كان يخاطب
العائلة كلاماً أظنُّ أنني سمعته من قبل، و انتبهتُ إلى
يده الممسكة بحذرٍ شديدٍ على صنّارة صيد، لكنه كان يُشير

بالأخرى إليْ، و هو يتحسَّرُ في كلامه. هذا النهر، إيه هذا
النهر منذ خمسين عاماً و هو محبوسٌ في مرآة الخزانة، قدّمه
والدنا مهراً لأمنا التي كانتْ تصغره بثلاثين عاماً، بعد رضوخ
والديْ أمنا لسلطان الذهب، مما جعل أمنا تذبل تحت أربع
قبضاتٍ عَرفنَ القسوة جيداً، و في كل مرة كانتْ تنجو من الموت
بأعجوبة، إلى أنْ لجأ والدنا إلى حيلةٍ جديدةٍ كي يخفف قسوة
الوالدين، ففي أحد الصباحات كانتْ أمنا تلعب مع أترابها الصغار
لعبة « النهر السريع »، إقترب والدنا إليها محملاً كعادته بالذهب
فضحكت من هديته و هي تقول: أُريدُ نهر « علاّوي ». دهش
والدنا، لكنها أصرّتْ و ذهبت إلى أترابها، و نهر « علاّوي »
سُرقَ في نفس اليوم الذي إنبنت فيها طاحونة، ليصبح معروفاً منذ
ذلك اليوم، ب » آشي علاّوي ».

و كمن يسمع الحكاية للمرة الألف كنتُ أسيلُ بوجعي لا إرادياً بأعضاءٍ
يراه أهلي أسماكاً و حيواناتٍ مائية، فمنهم من إصطاد
قلبي، كبدي، بنكرياسي، لوزتي، قضيبي، أذني، عيني،
معدتي، أنفي، إلخ.. لكنْ أخيراً أغميَ عليْ عندما إمتدتْ يد
زوجة أخي إلى خصيتي، لا أعرف إنْ كان خجلاً مني، أمْ ألماً
شديداً إدّعى ذلك.

« جميع الأنهار الحقيقية مصيرها البحر »، على هذه الجملة
فتحتُ عيني على أبٍ ينسج في بركة ماءٍ أنهاراً صغيرة،
ثم يطلقها من فتحةٍ صغيرةٍ جداً، و هو يكرِّر نفس الجملة،
حتى أتى على آخر نقطة ماء، ثم إلتفتَ إليْ: أمّكَ

مشغولةٌ بكَ. إتجه نظري إلى فتحة ينسرب منها نورٌ
إليْ، و قبل أنْ أسأل، إلتفتَ إليَّ ثانيةً كمنْ يقلِّدُ
دهشتي، و بينما أراقبُ المشهدَ بجديةٍ قالت أمي: أما زلتَ
أمام المرآة، مسحتُ عيني من الذهول كما في المرة الأولى
لكنها همّتْ بفتح البابْ، لكني وجدتُ نفسي راكعاً، و خرج
مني صوتٌ متوسِّلٌ فإلتفتتْ إليْ، حينها دخل طفلٌ ثم دخل
شابٌ، كانتْ رائحةُ شواءٍ آدمي تفوح منهما، فكدتُ أسأل،
لكنها أسرعت بالجواب: هما خالاك، رنَّ في أذني كثيراً، ثم
أضافتْ هما شهداء حريق « سينما عامودا »، حينها لم أعرف هل
المفاجأة أم رائحة الشواء كانت سبباً في إغمائي، فعندما
إستردتُ وعيي أحسستُ أنني في حريقٍ حقيقي، و أنَّ
« محمد آغا الدقوري » يقتربُ مني، طالما كنتُ أقف كل يوم أمام
تمثاله المحمّل بالشهداء، المنصوب من قبل الدولة في حديقة
« عامودا »، و قلتُ في نفسي، أكيد أنه قد حفظ شكلي
و سوف ينقذني، حينها شتَّتني رائحة شواءٍ « لما » يقارب
مائتي آدمي، ليأخذ قدمايَ كل ما في أقدام الغزلان من
هروب، فلم أجد أمامي سوى سلّماً يصعِّدني، نظرتُ فوق،
تحت، الجدران، كان ثمة سلَّمٌ ينزل مني دعسةً دعسةْ
كعرقٍ بارد، مما جعل الباب ينفتح أمام عيني أكثر من المعتاد
حتى رأيتُ أمي و هي تصعد سلّماً، و مع كل دعسةٍ كان
ينمحي الجزء المدعوس، و عندما حاولتُ مناداتها كانتْ قد
إخترقتْ غيمةً، فنزل مطرٌ بالمظلات، ناديتُ بأعلى
صوتي: أمي، المطرُ ينزل بالمظلات، و المظلة التي لن تنفتح
ستكون النقطة التي أنتظرها.



العقيق

محمد عفيف الحسيني

ـ لقد نبتَ العشبُ، على روحي؛ روحي التي كانت أرمنيةً، في قامشلي، اخضرتْ روحي، يا سيدي، بافي كال.

سقط صحنُ الفرفور من يدها، الصحن المليء بـ مونامور، وهي تقدمه للمارِّ الغامضِ، الذي جاء منحنياً، ومكسوراً، ومتنوراً مثل صحن يشعشع من الحب. لكن، تهشم الصحن، على بلاطات مرمر الأرمن، عذوبة هي سقوط صحن مرتجف، من يد مرتجفة، في قيلولة الضيف المغبر: كيفورك، الأرمني، صاحب الكمنجة البرتقالية المدائحية، وهو يعزف: أيتها الغريبة، صاحبة النمش البرتقالي، لقد ذهبتِ. عزفاُ أرمنياً، للأرمنية كولسن.

انحنتْ، تلك التي من الفرفور، على ضيوفها، وقدمتْ لهم شراب البرتقال، الذي خزنه الأرمن في أقبيتهم الخائفة. قدمتْ تلك التي من الفرفور، للرُسل شراباً، لم يشربوه.

سبع عشرة شجرة من العقيق، كانت تنحني، آنذاك، في مرور كولسن تحتها، وهي تحمل شرابَ البرتقال، للضيوف الغرباء. سبع عشرة شجرة انحنت بأغصانها ولحائها وثمارها الجافة وعمائها وخساراتها وصمتها وشهيقها وتفتق أرواحها ومجوسيتها وأغانيها عن الأرمن الضائعين؛ انحنت الأشجارُ، وسال من ثمارها ـ العقيقِ، الدمع الذي تحول إلى العقيق.

خمسون حبة من العقيق، المشغول بعناية القرن السابع الميلادي، من جهات عامودا، خمسون حبة من العقيق الصافي، زيَّن عنقَ كولسن، ذلك المساء المغبر، الذي لم يشرب فيه الرسل، شرابَ البرتقال، وهمُّوا بمغادرة المكان، وهم يضعون تلك الحبات النوارنية في قعر صحن الفرفور، قبل أن يتهشم على بلاط الأرمن المنهوبة.

خمسون سنة، ظل المنفي الوسيم، ينتظر، وصولَ الرسل إليه، فما وصلوا.

ينتظر أن ينفضوا الغبار عن أرديتهم السوداء بأكمامها الفضفاضة المرفهة، وأحذيتهم المتجعدة، ورائحة العرق، ورائحة شحم قطار الضواحي، وشحم المدائح، الذي هو الزيت الثقيل.

خمسون حبة من العقيق، كانت ترتطم على بلاطات بيت كولسن. وهي تقدم شرابَ البرتقال، للرسل الذين، غادروا، مسرعين، مثلما جاؤوا مسرعين، تهفهف أطراف أرديتهم، ويهفهف الحب ثقيلاً متكئاً على الندم.

خيطٌ أسودُ، يمر ما بين نصيبين وابنتها قامشلي.

خيطٌ مضفور، يشبه الوتر الغليظ، في آلة الكمان التي تنام، أو البيانو الثقيل، أو الأكورديون، الذي وضعه عازفه المهاجر على المقعد، لتتدفأ يداه بسيجارة مالبورو، مهربة من بولونيا، إلى طشقند.

ـ ماذا في طشقند، يا حبيبي؟.

تسألني، كولسن.

ـ هناك، أنتِ، يا كولسن.

ـ الطريق طويلة إلى طشقند، يا حبيبي.

الفسيفساءُ، الذي ابتكره، جدنا الأول آدم، عندما نقش بحيامينه، جدتنا حواء؛ وهي تتململ تحت شجرة التفاح المزهرة، كان الاثنان يغطسان في نقوش فصيلة البشر المرئيين، الذين سقطوا من القطع الصغيرة للزجاج الملون المزجج، بمائهما الأول. يتدفق الفسيفساء المحبوك بشهوانية على المِلل والنحل، هناك، في الجزيرة، تتدفق العذوبة المجروحة بالنور القديم.

الفسيفساء المجروح، بطعنة خافتة، من بداية القفص الصدري، حتى أسفل عانة المنفي: لقد أفرغوا أحشاءه، وهاهم يضعون بدلاً منها، السعوط وحبة عقيق وشراب البرتقال الذي لم يشربه الرسل ولسان ناقوس مار يعقوب الرهاوي النائم في قطار الضواحي وبضعة تراتيل وفصّ

ثوم وقطرات من الخل وعذاب وخرقة خضراء من بافي كال وشتلة من الريحان والبقدونس والكزبرة ونبتة الملك الأرجوانية والسماق وبعض الضلالة وبرادة الفضة والليموندز وقشور الرمان والسلام والخوف والملح المبارك الخشن البني اللون والقلق والمرجان والعصيان وفصيلة من الابتهالات تنشد:

هللويا.

(مثل قطرة من العنبر في صحن من المرمر).

ـ أتَراني، أيها المنفي؟.

تسائلني كولسن، أنا المنفي.

ـ آه، لقد نسيتُ، أن أملأ جوف المنفي، بالفسيفساء.

يردد، النقَّاشُ، وهو يخيط بطنَ الوسيم، بست عشرة قطبة، من خيطه الرهيف المدهون بالشمع، بطنَ المنفي، من بداية القفص الصدري، إلى عانته اللامعة من ماء الشهوة.

هللويا، لنقوشك ـ الفسيفساء، ياسيدي آدم، على بطن سيدتي حواء المنتفخة.



جُثَّتِي مُفَخَّخَةٌ ووطني مُتْحَفٌ حَرْبِي.. أيُّ كَامْبٍ سَيَؤوِيني!؟

محمّد نور الحسيني

-١-

على عَجَلٍ أُلَمْلِمُ ما تَنَاثرَ
من لَحمِ إِخْوَتي ودَمِ أبنائِي وما تَبعْثرَ من قمحِ أهلي
وما سَالَ من خَوابي جِيراني؛
أَدْلفُ كثَكْلى
إلى المُتحَف الحربيِّ كي أتفقدَ أَحْشَائِي:
صَارُوخُ سْكَودٍ يتعَقّبنُي كَأُفْعُوان،
الطيرانُ الحربيُّ يتفرّسُني كَغَنيمَة،
الخرابُ يتشهّاني
كأنّني عِمارة في دُوما،
أو كَرْمُ عِنَبٍ في دارَيّا،
يَسِيلُ لمرآيَ لُعَابُ مُصفَّحَةٍ،

يتلمّظُنِي مِدْفَعُ هاونٍ،
يتلهّى بكُهولتي
و يحيلني إلى التقاعدِ المبكِّرِ على كرسيّ متحرّكٍ!!

-٢-

سيرتي تَنْزِفُ تحتَ إبط الوطن
رُكامُ بيتي ينامُ على فُوّهة ثُعْبان!؟
على هارموني راجماتِ الصَّواريخ
تفرُّ سنونواتُ أيامي من سَقْفِ الجَحيم!!
أبحثُ عن مخيّم يَلُمُّ شَعَثِي
من الحواجزِالطيّارَةِ التي تتكاثرمِثْلَ الكَمَآتٍ في العَتْمَةِ
تطعنُ نظراتي ببروجكتوراتها المتوتِّرة،
وَسْط الشهب والدخان والشظايا!
أصعدُ سُلَّمَ الطائرة المتأخِّرةِ
نصْفُ سَاعةٍ من التوابيت،
بَدْوٌ في ساحة الطيران يتنكَّبُونَ الجَثَامينَ
وَسْطَ عويلِ نسوةٍ موشوماتٍ تتهادى الجنائزُ في القُرى؛
كيف الوصولُ وكلُّ هذه الجُثث مكدّسةٌ في قِسْم الشَّحن!؟
كيف أراكِ وهذا القلبُ كُدْسُ عِتادٍ ومنزلٌ أُعِدّتْ حُجُرَاتُهُ للأسى السريع
ولانفعالاتِ الذخيرة وللرِّثاء!؟

-٣-

بيني وبينك جسْرٌ مُعَلّقٌ من الشِّريان الأبهر،
بندقيةٌ عَوْرَاءُ تقبضُ الأرواح على قَدْرِ مايقَبِضُ القنّاصُ،
عيونُ الديريات بعد الآن
ليستْ ملاذكَ الآمنَ،
حيُ محطة «قامشلي» بعد الآن
ليس عشَّ هواكَ المفضّلَ،
قطارُ الضّواحي متعطِّلٌ،
أوصالُ السِّكة في «حمصَ» مقطوعةٌ،

حيُّ الوَعْر تَسُدُّهُ الحواجزُ فلا أَصلُ إلى ذكرياتي،
ديكُ الجنِّ يحثُو على رأسِهِ رَمَادَ الندمِ ويغصّ برَحِيقَ الوردِ
لاشارعُ الدّبلان يتذكّرُني،
لاعبدُالباسط الصّوفي يُطرِبُني بمكاديه،
ولاالقرنفلي يضمِّخُ أمسيَ الآفلَ بشُعَلِ حماستِه..
ـ مدينةَ الأميراتِ متى نكفُّ عن دفنِ أميراتكِ الأربع!؟

-٤-

في الدَّيْر هاتِ كوكتيلاً سريعاً من الرُّمَّان وعَصْفِ الرّيحانِ واتبعني
أَنْحَدرُ من حيِّ الحويقة/ جهةَ «الجراديغ" ثَملاً من عَبَقِ الميماسِ
مترنِّحاً نحو شارع «السادسة إلا ربع» لمَّا يعجُّ عِندَ العَصَّر
بأريجِ البناتِ بنكهةِ الكليجة والنعناعِ وطعمِ البابونجِ والقِرفةِ المزدحمةِ في مقاهي الرصيفِ..
أمرُّ على الفُراتي
متلبّساً بكُلسْتَانِ سعدي
والقصفُ قريبٌ منِّي / أشلائي مفعمةٌ بنغمِ الوردِ
خسارتي مغموسَةٌ بثَريدِ البَامياء
كعادتها أرغفةُ الصّاجِ تتلظّاني في ظهيرة من تَنُورٍ!

-٥-

كيف أنجو مما يتناهى إليّ من زّخاتِ اللهبِ؟
قريباً من السَّردِ يُعْدَمُ روائي!!
قريباً من دمه المسفوكِ
تتقصّفُ فِقْرَاتُ الجسرِ؛
كابلاتُه الفرنساوية عن ظهري تَنْفَصِلُ / براغي الحكاية تنحَلُّ على مَهْلٍ
متى يَحتَدمُ الفيضانُ!؟
يرتعشُ البُطينُ الأيسرُ من كتابِ النهرِ
تنتفخُ ضفتُه اليُمنى بالجُثَثِ والراياتِ السُّودِ
الأسماكُ تزحفُ عمياءَ على الشّطِ/ضَحْلَةٌ هي القيعانُ
ضَحْلٌ الفراتُ/الخابُور ضَحْلٌ/ القويقُ/ العاصيّ/الأنهارُ معلّقةٌ من عَراقيبها

العَجْفاءِ؛
ـ هذا وطَنٌ أم مسلخُ أنهارٍ!! ؟
جبلُ عبدالعزيز / جبلُ الأكراد / جبلُ التركمان / جبلُ الزاوية / جبالُ القلمون
هذه جبالٌ!! أم ساحاتٌ لتمرينِ الطيرانِ الحربيِّ!؟
ـ هؤلاءِ طيارونَ أَمْ دراكولاتٌ وطَنية!! ؟
ـ سوريٌّ أنتَ أمْ سمكةٌ عمياءُ
على الشَّطِ خنقتها الفيتواتُ الروسيةُ..
وفتوىً من «آيات الله» بجواز النحرِ على مذهب «الممانعة»!!؟

-٦-

ـ ظمآن لا فُراتٌ يُنْجِدُني
ولا خابورٌ يبلّ ريقي..
ولا القاشوشُ العاصّي يَرُدُّ لي حَنْجَرتي
لماذا انتحلْتَ نبراتي يا إبراهيمُ!؟
انسللتَ كأنينٍ إلى حِضْنِ ناعورةٍ
غفوْتَ مثْلَ كمنجةٍ مذبوحةٍ ولَم تُكْمِلْ مَقَامَ النّشيدِ..
لماذا يا غيّاثُ قطفتَ زنابقَ الشامِ
وفرّطتَ بالياسمينِ كلّه
قدمّتَه مجّاناً للجُندِ المدَجَّجينِ!؟

-٧-

لا القويقُ يَكُفُّ عن هداياهُ المتناثرةِ على أعَتابِ نُصُب أبي فراس
ولاالمعرّيُ يَبْرحُ أطلالَ المعرّةِ
جُثَثٌ لقصائدَ يافعة
حكاياتُ غرام مُعرّاةٌ من نبضها
الجَلّادُ ينحرُها في المبنى الجويّ؛
وحدي أتفتّتُ من خاصرة النهر،
القنابلُ العُنقودية تُشَتِّتُني،
الانشطاريةُ بخلاياي تتلهّى

كي أسهوَ عن الترسانة الكيميائية
إلى حينٍ من الحَنق الأممي..؛
كم يلزمنا من خرسانةٍ وكمّامات!!؟
كم من حوّاماتِ إسعافٍ ومَشَافٍ!؟

-٨-

النابالمُ يزيدُ التحامنا بالأرض!
كم طَنّاً من المراهم!!؟
كم متراً من القطنِ الطِّبي!؟
كم برميلاً من الكُحُولِ المعقِّم!؟
وكم من معابرَ إلى نفقِ النِّهاية
كي إلى ركامنا نؤوبَ
دون خدوش لَامِعين كالنعوش.!؟

-٩-

القنّاصُ المَلِكُ/ فَرَائِسُه مايَرِفُّ على الأرضِ/ غرامُه فيمن يتهاوى
بيُسرٍ فلْم صامتٍ؛ يحجبُني عن مترين إلى «بوابة الهوى»،
في «الكَامب التركي» هناك «ليلى المريضة» ممدّدةٌ/
ألجأها» العلاجُ الكيماوي» المتعثّرُ،
بعد أنّ سَدَّ أشقاؤُها الكَذَبَةُ معابِرَهم اليعربية!!؟؟

-١٠-

هذا نهرُ الأُرْجُوانِ يصُبُّ قريباً من قلبي..
هذا نهرٌ يتَصَيّدُ فيه الأهلُ
دُمَىً يافعة كُبِّلتْ؛
فلاتهرولُ
إلاعجلى للتظاهر في «بستانِ القصر»..،
رؤوسُها مثقوبةٌ بالراياتِ،
وحناجرُها مترعةٌ باللعنات..!

-١١-

الشاشةُ تنحرُني لمّا تنهضُ الكهرباءُ من نومها،
لمّا ينبجسُ الدمُ الساطعُ من ذبذبات ال HD،
يورقُ شجرٌ فراتي ونباتُ الغَرَب يورِقُ ويمرحُ كَنُدَفِ الثّلجِ والشِّيحُ يُشِيحُ
بوجهه عن رياح السموم الثائرة،
ولايجزعُ لا على "ابنِ طَرِيفٍ"
ولا على «إبراهيمَ بنِ خريط»
الذي يُرْهِبُ بالسَّرد القَصَصِي!
يحكي للجبيلة سيرةَ الشيخِ رمضان شلاش..!
ولحيِّ الشيخ ياسين
مَسْردَ القرابَين: الأبُ الرِّوائيُ يختمُ روايتَه بابنين لعُذُوبة النّهرِ،
ولحكاياته الألف المستفيضة وصفحاته المتدفقة وزوارقِه الأرجوانيةِ
منذُ سومرَ وأكادَ وآشورَوالسُّريانِ والكُرْدِ والأرْمنِ والعَربِ العاربةِ
والمستعربة..

-١٢-

وشجرُ الخابور أيضاً ممعنٌ في لَوْزِهِ المسْتَضِيء؛
فلا يجزَعُ لا على «مشْعَل» ولا على «معشوق الخزنوي»،
الشجرُ كائناتٌ لا تموتُ إلّا حطباً متهاوياً يئزُّ أزيزاً أرستقراطياً
في شتاءِ بلّله الظلامُ بِدَمٍ لاحدّ له..

-١٣-

غزلانُ الخابُور تنحدرُ من سفوح عبدالعزيز صوّب برِّية ماردينَ
تقلِّدُ سعيداً الدقوري وشَاحَ أوركيش..
تُقَبِّلُ الأيائلُ في عامودا قبل الهجرة الأخيرة
على كبدِ «جكرخوين» الجريح تنحني
وفي «قامشلي» عند ضريحه تَتناومُ من الإعياءِوالفزع وأخبارِالحرب..

-١٤-

من حيّ المفتي حتى غويران آلام ـسيداي تيريزـ وقلب (بلبله الشادي) من العَنَتِ والألم؛
من محطة الكهرباء القتيلة حتى « أبو جوان » العليل في العزيزية،
من النادي الزراعي في المحافظة حتى استراحة المحطة؛
قدحٌ واحدٌ من جعة « الشرق « يرسب فيه « بردى » ذابلاً كأنه أغرودة قتيلة،
من « حي النشوة » حيث الشهداء يسهرون ليلتهم الأخيرة في « جزيرة القمر »؛
تأتي « رأس العين « مدمّاة،
والنبعُ الكبريتي يأتي،
ومطعمُ سيروب..،
والأخطاءُ الفادحة،
والجرائرُ التي لا ذَرَائِعَ لها..

-١٥-

في »تل تمر«
أين الآشوريون!؟
تعفّنتْ في الخوابي
العناقيدُ
أين السَّامِرُون!؟
إذنْ نامتِ النَّواطِيرُ..
في تل تمر
فلاالعصيرُ عصيرٌ ولا الدِّنان دِنانٌ!!

-١٦-

في الدِّرباسية
بعد اليوم لا جُوانُ القطنة جوانُ
ولا شغبُه الوسيمُ مرتسمٌ في اليوتيوب
لكن على ما يبدو أن نبضَه طويلاً

سيختلجُ في الحجرِالأنيقِ كالحقيقة..!

-١٧-

لدينا بترولُ رميلانَ
لدينا بُداةٌ مهرةٌ يكرّرون النِّفط؛ كأنه لَغَطٌ متناثرٌ في الهواء الطلقِ
وكركي لكي
وتل حميس
وتل براك..
وتل حمدي
وتل بيدر
وتل موزان
لدينا بانوراما من التلال الموروثة؛
كم سنورِّثُ أحفادَنا من خرائبَ وتلالِ
ونفطٍ لإشعالِ الحرائقِ في هذا الليلِ المُدْلهِمِّ!؟

-١٨-

تشتدُّ في الشّدادي حمحمةُ الخيلِ
ترتجفُ فرسُ أبي تمام مطعونةً في «جاسم»
يرتجفُ سيفُ نبوءته
محطةُ الحجازِ تترقّبُ قطاراً لن يأتي
سوقُ الحميدية في الحداد
«برو» لم يعدْ في «الكار»/ دودُ القزّ منتحِرٌ
الحريرُ يتكدّس في الممراتِ
أين السيّاحُ الحجّاجُ وأين السائحاتُ؟

-١٩-

عند الدَرَج إعدامٌ ميدانيٌ في عِربين
رصاصةٌ واحدةٌ - في الجبهة - تكفي
لا تهدروا العِتاد ولو كنتم في مستودع للذخيرة..!

-٢٠-

في (دامسينكو مول) كنّا معاً
فجأة دوّى صوتُه المنحورُ
في كفرسوسة
في جوبر
في المعظمية
في الحجر الأسود
في القَدَم
في القابونِ
في حرستا
في برزةَ
في اليرموكِ
في خان الشيح
في خان أرنبة
في سقبا
في زملكا
في دُمّر والهامة
دوّى صوتُه بمقامِ ارْحَلْ . .

-٢١-

الرأسُ لرصاصة واحدة
الرقبةُ للفأسِ المثلومةِ
الخاصرةُ للحَربةِ
السيقانُ للسّواطيرِ
« البلوكة » للتهشيمِ مصحوباً بالشتائمِ والقهقهاتِ
والعصا للفلقات
ولتكسيرِ العظامِ . .

-٢٢-

القَنّاصُ يَنْكِحُ السبطانةَ بِعَينِه
ويزني بسبابته!
الملقّم معهِّر القذيفة وشاتم البارودِ:
الحكايةُ طالتْ بحَسْبِ الرَّماة والرواةِ والإِعلامِ الحربيِّ والإِعلام المضلِّلِ وشهودِ
الزورِ والفبركاتِ والتحليلِ المُضْجِرِ وإشاعاتَ الفيسبوك المراهَقةِ
الحبكَةُ أدمتْنا أكثر مما ينبغي!
العقدةُ مفخخةٌ
المُتْحَفُ لن يسعَنا
الكامبُ يلفظُنا
يلزمُنا وطنٌ على وجهِ السرعة
ـمقاسُه أكبرُ من قبرٍ جماعيـ
حتى ولو على ظهرِ سكودٍ أو متن غراد
وطنٌ أو خيمة للعزاء..لافرق..!

٣١-٣-٢٠١٣



ثلاث قصائد

مروان علي

رواية

الرواية التي في يدي تغويني بكتابة رواية، بطلتي تشبه بطلتها، حرة
كالغيم وبعيدة كالامل.. ربما بطلتها اجمل قليلا
بطلتها بنت البراري وتحب الجبال البعيدة وبطلتي بنت المدن وتحب عمليات
التجميل والسيليكون وابر البوتوكس
بطلتها تمتطي صهوة الفرس
وبطلتي تشفط بالميرسيدس
كتابة الرواية فرصتي الوحيدة لأكون قريباً منها
لا اريد لهذه الرواية ان تنتهي..

فلسطيني

في السجن العسكري/ حمص، ضيفني سيجارة وقال: عبد القادر، مخيم
النيرب سنة رابعة حقوق.. فلسطيني طبعا
١٦ يوم تأديب.. سيعلمونني كيف احب فلسطين.

ساحة الدام في أمستردام، صخب وجنسيات وقصر الملكة بياتريكس..
وقربها مجموعة.. هنود، أكراد، عرب، اتراك.. وهولنديون يوزعون خارطة
فلسطين على المارة
اقف قربهم.. لو كانت رجاء هنا
رجاء غانم طبعاً
كلما تعثرت بحجارة المنفى
يمد يده لي
الغريب مثلي..

نسيان

الى عصام السعدي

في المدينة الجامعية، نسيت البنت طلاء أظافرها على الطاولة وخرجت للقاء حبيبها.. نظرت خلفها بحسرة وانا انتظر حبيبتي المكتنزة.

في العسكرية، فقدت مجموعة قصائد حب، الرائد اشرف صادرها مني، ليقرأها لزوجته التي تخونه مع المجندين الذين يحرسون مدجنته.

في مقهى الروضة نسيت أصدقائي:
ادم حاتم
ابراهيم يوسف
باسم صباغ
محمد هديب
حكيم مرزوقي
ابراهيم الجبين
علي سفر
خضر الاغا
وحين عدت، كانوا قد تبخروا بلا سبب.

في مطار دمشق
نسيت مروان علي

وركب الطائرة نحو أمستردام.

فجأة وجدتُ الشِعر أمامي

كنت أسير مع ابي في القامشلي وقرب جامع قاسمو صافح ابي بحرارة وسعادة.. رجلا أبيض الشَعر بملامح كردية واضحة
سألته عن هذا الشخص، قال: انه الشاعر الكبير جكر خوين.
حين عدنا للبيت حاولت قراءة ديوان لجكرخوين.
سألت ابي ثانية عن هذه اللغة التي لا استطيع قراءتها، رد ابي : جكر خوين شاعر الكرد الاول كتب قصائد كثيرة عن الجبال الكردية، عن كردستان البعيدة عن الحرية واحلام الفقراء عن المناضلين في البلاد البعيدة التي تطالب بحريتها مثل فيتنام، يكتب بالكردية وحين تكبر ستقرأ هذه القصائد وستعرف قيمة جكر خوين وأشعاره الانسانية العظيمة.
وكبرت وانتقلت من (ابتدائية كرصور) الى (ثانوية عربستان) مقري الدائم المركز الثقافي العربي حيث دورات محو الأمية والتمريض والإسعافات الأولية والتلصص على المتدربات.
مدير المكتبة الكردي كان يسهل لي استعارة الكتب، لكن المكتبة كانت تفتقر دائما الى الكتب الجديدة.. قرأت بنهم كل روايات أجاثا كريستي وعددا من روايات نجيب محفوظ وحنا مينه ويوسف إدريس وغادة السمان و المنفلوطي والمعلقات السبع وديوان المتنبي وتاريخ الادب العربي لشوقي ضيف وعدد من المجموعات القصصية لجيل السبعينات حتى وجدت صدفة الأعمال الشعرية لمحمد الماغوط (بالمناسبة غياث الماغوط صديقي) الذي سحرني بلغته وصوره وعالمه ومفرداته.. بالإضافة الى انه شعر سهل لا يحتاج الى شرح ولا الى قائمة بالمفردات الصعبة التي كنا نراها تحت القصائد في الكتب المدرسية.
خلال زيارة لجارنا الشيوعي.. اكتشفت مكتبة كبيرة في بيته أكبر من مكتبة المركز الثقافي.. كتب.. ناظم حكمت، ماياكوفسكي، بول ايلوار، بابلو نيرودا، رسول حمزاتوف وعدد كبير من الروايات والكتب الفكرية والفلسفية والمادية التاريخية والديالكتيكية.. و الاكتشاف الأهم (فالنتينا) ابنته الجميلة جدا التي بسببها اشتركت في جريدة نضال الشعب وحضرت عشرات الندوات الحزبية المملة وهتفت لخالد بكداش (بينما كنت احب الملا مصطفى البارزاني) وللبروليتاريا ضد البرجوازية رغم ان

عمي البرجوازي كان له الفضل في بقائي على قيد الحياة وإتمام دراستي بالإضافة الى التبرعات التي كنت اقدمها (حين يقدم لي المعونة الشهرية) للحزب البروليتاري..

في حلب بعد ان التحقت بجامعتها لدراسة الاقتصاد أمضيت سنتي الاولى في متابعة المشهد الشعري تعرفت على شعرائها وشوارعها وحاناتها (العندليب الصيفي، الشباب لحنا كعدة، العمالي، مقهى القصر، الموعد) ومقاهيها حلب قصيدة لم يكتبها أحد وهل يستطيع احد كتابة قصيدة اسمها حلب

بين بيروت وحلب ودمشق وأمستردام كتبت قصائد كثيرة

فقدت مجموعة شعرية كانت جاهزة للطبع (الهايكو الكردي) صادرها مني رائد في الجيش العربي السوري ومزقها ورماها في القمامة بعد جولة تعذيب فظيعة.. جاي ع العسكرية تكتب شعر اولك، مين بدو يحرر فلسطين والجولان وجنوب لبنان؟

لا افكر كثيرا في مسألة النشر لا اعرف لماذا، أكتب قليلا واقرأ كثيرا ثمة علاقة غريبة بيني وبين نصوصي

تعلمت من الشعراء الشباب في القامشلي وحلب ودمشق وبيروت أكثر مما تعلمت من المكرسين والشعراء الكبار في السن

افكر بالكردية واكتب بالعربية أحيانا

احب الشام وحلب كما احب هولير وديار بكر

اكتب بالكردية قليلا وأفكر في ترجمة نصوصي اليها

سكنت مع حسين بن حمزة في غرفة صغيرة في الشيخ مقصود قرأت كل الروايات والمجموعات الشعرية وخوصاً لشعراء لبنانيين (عباس بيضون، محمد العبد الله، بسام حجار، وديع سعادة، انطوان ابو زيد) التي كان يأتي بها

من مكتبات الأصدقاء وهو الذي عرفني على (الان بوسكيه).. شاعري المفضل

لا احب التنظير في الشعر

الشاعر الجيد هو الذي يكتب قصيدة جميلة ومختلفة

امستردام تركت أثرا كبيرا على تجربتي الشعرية.. وعلى حياتي التي تصدر في طبعة جديدة مزيدة ومنقحة في قصائدي

ألم أقل لكم:

ولدت في القامشلي

وسأموت في أمستردام.
لا اعرف كيف اصبحت شاعرا
فجأة وجدت الشِعر أمامي في الشارع وركضت خلفه.



نصوص

مروان شيخي

أنا فراشة الوقت
والوردة شاخت أوراقها
أودعتها أناقتي
وبعض من نقاء لغتي
فكانت ولادة حزن

-٢-

هل تذكرين حينما اختلفنا...؟
قلت: الحزن يلاحقك..
قلتُ: الوطن في خطر..
قلت: الحزن ينسج لكَ عباءة الموت
قلتُ: لن أدّعَ الوطن في حزني يتعثر

-٣-

كمْ
هو مُثير هذا الرجل
في قلبه أشجار
لا تكفيه صحارى العالم
ويعجز أن . .
يحمل بُرعماً . .
في يديه . .

-٤-

هكذا نحن . .
عناكب طيبين
ننسج البيوت بإذن من حيطاننا
ولا نطالب الولاة
سوى زوايا مهملة
نسكنها وتسكننا

-٥-

القانطون في الشرق . . نحن
نستورد الدّمَ من جسدِ الكلماتِ . .
ونُصدرَ للتوابيت براعمٍ أعمارنا . .
ثم نُحيك للثورةِ رجالاً
بقاماتِ الموتِ . . . .



شهوة الرحيل

نذير بالو

إثمٌ ارتديناه في الحلم

-١-

راحلٌ من العبث الى الحريق
لأتلو نشيد الدفن
وأنثره في الممرات الممزقة على قلقها
فالشهوة ترتدي نحيبها
تُداعب الأشباح في مسيرتها
وينزع الصمت نعاسه
ليأخذ حصته من النهب
يتطاول الصخب ليشهد على الآثام
وعلى مقذوف النكات في جسد الصبر
تتقشر الطقوس حينما تبغي الهدنة مع الفناء
تتورم الجهات في أكفانها

وتسعل رحيلها من خارطة التقلص
الى تلك المساحات المتزاحمة من التخمة
لتنسج ريحاً من ألوان الهروب
فيسيل المكان . . ويسيل اللون
ويرتعش المشهد مترجماً لغة الطعنات
وتبقى الهوية دون ذاكرة
فالهوية معانقةٌ بين اللغة والمكان

-٢-

راحلٌ من إختناق المكان الى رحابة التيه
تتوسع الجيوب لتحمل عطر القمر
ولون المكان الى المهجر
لتتناسل هناك بعيدةً عن مهرجانات الدم
وأرتل أغنية النزوح
فيستيقظ القدر المتربص ليطحن الغد
ويغزل قبراً من خيوط الجسد
ليكمل بها لوحة النزوح
ويلونها بالإغتراب والبرد
منتقماً من أنفاسي
ومن الحنين المسطر على جبيني
فالمكان ريحٌ تجمد من شدة الألم
والرحيل إغتصاب المهاجر لورد المكان
وما أنين المكان إلا آية تفسر ذلك

-٣-

راحلٌ من مهد الإثم الى نجوى الضلال
فعهر القصيدة يرسم البغاء
ويصعق بذاكرة العرق
ليسطو على وجه الشفق الطامح الى النجاة
ذاكرةً تنتحل رائحة الشقاء المعتصمة في زبد الأنفاس

تعيد المرآة الصور الملتجئة اليها بندمٍ
الى العتيق المتآكل فينا
تُوقظ فتات الوعود
وتُلملم الأوجاع من شيخوخة الحلم
تتصدع الرؤى في مسيرتها الى الإرتقاء
بنوبات الطيش دون أن تبلغ الروضة
يصرخ المكان ويصرخ اللون
ويعزف المشهد نوتة البكاء
تبوح الحقيبة بحملها الأسي
تفرغ لغتها بهلع في مسلكها الى المنفى
وتفقد الهوية ميلادها ورائحة المكان

-٤-

راحلٌ من كانون المكان الى مملكة البرد والقلق
لأدون هذيان الرغبةالمعصوبة
على صفحات الغد المتوتر
أعض الألم
حاملاً حقيبة السفر المكتظة بعبق التراب ونواح الجذ
وأغنياتٍ قطفتها من نزيف العشق
ووصاياً مبعثرة التقطتها من بكاء الأرصفة ومن دموع أمي
ورماد أحاديث انطفأة على شفاه الأصدقاء
وخليةً ثملةً تاهت عن عنوانها
فالتجأة الى حقيبتي وتسلقت بقايا عمري
فبكى المكان وبكت الهوية
وفقدت اللغة شهوتها
لم يدونني المكان ولم تقرأني الهوية
فالرحيل إثمٌ ارتديناه في الحلم ولم ننزعه بعد



خيول محنّطة

هوشنك أوسي

الظّنُّ عليلٌ، وغرّاتٌ تصهلُ بالمطر.
صميمُ الليلِ، صميمُ الكاهن، والجثثُ المطلَّةُ على السؤال، جثثي.
منكوباً بكم، انثرُ تخميناتي على أضرحتكم يا أولي الوجعِ العميم.
سالفكم، خَلَفي، وسائسكم مروّضُ أخيلةَ أنيني.
عديماً، أهدُّ السواترَ على سدنتها، ناشداً قرارَ أكيدِ المنتهى.
تُعبّدني حيرتي إليكم، ويكسرني قلقي الذي يعبُدني.
أشجاري الناميةُ في صدوركم، تسردُ سيرةَ غيبتي.
ها انا ذا، القي سروجي ولجامي في نارِ المعبدِ، واشقُّ خلوتي جارياً كنهرٍ يصهلُ بالفناء.
أحنُّ عليكم بشذرِ الحكايةِ، إذ يرويني الوادي صراخاً قادحاً مريراً، يزكمُ الأفق بالعويلَ.
محنةُ النهرِ أنه لا يمكنه العودةُ لمنبعهِ، ومحنتي جهلكم بيّ وآلامي.
مذ ضيّقتمِ على الخيالِ وأوصدتم المدافنَ على القلق، ضاقت بكم أسئلتي.
أعوذُ بكم من تيجانكم والأقنعة، يا أباطرة الشمعِ، وهذرَ الخرافة.
الخيول في الوادي، مضرّجةٌ بالوحلِ، وما من مجزرةٍ تطوي انتظارها المديد.

الخيول في الوادي، حنّطتها الرّيح، وما من كاوٍ يكوي حوافرها، ويفكّ أسرَ غرّاتها والجدائل.
الخيول في الوادي، أعماها خدرُ أحلامها، ترثي مطر الأمسِ، وما من شاعرٍ ينهي جنائزها بقبسٍ من قصيد الحجر.
الخيول في الوادي، وأرحامها مكتظّة بالأوطان والثورات والحروب والمجازر.
أهي الخيولُ في الوادي؟ أم النصوصُ المهدورةُ مجازاتها؟.
دَنَسي، دَنَسُ الرّمّان إذ تفتّقت براعمهُ على لهيبِ حلماتِ جنّيّاتِ البابونجِ والبنفسج.
يكسوني الثلجُ، إذ أداري الليلَ عن أوجاعه.
يُكسيني التُّرابُ فظائعَ ترجماته لنكد الماء.
والخيولُ في الوادي، وعواءُ النهايةِ لمّا يزل، يساورُ البداية.
بيراع الزَمنِ الوحش، ينقّبُ التيهُ في مصاحفِ الثوراتِ العمياءِ عن فاجعتي.
بلسانِ النّحلِ، يزّفني القصيدُ الى خواتمِ الكلامِ الصّرصرِ، بادئاً فتحَ الأحمرِ على الأخضر.
استبيحكم، وعلى كتفي ليليَ الذبيحُ.
تستبيحونني وعلى أسنّة رماحكم كبدي الذي يردد:
خيولٌ في الوادي...
أعيدوها الى عرائها، قبل ان تغتالها وحشتها، وينهبُ السّكونُ بقايا ظلالها.
كبدي النازفُ أغانٍ من جمرٍ وسمّاق، يستشرفُ ضراوةَ العمشِ المتراكم على أفئدتكم.
كبدي النازفُ، صوتهُ المغدورُ، كياسةُ البددِ، أعيا الموتَ أنينهُ.
دبّوا من قيعانِ الوهم على اسطحُ الفكرةِ، لتروا ما اقترفتموهُ من نحرٍ وغدر.
فالخيولُ في الوادي، تسوسُ الموتَ، أكيدُها أكيدُ اليباب، وتخمينهُا متونُ الهلاك.

• • •

بالضباب، تردمُ الأغنيةُ جراحها، وبهشيم الوقت توصدُ يقظتها.
بما يكفي الفاجعة، ولا يكفي الخراب، يَستنجدُ الشاعرُ أتربهُ من الأبابيل والحباري والغربانِ والبوم، موقداً تحت لسانهِ جمرةَ الحلاّج ولوعةَ الجزيري.
الشاعرُ كنزُ الخيبةِ وصولجانها.

الشاعرُ؛ جرحٌ عنيدٌ، متأمّلاً الخيولَ في الوادي، أعماها غبارُ الأقاويلِ البائدة.
تلكمُ فوانيسُ مجونهِ، وهذي كثبانُ هذيانه.
بالنيابةِ عنكم وبالأصالةِ عن حزنهِ، هو ذا يثأر لكم من خوفكم.
لا تحسبوهُ ضريحَ سنينهِ، بل هو ندمكم المكنون في نبضِ الوادي.

١٢/١٠/٢٠١٢
أوستند / بلجيكا

اوراق التراث والفن

تـراث

حلب... قصف التراث الإِنساني

هيثم حقي

في النصف الثاني من التسعينات أنتجت فيلم «حلب... البعض يفضلها قديمة» من إخراج ابراهيم ياخور. والفيلم يحكي قصة نجاح تحرك ضاغط، قامت به مجموعة من الشخصيات الحلبية بالتعاون مع متعاطفين فرنسيين وألمان، لوقف هدم حلب القديمة... وقد أردتُ من إنتاجي هذا الفيلم دعمَ هذا التحرك، بعد أن ساهمت مسلسلاتي «خان الحرير» و «الثريا» و «سيرة آل الجلالي» بالتركيز على جمالية مدينة حلب وخصوصية علاقاتها الاجتماعية، وعراقة أهلها، وامتدادهم الحضاري.

بدأت الحكاية عندما قامت في حلب مجموعة من المثقفين والشخصيات الاجتماعية بالتصدي لمشاريع ذات أهداف تجارية بحتة، تقوم على الهدم الممنهج للمدينة القديمة، وتحويلها إلى وسط تجاري بعمارات شاهقة وأسواق تشبه كل المدن التي لا تاريخ لها.

ورغم الجهود المضنية لهذه المجموعة فقد قضيِ الهدمُ على منطقة باب الفرج وما حولها. وبدأ قضم المدينة القديمة يصبح حقيقة مؤلمة حقاً. لكن التصدي للمشروع لم يتوقف،... وقد وصل الأمر بشخصيات تحظى باحترام ومكانة للوقوف في وجه الجرافات، كسعد الكواكبي، وأعضاء جمعية العاديات الحلبية ومعهم عدد من المهندسين والنشطاء كالمهندس عدلي قدسي الذي كان له دور مهم في العلاقة مع النشطاء الأجانب المدافعين عن بقاء النسيج العمراني والاجتماعي للمدينة القديمة.

ويذكر سعد الكواكبي خلال حديثه في الفيلم عن كيفية إقناع العمال البسطاء بالتوقف عن هدم سور الظاهر بيبرس والأسدين البيبرسيين المنحوتين عليه حين ناشدهم قائلاً:

ألم تسمعوا بحكاية الظاهر بيبرس؟... هذا هو سور الظاهر بيبرس!!..

وبالفعل توقف العمال لما للحكاية من مكانة في الوجدان السوري... لكن الهدم استمر حينها بأوامر عليا!

وبعد محاولات عديدة نجحت الجهود المحلية والدولية التي بذلت بإيقاف الهدم واستصدار قرار من اليونيسكو «باعتبار حلب القديمة تراثاً إنسانياً يجب الحفاظ عليه» ونجح هؤلاء النشطاء بإيجاد جهات عربية وعالمية لتمويل هيئة تسعى للحفاظ على النسيج العمراني لمدينة حلب، وهي «مديرية إحياء حلب القديمة» التي حصلت على مساعدات من عدة دول لترميم المدينة القديمة وبنيتها التحتية وإبقاء السكان فيها للحفاظ على النسيج الاجتماعي مع النسيج العمراني.

وهكذا استطاعت الجهود المدنية الأهلية المضنية التي بلغت حد الجلوس أمام الجرافات في سابقة احتجاج سوريّة لا نظير لها،.. استطاعت إيقاف هدم مدينة حلب القديمة، ونجحت أيضاً بجلب التمويل اللازم للعمل على ترميمها ومساعدة سكانها للبقاء والعيش فيها.

ولكن النظام السوري في ٢٩ / ٩ / ٢٠١٢، وخلال بضع ساعات فقط، ومن خلال طلعات الطيران المتواترة على المدينة القديمة وأسواقها وبيوتها، قام بقصف كل الجهود التي بذلت خلال الخمسة وعشرين سنة الماضية للحفاظ عليها وعلى نسيجها الاجتماعي... فأغلقت الأسواق واحترقت المحلات وهجّر السكان... وتهدمت البيوت.

وإمعاناً من «النظام» بصب حقده على المدينة الثائرة وعمارتها وجماليتها، فقد قام بقصف كلية العمارة في ١٥ / ١ /٢٠١٣ وهو اليوم الأول لامتحانات الكلية، وكان قصفاً على معماريي الحاضر والمستقبل. وقد استشهدت في القصف أختي الغالية المعمارية المتميزة سوسن حقي عند بوابة كليتها التي تخرجت منها منذ حوالي ال ٣٥ عاماً. لتعود لتعلّم فيها... وهي الكلية نفسها التي درّس فيها أبي الرسم وتاريخ الفن خلال الستينات والسبعينات...

وقد استشهد مع سوسن ٨٢ طالباً وطالبة من كلية العمارة.

كانت سوسن معمارية عاشقة لحلب، كرّست جهودها للحفاظ على تقاليد هذه العمارة العريقة... حيث شاركت في مشروع آغا خان لترميم المدينة القديمة وقلعة حلب... وكان لديها دائماً علاقة حب وحرص على العمارة الحلبية وجمالية المدينة القديمة يجعلها تتحول إلى دليل متحمس لكل زائر تأخذه إلى أماكنها المفضلة، بعد أن يتذوق أطيب طعام في الدنيا يخرج من يدي هذه المهندسة البارعة التي ورثت تقاليد المطبخ الحلبي من أمي الحلبية الأصيلة التي كان الحب يندمج مع طعامها وكرمها، في خلطة قلّ نظيرها...

إن قصف المدينة القديمة، وقصف كلية العمارة، واغتيال معماريي اليوم والمستقبل، يشير

بوضوح إلى الجريمة المرتكبة ضد التراث السوري والإنساني . . . ويبين فظاعة الحل الأمني الذي اتبعه النظام بما يسمى «الأرض المحروقة»، والذي يُظهر حقده على البشر والحجر والشجر، انتقاماً من الشعب السوري النبيل الذي خرج يطالب بالحرية لبلد يمتد عبر التاريخ لعشرة آلاف عام من الحضارة، يحاول هذا النظام طمسها . . .

حلب مرّ عليها غزاة كثيرون، ودارت حولها حروب كثيرة دمرتها مرات عديدة، لكنها استطاعت دائما أن تنهض من جديد، لتعطي لحضارة بلاد الشام والرافدين الكثير من الفكر والفن، خاصة في العمارة والموسيقى والغناء . . . وستعود بعد زوال هذا النظام الديكتاتوري الظالم لترمم وتبني وتتألق لتبقى تراثاً إنسانياً يستمتع به أجيال من السوريين الأحرار في سوريا الحرة . . .

تـراث

تحطيم الذاكرة وتقسيم شعب: ما لم يدمره تيمورلنك...

مارتن ماكنسون

اكتسح تيمورلنك عام ١٤٠١ م، بلاد فارس والأناضول وسورية، فسرق ونهب وحرق وأبعد السكان وساق المفكرين والعلماء والحرفيين والأطباء والقضاة والصناع المهرة من دمشق الى ما يعرف اليوم بأوزبكستان في آسيا الوسطى ومهد ذلك لفترة من الانحدار التي أثرت بشكل قاطع في الأيام الأخيرة للمماليك (المرتزقة المنحدرين من أصول تركية الذين يحكمون من مصر). ولم تسلم قلاع حلب وحمص من تدميره، وأدى هجومه لوضع حد لنفوذ السلطان العثماني بيازيد الأول بعد ان سحق جيوش الأخير في انقرة.

لقد قام الأسد خلال عامين من القمع الوحشي ضد شعبه، بتدمير عدد لا يحصى من روائع سوريا القروسطية، وكانت ميليشياته من الشبيحة أكثر وحشية من جنود تيمورلنك. وسويت هذه المرة بعض أقدم المآذن والأوابد الأثرية والمساجد والأسواق والبيوت الأثرية بالأرض بنيران المدفعية والدبابات في عملية تدمير وحشي. وكتبت قوات النظام في القرى التي عاثت فيها نهبا وذبحا «الأسد أو نحرق البلد». وتقع على عاتق من عمل في البلد من باحثين ومؤسسات معنية بالتراث وجامعات مسؤولية التنديد بالتدمير المتعمد للذاكرة السورية. وسواء بقي الأسد في السلطة أم لا فان ذلك غير مهم لمن يعتز بما قدمه هذا

البلد للعالم من أوابد ومدن، اذ ينبغي أن تتصدر الأخلاق سياسات وخطط عمل الجامعات والبحث، فعدم التشديد على ما قامت به السلطات السورية تجاه مدنها ومواقعها القديمة يعد بمثابة تواطؤ وشراكة في الجريمة.

«كل مثقف لديه وطنان: بلده وسوريا». شعار صاغه أندريه بارو، عالم الآثار الفرنسي الذي اكتشف عاصمة مملكة ماري على نهر الفرات التي كانت بعز قوتها في الألف الثاني والثالث قبل الميلاد مدفونة تحت الرمال على بعد ٥٥ كلم من تل الحريري بالقرب من البوكمال؛ وكان بارو بذلك يشير إلى حقيقة أن زراعة النباتات وتربية الحيوانات، والدول الحضرية و أول الإمبراطوريات في التاريخ، والكتابة المسمارية والأبجدية، كلها بدأت في سوريا أو انتشرت هناك على الفور بعد اختراعها في منطقة ما بين النهرين المجاورة. كانت سوريا الطريق الرئيسي لنشر كل الأفكار الجديدة في جميع أنحاء البحر الأبيض المتوسط إلى أوروبا وإلى بقية العالم القديم.

وكنتيجة لـ ١٢٠٠٠ سنة من التجربة الإنسانية منذ تأسيس أول قرية في العالم في جرف الأحمر على نهر الفرات تراكمت في سورية ثروة من المواقع والمعالم لا يكاد ينافسها فيه أي بلد في الشرق الأوسط.

لقد كانت سورية ولا تزال تشكل أهمية هائلة للبشرية منذ قدوم أسلاف الإنسان الأول من أفريقيا مرورا بما كان في تلك الأيام أرضا مليئة بالبحيرات والواحات متجهين الى قدير والكوم السورية شمالي تدمر...

لقد شكلت سوريا ولا تزال تشكل طريقا رئيسيا منذ ظهور الانسان الحديث وصولا الى طريق الحرير، وعلى هذا النحو استمر تركيز البحوث التاريخية والأثرية الحديثة منذ منتصف القرن الـ ١٩.

في سنة ٢٠١١ وهي سنة بدء الانتفاضة في سورية، كان هناك أكثر من خمسين مشروع مسح وتنقيب وترميم على الأراضي السورية، مع التركيز على فترات تتراوح بين بقايا انسان النياندرتال التي تعود الى ٤٠٠٠٠ سنة في الكهوف بالقرب من حلب الى الروائع المعمارية العثمانية في القرن ١٨ في مدينة دمشق. وفي أربعينيات القرن التاسع عشر، كشف المستكشف البريطاني أوستن لايارد Austin Layard بوابة آشورية محفور عليها الرجال الثيران Lamassu في تل عجاجة، أو شاديكاني القديمة على نهر الخابور. وبدأ بناء السدود والممارسات الزراعية الحديثة والتوسع العشوائي للمدن منذ ستينيات القرن العشرين بتهديد العديد من المواقع ما قبل الكلاسيكية والكلاسيكية والمواقع القروسطية، غير أنه حفز العلماء لانقاذ أو على الأقل لاستكشاف أكوام من الطوب اللبن والحجر والتي كانت لتتلف أو تتعرض للخطر لولا ذلك.

معلومات كثيرة عن التجارب المبكرة في الحياة القروية وزراعة القمح والشعير اكتشفت في ممر الشرق بسبب بناء سد الطبقة، أعلى مجرى النهر على بعد ٤٠ كيلومترا من الرقة

والذي أدى إلى اكتشاف مواقع مريبط والشيخ حسن، أولى المجتمعات المستقرة التي سبقت زراعة النباتات والتي سلط عليها الضوء من قبل مؤرخ ما قبل التاريخ الفرنسي الشهير جاك كوفين.

الفكر المعرفي والدين القديم الذي ظهر قبل «الفلسفة» (عنوان العمل الرائد من قبل عالم الآثار الأمريكي هنري فرانكفورت) عرفت فقط بسبب لويحات أحجار صغيرة، ومواد فنية متنقلة أو محمولة نقشت عليها نسور وأشكال هندسية و فهود، وهذه الرموز تظهر جيدا على شاهدة على شكل حرف T في غوبكلي تيبي، وهو موقع اول مركز ديني في العالم منذ ١١٠٠٠ سنة، ويقع في تركيا وليس بعيدا عن الحدود السورية. هذا الدليل على الدين المبكر في التاريخ ظهر للعالم بسبب طفوّ هذه الأحجار من جرف الأحمر، والمدفون الآن تحت مياه بحيرة تشرين، وتل القرامل شمال حلب.



صورة لمبنى من تل حموكار، أقدم المدن السورية على الأغلب وتقع في القامشلي على بعد ٤ كلم شرقي الحدود العراقية تم التنقيب فيها منذ العام ٢٠٠٠ من قبل فريق من المعهد الشرقي في شيكاغو. «الفترة الذهبية» للتنقيب الأثري السوري... يعود المنزل إلى ٣٤٠٠ قبل الميلاد، وكشف عن إدارة مركزية وتركيب اجتماعي معقد، مع مئات من الأختام التي تعود لفترة أوروك التي تم الكشف عنها بداخله (تصوير: مارتن ماكينسون)

لقد عرفنا ايضا الكثير عن شبكات التجارة بين بلاد ما بين النهرين وسوريا والساحل المشرقي والأناضول في أوائل الألف الثالث قبل الميلاد، وذلك لأنه ولعقود مضت تم التنقيب في أكوام الحفر من ماري وطوطل (ويقع هذا الأخير بجانب الرقة الحديثة) وعواصم شيهنا القريبة من القامشلي، وايبلا قرب معرة النعمان وتل الشويرة على الحدود التركية في سهل الجزيرة وقد جرى التنقيب فيها على مساحات واسعة جدا من قبل فرق إيطالية وأمريكية وألمانية.

كما تم فهم الكثير عن «الحروب الباردة» وعن «اللعبة الكبرى» بين امبراطوريات العصر البرونزي بعد ان تم اكتشاف الاقطاعيات الحثية مثل ايمار وتل استاتا بالقرب من مسكنة على الفرات من قبل الفرق الفرنسية والألمانية منذ أوائل السبعينيات. كما تم استخلاص الكثير عن ميادين الحروب القديمة بسبب المشاريع البريطانية والاسترالية بقيادة لندن وجامعات سيدني ودورهام التي قامت باستطلاع منطقة قادش، وهو موقع واحد من المواجهات الأكثر شهرة في العصور القديمة، بين رمسيس الثاني والملك الحثي مواتاللي. وقعت المعركة سنة ١٢٦٠ قبل الميلاد على مشارف تل النبي مند، هذه التلة التي تتحرك عندها الآن دبابات الجيش السوري بحرية وتقصف منازل المدنيين في الريف حول القصير وبحيرة قطينة، بمساعدة «عسكريين وخبراء حرب عصابات» من حزب الله والإيرانيين.

تم جمع الكثير من المعلومات عن الدول المتحاربة، ومعاهدات السلام والزيجات التي تمت بين الأمراء والأميرات، وعن الشعوب غامضة مثل الأموريين والحرانيين والعيلاميين، وعن التحالفات والدبلوماسية الدولية في أوائل الألف الثاني قبل الميلاد، عن النظام العالمي يربط الهضاب الغنية النحاس بعيلام في إيران بموقع حاصور الهائل في فلسطين، وذلك بسبب الألواح الـ ٢٤٫٠٠٠ المكتشفة في ماري منذ عام ١٩٣٣ من قبل بارو ومساعده عالم اللغات البلجيكي دوسان Dossin.

كبير هو كم الأدلة التاريخية، وعظيمة هي بالتأكيد مهمة توثيق وتسجيل وحماية المواقع والأوابد في أوقات السلم والعديد من المشاريع والدراسات الميدانية بدأت في وقت مبكر في علم آثار الشرق الأدنى وكانت ما تزال تتقدم الى أن بدأت الثورة... كانت سورية وما زالت تجربة فريدة للباحثين الأوروبيين، فأوابد هذا البلد وآثاره كانت مصدر شغف روحي في الفترة التي تضافر فيها الاستكشاف الأثري مع الدبلوماسية والسياسات الدولية: ما كان للورانس العرب أن يفكر في ثورة عربية لو أنه لم يسر حافي القدمين في جبال الأنصارية والمنطقة المحيطة بحلب، راسما بنفسه قلاع الصليبيين والعرب والتي كانت محور أطروحته للدكتوراه في جامعة أوكسفورد. وما كان ليتصور استقلال العرب وتحررهم من النير العثماني، لو لم يعمل ما بين عامي ١٩١١ و١٩١٣ مع عرب جرابلس أثناء الكشف عن الجدار الطويل من المنحوتات والعائد للفترة الحثية المتأخرة ٩٠٠ قبل الميلاد في مدينة كركميش الواقعة حاليا على الحدود التركية السورية.



وادي الفرات شمال بحيرة تشرين الاصطناعية، على مسافة واقعة بالفعل في تركيا وعلى مقربة من جرابلس، التل من كركميش والذي عمل فيه تشارلز وولي C. Woolley ولورنس العرب في عام ١٩١١ . ويحكم الجيش السوري الحر قبضته على هذا الجزء من سوريا (تصوير: مارتن ماكينسون)

تخالج المرء العاطفة ذاتها عند النظر الى أحد أعظم المكتشفات الأثرية في العصر الحديث، وهو المعبد الموجود تحت قلعة حلب والذي يتضمن جدارا طويلا من المنحوتات يعود لعام ١٠٠٠ قبل الميلاد وهو محفور في عهد لويان ملك تايتا في شمال فلسطين (كان هناك فلسطين الشمالية تدعى باتينا وكانت عاصمتها كالنو المذكورة في العهد القديم وتقع بالقرب من أنطاكيا الحالية). يوجد عميقا تحت قصور تل حلب القروسطية أحد الأوابد الدينية المبجلة في العصور القديمة ما قبل الكلاسيكية والذي بني في بدايات الألف الثاني قبل الميلاد ودام لألف عام، وهو ضريح لاله بأربعة أسماء: تارهوناس وتشوب وأدو وحدد، وهو معبد لاله الطقس. تم تدنيس هذا المعبد من قبل قناصة الجيش السوري الذين يطلقون النار على سكان المدينة القديمة للمتعة، والغريب في الأمر أنه كان مكانا لقراءة الطالع والتنبؤ والعرافين حيث كان مبعوثو ملك مار يستشيرون فيه العرافين في سنة ١٨٦٠ قبل الميلاد. ومن المفارقات أنه كان من الصعب على علماء الآثار الألمان الذين عملوا في هذا الموقع عام ٢٠١٠ أن يتبأوا بالأهوال التي ستتعرض لها احدى أقدم مدن العالم.

سابقة العراق ٢٠٠٣

ساهمت حرب العراق وسنوات الحصار الثلاثين التي مهدت لها، بتدمير جزء كبير من

تراث هذا البلد . يمكن أن يتذكر المرء وبغضب عمليات النهب التي أحدثت فجوات في عواصم السومريين في الجنوب مثل لارسا أو دجوكا : أمة السومريين . يمكن للمرء أن يتذكر الفقر الذي دفع بالقبائل وشبكات الاتجار بالآثار الى التنقيب بشكل غير مشروع في أجزاء كبيرة من هذه التلال، ووجدت مكتشفاتهم طريقها الى بيروت والقدس وسورية قبل أن يتم شراؤها من قبل جامعي التحف، وفي هذا السياق العصي على الفهم فقدت هذه اللقى الى الأبد . ويستعيد الرأي العام العالمي بغضب مبرر كيف وقف جيش بوش مكتوف الأيدي عندما كان يتم اخلاء متحف بغداد من قبل سكان الأحياء الفقيرة في العاصمة العراقية، وما زاد الطين بلة هو الانكار الجاهل لأمثال وزير الدفاع دونالد رامسفيلد .

انه لمن المحير أن يشهد المرء وهو مغلوب على أمره هذا التدمير العنيد لتراث سورية الفريد، الذي يفوق بصيانته وتنوعه أي شيء معروف في المنطقة من حيث المباني الحجرية والمدن القروسطية المحافظ عليها والحواضر الرومانية وأروقتها المعمدة والقلاع الصليبية والعربية وكذلك القرى والكنائس البيزنطية السليمة من القرنين الخامس والسادس الميلاديين في الريف . يعد صمت المؤسسات الأكاديمية، باستثناء عدد قليل من علماء الآثار الجريئين، ببساطة مثيرا للذهول . وعلى الرغم من الخطر الكبير، اخذ طلاب دكتوراه سوريون وكذلك علماء آثار من كل من سورية وأوروبا على عاتقهم مهمة اعلام العالم عن أعمال التدمير المتعمد والنهب على مدى عامين من عمر الحراك . كالدكتور عمرو العظم في الولايات المتحدة الأمريكية والدكتور سلام قنطار من كامبردج (المدير المشترك السابق للحفريات في جامعة شيكاغو في مشروع تل حموكار، على الأغلب أكبر وأقدم المراكز الحضرية في الجزيرة والتي تأسست حالي ٣٢٠٠ ق م)، والدكتور علي شيخ موس من جامعة ستراسبورغ ومحمد طه الموظف في دائرة آثار تدمر حتى سنة ٢٠٠٦ ، والذين وثقوا جميعا منذ البدايات الأولى للحراك أعمال التدمير التي تطال بقايا فريدة لحضارة عمرها آلاف السنين . لقد فعلوا ذلك بشجاعة، كونهم استطاعوا أن يحددوا في كثير من الحالات من هو المسؤول عن هذا التدمير للذاكرة السورية والعربية والعالمية . لقد كافحوا لتوثيق كيف سوت قذائف الهاون والقصف والعبوات الحارقة والمدفعية في الأرض بعضا من أروع أعمال العمارة في العالم العربي . انهم بحق أبطال في وقتنا هذا بما استطاعوا تشكيله من شبكات اتصال مع الناس الذين يصورون ويبلغون عن هذا الدمار الحاصل على الأرض . ويبغي ان يكون مفهوما بأن من لا يظهر الطاعة العمياء للنظام هو «ارهابي» بنظر جماعة الحرب المجرمة التابعة للأسد . ان عدم الاذعان يعني في هذه الحالة أن يقوم الباحث بتحديد موضوعي لمن نهب ودمر، تماما مثلما يعني انقاذ أرواح المرضى في المستشفيات السرية . وتناقضات علماء الآثار الأوروبيين الذين شاهدوا التراث السوري يطمس بلا رحمة، لهي اكثر غرابة . هناك عدد قليل من ألاساتذة الذين وضعوا بنشاط أنفسهم في الصدارة من خلال مساعدة هذا الفريق الشجاع من السوريين، الذي حذر من عمليات التدمير وقام بتوثيقها؛ ولكن معظم المؤسسات الأكاديمية لم تظهر أي رد

فعل صريح.

مضى عامان وثلاثة أشهر على أحداث درعا وما يزال الباحثون يرفضون التعليق على ما حل بالآثار في المدن والأرياف على حد سواء. مضى عامان وثلاثة اشهر على بدء الحراك وما يزال المختصون بالشرق الأدنى يرفضون الحديث للصحافة ووسائل الاعلام عما ينبغي فعله لانقاذ تراث سورية. مضى عامان وثلاثة اشهر على اعتقال أطفال درعا وتعذيبهم، ولميا شكور ما تزال سفيرة لدى اليونيسكو، ممثلة لدولة لم تتردد في قصف المدن الرومانية والقروسطية العربية والمتاحف بالمدفعية الثقيلة. فلم هذا الصمت؟

من قام بفعل ماذا؟

يتطلب الغوص في تفاصيل ما تضرر أو دمر في سوريا مجلدات. وهذا يشمل طلبات تمولها اليونسكو لعدة سنوات وباحثين على أرض الواقع، وهو أمر لن يسمح النظام السوري به. شهد شهر آذار من سنة ٢٠١٢ نقطة تحول في عمليات التخريب، حيث اتخذت وحدات من الجيش السوري الحر ملجأ لها خلف أسوار قلعة المضيق من القرون الوسطى، تلك القلعة الصليبية الواقعة على قمة تل قديم يعود لـ ٤٠٠٠ سنة ويعلو أفاميا أكبر المدن الرومانية في سورية. ولم تتردد قوات النظام السوري في قصف أسوار قلعة المضيق المبنية من الحجر الكلسي بالمدفعية الثقيلة، وهي مأساة التقطتها تسجيلات الفيديو على يوتيوب. ولطالما كانت عمليات النهب الصغيرة مشكلة في أفاميا منذ تسعينيات القرن الماضي، تتم عبر السكان المحليين لبلدة الصقيلبية القريبة الذين يركبون دراجاتهم النارية ويعرضون القطع النقدية الرومانية على السياح. إلا أن سكان قرى جبل الزاوية يدركون جيدا الثروة الواقعة بالقرب من بلداتهم، الا أن خطورة الحفريات غير المشروعة الصغيرة تبدو واهية اذا ما قورنت بالقصف المروع على أسوار القلعة من قبل جنود الأسد والنهب اللاحق لأحد أغنى متاحف الفسيفساء والموجودة في موقع خان عثماني يعود للقرن الثامن عشر. لقد أطلق الجيش النار للمتعة مرارا على أعمدة المدينة الشهيرة على مستوى العالم، والتي بنيت ابان حكم الأباطرة الرومان انطونيوس بيوس وماركوس اوريليوس (١٣٨-١٨٠ م). وكان هذا الشارع الروماني العريض بأعمدته الحلزونية الشكل الأطول في العالم القديم، اذ يتجاوز طوله ١٫٨ كلم؛ وقد سقطت هذه الأعمدة بالفعل فريسة للمشاريع التجارية للمقربين من نظام الأسد، والسائدة في البلاد منذ ثمانينيات القرن الماضي: حيث كان عثمان العائدي صاحب منتجعات شام من فئة الخمس نجوم (الأشبه بمستودعات من البيتون المزينة بشكل مبتذل) وهو رجل نموذج للبرجوازية السورية الجديدة وطبقة التجار المتحالفة مع العسكر، قام بصب البيتون في الأعمدة من أفاميا في محاولة تشويه سريعة وغير كاملة لإعادة بناء الطرق القديمة في الموقع. ان عثمان العائدي هو في الواقع خبير في صب أطنان من الأسمنت والبيتون في المواقع

التاريخية: ألم يفعل ذلك حقا عند بناء فندق أفاميا الشام بالاس ذي الخمس نجوم في أزقة الأسواق التي تعود الى القرن الثالث عشر التي سقطت فيها جثث الآلاف الذين قتلتهم قوات حافظ الأسد وشقيقه رفعت خلال انتفاضة شباط (فبراير) سنة ١٩٨٢؟

شهد صيف عام ٢٠١٢ نقطة تحول أخرى في التدمير. ظن الجيش الحر من خلال استراتيجية قاصرة منه أن الوقت قد حان للزحف على عاصمة سورية الاقتصادية، وبالرغم من تحقيق بعض المكاسب في تموز (يوليو) من العام ٢٠١٢ في ضواحي حلب كعندان (التي تمت خصخصة أراضي للدولة فيها في وقت سابق من قبل محافظ حلب معن شبلي وأخوه مازن المقربين من الأسد، لانشاء مدارس للأغنياء ومراكز تسوق)، الا أنه تم اخماد التمرد فيها في معركة الخنادق على مرمى البصر من القلعة. كان بامكان الصحفيين الغربيين أن يمعنوا النظر في روائع المدينة القديمة بمرافقة متطوعي الجيش السوري الحر، والذين كانوا في ما مضى طلابا ومدرسين وأطباء وتجارا. وجعل الاستيلاء على احدى البوابات الشمالية للمدينة القديمة، باب الحديد، الصحافة والرأي العام العالمي وكذلك السكان المحليين المقاتلين يظننون بأن حلب ستسقط في غضون أيام.

ان حربا من القذائف المدفعية وقصف الطائرات والقناصة والاستنزاف ما تزال تدور حتى هذا اليوم، مع تقسيم حلب الى جزأين أحدهما شمالي وشرقي واقع تحت سيطرة فوضوية ونزقة للثوار، والآخر جنوبي وغربي في ظل التواجد الواضح لعصابات الشبيحة من نظام الأسد وكذلك الجيش. تعيش حلب اليوم زمن بيروت الحرب الأهلية حيث ان الجزأين المقسومين لا يفصل بينهما حتى شريط من الخضرة. وتكمن المأساة في أن هذا التقسيم يمر أيضا عبر أهم نماذج العمارة في الشرق الأوسط من العصور الأيوبية (القرنين الحادي عشر والثاني عشر الميلادي) والمملوكية والعثمانية والعربية والتركية. وقامت قوات النظام الجوية بتحويل هذه المدينة ذات الثلاثة ملايين نسمة الى غروزني أخرى ضمن حدود أكبر أسواق المنطقة.

وليس السوق مجرد مبنى انما هو متحف حي، حيث بنيت أسواق حلب الممتدة على مسافة كيلومترين ما بين باب انطاكيا في الغرب والقلعة في الشرق على شارع الكاردو لبرويا الهلنستية والرومانية. وأثناء السير في الشارع يمر المرء على محلات منتظمة في نمط يعود لقرون خلت، بدءا بمحلات الجزارة حول باب أنطاكية ثم بائعي الفاكهة ثم سوق النساجين حيث يباع الديباج المطرز بخيوط من الذهب والفضة وحرير حلب الذي ذاع صيته على مدى آلاف السنين، ومن ثم يأتي تجار التجزئة لسلع أخرى مصنوعة ومدموغة في أفنية المدينة القديمة مثل زيت الزيتون وصابون الغار .وقد اعتمد مصدر رزق عشرات الآلاف بمن فيهم عائلة العقاد التي استأنفت نسج الحرير في حلب منذ عدة عقود على المحافظة على هذه المتاهة الفريدة من الشوارع. والسوق المغطى بكامله ليحمي الزبائن والبائعين والمتفرجين من حرارة فصل الصيف في سورية (التي قد تصل الى ٤٤ درجة مئوية خلال شهري تموز وآب) تتخلله مجموعة من المساجد التي بناها معماريون عثمانيون أمثال سنان من القرن

السادس عشر المفضل لدى السلطان سليمان القانوني، وخانات تعود الى القرن الرابع عشر من البازلت والحجر الكلسي كخان الصابون والقيسارية ونزل فندق المؤلف من طابقين مقنطرين كان يودع فيها تجار البندقية وبلاد فارس بضائعهم على حد سواء. يمكن للسياح والتجار الاستحمام في حمام النحاسين المملوكي والذي ينفتح مدخله الصغير المقنطر المطل على السوق الرئيسي على غرفة استراحة تعلوها قبة ضخمة. وتنتشر على الشوارع المحيطة معالم تاريخية مثل جامع البرهمية الذي يعود للفترة العثمانية المبكرة وخان الوزير الرفيع الذي يرجع لعام ١٦٤٢. ان وفرة القنصليات الأوروبية لدول كالنمسا وبلجيكا وتوسكانيا تعود بالذاكرة الى الأيام التي كان فيها التجار دبلوماسيين وكان فيها المسافرون باحثين، تلك الأيام التي ظنت فيها البندقية وفرنسا والولايات الايطالية الأخرى أنه من الجيد توحيد الشرق والغرب من خلال التجارة محولين بذلك حلب الى أحد أقطاب بلاد الشام. وتقع هذه المباني جميعها والتي تشكل أمثلة على مجد هذه المدينة، على خط المواجهة الذي يفصل بين الحراك وقوات الأسد.

ولا يترادف تاريخ حلب مع التجارة والصلاة فحسب، أو بالمتصوفين والجماعات الصوفية كالطريقة القادرية التي تتعبد وتدخل المسجد الواقع في شمال القلعة. كانت للمدينة كذلك شهرتها في العلاج المبكر للمختلين والمجانين. في سنة ١٣٤٢ قرر أراغون، الحاكم المملوكي لشمال سورية والمولود لفئة من العبيد الجنود التي كان بديهيا ان ليس لديها ميولا تجاه الفن، بناء أول جناح في العالم مختص بالاختلال العقلي: البيمارستان وهو عبارة عن مبنى يعيش فيه الناس الذين هم بحاجة إلى علاج في غرف صغيرة نظيفة محيطة بفنائين داخليين، حيث يمكن للمريض العقلي الجلوس وأن يتلقى مساعدة الأطباء في الإيوان: وهو حجرة مقببة مرفوعة ومفتوحة على نافورة. وبعيدا عن صخب الأسواق، لابد وأن تأتي أصوات من المياه المتدفقة من نافورة مثمنة الشكل والحمام المحلق فوقها. لقد تولى الجنون زمام الأمور، وأين دليل على التصرفات النابعة من العقل السيكوباتي للأسد أفضل من تفجيره للسوق بالذخائر الحارقة، والذي دمر ـ ربما عمداً ـ نمط حياة ودخل الآلاف من سكان المدينة. تم اشعال النيران في ما يقارب ألفي (أي ما يعادل الثلثين) من الأكشاك في المدينة القديمة والمحلات التجارية بواسطة أسلحة ليست في حوزة المتمردين. فلدى نظام الأسد خبرة في تدمير متاهات الشوارع القديمة التي يمكن للتمرد أن يتجول فيها بحرية: وفي هذا المعنى يمكن اعتبار تدمير أسواق حلب، الخانات والمساجد نسخة جديدة من حماة عام ١٩٨٢، عندما سوي ثلثا المدينة وقتها بالأرض.



الشارع الرئيسي في سوق حلب، في محيط خان الصابون العائد الى القرن الخامس عشر، والذي دمرته قنابل الأسد الحارقة (تصوير : AMC، باذن من جمعية التراث السوري المهدد)

يظهر الجنون والوهم واضحين في محاولة تحويل الاختلاف الديني في حلب الى حرب طائفية، حيث كان النظام حريصا على ايجاد شبيحة ومليشيات في ضواحي الجديدة العثمانية والمملوكية خلال الشهور نفسها من العام ٢٠١٢. وعلى مرمى حجر من شارع التلل وهو الشريان الاقتصادي في حلب والموجود ضمن حي سني محافظ، توجد الجديدة التي تعد حيا جديدا بالنسبة لأغنياء المدينة. والذي تحول تدريجيا الى الحي المسيحي الذي ومنذ القرن الثامن عشر، يمتزج فيه كل من السريان والأرمن والموارنة (توجد كنيسة مارونية في هذا الحي الحلبي) وكذلك الأرثودوكس. وسكنت عائلات تجار وموظفين في اطار فريد من منازل تعود للقرن السادس العشر ذات نوافذ مزينة بشيكيات حجرية وجدران نقشت عليها رموز مختلفة و أسقف بعوارض خشبية رسمت عليه تصاميم ملونة. تم تشكيل مليشيلت موالية للحكومة في وقت سابق من قبل النظام وذلك قبل حتى أن يبدأ أي اقتتال طائفي في هذا الجزء من تراث حلب المصان بشكل جميل. ان محاولات الأسد لتحويل الربيع السوري الى حرب طائفية شاملة كانت تسير في الجديدة، والنتيجة أن خطوط القتال أثرت في هذا الحي أيضا.

التدنيس: حرب المآذن

لم يؤثر غزو هولاكو لحلب في سنة ١٢٦٠ م ولا الترحيل والغارات التي قام بها تيمورلنك في مدينة حلب بقدر ما فعلته الحرب الحالية من قصف متعمد للأحياء المعروفة بمعارضتها المسلحة للدكتاتوريات. استمرت عملية تدمير حلب بلا هوادة حتى نيسان من العام الحالي ٢٠١٣ م، عندما قامت الدبابات وعلى مسافة ٣٠ مترا بسحق مئذنة أحد أكثر المساجد وقارا في الاسلام والذي بناه سنة ١٠٩٠ م السلطان السلجوقي التركي ملك شاه. استغرق الأمر لحظات لدبابات النظام كي تقصف بالقذائف المئذنة التي بلغ طولها ٣٥ مترا وتحولها الى كومة من الأنقاض. والمثير للسخرية أن حكومة الأسد احتفلت بحلب «عاصمة للثقافة الاسلامية» سنة ٢٠٠٧ م.

صور الصحفيون الحراك في سورية على أنه حرب سنية-شيعية. ومع ذلك فان سكان حلب فخورون بالاشارة الى أن المدينة كانت مقرا لسلالة شيعية قدمت الكثير لتطوير الفنون وقدمت المتنبي أحد أشهر الشعراء في الاسلام. عاشت سلالة سيف الدولة في قصر في القسم المنخفض من المدينة، ولم يتم الكشف عن محل الاقامة حتى الآن. ويشهد ما تركوه في كل من الأدب والتاريخ على عادات المدينة في التسامح، هذا التسامح الذي حطمته دعوة النظام لحرب أهلية. ان لامبالاة الغرب وصعود الجماعات السلفية المسلحة من رماد المجازر التي حدثت سنة ١٩٨٢ دعت النظام للطمأنينة تجاه هذه الأفعال.

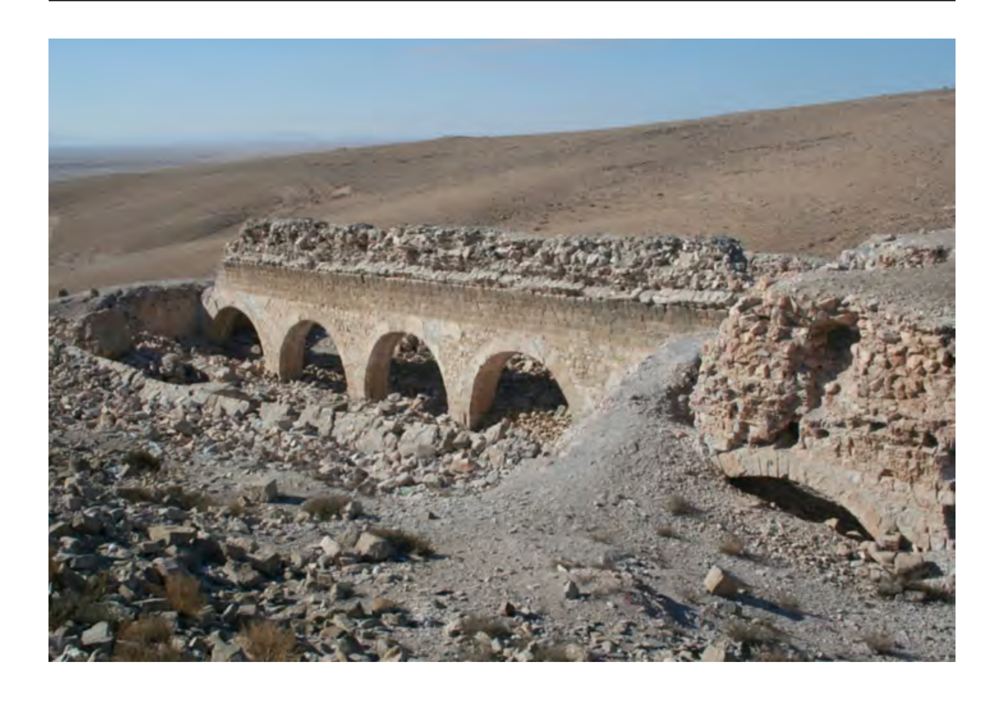
ترتكز رواية النظام على حماية الأقليات وأماكن عبادتهم. وأصبح العلويون والمسيحيون والدروز ذميين مفترضين تحميهم عشيرة الأسد، اي المفترض أن تحميهم حكومة تؤجج ببطء نار تدميرهم. ومن الواضح أن السلطة السورية عملت بجد على تدمير المدن القديمة التي تقطن أغلبها أقليات مسيحية. ويستحضر حصار مدينة حمص «عاصمة الثورة» صورا لابادة الأحياء الفقيرة الواعة في الضواحي مثل بابا عمرو والخالدية. ومع ذلك فان المدينة القديمة المبنية من البازلت، والتي تعاني أصلا من البناء العشوائي والمراكز التجارية التي سمح ببنائها من قبل محافظ المدينة سنة ٢٠٠٩ (بتمويل قطري في الأيام الخوالي التي شهدت صداقة بين العائلتين الحاكمتين)، قد تم قصفها بلا هوادة من قبل قوات النظام حتى قبل أن يأتي متمردو الجيش السوري الحر الى هذا الجزء من المدينة. والنتيجة: تفجير اثنتين من الكنائس التي تعود لـ ١,٤٠٠ سنة خلت، كنيسة مار اليان وكنيسة ام الزنار (وهي مزار استمد اسمه من حزام السيدة العذراء الموجود فيه).



كنيسة أم الزنار (٢٠١٠)

خصخصة التراث قبل الثورة من قبل المقربين من الأسد

القلمون هي منطقة السهوب الواقعة بين دمشق وحمص، توجد فيها المجموعات المسيحية الناطقة باللغة السريانية وكذلك الأديرة والقلاع الرومانية. كما أنها المنطقة التي أصبحت إقطاعية لعائلات دعبول والقصار من دير عطية والنبك. قام سليم دعبول، صديق حافظ الأسد، بخصخصة الثروة والأصول العامة في عملية تشبه ما حدث في أماكن أخرى في سورية. وفعل ذلك حتى مع التراث، كما يبدو جليا في الآثار المنهوبة في المتحف الخاص به، والذي يضم قطعا من عصور ما قبل التاريخ وتماثيل بازلتية من حوران، من دون أي شرح عن المنشأ أو تعليقات على كيفية وصول هذه القطع الى هناك في المقام الأول. تم بناء متحف الخاص به على مقربة من المستشفى خاص به - والمسمى طبعا مستشفى باسل الأسد - وكذلك على مقربة من الجامعة الخاصة التابعة له، أشبه بصدفة فارغة ضخمة الحجم في جنوب المدينة. وتتويجا لما سبق، تأتي إدارته الخاصة لينابيع المياه الحارة وحمامات البخار التي تعود للفترة البيزنطية في حمام أبو رباح، على مقربة من القرية القديمة وقلعة حوارين...



قامت شركة سليم دعبول الخاصة باستغلال ينابيع المياه الساخنة وحمامات البيزنطية ـ الأموية في حمام أبو رباح (تصوير : مارتن ماكينسون)

تدمير المساجد القديمة في أنحاء البلاد

ان لائحة التدمير المتعمد من قبل جيش هائج طويلة، ولربما يمكن القول أنها طويلة جدا . . . سيتم تذكر شهر نيسان من سنة ٢٠١٢ على انه الشهر الذي دمرت فيه احدى أقدم مآذن الاسلام. يندر وجود المعالم الدينية التي تعود لعصر الخلفاء الراشدين (٦٣٣ـ٦٦٠م) وسلالة الأموين التي تلتها (٦٦١ـ٧٤٩ م). وتظهر التسجيلات الأضرار الناتجة عن قتال الشوارع في بصرى، التي كانت عاصمة للأنباط ومن ثم بعد سنة ١٠٦ م مقاطعة عربية للرومان. ومما يثير الحزن أكثر هو تدمير مئذنة جامع درعا بدبابات الجيش، والتي يمكن مشاهدتها على يوتيوب. كانت مئذنة الصلاة تلك عملا من أعمال الخليفة عمر بن الخطاب الذي فتح القدس سنة ٦٤٢ م. حيث يمكن مشاهدة سحابة من الغبار فيما تتهاوى أحجار البازلت التي بني منها المسجد لتصبح ركاما بواسطة قذائف الدبابات. وما حدث بالضبط لجامع حلب الكبير بعد بضعة أيام يعزز التفسير بأن أعمال التدمير هذه انما هي سياسة متعمدة ومزيج من الانتقام من شعب لم يرضخ وما يزال يقاوم. لا يسع المرء سوى أن يفكر في أن ذلك تحريض ومحاولة لاستفزاز الطائفة السنية وتعزيز الجهاديين واضعاف الرؤى التي

تصور سورية كدولة علمانية والتي دعا اليها اغلب من انضموا للثورة السورية.

ومن المذهل أن قوة هذه الرموز لم تثر غضب الرأي العام الغربي ولا حتى العربي أو الاسلامي. لقد أصبح كل من جامع حلب الكبير ومآذن درعا والجامع المتضرر الذي يضم رفات خالد بن الوليد في حمص وجامع النور المملوكي في حمص (حيث كان معبد هليوغابالوس «بعل على الجبل» والذي أصبح العبادة الرسمية للامبراطورية الرومانية سنة ٢١٨ م)، أصبحت جميعها رموزا قوية تحتل مكانة بالغة الأهمية مثل جامع القرويين بفاس في المغرب وجامع القيروان في تونس وجامع ابن طولون في القاهرة، الا أنه لم يظهر هناك أي غضب عام ضد هذا الاستهداف المتعمد للتراث العالمي والاسلامي خلال الأسابيع الماضية. وعلى ما يبدو فان الرأي العام الغربي والعربي في شوارع القاهرة والجزائر وتونس يبدو انتقائيا للغاية فيما يتعلق بادانة الجرائم المرتكبة خلال العامين المنصرمين من عمر الثورة السورية.

الأضرار التي لحقت برموز سورية التاريخية

وتماما مثلما لم تسلم الكنائس من النظام كذلك الأمر بالنسبة لقلاع القرون الوسطى. وقد أظهرت تسجيلات مأخوذة في شتاء وربيع ٢٠١٢ قلعة الحصن التي بناها فرسان الاستبارتية الصليبيون واستولى عليها السلطان المملوكي ركن الدين بيبرس سنة ١٢٧٩ م أحد أفضل حصون العالم من القرون الوسطى التي تمت المحافظة عليها، وهي تحت قذائف الهاون. ان وادي النصارى حيث توجد قلعة الحصن هو أحد المناطق التي سيحاول نظام الأسد الابقاء عليها بأي ثمن حتى وان عنى ذلك طمس المعالم والأوابد التاريخة وابعاد السكان المحليين السنة كما فعل مؤخرا في بانياس والبيضة على الساحل. اذ كان الجيش السوري الحر يظن أن قوة وصيت وموقع القلعة سيحميه من القصف، فانه وبشكل مأساوي على خطأ، وكان من الممكن تجنب تكرار ما حصل في قلعة المضيق وأفاميا.

لم يظهر النظام حتى أي احترام لأحد معالم سورية الرمزية معبد الاله بعل، المعبد السوري والكلاسيكي المبني من الحجر الكلسي والمحاط بفناء معمد في تدمر والذي يعود بناؤه الى سنة ٣٢ قبل الميلاد. تظهر تسجيلات الفيديو الحالية آثار نيران الأسلحة الثقيلة على الأعمدة المحيطة بالمعبد. وأفاد السكان المحليون عن مرور الدبابات في المكان بالقرب من الرواق الكبير والمسرح ومعبد بعلشمين وعن نهب محفوظات المتحف وعن تنقيب غير مشروع وحفر للقبور والمستوطنات من قبل جنود الجيش من قمة قلعة ابن معن المطلة على المدينة القديمة والحديثة.



رويحة في جبل الزاوية، احدى «المدن الميتة» البيزنطية التي تعود الى القرنين الرابع والخامس الميلادي في منطقة خاضعة لسيطرة الجيش السوري الحر. يتكدس اليوم داخل هذه المقابر والبيوت القديمة اللاجئون الفارون من هجوم وتفجيرات الأسد (تصوير: مارتن ماكينسون)

غيض من فيض

ماذا عن الأضرار التي لحقت بالكثير من المواقع الأخرى التي لا تعد ولا تحصى؟ ماذا عن قلعة سمعان (أو دير سمعان العمودي) الواقعة على مقربة من قاعدة للجيش والمعركة التي أثرت بشكل كبير على دارة العزة البلدة الأقرب؟ ماذا عن الدير البيزنطي الموجود على جبل الشيخ بركات أحد أبرز المعالم الطبيعية في المنطقة وأحد جبال سمعان والذي تحول إلى نقطة مراقبة للجيش السوري؟ ماذا عن تدمير جزء من قلعة حارم، تلك القلعة الصليبية المطلة على الحدود السورية التركية والمكان الذي أطلقت القوات السورية منه نيران مدفعيتها على مدار عام ونصف؟ ماذا عن النهب الذي أصبح مصدر رزق للسكان في المناطق التي تم تجويعها في حصار النظام؟ ماذا عن تفجير البراء (البلدة الواقعة تحت سيطرة الجيش السوري الحر) والذي لم يتسبب فقط في عشرات الإصابات في صفوف المدنيين، كما اتضح من لقطات أولي لامبيرت Olly Lambert الصحفي في القناة الرابعة في نيسان ٢٠١٢، ولكن أيضا أضرارا لحقت أكبر مدينة ميتة بيزنطية في سوريا؟ ماذا عن اللاجئين الذين دمرت منازلهم بقنابل البراميل المتفجرة، أو ما يعرف لدى السكان المحليين بذخائر «البراميل» التي تزن ٥٠٠ كجم، والتي تم القاؤها بشكل عشوائي من الطائرات المروحية وميج ٢٣ اس، على غرار ما حصل في دريسدن؟ ماذا عن صواريخ سكود التي تمطر سماء تل رفعت، تلك القرية الواقعة على بعد ٣٠ كم إلى الشمال من حلب وموقع تلة بمساحة ٣٠ هكتار غير مكتشفة تقريبا تضم عاصمة أرباد الآرامية المذكورة في العهد القديم والتي استولى عليها الملك تغلات ـ بيليتسر الثالث

في سنة ٧٤٤ قبل الميلاد؟ ماذا عن المعارك الدائرة على موقع تل mرديخ/ايبلا والذي يعود الى الألفين الثالث والثاني قبل الميلاد، أو على تل الشيخ حمد أكبر مواقع سورية الآشورية، ودوركاتليمو KatlimmuDur الذي يعود تاريخه إلى القرنين السابع والثامن على طول نهر الخابور، تم التنقيب فيه من قبل بعثة من برلين منذ عام ١٩٧٩، حيث تمت اكتشافات لا تعد ولا تحصى ولا تقدر بثمن من الناحية التاريخية؟ ماذا عن نهب المتاحف، كمتحف دير الزور الجديد، والذي تروي اللقى الموجودة فيه قصة الممالك والإمبراطوريات بلاد ما بين النهرين من الألف الثالث قبل الميلاد شمال؟ ماذا عن معرة النعمان تلك المدينة الواقعة على خط المواجهة، والتي أصبحت مسرحا لطريق مسدود بين الفرقة الرابعة السيئة السمعة التابعة لماهر الأسد ووحدات الجيش السوري الحر؟ ماذا عن متحف إدلب، حيث تنشر ميليشيات الشبيحة الموالية للحكومة الارهاب والهيجان في الشوارع، والذي يضم متحف هذه المدينة في مجموعته لقى وألواح صغيرة تعود الى ٢٤٠٠ سنة قبل الميلاد من أرشيف G في قصر إيبلا والذي تم التنقيب عنه من قبل جامعة روما منذ عام ١٩٦٥، وحيث توجد قطع من تل أفيس من العصرين البرونزي المتأخر والحديدي ومستوطنة تل مسطومة الزراعية الآرامية؟ ماذا عن اللاجئين الذين طردوا من مدن جبل الزاوية كأريحا وسراقب ويعيشون في كهوف المقابر الرومانية في سرجلا باودة ورويحة على الهضبة؟ ان حجم الدمار لمقزز للنفس...

على الرغم من الجوع والحرمان اللذين أديا إلى حفر أماكن مثل أفاميا الرومانية والرصافة البيزنطية بشكل كامل، وعلى الرغم من استمرار مسلسل الدمار، أتى الأمل في تقلبات لم تكن في الحسبان. رأى بعض الفارين في خريف عام ٢٠١٢ أن مسؤولية حماية المجموعة الغنية من فسيفساء معرة النعمان تقع على عاتقهم، أضافة الى حماية القطع الرومانية التي تعود للعصر قبل الكلاسيكي. وعبر طلاب قسم الآثار في جامعة حلب عن أهمية حماية مسجد المدينة الكبير، وخاطروا بحياتهم لتصوير الأضرار وأخذ المصنوعات الخشبية (كتلك التي يتكون منها منبر في المسجد) الى مناطق اكثر أمنا. وقد أظهرت الأنشطة الأخرى التي لا تعد ولا تحصى للسكان المحليين بأن السوريين يدركون بالفعل أهمية تراثهم الفريد، وبأن كلمة «آثارات» العربية تحمل مقدارا من الأهمية لمزارع من القامشلي أو حوران كما لمن يقطن في واحدة من المدن التاريخية من دمشق أو حلب أو حماة. يعرف معظم السكان المحليين أن السياحة ستلعب دورا هاما في مستقبلهم في سوريا المتصالحة مع نفسها، محكومة من قبل سلطة ترى في البلد شيئا آخر غير حساب مصرفي خاص أو فرصة للنهب. وكما قال أحد رموز المعارضة في «ربيع دمشق» عام ٢٠٠٠، عندما خدع الأسد العالم بأن جعله يعتقد بأنه كان قائد الاصلاح حسن النية، أن سورية هي» بناء من عشرة طوابق، الطوابق العليا فيه حكر على الفئة الحاكمة، ولا يصل اليها مصعد». ستزول هذه الطوابق العليا، على أمل أن تعيد سورية مآذنها التي دمرت وقلاع القرون الوسطى الى مجدها السابق.



قلعة شميميس: نقطة استراتيجية مبنية على بركان خارج مدينة سلمية، و تعرضت في عام ٢٠١٢ الى أضرار واسعة النطاق. بنيت القلعة في القرن الثاني عشر على ما يعتقد من قبل جماعة الحشاشين الإسماعيلية.

التراث: مسألة بقاء وطني

باختصار، اذا كان لسورية أن تنجو كأمة، ينبغي على كل مواطني البلد أن يتأملوا شواهد الماضي من الفترات التي تعود الى ما قبل الاسلام وحتى الفترات الأحدث. ان لجميع مواطني سورية مصلحة في التأكيد من أنها ستنجو، إن شاء الله، بينما يلفظ نظام الأسد أنفاسه الأخيرة. سيعثر على رواية الحفاظ على وحدة الأمة ومنع انقسامها الى دويلات صغيرة طائفية متضاربة، في أعمدة تدمر الشاهقة والتي كتب على ركائزها باليونانية الفصحى والآرامية التدمرية العامية، والتي تألفت قبائلها لأربعة من التجار العرب والفاتحين، ستقرأ على تمثال أداديزي، ملك تل فخرية غوزانا على منابع الخابور، ومكتوبة بالآرامية والآشورية. وسوف تكتب على جدران قلعة دمشق صلاح الدين الأيوبي الكردي أو غرف استقبال وسلطان قلاوون في الفترة المملوكية العبد السابق القادم من آسيا الوسطى. ان التعليم بالقدوة سيتجلى في الحمام المكتشفت مؤخرا للصليبيين الأجلاف، الذين تبنوا في القرن الثاني عشر نمط الحياة العربية في قلعة المرقب المطلة على البحر الأبيض المتوسط. ولمن العجب أن أناسا أغرابا وأحيانا يوحشيون وهمجيون كالصليبيين أعجبوا بالعادات السورية، وهذا ما يمكن قراءته في مذكرات أسامة بن منقذ أمير قلعة شيزر على نهر العاصي: عندما عاش أمين سر صلاح الدين في منطقة الحدود، لاحظ كيف اعتمد نبلاء طرابلس ودوقات من أنطاكية ونورمانديين وصقليين أمثال بوهيموند ووتانكريدس وريموند دو سان جيل من تولوز،

الأساليب العربية والسورية بعد جيل وكيف تعلموا من العادات والثقافة المحلية. ستظهر المواطنة والحراك الاجتماعي في أطلال فيليب العربي، الذي أصبح حاكما للإمبراطورية الرومانية بكاملها في العام ٢٤٤ ميلادي والذي، وهو ابن قائد فيلق، استطاع تأسيس مدينة مخططة جيدا في جبل الدروز مع بعض من أروع الفسيفساء وأكبر الحمامات في الشرق الأدنى الرومانية.

يمكن أن السوريين في المستقبل، اثناء حلهم للنزاع وخلقهم لثقافة للسلام، أن يتبعوا نهج صلاح الدين الأيوبي الذي بجمعه بين المثل العليا للفارس العربي والفرسان الأوروبيين، استطاع أن يحمي الأيتام و يغفر لأعدائه وأن يعيش على نحو بسيط الى حد أنه لم يكن يملك سوى بضعة دنانير عندما كان على فراش الموت. يمكن للسوريين أن يفكروا كيف كانت الإمبراطورية الرومانية مزدهرة ابان حكم الإمبراطور سيبتيموس سيفيروس (١٩١-٢١١ م) الليبي المتفوق والمتحدث بالفينيقية من ليبسيس ماجنا، والذي تزوج من الداهية السياسية صاحبة النفوذ السورية جوليا دومنا والتي كانت من أقوى نساء عصرها.

يمكن أن يساهم الوعي لعمق التاريخ ولمركزية سوريا باعتبارها بوتقة تنصهر فيها الأفكار والاختراعات والشعوب في إعادة خلق شكل جديد من أشكال المواطنة تكون فيها العصبية القبلية أقل أهمية، وتصبح فيها العشيرة والطائفة غير ذات صلة، وتمتزج فيها الاختلافات بتناغم. ان نظام الأسد بخلقه لعبادة شخصية طائفية (على غرار العبادة المجنونة لحجر ايميسا الأسود التي أسسها الامبراطور الروماني هليوغبالوس Heliogabalus) نمت على خطاب سطحي وزائف عن تسامح الأقليات، لقد جعلت هذه السياسة من عشائر العلويين رهينة للنظام، الذي لم يستطع حتى تحسين مستوى معيشة معظم افرادها الذين يدعي تعزيز مصالحهم. هناك تاريخ مشترك يعود بجذوره الى أبعد من الاستيطان البشري وزراعة الكفاف، والذي يمكن تتبعه آلاف السنين قبل أبجدية أوغاريت، وهو ما يمكن أن يخفف من تأثير الخطب الغاضبة لابن تيمية في وقت الأزمات والصليبيين والغزو الداعية إلى حرب شاملة ومقدسة.

وتظهر للعيان رواية مشتركة لكل الشعب السوري، من خلال أطلال هي أكثر من أن تكون مجرد روائع معمارية أو منحوتات: انها مسألة حياة أو موت لهذه الأمة القديمة جدا والحديثة جدا في آن. ان الاعتبار الحقيقي للتراث في سوريا على أنه ليس فقط فرصة استثمار مستقبلية لمتاجر Villa Moda للبضائع الفاخرة على الشارع المستقيم، سيؤدي الى تجاهل خواء الخطب الجوفاء والمنافقة والمبالغ في صقلها لأسماء الأسد، تلك الخطب التي مهدت الطريق إلى تحويل المدن القديمة إلى نماذج أخرى شرق أوسطية من مراكش، ومواقع للمسلسلات والفنادق ذات المرافق الفاخرة.

فـن

شيخ مؤمن ومثقف ملحد..
الكل سواسية ما عدا «الشبيحة»

إبداع الخفاء: طوابع توثيق الثورة والألم السوري

فادي عزام

في السادس من مايو أيار عام ١٨٤٠ خرج أول طابع في التاريخ من المطبعة، يحمل رسما للملكة فكتوريا ليعلن أن فكرة مدير البريد البريطاني، السير رولاند هيل قد أصبحت في حيّز التنفيذ، لتنتشر الفكرة في أنحاء العالم. لحقتها الولايات المتحدة كثاني بلد في العالم يصدر طابعا، وضعت فيه صورة جورج واشنطن نكاية بفكتوريا على ما يبدو، ولم ينصرم القرن التاسع عشر إلا ويصبح الطابع رمزا يحمل الفضول والحنين بالإضافة إلى كونه أحد أدوات توثيق التاريخ. جذبت هذه الوريقة الصغيرة هواة تجميع اللقى، لتصبح هواية تجميع الطوابع واحدة من أشهر الهوايات في العالم.

استخدمت لطباعته عدة طرق، أفضلها هي الطباعة بالحفر التصويري، والتي تسمح بإنتاج ملايين الطوابع يومياً. وربما لا يعرف الكثيرون أن داخل كل طابع علامة مائية، وهي

عبارة عن جزء غير منظور لا يظهر على الطابع إلا بعد النظر إليه ضد النور.

التسنين أو الجوانب المقصوصة للطابع لم تكن موجودة في البداية، وظهر أول طابع مسنن عام ١٨٤٩. وأغلب طوابع اليوم مسننة، غير أن عدداً قليلاً جداً غير مسنن يعتبر من النوادر التي يحرص هواة الجمع على الحصول عليها.

على خلفية الطابع يستخدم الصمغ العربي والديكسترين لتثبيته على الرسالة. وما يُدفع ثمنه بضعة بنسات، يمكن له أن يصبح بألاف الدولارات لاحقاً. ومن يخلد ذكره في طابع غالبا أو عادة لا ينسى في ضمير الشعب الذي ينتمي إليه.

الطوابع تستخدم غالبا لتوثيق الماضي، لا تتعامل مع المستقبل، وبالطبع لا تأخذ موقفاً من الحاضر والأني.

وقبل أن تتطور وسائل الاتصال، كانت تعتبر من جماليات التواصل البشري، تحمل قيمة شاعرية، تقول سيمياء الرسالة والانتظار والمكاتيب.

الطابع الشاعري يحمل لغة مغموسة بطلاوة العاطفة، يريد الالتصاق على مظروف، طابع آخر يضل الطريق، طابع لا يسافر، طابع لم يقص له شعر حوافه، طابع ضائع في غمرة الرسائل، طابع من شجن وآخر من وطن، طابع يمجد قائداً وآخر يحفظ للذاكرة شاعراً، طوابع لتوثيق الحياة وأخرى لتكون ضد الموت، تحمل روح الأماكن وسمات الشعوب.

آثرنا العودة قليلا لتاريخ الطابع. قبل أن ندخل في لقائنا هذا، فالمتابع لإبداعات الثورة السورية حتما رأى كيف قامت الطوابع السلمية بتوثيق جزء من الحدث اليومي في الثورة. فكرة غيرت مفهوم الطابع ودوره التاريخي وجعلته واحداً من الوسائل الفنية عالية التعبير والتأثير لتوثيق ذاكرة الشعب السوري الثائر.

نبحث عن أصحاب فكرة، لنكتشف أنه شاب واحد لا غير يقوم بكل هذا العمل، أسس فكرة طوابع الثورة مطلقاً على نفسه اسم «طابع سِلمي». لا يذكر اسمه بالطبع مثل الكثير من الناشطين والفنانين المنتمين للثورة، في ظاهرة يمكن تسميتها إبداع الخفاء. فحجم العنف الذي تعرض له الفنانون الداعمون للحراك الثوري، فرضت على الجميع الحيطة والتخفي، بعد



تكسير أصابع رسام الكاريكاتور علي فرزات وانتزاع حنجرة القاشوش ومطاردة الممثلين بالإهانة والتشهير والتهديد، واعتقال الكتاب وزجهم في السجون، فتوارى الكثير من فناني الثورة خلف أعمالهم وتركوها لتدل على نفسها.

لدى سؤال الفنان عن الفكرة وراء الطابع أجاب:

- أنا طابع سِلمي، هذا الاسم الحركي الذي أعمل من وراءه، أي طابعنا سلمي لا عنفي، والطابع من الطبع والتطبع، وبنفس الوقت طابع من الطوابع المعروفة. على الرغم من عدم محبتي لهواية تجميع الطوابع أبداً، إلا أنني وجدت نفسي ليس فقط أجمعها بل أصنعها، وهذا تأكيد للثورة التي تغيير فينا أشياء كثيرة جداً.

- من أين أتت الفكرة وما الرسالة التي أردتها أن تصل عبرها؟

- فكرة الطوابع كانت نتيجة تجارب قمت بها في صنع مجموعة من الصفحات الناشطة على الفيس بوك، ووجدت أن الطوابع هي الأكثر تأثيراً بين الصفحات الأخرى التي أنشط بها. وبعد الزخم الكبير الذي صاحب بدايات الثورة السورية، صار الكثيرون معنيين بتوثيق ما يحدث، ليس تعداد الشهداء وأشكال الدمار فقط، بل توثيق مجريات وأحداث ومجازر وآلام وأفراح السوريين في هذه المرحلة الصعبة من تاريخ بلدهم.

ولأن الثورة السورية فعلا كما يقال عنها، ثورةٌ يتيمة، لم نشهد مظاهرة من أجلها في أي مدينة عربية، ولم نلمس موقفا حقيقا واضحا من جلِّ وأغلب المثقفين والفنانين السوريين والعرب. كان لابد من توثيق من ساعد الثورة ووقف معها ولو بكلمة.

كيف يرى مشروعك الجغرافية السورية، وهل هناك عدالة في تغطية الأحداث الكثيرة والشخصيات المؤثرة على امتداد سوريا؟

فكرة لمْ الشمل بين الثوار، هي إحدى الركائز التي قام عليها المشروع. نريد أن نكون مرآة لحقيقة الشعب السوري التي غيّبت طويلا، وأيضا الرد على كمية التشويش المنظم على الثورة والاتهامات الطائفية والتحريض المذهبي والاثني.

الطابع ببساطة تكريمٌ بسيطٌ لمن يعمل بحب وإيمان وإخلاص لسوريا المتعددة المدنية الحرة.

ما علاقة صفحة الطوابع بما ينتج فنيا عن الثورة السورية؟

نريد أن نعطي فعلا صورة فنية، حضارية، سلمية عن الثورة السورية، ومشروع الطوابع هو واحد من انعكاسات الثورة السورية ونتاجها. فكما أن هناك صفحات تُعنى بالنكتة

والأرشفة والفن والتوثيق، يصبح مشروع الطوابع جزءاً من كلّ، أنتجه التفاعل المباشر مع الثورة، ويصبح الهدف الجماعي تأكيد حقيقة أن الثورة السوريّة هي ثورةٌ إنسانيةٌ مُحقة.

نحاول المساعدة على التذكير بالمعتقلين قدر المستطاع، اللحاق بكثافة الأحداث اليومية، التنبيه لحجم الدمار والقتل والمجازر، وهو شيء يفوق قدرة أي عمل أو مشروع فني، لأن الفن الحقيقي للثورة سينتج بعد الثورة.

كيف ترى تأثير مشروعك على المتلقي وكيف تفاعل معه الناس؟

من الواجب أن يكون هناك تأثير وهذا من أهم الأسباب وراء الطوابع، التأثير يمكن قياسه بشكل مباشر من التفاعل على صفحات التواصل الاجتماعي. وأيضا من خلال رصد الانتقادات التي يوجهها المتابعون إلى بعض الطوابع والشخصيات والمواقف كلٌ حسب مرجعتيه؟

ترد إلى الصفحة رسائل وطلبات من مختلف مشارب وأطياف الشعب السوري وكم من المعلومات المفيدة والمؤثرة. إثارة الحماسة بين الناس عامة، ورواد الفيسبوك من مثقفين وناشطين إلى الفنانيين والثوريين على الأرض. الاتصال بصفحات أخرى معنية بالحراك الميداني. تكسير حواجز الاختلاف بين البشر. لذا قد تجد طابعاً لشيخ مؤمن وطابعاً لفنان ملحد وطابعاً لجغرافية معينة وطابعاً لرمز معين، هذا الخلط هو محاولة للتقرب من الشارع، وهذه الصفحة معنية بردم الهوة بين مختلف الفئات وعلى كافة المستويات. الكل سواسية بالطبع.. ماعدا الشبيحة.

ومن أهم أهدافنا أيضاً إخراج بعض الفاعلين من فنانين ومثقفين عن صمتهم من خلال التنبيه المستمر إلى أن الثورة ستحصد نتائجها ويجب أن يشارك فيها الجميع.



توثيق المدن ونشاطها والتذكير بأن هناك من يراقب ويتقصى ما يحدث أولاً بأول. كل هذه التأثيرات البسيطة مجتمعة بالإمكان أن تصنع التغيير المطلوب متضافرة مع جهود صفحات أخرى معنية وهادفة ولها جماهيريتها في الشارع بشكل عام

التأثر يجب أن يتحقق، وإلا فلا فائدة من المشاركة ولا فائدة من الثورة ولا فائدة من الفيسبوك ولا فائدة من هذه النافذة الخطيرة والمؤثرة ألف بالمئة. ولكننا ندرك ايضاً أن تغيير الواقع والتأثير به فعل تراكمي وجماعي ويحتاج إلى الصبر والمتابعة والإيمان بما نعمل.

ما هو آخر طابع تتمنى أن تصنعه؟ بالأحرى متى سيتوقف المشروع ؟

غالبا سيكون طابع النصر، مع التذكير بمن تحمّل الألم من أجل الحرية والكرامة. لكنني لا أعتقد أنني سأتوقف بعد تحقيق الغاية المرجوة، لأن مرحلة البناء وما بعد الثورة ستتطلب عملاً مضاعفاً عما نقوم به الآن.

انتهى اللقاء مع «الطابع السلمي» الذي عاد إلى مشغله ليحضّر لطابعه القادم. وبينما هو منهمك في عمله التقطت له صورة لا أستطيع نشرها الآن، لكنني واثق من أنني سأفعل يوما. صورةٌ ربما ستكون داخل طابع يقول: اعترافاً بفضل الطابع السلميّ، تكرّمه سوريا الحرّة بطابع.





بيع تاريخ سورية القديم أيضاً؟

رند عبد الكريم

في مقالة له تحمل عنوان «دراسة في الفن» ـ نشرها في موقعه الخاص ـ يتحدث الكاتب الإسرائيلي «إسرائيل شامير» عن عائلة «ليون ليفي» الشهيرة كإحدى العائلات اليهودية التي استطاعت كسر المحظور في الديانة اليهودية، ودخول عالم الفن ورسم الوجوه الآدمية، وصنعت لها نفوذاً وسلطة، تمكنت من خلالهما نقل التحف من كنائس أوروبا إلى المتاحف، وهو نفوذ يتضح بالبحث والتدقيق، إويمتد ليشمل وزارة الثقافة والآثار السورية، وملفاتها السرية.

فعائلة أو بالأحرى، مؤسسة «ليون ليفي»، الرئيس السابق للمنظمة اليهودية الصهيونية الأميركية، لها اسم آخر في ملفات وزارة الثقافة والآثار السورية، تنطوي عليه اتفاقيات التعاون المبرمة مع الاتحاد الأوروبي، حتى منتصف عام ٢٠١١، للتنقيب في المواقع الأثرية السورية، ونشر نتائج التنقيب في مؤسسات النشر الأميركية والإسرائيلية وغيرها، ومنها مؤسسة نشر «ليفي» نفسها التي تحمل اسم مؤسسة «ليفي وايت»، والتي ـ حسب العقيدة اليهودية ـ تخدم نفسها ويهوديتها و«يهودية إسرائيل» معاً.

توفي «ليون ليفي» عام ٢٠٠٣، مطمئناً إلى استمرار مؤسسته في «نشاطها السوري» بعد أن ورثتها زوجته «شيلبي وايت» وخمسة آخرون شكّلوا معها مجلس أمناء مؤسسة

«ليفي»، وجل أولئك لهم نشاط علمي في المواقع السورية، وعلى رأسهم «شيلبي» رئيسة الأصدقاء الأميركيين لمؤسسة «الآثار الإسرائيلية» في «أورشليم»، و«فيليب كنغ» مدير مؤسسة ليفي وايت للنشر، المختص بـ«إسرائيل التوراتية»، والمتعمق في تنقيبات معبد «عين دارا» في ريف حلب، الذي اعتبره بوقاحة «ثالث أهم اكتشاف توراتي» لعام ٢٠٠٩، ثم «آني كابوت» الباحثة في متحف «اللوفر» ورئيسة قسم آثار الشرق الأدنى القديم فيه، والتي أجرت في سورية تنقيبات في موقع أوغاريت الساحلي وموقع إيمار/مسكنة بالقرب من حلب، وجهدت عام ٢٠٠٥ لربط أوغاريت السورية بالتوراة اليهودية، من خلال مؤتمر عقدته جامعتي «شربروك»و «أدنبره»، وقد حضره وصادق على نتائجه مسؤول كبير في وزارة الثقافة السورية هو مدير التنقيبات!.

ولا يتوقف الحضور القوي والمريب لـ«ليفي» في مجال الآثار السورية، عند هذا الحد، ولا تعاونه مع وزارة الثقافة والآثار السورية، التي دأب مسؤولوها منذ مطلع عام٢٠٠٠ على إقامة المعارض الأثرية السورية في متحف «الميتروبوليتان»، في مدينة نيويورك، وبالتأكيد لم تفتهم رؤية القاعة التي تحمل اسم «ليفي» وتمويله، وهي تضم بين معروضاتها تُحفاً أثرية لم تُعرض في بلدانها الأصلية، ومنها تحفٌ سورية ضمها «ليفي» إلى مجموعته الخاصة وأهدى بعضها إلى متحف «الميتروبوليتان» دون «لفت عناية أصحابها الأصليين!.

على أن كل ذلك لا يكاد يكون مثار ريبة، أمام قيام مؤسسة «ليفي» بأنشطة على الأراضي السورية، لمدة اثني عشر عاماً دون أن يثير ذلك ريبة أو حفيظة الحكومة السورية، ونفذت خلالها اثني عشر مشروعاً توزّعت بين التنقيب الأثري والنشر، أشرفت عليها المؤسسة الصهيونية المذكورة وموّلتها، منها مشروع دراسة ونشر وعرض مئات القطع الأثرية المكتشفة في مدينة أوغاريت السورية الساحلية، بالتعاون بين مؤسسة «ليفي» ومتحف «اللوفر» عامي ٢٠٠٨/٢٠٠٩، ومشروع التنقيب والنشر الخاص بـ«تل العشارة» الواقع في الفرات الأوسط بسورية عامي ١٩٩٩/٢٠٠٠، بقيادة «جورجيو بوتشيلاتي»، ومشروع «تل المريبط» الفراتي السوري بقيادة «جان إستيفيز» عامي ٢٠٠٠/٢٠٠١، ومشروع «تل البنات» الفراتي السوري بقيادة «آني بورتر» عامي ٢٠٠٤/٢٠٠٦، ومشروع «بصرى» في محافظة درعا بقيادة «جاكلين دنزر» عامي ٢٠٠٧/٢٠٠٨، ومشروع «إيمار» بالقرب من حلب بقيادة «جان كلود مارغرون» عامي ٢٠٠٣/٢٠٠٤، ومشروع «دورا أوروبوس» في دير الزور بقيادة «بيير لوريش» عامي ٢٠٠٨/٢٠٠٩، ومشروع «تل بيدر» في الحسكة بقيادة «آني بورتر» عامي ٢٠٠٧/٢٠٠٨، ومشروع «تل النبي هوري» شمال حلب بقيادة «جانين عبد المسيح» عام ٢٠١٠. (١)

وقد أثبتت عملية البحث، أن أنشطة مؤسسة «ليفي» ذات البعد الأثري في سورية هي أنشطة مرتبطة بأبعاد جيوسياسية في المنطقة، كون المؤسسة المذكورة داعمة لليهودية العالمية، وحلم «إسرائيل الكبرى»، وقد ظهرت على سبيل المثال وثيقة مؤرخة في ٢٤ يونيو ٢٠٠٢،

تشير إلى شروط قدّمها «ليفي» لـ «جورج بوش الابن» تتضمن ضرورة تخلّي الفلسطينيين عن «الإرهاب» لكي يحصلوا على دولة. (٢)

وفضلاً عن ذلك فمشاريع «ليفي» في سورية لم تتضارب في الهدف مع مشاريع كبيرة أيضاً نفّذتها، في مواقع التراث السوري، جامعات ومعاهد ومؤسسات غربية داعمة لأحلام «إسرائيل» وتطلعاتها، ومن هذه المشاريع ما سعى إلى تغيير الخارطة الأركيولوجية والجيوتاريخية السورية وحتماً السياسية، مثل مشروع ARCANE عامي ٢٠٠١/٢٠٠٣، الذي يراد به وضع تسلسل زماني لمناطق الشرق الأدنى القديم وشرق المتوسط. (٣)

وقد قادت هذا المشروع كبرى المؤسسات و «الجامعات الإسرائيلية «بفريق علمي عمل معظم أعضائه في المواقع السورية، وهناك مشروع قواعد بيانات مدينة «إيمار» القريبة من حلب، عامي ٢٠٠٤/٢٠٠٧، وقد نفّذت هذا المشروع كل من جامعة «تل أبيب»، وعمل به «يورام كوهين» و «شمريط سالم» وجامعة «كونستانز» الألمانية وعمل فيه «لورنزو دوألفونسو» و «تنكرد كوف» و «ستيفان كمر»، أما أهم مكتشفات مدينة إيمار السورية فهي الألواح الكتابية المسمارية التي أُخرجت من سورية بموجب تنقيبات رسمية، ضمن أربع مجموعات، منها مجموعة موجودة في متحف أرض التوراة في «إسرائيل»!، ومجموعة أخرى لدى اليهودي الأميركي «جوناثان روزن». (٤)

وهناك مشروع ETANA وهو مشروع رقمنة لأرشيفات مواقع من الشرق الأدنى القديم ومنها «تل موزان» في محافظة الحسكة، وقد شاركت في المشروع جامعة «تل أبيب»، أما الجهة المموّلة فهي مؤسسة «أندريه وميلون» المموّل الرئيسي لـ «مركز التاريخ اليهودي». (٥)

وتطول قائمة المشاريع المشابهة، ولا يتسع المجال هنا لذكرها كلها، لكن ما نود تسليط الضوء عليه هو أن العابثين بتاريخ سوريا ومستقبلها، قد دخلوا إليها في السنوات السابقة من المطارات السورية، وعبر قاعات الشرف فيها، وهم يعرفون جيداً عما يبحثون، وما يريدون عمله، يستقبلهم في الجانب الآخر بعض المسؤولين فيها عن «الخراب الاستراتيجي» في سورية، غير أنهم لا يريدون شيئاً سوى جني المزيد من الأموال، وحيازة أدوات السلطة، والتهديد بحرق ما تبقى من حاضر البلاد ومستقبلها، بعد أن باعوا تاريخها العظيم بشواهده وآثاره.

مراجع يمكن العودة إليها من خلال شبكة الانترنت

(١) Leon Levy Program for Archaeological Publications.Shelby White

(٢) حول الأبعاد السياسية ضمن أنشطة مؤسسة «ليفي» الثقافية
يمكن مراجعة منشورات
ASOR: American Schools of Oriental Research Newsletter

(٣) ARCANE Project

(٤) Emar Online Database

(٥) ETANA



حركاتٌ وأبجدية في معرض عاصم الباشا: «تحية إلى نمير»

فادية لاذقاني

افتتح معرض عاصم الباشا «تحية الى نمير» في صالة البيت العربي بمدريد، في السابع من آذار حتى نهاية أيار ٢٠١٣. وانتقل بعدها إلى قرطبة.

الحركة الأولى: (ح) الباسق نمير

شهقة الجرح تتعمشق على ذرّات حبال الروح قبل دخول الصالة. ففي حديقة مدخل البيت العربي، حيث نُصب نحت «تحية إلى نمير» تمعن كوابيس القتل المستديم سكاكينَ تخترق الضلوع بلا استئذان. هذا الباسقُ الكبير البهيُّ الجميل الأبيُّ الوادع الخجول العطوف النابتُ من أرض يبرود يعلن الحركة الأولى لسمفونية «الألم والتمرد». فلا يعود صاحب النفس تتعرّف نفسه نفسَها وقد احتلّ سراديبَ روحها الشموخُ والإِجلال والصمت المهيب، وربما الخجل، ناظراً هذا العمل النحتي (نحت حديد، ارتفاع ٣م). نمير يعلو فوق البشر والشجر والجدار. تشدّه المساحة لناصية المجد البليغ، فينشد صمته السامي على مرمى

الكون ملاحم شهداء سوريا. مرارة الرحلة الهادرة تنتظرك بعد ثوانٍ. تستميح الشجرة نمير العذرَ أن كاد علوّها يحاذي علوّه، تنحني لذهابه العظيم إجلالاً ومهابةً. تحنو عليه صباح مساء. تبكي الشجرة. تغني، تهتف، ترقص، تتوجع، تربت على كتف الأم البعيدة المنتظرة، تشدو لها نغمات تانغو آتٍ من عمق الزمن!

صمت. افتتح النشيد.

الحركة الثانية: (ر) الصالة / ملحمة الجرح:

في الصالة، ينتشر حوالي أربعينَ عملاً بين نحت حديد وطين وبرونز وقصدير. كلها، باستثناء واحد، عجنها عاصم، صبحاً ومساءً خليطاً من ألم الروح ودفعات التمرد والتسامي على الجرح الشخصيّ والعامّ. ينفلت الطوفان من صخور القلب، يصعق زاحفاً دفعةً واحدة بلا هوادة.

النازح:

قال الطفل لأمه، أين نسير؟ قال الجار لجاره: أإلى الشمال أم إلى الجنوب؟ أم خارج نبض البلاد؟ ليتني تحولت إلى عمود من ملح، ولم أستدر لأرى ركام البيت الذي راح العمر في بنائه وتزيينه، يا قلبي كفّ عن اعتصارك، لا تَسَلْ إن كانت جوارب الأطفال وريشات ألوانهم ما لمحت قبل النزوح، ولا عن ملاعق الغداء الذي تُرك ساخناً، لم يُمسّ.

من البادية:

من طرفِكِ مرّ العاشق باسل. هنا ترك دراجته معلقةً بين وهج الفضاء وتراب الأرض، وقال لها: استريحي، سأوسد كتفي تحت ظلّ خفيف. ثم، في حمص، نام هنيهةً أو أبداً.

خصوبة غاضبة:

سيدة السيدات تستقبل المعزين. يغنون شهيدها، فتحبس حزنها، وترسم الابتسام. حذار أيها الطاغية. أما قالت لك مخاوفك أنّى للأجيال أن تنسى؟

تحية لغوطة دمشق:

حمل غياث وردتَه، من ابتسامته جنّ عسس الوحش، فأردوه خالداً على كتف السماء. ثم احتفلوا على أشلائه. قال يحيى للطيور العاشقة: انتظروني، فطريقي مازال مفتوحاً، والمدى ماله إلا أن يكبر. ركض الحيّالشهيد «المقبل» لتشييع شهيد، فقنصه الرصاص ولم يعد. وما عاد، ما عاد في موكب الأسماء من متّسع. خرجت جنّة الأرض بناسها والفواكه والأنهار والغابات و شتلاتُ الزرع. دوما، المليحة، عين ترما، سقبا، حمورية، المعضمية، قطنا. هنا غوطة الجنّة «جنّة. جنّة.. جنة ياوطنّا».

تظاهرة:

قال يامن لرفيقه: أمسك يدي وتعال. مدرارةً نزلت دموع الصمت الحبيسة على هتافات «حريقة» الشام. ثم كانت درعا وحمص. هبت دوما وحماة. العاصي عانق بردى. الواحد يصبح اثنين. الاثنان ثلاثة. هدر الشباب: «واحد، واحد، واحد. يللي بيقتل شعبو خاين».

رسم على الخزف، وجوه، وجوه، وجوه:

الوحوش حاضرةٌ بآثار جرائمها على وجوه الرسوم الخزفية. قضبان السجن فيها، وفيها التأوّهات والمرارة والجنون والأمل. تفتح سوريا يديها للسماء. تضم وجوه نسائها ورجالها. فمنهم من قضى ومنهم من ينتظر «وما بدّلوا تبديلاً». تقول لك عيون الوجوه وجباهها أخبار صعودها وتترك الباب مشرعاً باتجاه الأمل.

البرزخ:

ما من خيار سوى النصر.

امرأة راقصة، امرأة مجنحة:

خاصرت هند لينا، ثم لبنى كندة، العرنوس، مدحت باشا. القيامة هنا كلّ يوم، وفي التالي يكون الرقص!

الحركة الثالثة/ (ي) صالة الخروج:

ظننت أني من القلة التي تطحنها قسوة المعروضات، ويقهرها الإيغال بالقتل، كوني معجونة بالجرح نفسه الذي سكن عاصم قبلٍ أن يعود إلى منفاه، وممّن شهد وصاحب إصراره العنيد اليومي على قهر دموع الألم انتصاراً الحياة. حرصتُ على سؤال بعض من حضروا الافتتاح من مستعربين وآخرين يتكلمون الفرنسية، فقالوا: حكت الأعمال أسفار العذاب والتشرد والقتل، لكنها أيضاً بشّرت بسفر الخروج.

«ربما كان هناك تناقضٌ صارخ بين عمل قديم يعود إلى ٤٠ سنة (بورتريه لنيكول، قصدير) بهدوئه وعينيه والحياة، وما ترويه الأخرى، بكل لغات العالم، من ضجيج الثورة والصخب العنيف وقسوة الموت». قالت لي زائرة وهي تكفكف دموعها.

الحركة الرابعة/ (هاء):

«جُرْح» عاصم. كما يسمّي سوريا وثورتها، جرحُ السوري-الإنسان، جرحنا جميعاً، ابتكر إعرابه الخاص لمفردات القسوة و«الحنّية»، الحب والكره، الحزن والفرح، الإذلال والتحدي، الظلم والعدل. حب الحياة ورفض الموت. الإصرارُ على عبور البرزخ نحو المستقبل والحرية. كان معرض «التمرّد و الألم» حسب وصف المستعرب: خوسيه ميغيل بويرتا في تقديمه للمعرض. كيف لمعرضٍ واحدٍ أن يجمع كلّ هذه النقائض معاً؟ كيف لمعرضٍ واحدٍ أن يروي ملحمة شعبٍ عظيم؟


ARGO

سينما

فيلمه عن ايران الحائز على اوسكار أثار الكثير من الجدل
بن افليك : في امريكا نتهم باننا يساريون متطرفون وفي الخارج بأننا امريكيون شوفينيون !

التقاه : حسام عاصي

منذ بداياتها، تؤثر هوليوود بشكل تدريجي في السياسة العامة والتاريخ والثقافة. هذه الرقصة النوّاسية مع واشنطن أعطتها مركزا اساسيا في الحياة السياسية وحولت من نجومها السينمائيين لاعبين كبارا في تشكيل واقع الحياة السياسية والاجتماعية الامريكية، وهو ما بدا جليّا مؤخرا في فيلم بن افليك السياسي المثير «آرغو» الذي فاز مؤخراً بجائزة اوسكار لأحسن فيلم.

تدور أحداث فيلم «ارغو» أثناء الثورة الايرانية عام ١٩٧٩، ويحكي الفيلم قصة انقاذ

٦ رهائن امريكيين لجأوا الى منزل السفير الكندي في طهران بعد ان قام متظاهرون ايرانيون غاضبون باقتحام السفارة الامريكية.

مشاهدة «ارغو» تشبه مشاهدة نشرة الأخبار هذه الأيام، فالشرق الأوسط يعصف بالثورات وأمريكا ما تزال مكروهة في هذه المنطقة من العالم.

في الواقع، ففي اليوم الذي تم العرض الأول للفيلم في مهرجان تورونتو السينمائي في ايلول العام الماضي، هاجم المتظاهرون سفارتي امريكا في القاهرة وبنغازي، مما أدى الى مقتل السفير الامريكي في ليبيا.

هذه الحقيقة لم تغب عن ذهن مخرج الفيلم بن افليك، وهو ناشط سياسي متخرج من قسم الدراسات الشرق اوسطية في جامعة هارفارد.

«في كثير من الأحيان لم تتغير الأمور كثيرا» يقول بن افليك، وهو يهزّ برأسه. «مما يجعلك تحس اننا عالقون في دائرة مستمرة من الأخطاء التي نعيد تكرارها، متخذين القرارات الخطأ بالنسبة لهم عائدة بنا الى البداية مجددا. اعتقد ان لدينا حالة من الازدواجية في الشرق الأوسط. من جهة هناك انظمة تعيد تكرار الاشياء نفسها. واضح ان ملالي ايران متشابهون ولديهم حكومة مماثلة. مع ذلك، هناك العديد من البلدان التي تعصف بها الثورات... من مصر الى ليبيا وسورية وصولا الى غزة. هناك تغيرات تحصل، بطرق مختلفة. بعض الأحيان هي مخيفة وغير مستقرة وفي بعض الاحيان مشجعة ومثيرة».

«الشرق الأوسط هو المنطقة الأكثر اهمية في العالم حاليا، باعتبارها مركزا لاهتمام العالم. من ناحية انا حزين حين أرى الأشياء عالقة في الحفر ومن ناحية اخرى أرى أسبابا للأمل».

على عكس الكثير من الامريكيين، الذين يستندون في معرفتهم عن العالم الخارجي من مصادر الأخبار الوطنية، فان افليك يبحث عنها في مصادر مثل الجزيرة وبي بي سي. لذلك يدرك بمدى اللوم الذي يقع على الحكومة الامريكية فيما يتعلق بأزمات الشرق الأوسط.

«المسؤولية تقع على الولايات المتحدة والعالم الغربي والمجتمع الدولي في الكثير من الأشياء التي تجري، وبعض هذه الاشياء جيدة وبعضها سيئة جدا» يقول مشددا. «لكن واحدا من مسؤولياتنا في الولايات المتحدة الاستمرار في الضغط للحفاظ على قيمنا وهذا أمر لم نفعله دائما بطريقة صحيحة».

بن افليك، مخرج الفيلم، وجورج كلوني منتجه، المعروف باهتمامه بشؤون الشرق الأوسط ايضا، يدعمان هذا الاتجاه في افلام هوليوود ويفتتحان «ارغو» من خلال الاشارة الى تواطؤ امريكا في اسقاط حكومة مصدق المنتخبة ديمقراطيا في ايران عام ١٩٥٣ واحلال بالشاه المستبد، الذي حكم بلاده بقبضة من حديد.

«اعتقد انه كان هناك تاريخ من كره العرب وحتى كره المسلمين في بعض افلام هوليوود في الماضي» يقول افليك. «لكنني اعتقد ان هناك حساسية متزايدة في التعامل مع هذا الأمر وهناك تمنع في هوليوود، وهو أمر اعرفه تماما، في التورط في اظهار شخصيات كاريكاتورية

[للعرب والمسلمين] او في انتاج شخصيات نمطية».

من المثير للسخرية مع ذلك، ان «ارغو» لا يفعل الكثير لتغيير ذلك. ففيما تتطور احداث الفيلم، نجدها تستقر على الصيغة الهوليوودية المعتادة، والتي تروج للوطنية والقومية الامريكيتين مع اظهار تحيزات ضد اعداء امريكا، حين نرى ايرانيين اشرارا يطاردون العمال الامريكيين الابرياء، الذين يقوم بطل السي اي اي بانقاذهم.

«عرضك للفيلم بهذا الشكل مثير للاهتمام لأن الناس يقولون ان هوليوود تزيد من الشوفينية والاحاسيس القومية كما انها تعكس صورة تفوق امريكا في الخارج. ومن جهة اخرى، فان الناس في هذا البلد، غالبا ما يرددون ان هوليوود يتحكم بها اليساريون. ويخاطبوننا قائلين: انتم ليبراليون كثيرا ومتطرفون يساريا ولستم وطنيون كفاية. لذلك اعتقد انه لو تم انتقادك من طرفين متناقضين، متهمين اياك بفعل عكس الشيء تماما من وجهتي نظرهما فهذا قد يعني انك تحاول خلق توازن وانت تعلم تماما ان هذا ما حاولنا ان نفعله في ارغو».

للحصول على هذا التوازن، فقد تأكد افليك من وجود شخصية ايرانية ايجابية في الفيلم، سحر، مدبرة منزل السفير الكندي، التي تخاطر بحياتها لحماية الرهائن الامريكيين.

«كان مهما جدا بالنسبة لي ان اظهر سحر، مدبرة المنزل، وهي امرأة اخلاقية جدا وتمثل الشخص العادي في أي بلد» يقول مشددا. «هي في ايران وقد طالتها الاحداث السياسية الجارية هناك ولم تعد قادرة على التحكم بحياتها. ما نراه ان ٩٩ بالمائة من الاشخاص المقيمين في امريكا او المقيمين في العالم العربي او العالم الاسلامي هم عرضة لنزوات اولئك الممسكين بمقاليد السلطة. واعتقد انه بعرضي للحقائق حول الفيلم، والسماح للناس بأن يتوصلوا الى استنتاجاتهم بأنفسهم، آمل ان اقدم قصة غير متحيزة بحيث نتوصل الى احكامنا الخاصة عنها. بعض الناس يرون هذا الفيلم ويظنون أمراً، فيما يظن الآخرون أمراً آخر».

من الواضح ان الطريق الى تغيير في هوليوود شائك بقدر الأوضاع في الشرق الأوسط. مهمة هوليوود الاساسية هي بيع الأفلام لزبائنها المخلصين، وطالما استمر اعتبار المسلمين اعداء امريكا فان هوليوود بالضرورة ستستمر بتصويرهم على انهم كذلك في افلامها، لتضمن نجاحها في صناديق بيع التذاكر وفي الحصول على الجوائز.

في شباط الماضي، حصل «ارغو» على جائزة أوسكار. كما ان فيلما آخر، «زيرو دارك ثيرتي»، الذي يتابع قصة عملاء السي اي اي الذين طاردوا قائد تنظيم القاعدة اسامة بن لادن، رشح أيضا لجائزة اوسكار.

وفي بداية كانون الثاني (يناير) الماضي، حصل مسلسل «هوملاند» (وطن)، والذي يعالج ايضا قضايا الجهاديين الاسلاميين، على جائزة الكرة الذهبية لافضل مسلسل، وافضل ممثل وممثلة. المسلسل الذي تم التخطيط له في اسرائيل، هو واحد من اكثر المسلسلات شعبية في التلفزيون الامريكي.

فـن

فنون الثورة السورية:

قطيعة مع ماضي الاستبداد

سامر أبو هاشم

هل أنتجت الثورة السورية نموذجها الفني الخاص؟ هذا السؤال ليس سؤالاً ترفياً يفيض عن حاجة السوريين الذين ما زالوا يعيشون مآسيهم، التي باتت الملمح الأول لثورتهم، خاصةً وأن أدوات التعبير الأهم التي لازمت حراك الشباب الثائر كانت فنيةً خالصة، إذ لم تسعف السوريين أي حالة منبرية سياسية مناسبة تعبر عنهم، وذلك بسبب من تشتت خطاب المعارضة السياسية المنظمة، كما أن السوريين لم يكونوا متفقين في يوم ما على اعتبار السلاح شكلاً من أشكال التعبير عن الذات، ولهذا فإن التركيز على الفن قدّ تحول وضمن الخصوصية السورية ليكون الميدان الأهم للتعبير عن الذات وعن الثورة وعن سوريا الحلم.

هنا علينا أن نرى كيف أنه بقدر ما كانت الأدوات الفنية المتوفرة بين أيدي السوريين تحاول الاشتغال على تطوير خطابها، كانت تجد نفسها متلاصقةً مع الحدث اليومي، والوقائع التي تفرضها التطورات الحادثة في الواقع مما جعل تطور الأداة الفنية في حالة تواز مع الخطابات التي كان الواقع يفرضها، على شكل معادلةٍ قد تبدو مريبة لدعاة الخصوصيةً الذاتية للفن، ممن رأوا في كل ما أنجز من أعمال فنية (تشكيل، موسيقى، مسرح، سينما.. الخ) مجرد أصداء للواقع، سيتم نسيانها حال إنجاز الثورة لغاياتها. هنا يستعيد هؤلاء الصياغات السابقة للمنجز الفني المرتبط بالثورات، إذ أن لكل ثورة في التاريخ منجزها الفني المعبر عنها،

وبالتأكيد فإن الفيض الفني الذي يرافق المد الثوري، لن يبقى منه سوى تلك الأيقونات الفنية العظيمة، التي بقيت خالدة لدى الجمهور، ليس لارتباطها بالحيثيات الزمكانية التي أنتجتها، بل للحيثيات الفنية ذاتها، أي تلك القيم الفنية التي أضيفت لسيرورة الفن عبر هذه الأيقونات.

وبالعودة إلى السؤال الذي يطرحه فن الثورة السورية، وبالاتفاق مع وجهة النظر السابقة، فإن البحث عن الأنموذج الفني البعيد عن الغرض الخطابي المرتبط بالمباشرة كصيغة فنية، يصبح فعلاً واجباً، وذلك بسبب من كثافة المنجز الفني الذي تنوس مستوياته الإبداعية بين قطبين تفصل بينهما مساحة واسعة، هما، قطب المنجز الفني الذي تنتجه عقلية احترافية تمسك بأدواتها الإبداعية، وقطب آخر، ينتمي للحراك الشعبي العفوي، حاول أن يعبر عن رؤيته، بطريقته، دون أن يكون مهتماً بتأصيل أدواته أو تأطيرها ضمن حيز يشبه الفضاء الاحترافي.

لقد ساهم العديد من الفنانين السوريين في بدايات الحراك السوري، ولا داعي لتعداد أسماء هؤلاء الفنانين لأننا نتذكر أن الملامح الأولى للتجمع السوري بدأها فنانون سوريون حينما وقفوا أمام سفارتي مصر وليبيا في دمشق، ولعل المظاهرات الأولى في دمشق، وكما توضح الوقائع قد حفلت بمساهمة فاعلة من طيف واسع من الفنانين السوريين المتوزعين على السينما والمسرح والتشكيل والموسيقى، غير أن القمع الشرس الذي واجهت به السلطة هذا الحراك جعل الكثيرين من هؤلاء ينكفئون إلى متاريس أدواتهم الفنية، لتبدأ الأعمال الإبداعية بالظهور، فمن أغنية «يا حيف» لسميح شقير والمؤلفات الموسيقية لمالك جندلي، إلى البوسترات واللوحات التي قام بتشكيلها العديد من الفنانين التشكيليين من مثل أعمال عمران فاعور وفاديا عفاش وتمام عزام ووسام الجزائري، إلى الكاريكاتير الذي يرسمه الفنان علي فرزات، إلى الفيديوهات الساخرة التي انتشرت على موقع اليوتيوب والتي قام بتمثيلها بضعة من الفنانين السوريين الذين آثروا إخفاء شخصياتهم عبر الأقنعة تارةً وعبر استخدام تقنيات مسرح العرائس تارة أخرى، كانت ملامح المشهد الفني الثوري تتضح، فالجميع كان يريد التعبير والإفصاح تأييده للثورة عبر أداته الفنية، ونظراً لاستنكاف الكثير من الفنانين المحترفين المكرسين عن أداء دورهم، فإن مسار تحولات التجربة الفنية الاحترافية الثورية، كان يخوض في معترك الواقع الخاص للفنانين الذي بات الكثيرون منهم عرضةً للاعتقال أو الاستدعاء، أو اختيار المنفى بما يسمح به من أمان يساعد على العمل بحرية. نتحدث هنا عن شهورٍ طوال، عانى فيها الفنانون، دون أن تتوفر لديهم المنابر المناسبة لطرح منتجهم، سوى صفحاتٍ المدونات الإلكترونية الشخصية، أو صفحات مواقع التواصل الاجتماعية كالفيس بوك وتويتر، وبالمقابل لهؤلاء فقد كانت عجلات إعلام المعارضة التقليدية والإسلامية منها على وجه الخصوص تقوم بإنتاج أعمالها الفنية المحرضة والمواكبة للحراك الثوري في الداخل، غير أن أغلب ما تم إنتاجه لم يخرج عن الأسلوب الدعوي المباشر الذي دأبت عليه هذه

المعارضة منذ سنواتٍ طوال.

إن التدقيق في طبيعة المنتج الفني هنا يؤشر بالحقيقة إلى ارتباط هذا المنتج بالواقع بشكل مباشر، فالأغنية تروي حكاية الثورة مرة، وترثي الشهداء مرة ثانية، كما أن اللوحة تمارس الفعل ذاته، بينما بقيت المشاهد التمثيلية دراميةً ومسرحيةً تمارس السخرية من النظام، لتعريه وتفضح بنيته القمعية، وغلب على المنتج السينمائي في هذه المرحلة النوع التسجيلي أو الوثائقي، الذي يحاول تثبيت الواقع السوري الصعب على الأشرطة الممغنطة لتعرض في الفضائيات العربية والعالمية.

إن أغلب ما أنتجه القطب المحترف في هذه المرحلة، كان مصبوغاً بالملامح السابقة، وبالتأكيد فإن ارتهان هذا القطب لطبيعة أدواته التي تتطلب البحث عن ممولين لهذا الإنتاج، لم يجعل منه حالةً راسخة، لا بل إنه بدا في الكثير من الأحيان مقصراً عن مماشاة التفاصيل التي يفرزها الواقع، ولهذا فإن واقع الشعب المنتفض، وبما أحدثه من تحريك في ذوات الشباب السوري الذي أراد أن يمسك بالواقع، وبأي شكل من أشكال التعبير عن الذات، كان سباقاً في البحث عن صياغات فنية بسيطةٍ لا تتطلب تمويلاً خاصاً قدر تطلبها لرغبة صادقة من قبل القائمين عليها، ومن هذه الزاوية الخاصة، حدث انفجار الفن الشعبي الثوري، فكل بؤرةٍ ثورية في سوريا (التنسيقيات)، وجدت نفسها وعبر منابرها، بحاجة لإنتاج أعمالها الفنية الخاصة، وبينما كانت بعض التجارب تكلل بالنجاح، كان ثمة تجارب أخرى تموت في أرضها بسبب من الضعف التقني في المنبر، أو بسبب الظروف التي تتعرض لها البؤرة من قمع وتدمير من قبل السلطة، ورغم هذا الواقع، فإن تجارب مهمة تم إنتاجها ووصلت للجماهير الواسعة لترسخ في وجدانها، كما ترسخت أعمال المحترفين، فمن أغاني القاشوش الحموي إلى أناشيد الساروت الحمصي كمثال ترافق مع تطوير آليات حركية في تكنيك المظاهرات الجماهيرية، التي تحولت من مجرد تجمع بشري إلى حالة احتفالية راقصة.

كان الفن الشعبي الثوري يخطو عميقاً ليشكل قطبه الخاص، القطب الأكثر جماهيريةً والأكثر عفويةً، والذي طبع الثورة السورية بطابعه، حتى غدت تمظهراته التي انتشرت محلياً وعربياً وعالمياً، ملمحاً خاصاً بالثورة السورية، ولعله من جماليات هذا الاكتساح الكبير للفن الثوري الشعبي، أنه لم يبق مجرد فن شعبي بل تم تحويله ومن قبل الفنانين المحترفين أنفسهم إلى أيقونة سمعيةٍ بصريةٍ تستحق أن يعاد إنتاجها عبر الأدوات الاحترافية، فأغنية «جنة.. جنة» لعبد الباسط الساروت والتي انتشرت في البداية على اليوتيوب كتسجيل عبر الهاتف الجوال، تحولت وعلى يدي بضعة من الفنانين المحترفين إلى أغنية ملحنة ومغناة عبر التسجيل في الاستديوهات الاحترافية، كما أن أناشيد القاشوش الحموي، تحولت إلى نشيد سيمفوني قام بتأليفه الموسيقار السوري مالك جندلي. وهنا نستطيع وبكل ثقةٍ أن نحدد أن الملمح الأهم للثورة السورية، إنما يكمن في تقدم الفن الشعبي أي الفن الذي أنتج عبر أدوات بسيطة غير احترافية، وبالتساوق مع تفاصيل ويوميات الانتفاضة الجماهيرية، ليكون في

صدارة المشهد، وكذلك تحوله إلى مادة خام يقوم المحترفون من الفنانين بالتعاطي مع رسوخها الجماهيري لتكون منطلقاً لتسويق الفن المحترف.

إن التفكير بالنموذج الفني هنا، قد يجعلنا نغفل النظر عن التقييم النقدي الذي نستخدمه لتبيان القيمة الفنية، فالواقع السوري وبصيرورته، لم يمنح الفنانين الفسحة الكافية للتأمل الواسع والكافي، لإنتاج النموذج الأولي، ثم القيام بحرقه في سبيل إنتاج الأفضل، كما يحدث في آليات الإنتاج الإبداعي التقليدي، فهنا يتم صناعة النموذج دون التوقف عند هناته، ليتم طرحه في الفضاء الثوري، كي يخوض حالته الاختبارية الخاصة، وإن لم يلق القبول المطلوب يتم صناعة منتج فني آخر، دون العودة إلى ما سبق. ولهذا فإن الكم الذي تم إنتاجه من أعمال فنية موزعة على أنوّاعها بات أكبر من أن يتم إحصاؤه بشكل سهل، فبعد مرور عامين وشهرين على قيام الثورة، باتت المكتبة الفنية الثورية كبيرة وممتدة، ولكنها ورغم تفاوت مستوياتها الفنية، ظلت راسخةً لدى الجمهور الذي يستعيدها دون ملل منها، وذلك لارتباطها في عقله الباطن بلحظاتٍ قاسيةٍ عاشها الجمهور، ودفع فيها أثمان عالية.

غير أن النتيجة الأهم التي صنعها الفن الثوري السوري وبقطبيه الاحترافي والشعبي، جاءت من زاوية بعيدةٍ عن التأمل في طبيعته، لقد قام هذا الفن بتحطيم الأيقونات الراسخة في الفن السوري التقليدي بكل أنواعه، وفرض الفنانون الثوار على أي قارئ أو متابع تزميناً جديداً لقراءة العمل الفني، وبذلك بات الفن السوري نوعين، الفن قبل الثورة، والفن بعد الثورة، ولعل هذا التقسيم بحد ذاته إنما يضعنا، كجمهور متابع، أمام تحول هائل في آليات التفكير، لا بد سيؤدي في وقت ما إلى إنجاز القطيعة مع الماضي بما فيه من نماذج فنية استمدت تكريسها من الواقع الراسخ الذي فرضته السلطة طيلة أكثر من أربعين عاماً.

اوراق السرد

قصة

حرب أهلية

أحمد عمر

لا يكفُّ أبي عن جلد « حاميم »، الذي لا يتجاوز الخامسة، بسياط النصائح، منذ أن حلّ بنا ضيفاً بعد أن تهدمت دارُه بقصف غير عشوائي. كما لا يني كلما نادى حفيده باسمه أن يعاتبني على تسميته بهذا الاسم الغريب! حاميم؟ هل هذا اسم؟

أكرر للمرة ألف وواحد، المرافعة الدفاعية عن الاسم، وطريقة اختياره، ومعناه، وملكيته، فأمه هي التي أطلقت عليه الاسم بعد اجتهادات ومفاوضات ومساومات طويلة وساخنة.

والاسم كما يحب أبي، وعرف لاحقاً، مقتبس من القرآن الكريم. يعني مثل اسم ابنه « ياسين »، أخي الأكبر. إذا لبسنا الأسماء الشائعة، يا مولاي، التي أسميها « أسماء البالة » ستكتظ العائلة الموقرة بالأسماء المتشابهة، التي تتسبب بحوادث اصطدام والتباس عند الطلب والنداء. كم « أحمد » في العائلة؟ كم « عبد الرحمن » في العائلة؟ أنت لا تفهم « ما حُمِّد وعُبِّد » إلا بالمعنى المباشر؟

يا مولاي. تجيب العصبة « أولو القوة » من أبناء العائلة وأحفادها على النداء الواحد وتحدث اختناقات مرورية في البيت.. لكن أبي لا يفوّت شيئاً، وهو أبداً متيقظ، لكنه لا يسمح بكلمة « خارج « النص » ويغضب مني على وصف « أسماء من البالة ».

عيب.. كيف تقول بالة؟.. الأسماء لا تبلى.. هل يبلى اسم « عبد الرحمن »؟ استغفر الله. اسكت وامضِ قبل أن أنتف ما بقي من شعري أو أن أعضّ عيني من الغضب!.. وأدعو

الله أن يصبّر زوجتي. رحمك الله يا أيوب، فالنساء أقل صبراً من الرجال. الصبر ذَكَر والبيت حوت.

يقطّب أبي لقوة «المرافعة» ويقول مهادناً: لكنه اسم غير مألوف. فأقول كاظماً غيظي بالصبر، الذي هو كل العقل أو معظمه، إنّ الغريب يمكن استئناسه كما تستأنس الحيوانات البرية المتوحشة.. ليست مشكلة اسم ابني الغريب وحدها هي التي تثير أبي، فأبي شعلة من نار، لا تخمد. وهو أبداً، «كرأس الحية المتوقد» كما يقول طرفة بن العبد عن نفسه (قال الوصف وهو في العشرين). بين أبي و بين كل ما يحيط به عداء دائم، حرب داحس وغبراء أو بسوس أبدية! عندما يحضر يستنفر كل من في البيت. خفافاً وثقالاً.

تهرب الفأرة التي تسللت الى شقتنا في الطابق الرابع، وتختبئ في مكان ما من المطبخ، تفرّ زوجتي من المطبخ مستغيثة، فيغضب أبي ويزجرها ـ محاولاً تخفيف لهجته التي يصعب كتمها ـ عيب.. النساء لا يولولن (هل الرجال هم الذين يولولون؟). صوتك وصل إلى الجيران، سيظنون بنا ظن السوء. النساء عندنا مكرّمات، وكريمات. لم يسبق لامرأة في العائلة أن تعرضت إلى ما يسوؤها، أبداً.. الشهادة لله: النساء كلمتهن لا تصير عندنا اثنتين، وربما هذا ما يصبّر زوجتي على «كلكل هذا الليل الطويل» الذي لن ينجلي كما يقول امرؤ القيس الذي فقد ملكه نتيجة حماقة أبيه. فزوجتي بوغتت بهيمنة النساء وسيادتهن في عائلتنا بالمقارنة مع عائلتها. أمي، على سبيل المثال، هي صاحبة الجلالة، وأبي لا يرفض لبناته طلباً أبدا. ودليل سيادة الإناث أنّ حفيدته الصغيرة، أخت حاميم الآنسة «هيا» ـ اسمها ثمرة زواج حرفين أبجديين ـ تحبّ جدها على عكس حاميم. وهو يصحبها أحياناً إلى الحديقة أو المسجد... يصك أبي أسنانه التي لا تزال قوية، صلدة. وينظر إليّ نظرة يطير منها الشرر والنقع؛ تعجز عن قتل فأرة؟ كيف تسمح لفأرة بالهروب منك؟ معرضاً: ألم تستفد من خطط الشياطين (يقصد توم وجيري).

قلت له: أنت معي في المطبخ ومسلح بعكازة وليس مثلي أعزل.. فكيف سمحت لها بالهرب ؟

يضيق من ردي العاقل والمفحم، ويتجنب أن يعتذر بالشيب أو الكبر أو ضعف البصر... انحني تحت البراد.. أقول معتذرا معلناً عجزي عن صيدها : سأحضر لها فخاً، أو عجينة لاصقة؟

لكنه لا يقبل بالهزيمة أمام فأرة، ينحني تحت البراد متمددا على الأرض، ويبحث عنها ببصره الذي لا يزال قوياً، فيعثر على شبحها في الزاوية، لقد اختبأت وراء محرك البراد. يضرب على البراد مطبلاً، فتقفز الفأرة مذعورة، وتجري، يضربها بعكازه، فيخطئها ويكسر سطراً من الكؤوس الزجاجية، فيزداد غضبه، غضب العجوز الذي بلغ السبعين والذي يضايقه أي شيء وكل شيء ـ لا أبا لك يسأم ـ ويتصرف كأنه في شرخ الشباب. أهمّ بتركه معها وجهاً لوجه، حتى يذوق طعم الهزيمة لكنني أشفق عليه، أو أهاب منه، فهو أبي و.. مولاي.

لا يكف عن العراك مع حاميم، على الطعام. ينهاه عن اللعب «بالسكوتر» ذي العجلتين الصغيرتين؛ عيب، صرت رجلاً، ليس وقت اللعب.. أما أن تأكل مثل الناس والعالم أو أن تكف عن اللعب بالملعقة. يجر برجله المعطوبة المصابة «بورم في المفصل الحرقفي الفخذي» ليطفيء التلفزيون: ألف مرة نهيتك عن الفرجة على توم وجيري. ألف مرة نهيتك عن الضحك من دون سبب..

يضحك حاميم، يحكم بعقاب الولد: تضحك من جدك..افتح يدك. أمه تبلع ريقها وتغصّ بالطعام؛ يفتح الولد يده ضاحكاً، يضربه ضرباً خفيفاً على راحة اليد، سأرفعك في المرة القادمة فلقة. يضحك حاميم مهأهئاً غير مبال، إلى الدرجة التي أحسده فيها على بسالته.

لا تحتمل أمه ظلم «الاحتلال» والمراقبة الظالمة. تقول لي: أبوك له عشرة رادارات وألف عين وعين.

تفرّ إلى المطبخ كاظمة غيظها أو حابسة دموعها،.. الغيظ أيضا ذكر مثل الصبر، والصبر مرّ، علقم، حنظل.. تنتبه صاحبة الجلالة، أغمزها بعيني مستجيراً، فتوعز إلى زوجها بالسكوت إشارة، يسكت لحظة لكن هيهات أن يكنّ صاحب المزاج الناري أو يسكن. الحرب في دمه وعظمه ولحمه.. الأغلب أن أبي نشأ رجلاً كاملاً من غير المرور بمرحلة الطفولة وإلا لسمح لحفيده باللعب. يقرر أن يحرد، فيأخذ بيد حفيدته ويتجهان إلى الشرفة طالباً الشاي. لكن الشاي لن يعجبه أبداً فهو إما بارد أو ساخن أو خفيف أو ثقيل! إنهم يغشون في كل شيء! ثمت مؤامرة كونية عليه

يتضايق من لوحة الحرب الأهلية، وهو يقف أمامها. ينصحني متذكراً اسم الرسام الاسباني بيكاسو: ضع لوحة لوردة، لمزهرية، منظراً طبيعيا تسرّ الخاطر. ما هذه الشخابيط التي لا يفهم أحد منها شيئاً؟ حتى الأصدقاء باتوا حذرين من الحديث معه. أحد أصحابي سأله مرة محاولاً موادته: بصراحة يا حاج، قل: ما رأيك بالمتة؟

لم يقرب الوالد المتة في حياته، بل ويحتقر المشروب كأنه خمرة منكرة، ربما لأنه يحتاج إلى مصاصة ولادية للشرب، أو لأنه مستورد (الشاي مستورد أيضا لكن تم استئناسه وتعريبه). ينظر مولاي إلى صديقي شزراً ويقول حابساً غضبه: «بصراحة»؟

وهل جربت علي كذبا من قبل؟

ينكمش صديقي الذي حاول منادمة أبي مصعوقاً. يصيح أبي وهو ينظر شزراً إلى المذيعة التي بان أعلى نحرها الفتاك؟ اقلب القناة الضالة (وليس الفتاة فهو يتجنب قذف المحصنات)، لكن ليس على قناة توم وجيري.

أدافع: أريد اعرف رأي الحزب (الحزب مالك القناة الفضائية) بالأحداث. يلعن أبو الحزب الخليع.

نحمد ـ أنا وزوجتي ـ الله، لأنه يقضي معظم وقته في المسجد ويعود في وقت الغذاء، وبعد

العشاء ليعلن النفير العام. إخوتي الأربعة، يزوروننا لماماً، ويقدمون للوالد عروضاً حذرة بالاستضافة، لكن أبي يفضل بيتي القريب من الجامع.

تنفرج أسارير إخوتي الأربعة فزوجاتهم سيبقين في دورهن، آمنات، راضيات، غير مهددات بالطلاق أو برفع دعاوى خلع على أزواجهن. جدير بالذكر أنّ الأرحام شبه مقطوعة بينه وأعمامي الستة وعماتي الخمس، «فالجنرال» لا يطاق معشراً.

إخوتي يتبرعون لي في كل زيارة بمبلغ من المال على سبيل التضامن والإعانة، لكني في الحقيقة «رشاوى» أو «مكافآت» على صبري على أبيهم الشريد.

لا أعرف إن كنا نحب أبي، فنحن الإخوة الخمسة نقوم، تقوىً وورعاً، بتلبية وصية «بالوالدين إحساناً.

يصيح أبي بحاميم الذي قفز على متن السكوتر وأطلق له العنان. أرسل إشارة استغاثة إلى صاحبة الجلالة التي تلتقطها فتزجر زوجها، وتهدده، بعينيها، فيحرد إلى الشرفة، ويتوعد غيمة ما، شجرة ما، بالحرب الشاملة القريبة. يعود فجأة، فيصطدم حاميم بجده فيوقعه، لحسن الحظ على الأريكة القريبة. يتألم الجد، ويكشف عن ساقه الدامية، و يتمدد تحت لوحة الحرب الاهلية، فتقع عيناه على الثور. يهمّ بالهجوم على الثور لكنه ينكص، فجراحه تؤلمه. تحضر زوجتي الغول المطهر والقطن الأبيض، يتأوه ؛وهو ينظر إلى شخابيط بيكاسو: حسبنا الله ونعم الوكيل.. يتذكر متأوها وهو يبدّل النظر بيني وبين الثور الغاضب: لم تقتل الفأرة بعد؟ أين فرّ الشقي؟

قصة

سلاميتان من ورق

إبراهيم صموئيل

حين غادروا منزلها، وخلت لنفسها، انفرد بها السؤال المرّ الذي حار الشباب في معالجته مثلما حارت هي أيضاً: «وماذا لو لقطوني؟!».

قبل قليل كانوا هنا، معها، يفيضون بالشرح، وتفيض بالإصغاء. حكوا لها عن ضرورات إيصال الرسالة. عن الأوضاع القلقة، وعن حيرتهم في اعتماد طريقة، ثمّ عجزهم عن إيجاد بديل عنها: «ليس لنا غيرك. أنت صلتنا الوحيدة، المباشرة، به» وعرضوا مخاطر عدم وصول الرسالة، المخاطر المترتّبة عليهم، وعلى زوجها، في ظلّ الحملات الجديدة، عن تقديرهم لوعيها وحرصها. وحكت لهم بإسهاب عن تفاصيل زياراتها، والسجن، والحراس، والوقت... «باليد، قالوا لها، لا تغامري بطريقة أخرى» واستفهمت منهم عمّا عساها تفعل إن فشلت «حاولي أقصى جهدك» وعمّا إذا كانوا يريدون ردّاً منه، وطريقة الاتصال بهم، وإذا كان من الأفضل استشارة زوجها قبلاً: «لا وقت أبداً. أوصلي الرسالة إليه مباشرة، ودون جواب منه».

بحثوا، وبحثتْ، كل التفاصيل والترتيبات. نقطة واحدة حاولوا، بداية، الاتفاق عليها، ثم فضّل الشباب أن يتركوا لها اختيارها لكونها الأعلم بدقائق الزيارة، حيثياتها، ومستجداتها: كيف ستسلّمه الرسالة؟

ـ «هذه اتركوها لي، قالت ساهمة، لا بدّ أن أجد طريقة».

عند الباب، وفيما يصافحونها بحرارة ويشدّون على يديها مودّعين، كان لا مناص للسؤال المرّ، السؤال المعلّق طوال اللقاء، والذي جهدوا في تأجيله رغم هجسهم به، وجاهدت في كتمه رغم ما يمضّها منه.. من أن ينبجس كزلّة لسان: «وماذا لو لقطوني!؟».

- «إياك...»

اندفع أحدهم محذّراً، ثم دارى اندفاعه:

- «أعني.. حاذري. فإذا حدث...»

والتفت إلى صديقيه فاركاً أصابعه، متنحنحاً، كمن يبحث عن منفذ أو معين.

لحظتها، لا تدري كيف، قالت بنبرةٍ استغربت فيما بعد صدورها عنها، كأنما إحساسها بحرصهم الشديد عليها دفعها لإبداء جرأة على نحو ما: «وهذه، أيضاً، اتركوها لي»، ثمّ التفتت، بعد أن غادروا، لتواجه، وحدها، غول السؤال، دون أن تجد له جواباً قطّ، أو مؤنساً لها على مواجهته، لكأنما بعض الأسئلة خُلِقَتْ لتبقى هكذا أبداً، تقضُّ الروح دون ملاذ.

• • •

كانت الرسالة بحجم سلاميتين من إصبع!

على ورق رقيق، من نوع ورق الرسائل، كُتِبَتْ بعضُ الجمل على الوجهين بحبر أسود وأحرف صغيرة واضحة. انتحت ركناً في غرفتها، وشرعت تقلّب الورقة مرات ومرات، شادّة معظم خيوط تفكيرها إلى نقطة بعينها: كيف يمكن تسليمه الرسالة باليد؟

استعرضت زياراتها كلها، عبر السنوات الماضية، وتفحّصت أدقّ التفاصيل فيها... لم تجد طريقة آمنة. كلّ أغراض الزوّار من أطعمة وملبوسات تُنبش وتُفتش في غرفة خاصة قبل تسليمها للسجين. حتى بعض أقراص الكبة ـلاحظت ذلك مرةـ تُفلق ويُنظر في جوفها. بعض الملبوسات، الداخلية أو الخارجية، تفتق أطرافها إثر وشاية أو ارتياب خاطر. تُفتح الأوعية المغلقة وتفرّغ في أطباق.... سجل حافل مدهش من المناورات المبتكرة والتقصي الدقيق ترويه جدران تلك الغرفة «وفوق هذا، قالت لنفسها، ما أدراني إن كانت ستصله الأغراض أم لا؟! فما من مرة إلاّ وبلعوا نصفها!!».

فكّرت أن تخفي الرسالة في يدها، ثمّ استخفّت بفكرتها. إذ كيف تهربها له عبر شبكين كشباك خم الدجاجـ يفصلهما شرطي رقيب؟! وحتى حفظ كلماتها لا يجدي. فإذا كانت تحار طوال الزيارة كيف تبوح بكلمة واحدة في قلبها خجلاً من الرقيب المبحلق، فكيف لها أن تسرد رسالة بهذه الخطورة؟!.

أتراها عجزت حقاً، خلال الأيام التي سبقت زيارتها، في العثور على طريقة... أم هو الخوف راح يرشح إلى قلبها حتى انكشفت أمامها، دفعة واحدة، كل المخاطر، وجعلتها تقلع عن المهمة، بل وتمضي في تأنيب ذاتها: «مجنونة يا سوسن حتى ترمي بنفسك وبزوجك في

هاوية لا يعلم قرارها إلاّ الشيطان! ما الذي حدث لعقلك كي توافقي؟! أتظنين الزيارة نزهة! ألف عين بصّاصة حولك. ثمّ فكّري بنفسك قليلاً. ذابت عافيتك وأنت تنتظرينه. بلى. ولِمَ الكذب؟! أَوَلَمْ تعدّي الأيام عدّاً؟ كم مرة، في الليل، نهضت من فراش وحدتك، فتحتِ النافذة، وندهتِ: يا عدنان، ثم عدت مكسورة من خيبتك؟! كم مرة، حين دلف السقف ولوى درابزون الحَديد وتخلّعت مفاصل الباب وثُقبت المغسلة وثقلت عليك أسطوانة الغاز.. كنت تلعنين الساعة وعمرك والدنيا، وتتمنين: آه لو كان عدنان معي! أَبَعْدَ هذا تدفعين به وبنفسك إلى غياب لا أحد في الدنيا يعرف نهايته؟!».

ويأفل النهار ليسطو الليل عليها..

ما مرت ليلة، من الليالي السابقة على زيارتها تلك، إلاّ ونهزت من فراشها إثر كبسة منامات موحشة تدوسها كقطيع ثيران هائجة. تصحو لدقائق، ثمّ تعاود نومها ليعاودها قطيع الهواجس. في الليلة الأخيرة، استوت عازمة: «يا جماعة اعذروني. أُقدّر أوضاعكم.. وأقدّر ظروفكم.. ولكن اعذروني. فليس في استطاعتي أبداً».

كادت في الصباح أن تمضي إلى زيارته مطمئنة في ظلّ تساؤل بسيط: «وما ذنبي أنا إذا لم يكن من مجال لتسليمه الرسالة باليد؟!» لولا أن تعثّرت في الساعة الأخيرة بتساؤل معاكس، وبسيط هو الآخر: «وما أدراكِ؟! ربما كان عدنان بأمسِّ الحاجة إلى الرسالة!». وبين تساؤليها طفقت، ببطء وروّية، توضّب أغراضه وتحزمها علَّها تفيء إلى قرار وترتاح. بعد أن انتهت، أخذت القرنفلة البيضاء، ضمّتها إلى شفتيها وهمست لها ـ كعادتها قبل كل زيارة ـ مندّية وريقاتها بقبلات اشتياق لا تفتر. لحظتها، خطفتْ خاطرَها فكرةٌ مدهشة. صاحت: «وجدتها يا شيطانة» وطفقتْ تلوب وتتقافز في البيت: «والله وجدتها!».

كان أول ما فكّرت به، إحداث تغيير فيما اعتاد عليه لتثير اهتمامه وتشدّ انتباهه، ولذا اختارت قرنفلة حمراء عوضاً عن تلك البيضاء التي درجت على حملها له في كل زيارة «أتراه سيلحظ هذا التغيير؟» تساءلت في سرّها وهي تجلب الرسالة من درج الخزانة وتسلّ دبّوساً من ياقة ثوبها. قلّبت الورقة، فلمحت في نهايتها مساحة نصف سطر فارغة. وَمَضَ خاطر لهوف: «لِمَ لا أكتب له؟» دون طويل تفكّر كتبت بلون حبر مختلف: «شو اشتقتلك». لاحظت أن بالإمكان إضافة كلمة أخرى، فأضافت: «يا ملعون» ثم لفَّت الرسالة بدقّة حول الدبوس. باعدت أولاً بين وريقات القرنفلة، وطفقت، داخل الكأس على امتداد الساق، تغرز الدبّوس شيئاً بعد شيء حتى اختفى. أعادت لملمة الوريقات. حرّكت الزهرة ورجَّتها.. رفعتها وخفضتها بشيء من الشدّة.. أدارتها وقلّبتها.. لم يفتضح السرّ!

• • •

لو حمَّلوها جبلاً لكان أخفّ عليها من مهمتها تلك! غير أنها مضت، تداخلها مشاعر

بكر لم تذقها من قبل. ورغم أن الشيطان الأزرق ـ كما سرّت لنفسها ـ لن يكتشف خطتها.. فإن تفكيرها لم يكف، طوال الطريق، عن تحذيرها: «لا ترتبكي. كوني طبيعية. طبيعية جداً. لا تلحي على الشرطي زيادة. ابقي الزهرة، كعادتك، إلى آخر الزيارة. إن أتيح لك قدّميها.. وإن لم يتح فليكن. أقلّ اضطراب سيرتابون. تعرفين أن الزائر والسجين مشبوهان خلقة..»

كان المساعد الأول، المشرف العام على السجن، يوزِّع رجال مناوبته، حين وصلت. قال وهو ينظر إليها بعينين نصف مغمضتين استياء: «كم مرة قلنا لك، يا ست سوسن، لا تبكّري؟!» والتفتَ قبل أن تردّ متوجهاً إلى شرطي قربه: «هات لنا السيد عدنان أفندي!» وتابع شغله.

سلّمت الأغراض لغرفة التفتيش، مبقية الزهرة في يدها، ثم انتحت جانباً.

في كل زياراتها السابقة كانت تنهض على رؤوس أصابع قدميها مرسلة بصرها إلى أقصى نقطة داخل السجن تمكّنها من رؤيته لتسرق لحظات إضافية إلى الوقت المخصص. في هذه المرة لَبَدَتْ عند زاوية الشبك لائبة بنظرها في الأنحاء حولها مثل أمّ تبحث عن ابنها الضائع. المشهد ذاته: المساعد الأول يجول في الطرف الآخر من الشبك، رجاله يهرعون لأخذ أماكن توزّعهم، فيما يدلف أحدهم إلى الفسحة بين الشبكين متّخذاً هيئة الحريص.

ـ سلامات..

بوغتت بزوجها كما لو لم تكن تنتظره!

ـ سلامات. كيفك؟ طمّني؟

وارتبك الكلام.

في دقائق كان عليها أن تحادث زوجها، وتُسكتَ قلقها الفوّار، وتتفرس في الوجوه المحيطة، وتقتنص غفلات الشرطي الحاجز.. بحيث راحت تقدّم جملة وتؤخّر أخرى، تجيب عمّا لم يسلها وتكرر ما استفهمت عنه.. حتى استكان لها الأمر. برهتها، شرعت تتفنَّن في الإلماح له: غمزت بجفنها تارة. لعَّبت حدقتيها مع ابتسامة دالّة تارة أخرى. مرّرت أصابعها على الوريقات ذاكرة أسماء وكلمات أغنيات تحمل معنى إلماحها. صمتت بغتة لتلفته. مسحت على الكأس والساق الأخضر... بذلت ما في وسعها كلّه ليعلم أن في قرنفلتها، هذه المرة، رسالة له.

وما كانت لتستسلم للاطمئنان إلى كونه فهم ما ألمحت إليه لولا أن لاحظتْ رفَّات جفنيه، وهزّاتٍ من رأسه، وابتساماته، وغمزاته أحياناً، بل وتعليقه المندهش «حمراء هذه المرّة على غير العادة!».

ولكن من عساه، في حمّى الانزلاق السريع المتتالي لدقائق الزيارة.. وغمرة التوق المحجَّز.. وسط مستنقع من الريبة والحذر.. واستدعاءٍ لهوف لذاكرة فارّة... من عساه يوقن اليقين كله أأدرك زوجها تمام مقصدها أم هو لم يدرك!؟ من عساه يفهم، في لحظات محروقة

كتلك، السرّ المغلَّف بالقرنفل!؟ إذ ما كاد يودّع أحدهما الآخر، ويستديران ماضيين باتجاهين متعاكسين، وتلتفتْ، كعادتها، لتقطف آخر قطفة من مرآه.. حتى عوى الجنون في كيانها كلّه! كادت تهجم صارخة أَنْ لا، متجاوزة المسافة الفاصلة بينهما ورجال الشرطة والحاجز المشبّك، غير أن المباغتة شلَّت روحها وجسدها حين رأت المشرف العام وهو يشكل زهرة سرّها الحمراء على صدره.

قصة

الأديب السوري تاج الدين الموسى هو أحد الأعضاء المؤسسين لرابطة الكتاب السوريين.. خطفه منا الموت بتاريخ ٢٣ / ٢ / ٢٠١٢.
وفاءً منا لذكراه، ننشر هنا إحدى قصصه..

شرفــة

تاج الدين الموسى

في دقيقة، أو أقل، الزمن الذين مرّ وأنا أقطع المسافة ماشياً على عجل؛ من موقف الباص، إلى باب شقتها، الذي وجدته موارباً مقدار إصبعين، كان عليّ أن أستعيد أحداث قصة بدأت تدور بعد أسبوع من سكناي هذا الحي، حين هربت من ضجيج دار أهلي، وزحامها، بعد أن اكتظت بالأخوة، والأخوات، وزوجات الأخوة، وأولادهم..

أخرج من قبوي في تمام الساعة السابعة وعشر دقائق، وأتوجه إلى موقف الباص، الذي أصله بعد ثلاث دقائق.. أنتظر الباص خمس دقائق تنقص دقيقتين، أو تزيد، أمضيها بالمشي البطيء قرب الموقف.. أروح، وأرجع، وحين يصل الباص أصعد، وأحشر نفسي بين الركاب، لأصل مدرستي بعد عشر دقائق..

هكذا مرّت أيامي السبعة الأولى، إلى أن ظهرت لي صباح اليوم الثامن، فكسرتْ روتين أيامي، وأضافت لها مذاقاً جديداً ما عرفته من قبل.. كنت ألوذ بفيء المظلة المعدنية المرفوعة على أربعة قوائم، هارباً من شمس أيار، أنتظر مجيء الباص، وأتسلى بالنظر إلى شُرَفات العمارات المقابلة، ونوافذها، فتعلق نظري بنافذة غرفة، من شقة، تقع في الطابق الثاني من

عمارةٍ لا تبعد عني أكثر من أربعة عشر متراً؛ عرض الشارع والرصيف، لأرى، أول ما أرى، خيالاً لها يتحرك، وراء ستارة شفافة، ثم ثبت الخيال وراء الستارة، التي ما لبثت أن انزاحت عن وجه سطوعه جعلني أعضّ على شفتي السفلى، فأدميها.. وفي زمن أقل من المسافة الفاصلة ما بين الشهيق والزفير، أعادت الستارة إلى ما كانت عليه، واختفت..

ما ترك لي مجيء الباص فرصة لأراقب نافذتها مدّة أطول، على أمل أن تظهر لي مرة ثانية، تلك المرأة التي مرّت مرور نسمة صيف جنوبية، في مساء يوم قائظ، وذهبت..

نسيت، بعدئذ، ولأربع وعشرين ساعة، امرأة النافذة.. لكنني، وفي صبيحة اليوم التالي، وفور وصولي الموقف، تعلق نظري بنافذتها.. وفي تمام الساعة السابعة والربع، ظهر خيالها وراء الستارة، التي ما لبثت أن انفرجت، بعد ثوان، عنها.. لم أنتبه لوصول الباص، ووقوفه، وانطلاقه.. فقد ضعت باستدارة وجهها، واحمرار خديها، وحلاوة غمازتيها، وسواد عينيها، وانسياب شعرها الطري اللامع على كتفيها.. ابتسمت لي، قبل أن تترك الستارة تعود إلى وضعها السابق، لتحجبها عني، فانتشرت رائحة زيزفون، وحبق، وريحان..

انشغلت، فيما بعد، بامرأة النافذة، خصوصاً بعد أن صارت تظهر لي في كل يوم، وفي التوقيت نفسه؛ على السابعة والربع صباحاً، يلوح خيالها أولاً، ثم تنزاح الستارة عنها، لتشرق من النافذة.. تبتسم لي، كأنها تصبح علي بالخير، فأرد التحية بأحسن منها.. وبعد دقيقة، أو أقل، تعيد الستارة إلى مكانها، وتختفي مثل جنية، أو ساحرة..

صرت أحسب أيامي من خلال تلك اللحظات التي أراها فيها.. إذا مر يوم ما رأيتها فيه، تعكر مزاجي، ومرّ ذلك اليوم ثقيلا على صدري.. حتى في أيام العطل، والأعياد، واظبت على الذهاب إلى موقف الباص، لأتصبح بوجهها، وأضبط ساعتي على إطلالتها..

لا أعرف، بالضبط، ما الذي ربطني بامرأة ما عرفت لها أصلا، أو فصلا.. وما ذقت لها طعماً، أو سمعت لها صوتاً.. أهو عبيرها الذي يسبقها قبل ظهورها اليومي في النافذة؟ أم عيناها؛ عينا الغزالة الشرود في براري الله الواسعة؟ أم شقائق النعمان المتفتحة على خديها؟ أم كرز الأربعين المختمر على شفتيها؟ أم صفاء بشرتها التي ما رأيت منها سوى الوجه و الجيد والمعصمين؟ أم شلال الشعر المتلألئ المنهمر إلى ركبتيها؟ أم القمتان المتهيئتان للانفجار على صدرها؟ أم بسمتها المطعمة بتغريد عصافير، وشدو بلابل؟ أم أن هناك قوى خفية فيها جاذبة ما أدركتها، جعلتني أنسى الدنيا، وأسبح في مدارها؟

صرت أخرج من قبوي في وقت مبكر، آملاً أن تظهر لي قبل السابعة والربع، وتطيل من زمن وقفتها في النافذة، لكنها لم تفعل..

أترك الموقف، وأتمشى على الرصيف، تحت النافذة، وأهمس بشفتي.. بأصابعي.. بعيني.. ولا تجيب.. أكتب لها، وأرمي برسائلي إلى شرفتها؛ أسألها عن: عمرها.. ثقافتها.. أهلها.. وضعها الاجتماعي، ولا ترد..

أكتب لها كل شيء عن نفسي، عساها تحن عليّ، أو تلين : » أنا مدرس لمادة اللغة

العربية، لما أتزوج بعد، رغم بلوغي الخامسة والثلاثين. . لا قبوي، ولا معاشي، يغريان واحدة من زميلاتي المدرسات، أو أي امرأة تقبل بالسكن معي في قبو، أو خيمة. . أساعدها، وتساعدني. . تحب الكتب، والموسيقى، وتصبّحني بالخير على صوت فيروز. . قامتها مثل قامتك، ووجهها مثل وجهك، وشعرها مثل شعرك، و بسمتها مثل بسمتك. .

وأكتب لها: اليوم زعلتْ المحروسة أمي مني. . قالت لي إلى متى ستبقى دون امرأة تؤنس وحدتك، وتخدمك؟ الذين في مثل عمرك صار أولادهم شباباً. . وقالت: بدرية ابنة خالتك ما بها؟ صحيح هي لا تعرف القراءة والكتابة، لكنها جميلة، وتربيتها مليحة، وأهلها ما لهم طلبات عند ابن الحلال غير السترة. . قلت لها يا أمي، يا حبيبتي، بيت خالتي، وابنتهم، على الرأس والعين. . لكنني لا أريد امرأة للشغل والأكل والفراش فقط. . أنا أريد امرأة تفهم عليّ، وأفهم عليها. . فزعلت المحروسة أمي. . ».

وأكتب لها: «زميلتي، مدرسة التربية الرياضة، التي كنت أميل إليها، وتميل إليّ، تركتني وارتبطت بمدرس مادة الرياضيات. . أغراها بالسيارة التي وفّر ثمنها من أجور الدروس الخصوصية فتركتني، ولحقت به. . ».

وأكتب لها عن المدرسة، والبيت، والناس، والأحلام. . أكتب لها، وأكتب، ولا ترد عليّ بكلمة، أو حرف، أو همسة. .

بدأت أذهب إلى موقف الباص بعد الدوام. . أقف مقابل نافذتها. . أذهب مساءً. . ليلاً. . أتمشى على الرصيف تحت النافذة. . أروح، وأجيء، ولا أظفر برؤية خيال لها وراء الستائر. .

صرت أزعل منها. . أعبس في وجهها. . لا أنظر إلى نافذتها حين تطل منها، أو أنظر إليها مواربة، فتبتسم لي، وتومئ بيدها. . عندما كنت أزعل منها فحسب، كانت تلوّح لي، كأنها كانت تراضيني، قبل أن تختفي، بعد دقيقة، أو أقل، من ظهورها، كالعادة. .

راقبت باب بنايتها في أوقات مختلفة. . قلت أضبطُها خارجة إلى السوق. . إلى الشغل. . في زيارة لصديقة. . لقريبة. . ولم أتمكن. .

ثم، وبعد ما يقرب من سنة، نفد صبري، ولم أعد أحتمل نزواتها. . لماذا تصّر هذه المرأة على تعذيبي؟ أتعتقد أنها تكبر بعيني إذا عذبتني؟ أتكون خرساء طرشاء بلا أحاسيس؟ ثم ماذا تريد مني؟ ولماذا تظهر لي في كل يوم، وفي نفس التوقيت، إذا كانت لا تريد أن تعرّفني بنفسها؟ أتكون قد أحبتني بالفعل، بعد أن عرفت كل شيء عني، من خلال رسائلي؟ أم أنها تعرف كل شيء عني، قبل سكناي هذا الحي؟ أم تكون تلعب بي، وتلعب بآخرين مثلي، من خلال نافذتها؟ في أوقات أخرى من كل يوم. . رحت أراقبها من أماكن أقدر أن أراها منها، ولا تراني، ولم أصل إلى شيء. .

كتبت لها في آخر رسائلي: » إلى أين سنصل؟ ها هي ذي سنة تضيع من عمرنا، أنت في النافذة، وأنا على الرصيف. . فإذا بقيت مصرةّ على صمتك، سأقول لك «وداعاً». . وكعادتها لم تجب.

تركت الموقف خمسة عشر يوماً، وراقبتُها من وراء جذع شجرة صنوبر عجوز، قرب الموقف.. أذهلني بقاؤها على عادتها طيلة تلك الفترة.. يلوح خيالها وراء الستارة، على السابعة والربع تماماً، ثم تزيح الستارة بيديها، وتشرع بالبحث عني بعينيها.. لحظت، أيامها، ومن خلال استغراقي في وجهها، أن قلقها يزداد يوماً وراء يوم.. وفي اليوم الخامس عشر ما عادت تصبر على انقطاعي عنها على ما يبدو، لأنها فتحت النافذة، وأخرجت رأسها منها، وصارت تبحث عني في طول الشارع، وعرضه.. لأول مرة، خلال سنة، تفتح النافذة، وتخرج رأسها.. أدركت أنها تتعذب من أجلي، فتركت جذع الشجرة، وتوجهت إلى الموقف، أمشي على مهلي، غير عابئ بوجودها في النافذة..

«هي.. هي..».

لأول مرة أسمع شيئاً من صوتها.. إذن هي ليست خرساء.. وقفت.. نظرت إليها بحياد.. حركت يسراها ببطء، وأومأت لي أن تعال.. بقيت في مكاني غير مصدق، فأعادت الإشارة مرة ثانية، وبإلحاح، وتضرع.. هرعت إليها قاطعاً عرض الشارع، والرصيف، والجاً باب البناية، صاعداً الدرج، لأقف حائراً عند باب شقتها، الذي وجدته موارباً مقدار إصبعين، قلقاً، خائفاً، كلص غرّ يتوقع أن يداهمه رجال الأمن في أية لحظة.. أأدفع الباب وأدخل، أم أضغط على زرّ الجرس وأنتظرها لتفتحه لي على مصراعيه، وتهمس لي أن تفضل؟ ارتفعت يدي على زرّ الجرس، وقبل أن تصل إليه، وقفت في الفراغ.. فقد ينّبه صوت الجرس الجوار إلى وجودي عند الباب، وإلى دخولي المنـزل بعدئذ.. أو قد يوقظ أخاً صغيراً لها من النوم، أو أباً مريضاً على فراشه، أو أماً.. ثم إنها لو كانت تريد أن أضغط على زرّ الجرس، لما تركت الباب مواربا مقدار إصبعين، ووقفت وراءه لتسمعني دقات قلبها، وتسمع دقات قلبي..

عادت يدي التي ارتفعت للضغط على زرّ الجرس إلى جيبي.. هممت بدفع الباب، فمنعتني نفسي.. وفي غمرة اضطرابي، وقلقي، وحيرتي، وتردّدي، وخوفي، أخذ تفكيري يسلك دروباً أخرى متعرّجة، وعرة، نازلة إلى الهاوية.. هذه امرأة مجنونة.. المرأة العاقلة لا تدعو رجلا غريباً إلى بيتها.. ألا تدرك مخاطر أن يراني أحدٌ ما عندها!؟ قد يرجع فجأة أخوها المسافر، أو أبوها.. وقد تكون متزوجة، أو مومساً، داشرة..

بعد دقيقة، أو أقل، من وقوفي عند الباب، انتشلني زمور الباص مما أنا فيه فاستدرت، ونزلت الدرج قفزاً غير عابئ بصرير الباب الذي انفتح ورائي..

أحسست، بعد وصولي المدرسة، أنني ارتكبت جريمة بحق نفسي، وحق المرأة التي انتظرت لقاءها عاماً بطوله.. عضضت على أصابع يدي ندماً.. أدركت أنني كنت أخرق، عند باب شقتها، أفكر بالمقلوب.. قررت أن أصعد إليها، في اليوم التالي، لأعتذر لها في البداية، ونتفق على الخطوة التالية.. لم أنم في تلك الليلة التي أمضيتها، بطولها، وأنا أحضّر الكلام الجميل الذي ستسمعه مني..

صباحاً، حلقت ذقني.. لبست أجمل ثيابي.. تعطّرت.. لمعت حذائي.. خرجت قبل

ربع ساعة.. قدرت أنها ستبكّر اليوم بظهورها، لتعرف سبب عدم دخولي منزلها يوم أمس.. انتظرت خمس دقائق.. عشراً.. وفي تمام الساعة السابعة والربع قلت إن الموعد قد آن، فهي لن تغيّر طباعها.. مرّ الموعد ولم تظهر.. وصل الباص، وغادر، ولم تظهر.. انتظرت ساعة.. ساعتين.. مرّ النهار، بطوله، ولم تظهر، أو يظهر خيالها، على الأقل، وراء الستارة.. وهاهي الأيام تمضي، والأشهر، والسنون، وها أنا ذا أداوم على عادتي: أتوجّه في صبيحة كل يوم إلى موقف الباص، وفي تمام الساعة السابعة والربع، تتعلق روحي بنافذتها، آملاً أن تظهر لي المرأة التي خفق لها قلبي منذ زمن بعيد، و ما زال يخفق من أجلها حتى الآن..

ـ القصة من مجموعة «سباق بالمقلوب» الصادرة عن دار الينابيع عام ٢٠٠٠.

قصة

بموجب قوانين الحملة

راجي بطحيش

ذهبت دلال الى المجمع التجاري البائس نسبيا الذي كانت تتسكع فيه بشكل شبه يومي وقد كانت هذه المرة مختلفة تماما... فقد فازت دلال ابنة الثامنة والثلاثون خريفا بهاتف نقال من الجيل الثالث والأكثر قليلا حيث كانت قد اتصلت بها فتاة بنبرة صوت أقرب الى العاهرات المهنيات وبانفعال شديد لا مبرر له قائلة:

مرحبا... لقد اختارك الحاسوب من بين مئات الآلاف لتربحي مع هاتف «مدهش» جهازا متطورا هو الأحدث عالميا... يحتوي «بلو توث» انترنت... سكرتير خلوي... رنات هيفا ونانسي وروبي وغيرها...

الووو

ـ انت فعلا محظوظة بربحيتك هذه عليك. الإجابة على هذا السؤال الصعب والهاتف في يديك... أعصابك جيدة ؟ جهزي نفسك للسؤال «ما هي عاصمة اسرائيل»

ـ ماذا؟... السياسية أم الثقافية؟

ـ برافو!!!! لقد ربحت معنا أجمل هاتف نقال في العالم.

*

«لا بعجبك العجب ولا الصيام برجب» حكمة اليوم التي أطلقتها هاتفيا ام دلال على

دلال يومها . . .

لا أشعر إنني فزت بشيء قبل هذا . . . كل شيء تمنيته ربما يكون قد حصل ولكنه منح لي وكأن أحدهم نثر رماداً في وجهي وراح . . . وبقي الرماد وما أشد لونه وما أعنف سيادته . . . كل شيء كلونه رمادي في مكان ما في الوسط أو أقل قليلاً . . . . مكان قد يبدو في الظاهر تجسيدا أعمى لما حلمت به ولكنني في الحقيقة أتواطأ مع حياة لو تخيلت شكلها قبل عشرين عاما لكنت قد أحرقت نفسي وارتحت . . .

لكنني أتواطأ كما يفعل الكثيرون . . . أتواطأ مع ما لم أعد قادرة على تحويل مساره أو مقاومة وسطيته أو رماديته . . . كل شيء يتعلق بقوام القهوة في الصباح . . .

« هابي أور » في مجمع السعادة والأناقة الأول في الشمال اشتر بمائتي شيكل وما فوق والقهوة على حسابنا . . . هيا دللي نفسك . . . لأنك تستحقين الأفضل . . .

هذه الأرداف المتهدلة والشعر المهمل الذي يلمع من شدة تراكم الزيوت عليه وتلك العيون المكللة بالسواد الدائم وكأن صاحبتها لم تنم منذ دهور طويلة . . . وتلك الرائحة الغريبة . . . . . . رائحة أنوثة بدأت تتحلل . . .

بقي خمس ساعات ونصف على العرض الذي لم يشهد له التاريخ مثيلاً . . .

اشتر أحمر شفاه فاخر من « ليليان » واحصلي على مضاد للشيخوخة بحجم عشرة مللتر مجانا . . . لأنك الأولى لدينا . . .

ملكة الصف . . . . وقائدة المظاهرات الصاخبة خارج المدرسة . . . في أعقاب مجزرة صبرا وشاتيلا عام ١٩٨٢ وبعدها . . . وفي أيام الأرض . . . والنكبة . . .والمرأة . . . والعمال . . . والأقصى وعيون قارة . و . . حتى شرارات الأيام الأولى من الانتفاضة الأولى .(في الأيام الأولى من الانتفاضة الثانية كنت قد بدأت أغوص في بحيرة الرماد) . . . .

قائدة المسيرات التي كانت تقفل بوابات الجامعة العبرية في القدس في السابعة صباحا احتجاجا على قمع الإنتفاضة الأولى وسياسة تكسير العظام . . وبعد كل مجزرة ومجزرة كعيون قارة . . . والأقصى عام ١٩٩٠ . . . وغيرها . . .

في عام ١٩٩٤ عندما حصلت مجزرة الحرم الإبراهيمي كنت قد بدأت أبحث عن علاقة وبالتالي الزواج . . . فقد كان الموضوع أشبه بالحمى التي أصابت البلد كلها . . . »لازم تدبري حالك صرتي قد الجحشة ٢٥ سنة مش صغيرة لاحقة عالبرامج والفعاليات والسياسة وبعدين خلص . . السلام صار وخلصنا . . . شو انكتب علينا الحروبات والمجازر طول عمرنا ظبطي

حالك وحاجي تلبسي زي السرنوّات».

لم أكن أعرف وقتها انني هشة ومزيفة الى هذا الحد وبأنني لا استحق شيئا افضل من هذا... ما أنا فيه...

الزمن... ما أقسى هذا التعبير المبتذل... هذا الزمن...

منذ متى تؤدي هذه الممثلة السورية الجميلة التي أحب أدوار الأم لشبان وشابات..

الماركات الأولى والرائدة في العالم لأجمل السهرات وأكثرها غموضا وألقاً.. لأكثر النساء فتنة وأنوثة... فستان وحذاء واكسسوار فقط ب٩٩٩ و٩٩٩ ماذا تنتظرين إذا... افتحي أبواب الحرية وعانقي جمالك...

حلقّي...

انطلقي

داعبي....

يمنع منعا باتا ممارسة الألعاب بجسد الحياة نفسها... بمعنى الحب والجرح والمغامرة والإثارة على أنواعها... والتجربة والوقوع في الاختبار والمعرفة..

تلك هي الخلاصة: الوقوع في المعرفة! حيث تتكسر كل قناعة... ولا يمكن النظر الى الوراء... يصبح الإنسان بعد هذا الوقوع مشروع كوسموبوليتيكي... لا تعجبه الحياة في الأطراف والبلدات المنسية أو الشبه مدينية ولا يعود اليها سوى ليتفرج على بؤس سكانها وتعاستهم ووسطيتهم وتناول طيبات الطعام... والعودة الى حفل الجنس الفكري الجماعي.

هؤلاء البنات الكئيبات اللواتي لم نسمع لهن صوتا في الصف ها هن وقد تزوج أغلبهن موظفين في الأمم المتحدة والجمعيات الإنسانية الأوروبية ويقضين أيامهن بين جينيف ولندن وميلانو وباريس.

تلك الشبكة التي فرشتها من تحتي كي لا أضيع في متاهة البحث عن المعرفة... وكي لا أخسر شيئا واحدا... فحصنت نفسي بعريس حسب المواصفات وتزوجت بجيل طبيعي (٢٥) وسأمارس ذاتي بعدها على مهل وبتروّ... ها أنا

امرأة

مريرة:

عصبية

خائفة

يحتلها اللؤم...

جبانة

....

نضرة

فاتنة

جذابة

مغرية

وتعرف ذلك...

مستحضرات انثوية حميمة ب ١٠ دولارات فقط!

أنهض لصباح رتيب... احتسي القهوة واحسب أن كل شيء سيتغير بعدها... أولادي... أشاهد خيبتي في أعينهم... يكرهونني لأنني قبيحة ولم أصبح شيئا... أي شيء.... سوى أم منطفئة داهمتها الشيخوخة في نهاية الثلاثين...

صباح الخير يا حماتي الشمطاء...

وأنت يا «سلفتي» الجاهلة أ... وأنت يا سلفتي الجاهلة التي تشبه كيس اللبن ألقماشي قبل أن يصبح لبنة حامضة.

مساء الخير يا زوجي المثقف ـ الثوري ـ اليساري ـ التقدمي والذي لم يتبق منه شيئا أو من ذلك شيئا سوى كرش مليئة محشوة بكل ما تطبخه أمه الشمطاء من قاذورات وأطراف بهائم مسكينة... وأير نائم طوال الوقت تعذبت كل ليلة على ليلة على ايقاظه... حتى بلغت الثلاثين او بالأحرى حتى ابلغتني صديقة تكرهني أن زوجي يفضل معاشرة الرجال وأنه يتسكع طوال الوقت مع زوجها في أماكن التقاء المثليين في حيفا وتل ـ أبيب...

أذكر اخر مرة حمل وجهك الطفولي تلك الملامح... أو المعاني المختلفة المقاومة... المنعشة والتي جعلتني أعشقك في الجامعة وفي الإعتصامات حين زينت الكوفية كتفاك الهشين... اخر مرة... مارسيل خليفة في جرش تموز.. ١٩٩٨.. لم أتوقف.عن تأملك ليلتها، وكأنني أودعك..أودّع ذاك الوميض...

....

سيدتي الجميلة...

استعملي البطاقة الذكية، إشتر حذاء «رفائيل» واحصلي على فوط صحية بعبق استوائي..

ـ مرحبا

ـ أهلا وسهلا

ـ لقد فزت بهاتف نقال من عندكم... أعني.. لقد اتصلوا بي وأجبت عن السؤال أو بالأصح لم أجب على السؤال وأخبروني بأني فزت بهاتف من الجيل الثالث والنصف

ـ نعم، حسنا بطاقتك من فضلك؟

ـ أية بطاقة؟

ـ بطاقة الاعتماد خاصتك...

ـ ولكن لماذا؟

ـ لقد فزت بالهاتف ولكن وبموجب قوانين الحملة عليك الالتزام بعضوية نادي «أحبابنا يا عيني» لمدة ٣٦ شهرا ولذلك أنا بحاجة الى بطاقتك كي أجبي منك رسوم العضوية في النادي، هل فهمت؟

ـ نعم لدي ولكن لا أعتقد ان ثمة رصيد كافي في حساب البطاقة! الا توجد طريقة أخرى؟...

ـ لا تقلقي لدينا تصريح استثنائي بتجاوز السقوف الائتمانية للزبائن...

ـ حسناً

ـ كما أنه وبموجب قوانين الحملة: عليك التحدث ٥٠٠ دقيقة وما فوق شهريا كي لا نبدأ باسترداد ثمن الهاتف من بطاقتك....

(٢)

تلك الأبواب الكهربائية...

ذاك الباب الكهربائي الذي يشرع اجنحته تلقائيا ويقفل ذاته عندما يجد ان ما يفصل بين الواقعين أو العالمين أو المصيبتين قد أصبح جللا بما فيه الكفاية كي يحدث الفصل ويتجسد بين لحظة وأختها وبين رؤية الماسة والفوز بها...

لكن الباب قد لا يفتح ابدا و\أو قد لا يقفل ان ابتلى المنظومة عطب كهربائي...فتتجمد اللحظة منتظرة أحد...أحد ما...

١

جاءت مرال الى الصيدلية محملة بوصفة طبية مزيفة تحتوي على أقراص منومة قررت ان تبتلع جلها لكي تستريح من وجود أمرين:

أولا: إخوتها الذكور مدعومين بأمها واللذين مرروا ويمرمرون (جميعهم) لها حياتها

من ساعة استيقاظها وحتى سباتها بحجة انها يتيمة الأب ـوآخر العنقود سكر معقود ـ وانها بنت ستظل وتبقى ضلع قاصر و...و...وهي بموتها هذا ستساهم في توقف وجود هؤلاء في حياتها أو لا حياتها..وبالتالي ستحل أعظم مشاكلها وستتذوق طعم الحرية بحق... وستضاجع كافة الرجال الذين تشتهي الكبار منهم والشبان وستقيم للقضبان الرجولية معرضا كبيرا وعلى جميع اشكالها وأحجامها الزهري منها والأسمر الطويل منها والأكثر طولا المطهر منها وأبو طربوش...معرض لن يستطيع أخاها المتوسط ـ الذي طالما امتطى مثل هذه القضبان وغيرها بعلم الجميع ـ وصوله لقتلها ثم التلذذ وحيدا بما طرحته الطبيعة من بدع للذكورة..

ثانيا: ذاك الإنتظار الجبري لعريس لن يأتي مما سيضطرها للإنكسار وسط ضغوط المحيطين والقبول برجل مخبول يحمل شهادة طب مريبة من إحدى الدول الجمهوريات المتفككة..

أعطت مرال الصيدلانية ورقة من فئة المائة ثمنا للدواء ولم تلحظ في عيني صاحبة الرداء الأبيض علامات تدل على تشكيك في صحة الوصفة ناولت الصيدلانية الباقي لمرال متمنية لها بلهجة جافة ـ وكأنها تقول لنفسها سئمت من هذا العمل انا لم أتعلم ماجستير في العلوم الطبية والصيدلة والكيمياء الحيوية والعضوية والتفجيرية والوراثة كي ابيع هذه البلهاء حبوب منومة ليتها لا تستيقظ منها ابدا ـ النوم الهانئ والنوعي...لكن الباقي كان عبارة عن الباقي المفترض وورقة إضافية من فئة المائة...

استدارت مرال بتردد عظيم وكأنها تنتظر صوت يقول لها أعيدي ورقة المائة أيتها الجبانة الحمقاء هل تستغلين كوني امرأة علم عانس تعمل في المكان الخطأ... وإذ أضاعت مرال الباب الكهربائي في المتجر الكبير أخذت تسأل الحارس الذي طالما اشتهت أمثاله شبه منهارة عن مكان الباب فتدحرجت بخطى متلاحقة نحو الباب الممعن في إغلاق ذاته لإلقاء احتمالات الياسمين نحو ديار الخسارة...

٢

اعتقدت الصيدلانية التي تحمل شهادة الماجستير بامتياز في علم العقاقير المهدئة... انها بهذا قد تمسك تلك النجمة الزئبقية المملوءة نعمة ولكن هذا ما لم يحصل...فها هي وكعادتها اليومية تحرق الوقت بعد نهاية دوامها في الصيدلية التي تحجب رائحة الطهارة فيها كل عبق إنساني ممكن...تتجول في الحوانيت المجاورة ذاتها...كل يوم...كل يوم (عدا أيام الاثنين والخميس موعد دروس الرياضة الراقصة) وتخترع لذاتها أي شيء تشتريه كي لا تتجول هكذا لوحدها في المدينة الصغيرة التي تتحايل كل مرة من جديد على الحقيقة...

ووحدها الحقيقة هي الضحية التي لا تنافس هناك...

إبرة لخيط ينتظر كي يمزق قطعة قماش...فرشاة أسنان لأن القديمة ضاعت في غياهب النسيان... قميص أخضر مكشوف يلاءم التنورة الاسكتلندية التي أرسلتها العمة من لندن أملا بأن مناسبة مفرحة تقف قريبا حيث لا ندري...ولكن لا شيء يحدث في تلك المدينة ولا يدخل رجل وسيم فارع الطول إلى الحانوت ليسرقها بإصرار نحو زاوية لا ترحم من الصخب... لا يحدث هذا ولن يحدث... إنه العجز حين يضاجع الجمود...ولا يجد المرء أي مرة أي شيء يبحث عنه في المتجر وحتى في داخل مراحيضه..

إن مجرد العودة الى البيت في الخامسة مساءً يعني البقاء هناك والاستسلام لفكرة الجلوس مع أمها وإخوتها برفقة الجارات الشريرات أو لمشاهدة التلفزيون والحلم بنضوب الحلم...

بعد رحلة علمية صاخبة في القدس ها هي ابنة السادسة والثلاثين تنام في مكان مرعب... في المكان الذي ولدت فيه في نفس الغرفة حيث تنظر دمى الطفولة المغبرة اليها ساخرة..في الغرفة الوحيدة للأولاد الصغار أو الأخوة الكبار الآن...وأكثر ما يرعبها ان تسمع في يوم ما أخيها الأصغر إبن الواحدة والعشرين... أن تسمع صوت استمنائه أو أن تلحظ تغيرا في نظرته إليها بحيث يصبح لهيب أكثر إحراقا وبالتالي تفتيتا للجثة المنسية الملقاة.

«باستطاعتي أن أولج شهاداتي هناك في الأسفل لعلني أجد متعتي وخلاصي...»... «خلاصي من عجزي...»

حسناً...ما أقسى أن يستيقظ الإنسان بعد الخامسة والثلاثين خاصة بعد أن قطع أشواطا وأشواطا من العيش في السرير الضيق الذي تلمس به أسرار بدنه لأول مرة...إنه الذل بعينه متجسدا على الأرض ولا أحد يفهم...الأشخاص اللذين تفتتوا في العواصم..في لندن وباريس ونيويورك وبرلين وهؤلاء اللذين تزوجوا وتزوجنّ وتحولوا وتحولن إلى أشياء لا تنظر إلا لما يغطي ظلها... وأولئك اللذين ماتوا أو حتى ماتوا عن المخيلة... وأولئك اللواتي تحايلن على الوهم وغادرن الى إحدى مدن الاختفاء في خارطة الوطن للعمل في جمعيات أهلية أو ما شابه ذلك...

التقطت الصيدلانية بحركة حتمية لا رجعة منها طوق الذهب المرصع بالماس والذي سقط من سيدة المجتمع التي كانت تختار معطر للمرحاض وتضعه في سلة مشترياتها... وتراجعت الصيدلانية بجزع مطعم بيأس غير مفهوم وارتمت نحو المدخل الكهربائي الذي فتح ذراعيه ليحتضن الغبار...أكان هذا رجلا وسيما أبيض الشعر أزرق العينين عريض الكتفين يداعب إحدى شفتيه الشهوانيتين بالعرق؟...

٣

في القسم المغلق رقم ٣ من مستشفى الأمراض النفسية في المنطقة الحارة المحشورة بين ما احتل في العام ١٩٤٨ والعام ١٩٦٧ . . .أراض قريبة من البحر ولكنها ليست على شاطئه تماما بل أخذت منه الرطوبة المزعجة السمجة وهي منطقة قريبة من الهضاب ولكنها ليست هضبة بحد ذاتها بل أن الهضاب المرتفعة شرقا تحجب الرياح الصيفية الجافة الآتية من العراق أو ايران لتبقيها تتقلب في جحيم الرطوبة الصيفية العنيدة. . .ولكن ما الجدوى. . .فعلا ما الجدوى ففلسطين صغيرة وحتى وهي موحدة تحت مظلة الإحتلال كما يشبهها بعض الوقحين ب« كسّ العقرب » . . .فجبالها قريبة من ساحلها وهضابها سرعان ما تتكسر لتصبح أغوارا ومروجا. .ما الجدوى إذا. .

منع الحارس في ذاك القسم المغلق من فاتن المقيمة فيه ان ترافق زوارها نحو الخارج ليس بهدف الهرب من المشفى بل لمجرد الخروج من ألمكان، من الحيز، الشعور بمعنى الخروج ثم العودة. . .لمجرد العودة. . .

بعد منعها وقفت فاتن مقابل الباب الكهربائي تتأمل اللاشيء بوجوم غير نهائي يغذي نفسه من محيطات الفناء. . .

تعالت الصيحات من الداخل بعد ان انتابت إحدى المرضى نوبة صرع جعلته يشكل خطرا على المحيطين. . .وعلى نفسه. . .هرول الحارس نحو منبع الصيحات دون ان يغلق الباب الكهربائي بإحكام. . .القت فاتن بوجومها جانبا للحظة. . .فتحت الباب بإشارة نحو أعلاه وخرجت. . .ثم مشت ومشت. .شاهدت فرسين تجريان وراء مصدر مفترض للرياح. . ونسرا يلتقط أشلاء ضحيته فاراً من العار. .والشمس تبصق ما فاض من لعابها الجمري على شكل دنس. .ثم مشت ومشت فواجهها جداران يتصلان ببعضهما دون ان يلتقيا في نقطة بعينها. . .جدار المستشفى. . .وجدار آخر. .

كانت فاتن قد نسيت عند تنفيذها للهروب الارتجالي هذا انها عالقة في قاع « كس العقرب » حيث لا قاع بحق ولا مخرج. . .

قصة

الطريق إلى تركيا

فاطمة ياسين

«عمار» إعلامي من خريجي قسم الإعلام في كلية الآداب بدمشق. أحلامُه تشبه أحلام كل خريجي الإعلام التي لا تقف عند الحصول على مدخول مادي ممتاز، بل تتعداها إلى تحقيق شهرة مهنية واسعة محلية وعربية.

بدأ عمار ممارسة المهنة منذ دخوله الجامعة، أي قبل أن يحصل على شهادة التخرج بسنوات، فعمل في مجلات محلية مغمورة، ومراسلاً لقنوات لا يزيد عدد متابعيها عن بضعة مئات. استمر على هذه الحال حتى بعد التخرج،.. إلى أن سمع، وهو جالس في سهرة مع أصدقاء الضيعة، عن رجل من ضيعتهم صاحب مكتب إعلامي يملك عدة تراخيص لعدد من القنوات التلفزيونية المهمة.

أمضى عمار السهرة صامتاً، يفكر: كيف يمكن له أن يتواصل مع هذا الشخص، ويعرفه على نفسه، ويطلب منه أن يوظفه في إحدى القنوات؟.. بدأ يفكر في السيناريوهات الممكنة:

مرحبا يا سيد نضال. أنا عمار ابن أبو محمد.

أهلا كيف حالك؟

بأحسن حال. كم كان أبي يحبك!

عفواً. أبوك من هو؟

أبو محمد.

على عيني.. ولكن، أيُّ أبو محمد بالضبط هو أبوك؟

أبو محمد صاحب أرض الزيتون الشرقية.

أراضي الزيتون عندنا كثيرة.

ألغى عمار هذا السيناريو البائس، وشرع يفكر في غيره:

مرحبا يا سيد نضال.

أهلا وسهلا.

أنا شاب صحفي من ضيعتكم.

«أوف».. قال في سره: هذا السيناريو أسوأ من سابقه.

بعد تفكير دام أيام.. قرر عمار أن يحدث أباه بالموضوع وليدعه هو يتكلم (بالموانة) مع الرجل.. وبالفعل.. هذا ما كان، فبعد أيام قليلة بينما كان عمار يقطع أحد الشوارع في الشام إذ رن جرس هاتفه المحمول..

مرحبا.. السيد عمار؟

أهلا وسهلا.... نعم أنا عمار.

معك المكتب الإعلامي للسيد نضال.

نعم نعم....أهلا وسهلا بك.

لديك مقابلة غدا بعد الظهر مع السيد نضال هنا في المكتب. هل تعرف العنوان؟

نعم، طبعاً، ولو، ومن لا يعرفه!؟

جيد.. غداً الساعة الثانية بعد الظهر... هل يناسبك؟

بالطبع... شكرا لاتصالك.

أغلق عمار هاتفه، وشرع يبحث في جواله عن رقم أحد أصدقاء ضيعته يمكن أن يعرف عنوان مكتب السيد نضال في الشام. (هو قال لهم أعرفه من باب اللباقة!) وبعد عدة اتصالات حصل على العنوان. ذهب في اليوم التالي.. وأجرى المقابلة وحصل على الوظيفة.

عمار الشاب المجتهد, العاشق لمهنته... الذي كان يؤمن بمبدأ ميكافيلي «الغاية تبرر الوسيلة» عمل كمحرر في قناة محلية هي الأهم في البلد، أو تكاد تكون القناة الخاصة الوحيدة التي تملك مواصفات القناة التلفزيونية في البلد، اجتهد وارتقى في مناصبها سريعاً....

قامت الثورة السورية واتجهت الأنظار إلى هذه القناة بوصفها مؤيدة بشكل صارخ بل ومقزز للنظام الذي يقتل شعبه!.. وبات عمار مثار سخرية من أصدقائه لاستمراره بالعمل في قناة كهذه.. ولكن السخرية (وتلطيش الحكي) لم يُثنيا عماراً عن الاستمرار بالعمل فيها، وخاصة أنه بات يحصل، بعد قيام الثورة، على امتيازات إضافية- من حيث الراتب والمهام - بعد أن استقال عدد من الإعلاميين المهمين فيها احتجاجا على توجهاتها.

واستمر عمار يجادل أصدقاءه، حيناً بمنطق مصلحة الوطن، وأحيانا بمنطق مصلحته الشخصية كفرد « يعني إذا تركت القناة من وين بدي عيش؟... بعدين خيو هاي ما اسمها ثورة.... هدول عالم مو عارفين شو بدون... وأنا مالي مضطر امشي وراهون للمجهول »....

ولذلك،.. ونتيجةً لتشابك المصالح هذا لن يترك عمار عمله أبداً....

مضت أيام، وشهور، وانتشرت الثورة في أرجاء البلاد... وبدأ بعض الثوار يحملون السلاح ليدافعوا عن أنفسهم ضد نظام يقتل كل من يعارضه........ وعمار مستمر في عمله يكتب تقاريراً مضللة عن الثورة، ويكيل للثوار تهماً بالجملة.....

وفي يوم من الأيام، وبينما كان عمار جالساً خلف طاولة مكتبه في القناة، إذ رن جرس هاتفه:

ألو....أي امي

مرحبا يا ابني...كيفك؟

أنا منيح.... كيفك انتي وأبي وأخواتي؟

والله أبوك مرضان من كم يوم.

بالله!؟....طيب سآخذ إجازة وآتي إلى زيارتكم.

الله يرضى عليك.....لا تتأخر نحنا بانتظارك.

أغلق عمار هاتفه...وتوجه من فوره إلى غرفة الإدارة، ليتقدم بطلب إجازة...

مرحبا استاذ.

ادخل عمار. شو بدك؟

استاذ كأني شايفك مزعوج...في شي؟

لك وبعدين مع هالشعب ما كان ينضب ويسكت ويريحنا.

استاذ هدول مو شعب، هدول شوية متآمرين..... بكرة بس الدول تقطع عنون الدعم شوف شلون بدون يرجعوا لحضن الوطن، ويعتذروا....

الله يخلصنا بسرعة.......المهم عمار شو بدك؟

استاذ ابي مرضان كتير....بدي إجازة لاطلع عالضيعة اطمن عليه.

ما فيك تأجلها كم يوم؟ مو شايف الأوضاع؟

لا ولله استاذ..... بس كم يوم بدي اطمن عليه وبرجع.

ماشي عمار.....الله معك.

في اليوم التالي، غادر عمار دمشق واتجه إلى قريته في الشمال السوري، ووصل منزله بعد رحلة شاقة لم تخل من مخاطر على الطريق. وبعد أن اطمأن على صحة والده، وزار بيوت أخواله وأعمامه..... كانت الثورة والصراعات المسلحة قد انتشرت في معظم أرجاء الوطن، وقرية عمار لم تكن استثناء، أما الطريق الذي يربطها مع دمشقـ والذي كان عمار يعتزم العودة منهـ فقد قُطِعَ بشكل كامل خلال أيام جلوس عمار في القرية بسبب القصف المستمر

عليه، والاشتباكات التي لم تهدأ.

مرت أسابيع على هذه الحال.... وبات عمار في حيرة من أمره، فهو لم يعد يستطيع العودة إلى الشام، ولم يعد يطيق الجلوس دون عمل في قريته المهددة بالقذائف في كل لحظة.

قرر أهل عمار أن يهاجروا إلى تركيا (البلد الأقرب إليهم) طلباً للأمن والسلام.. فلم يكن أمام عمار إلا الذهاب معهم........

وصل عمار إلى تركيا.. وفوجىء بكثرة معارفه هناك قال في نفسه:

شو كل السوريين صاروا بتركيا!؟ يللا، هيك أحسن بركي منشوف شي حدا نحكي معو.

التقى عمار بعد أيام بصديقه القديم في الإعلام الذي يدعى هيثم:

مرحبا هيثم...من زمان انت هون؟

صار لي خمس أشهر والله.

وكيف عايشين بهالغلا هون؟

والله عم اشتغل.

ليش في شغل؟

عم اشتغل مراسل لقناة عربية مهمة عم تحكي عن ثورتنا العظيمة.

والله يا صديقي ثورتنا مو بس عظيمة، ثورتنا أعظم ثورة بتاريخ البشرية...

على علمي ما هيك كان رأيك فيها!؟

بلى. هادا رأيي. بس مين بيقدر يحكي رأيو في بلدنا يا حسرة؟.. أصلاً أنا ما انشقيت وهربت لهون إلا لهالسبب!

إذا هيك شو رأيك تشتغل معنا بالقناة؟

والله يا ريت. ما رح انسالك هالخدمة بعمري. وشوف تقاريري من اليوم ورايح، رح أفضح هالنظام المجرم وأزلامه!!

مواقف عمار السياسية تبدلت.. ولكنه لن يغير موقفه الثابت في الحياة، فـ«الغاية تبرر الوسيلة».

قصة

قنّاصة

حسان العوض

-١-

الطفل الذي انتظر في الطابور أمام الفرن بضع ساعات استطاع أخيراً أن يحصل على عدة أرغفة حضنها بيديه الصغيرتين كما كان يحضن أباه في كل مرة يعود فيها من مغتربه الاضطراري بسبب العمل. وقبل أن يسري دفء الخبز الساخن في جسمه البارد لمحه قناص شعر للتو بجوع دغدغ معدته، فقرر أن يصطاد رغيفاً واحداً فقط.. صوب بندقيته ثم أطلق النار فسقطت الأرغفة مضرجة بدم قان على الأرض الموحلة.. غض القناص نظره عن صيده فهو يقرف من الوحل كثيراً.

-٢-

الهرة التي أمضت ليلتها في إنجاب هريراتها ثم تأملهن وإرضاعهن في الغرفة المهجورة من البيت الذي أوت إليه مؤخراً، كانت السماء قد شاركتها السهر رعداً وبرقاً ومطراًحتى الفجر،إذ نامت الهرة وهريراتها. أيقظ الجوع الهرة فاستغربت من عدم إطلالة صاحبة البيت التي اعتادت أن تقدم لها طعاماً عدة مرات في اليوم. بينما الهريرات نائمات قررت الهرة أن تستطلع الأمر فانسلت من بينهن خارج الغرفة المهجورة. هالها أن البيت كله أصبح أطلالاً مهجورة أكثر من غرفتها. ماءت بحثاً عن صاحبة البيت أو أي أحد لكن حتى الصدى

لم يرد. خرجت مما تبقى من باب البيت إلى الشارع الذي كانت تمشطه عينا قناص بدأتا تشعران بالملل. صوب القناص بندقيته إلى عين الهرة اليمنى فرأى بالمنظار عين أم أتعبها الكد من أجل أبنائها، رق قلبه، فغير التصويب إلى قائمتها الأمامية، ثم أطلق، لكن الرصاصة خانته فأصابت رأس القطة التي خرت جثة، ومع ذلك سمع القناص مواء قطط كثيرة ما زال يتردد في أذنيه.

-٣-

الفتى الذي سقط وسط الشارع لم يكن يتحرك فيه شيء إلا خيط دم حرّرته رصاصة فهرب منها إلى الإسفلت بحثاً عن مكان أكثر أمناً... تجمع شباب على رصيفيّ الشارع، وراحوا يحاولون سحب الفتى إلى أحدهما بقضيب معدني بعد أن يعلقوه بثيابه، متجنبين مجال رؤية القناص القابع في برجه آخر الشارع، ولكن محاولاتهم التي لم تتوقف باءت بالفشل. امرأة واحدة فقط راهنت في سرها على ذرة شرف متبقية في قلب القناص فهرولت إلى وسط الشارع، وعندما أمسكت الفتى من يديه شعرت أن هاتين اليدين تعرفهما جيداً، وكذلك الشعر الأسود الكثيف الذي يغطي رأسه. توقفت لتنظر إلى وجهه، وعندما اكتشفت أن هذا الفتى هو ابنها الذي لم يستطع العودة إلى البيت منذ ثلاثة أيام، سقطت فوقه من دون أن يتأكد أحد من الرصاصة التي أسقطتها: هل هي رصاصة الشرف أو رصاصة ابنها؟ وما زال الشباب يحاولون جر جسدين اثنين، ثلاثة، أربعة......

-٤-

انتهت وردية القناص الأول، وقبل أن يسلّم المقنص للثاني، سأله عن عدد الذين يستطيع قتلهم برصاصة واحدة. زاد القناص الثاني الرقم إلى اثنين بعد قليل من التفكير. راهن الأول على مقدرته قتل أكثر من اثنين برصاصة واحدة مقابل علبة دخان واحدة، فوافق الثاني. صوب القناص الأول بندقيته منتظراً صيده على الطريق. وعندما رأى سيارة أجرة مقبلة أطلق رصاصة واحدة عليها، فانحرفت عن الطريق ثم اصطدمت بالرصيف فانقلبت. أعطى المنظار للثاني الذي حدّق بتركيز قبل أن يخرج من علبته ثلاث سجائرعلى عدد قتلى الرصاصة الواحدة، رافضاً أن يعطي العلبة كاملة للقناص الأول الذي غادر نادماً لأنه لم ينتظر باصاً كان قادماً خلف سيارة الأجرة.

أوراق الشعر

شعر

عروة في قميص السؤال

فرج بيرقدار

عِمْ زمانك يا ابنَ أخي
لم نَعِمْ نحن حتى المكانْ.

عِمْ شهودك خمراً، وأمراً
وزوِّجْ سرابك من ظامئات الرمالِ
ووشِّ الهدى بالضلالْ.

عِمْ ذهاباً وثيرَ الهوى
وبعيدَ الرؤى والظنونْ.
عِمْ كتاباً يرى في السماء بدايةَ زرقتها
في كروم الحنين بدايةَ خمرتها
في الجنون بدايةَ حكمتهِ
في الطغاة نهاياتِهم
ويشدُّ الحروف إلى جمرها،
ويقوِّم حتى الهلالْ.

عِمْ على أيِ حال بحال سواهُ
ولو أوهموكَ بأنَّ
له ما لهُ من شهودٍ عدولٍ ثقات
بأنك أنت إلهُ النعامِ الجميلَ الذَّكيِّ،
الذي يفطر القلب، وهْو يحاول أن لا يرى ما يرى
قل لهم:
بل له ما لهُ..
من ضوارٍ يتعتعها ثِقَلُ القيد والهمِّ
لكن همَّتها تتوسد ظلَّ فرائسها
ولهُ ما لهُ من بصير الحرام
لهُ ما له من ضرير الحلالْ!

• • •

عِمْ كما يشتهي الله من أهلهِ
لا تقلْ فسدَ الملحُ في الطينِ
مَنْ يُفسِد الملحَ؟
سبَّحتُه في الغيوب
وسبَّحتُه في غرير الدماء ونفسي
وسبَّحتُ سبحانه في الرمال السوافي جنوباً
وفيما تجلى به وله من خصال طبيعته في الشمالْ.
تنزَّهتُ فيهِ
وأحمدتُه من عميق جراحي
صباحاً صباحاً
نساءً نساءً
على رِسلهنَّ
بكلِّ المعاني القريبة منهُ
أتحتجُّ حواءُ؟
لا.. لا أظنُّ
فليس لها أن تَرُدَّ الصريع
إذا ما استجار بأنداء أثوابها
يا إله المحبِّينَ

يكفيك ما قلتَ
ما قلتُ
مما يقال وما لا يقال.
تغرغرتِ السحْبُ
واغرورقَتْ
ألّفَ العاشق المتصوِّف نايات قرآنهِ
ونأى:
يااااااا لهُ وحدهُ
وحدهُ..
لا شريك لهُ
لا صديق لهُ
لا نديم يليق بأسرارهِ
لا ظلالْ.

• • •

عِمْ دمشقَ وبغدادَ صنَّاجتين
ولا تلعنِ الحاكمين بأكثر مما لهم من ضحايا
ستكتبَ بعضِ الرثاء لهم
كي يموتوا تماماً
ستدفِنُهم كل يوم قليلاً
لكي يستريحوا
وإن شئتَ فاغفر لهم
لا يليق بهم غير ذلك
خلِّ سبيلَهُمُ للرياح
سيعشب مِن بعدهم كلُّ ما صحَّرته ظلال تماثيلهم
وانتصاراتها الخاسرةْ.
وعِمْ حلم بيروت
من خارج الأصدقاء العُداة
ومن خارج الأولياء الموالي
ومن خارج القلقين على ابن أبيه
ستبقى دمشقُ دمشقَ البدايات يا ابن أخي

وستبقى بأحلامها وبأهرامها القاهرةْ.
قل لهم لنقول معك:
ليس للدمع هذي العيونُ
ولا هي للأسر تلك الصبايا وعشّاقُهنَّ
ولا هي للبيع تلك القوافلُ
أعني القوافي من الشهداءِ الذين أضاءوا سماواتِنا
حين أشكلَ معنى الخطابِ
أنينُ النواعير أفضحُ من لجلجات المنابرِ
لا..
ليس أن تؤمنوا
غير أن تقرؤوا ما استبدَّ إلى أن تبدَّدَ
فلتقرؤوا السورة الكافرةْ.

• • •

الطريق إلينا طويلٌ طويلٌ
ولكنه حين يمضي إلى غيرنا
لا يطول!
إذن غيرُنا نحنُ
علَّ الطريق يميل قليلاً
وعلَّ الصديق يرانا عدوًّا
وعلَّ العدوَّ يحول.
لقد أجهش النرجس العربي
بأوهامه
وتلبلبَ أسوار أيامهِ
طللاً طللاً
فاعترته المكيدةُ
فانداح فيما له ولها
واعتراه الذهولْ.
الطريق يرى ما يرى
ونراه يطول إلينا
ويمضي على رسلهِ..

الطريق ذهابٌ
فلا تسألنَّ إياباً
ولا تسترح فِي مفارقهِ
والطريق دليلٌ
إذا عز فيه الدليل.
طويل إذا كان خطوكَ..
سامحكَ الله
كيف تسير أماماً وخلفاً بنفس الخُطا؟!
وطويلٌ..
عنيتُ الطريقَ ولا شيءَ غيرَ
طويلٌ إذا ما سلكتَ سواهُ
بريءُ النوايا
ولكنه لا يقولُ
بلى..
الطريق طويلٌ طويلٌ
أتسمعني؟
وعليلٌ عليلٌ
أتسمعني؟
وقتيلٌ قتيلٌ
ولكنَّهُ، كي تقول لنا، ولهُ، ولنفسكَ يا ابن أخي
لا يقولْ.

قل إذن كي نقول معك:
في الطريق إلينا
وما نحن نحن كما تعرفون
ولكنها حكمةٌ
هكذا!
في الطريق إلينا
إلى رملنا
والسرابُ أعزُّ اشتقاقاتهِ
وُلِد الأنبياءْ.
في البكاء علينا

وما نحن نحن ولا غيرَنا
كان غيمٌ من الدمع والصلواتِ
وما كان ماء.
ولكنَّه دمنا في الموازين
لا يَكْمُل الدِّينُ من دونه
لا يحول إلى ما نريد المحالْ.
ولهذا لكم ولنا
أن نخطَّ على ذيل ليل طويلٍ
بصبحٍ زُلالٍ زُلالْ:
عراةً ملوك المطاف الأخيرِ
عراة ملوك الهباءْ.
ثمَّ أكملْ على رِسْلكَ الآن مستقبلاً لا نراه كما ينبغي
قل مثالاً، وليس امتثالاً
ختاماً وبعدْ:
لم يكن يأسُكم يأسَنا
لا ولا سيفُكم سيفَنا
لا ولا ما تريدون
أن تسألوا عنه
أو أن تجيبوا
سوى عروةٍ في قميص السؤالْ.

ستوكهولم آذار ٢٠١٣

شعر

البحر السوري

كريم عبد

١ ـ القبر

رأيتُ سوريينَ يتصارخونَ يتدافعونَ حولَ قبرٍ
وأمامَهم تابوتٌ مفتوح..
التابوتُ على حافة القبرِ وهم يتدافعونَ
موشكينَ على السقوطَ في القبر.
كان ليلاً لكنهم كانوا يضيئون..
دماءٌ على الأعشاب تضيء، التابوت يضيءُ
والرجلُ المقتولُ يضيءُ مبتسماً
كأنَّهُ يريدُ أن يتكلمَ ولا يستطيع،
يريدُ نفضَ الدمِ المتيبسِ على جروحِهِ
فيصرخ من الوَجع
يسقطُ ميتاً فتسّاقطُ عليه نجومٌ وأقمار
تطوفُ حولَهُ وجوهُ ملائكةٍ وحفيفُ ملائكه

يحملونَهُ متدافعينَ حولَ القبرِ
وحولَ التابوتِ الذي امتلأ نجوماً واقماراً
يتفرقون وسرعان ما يتجمعون..
يتدافعون لا يعرفون ماذا يفعلون
يُقبّلونَ الرجلَ المقتولَ
يصيحونَ به: انهض..
لكنَّ أصواتَهم تُوجعُهم
يقبّلونَ الرجلَ المقتولَ فيبتسم
كأنّهُ يُدركُ ما يفعلون
كانوا يُقبّلونَهُ ويكلّمونَهُ
وكأنّهم لا يَقوونَ على دفنه
فيصيح أحدُهم: متى ندفنُهُ ؟
فيرد الصدى:
أتتركونَهُ وحيداً في عتمة القبر؟!

• • •

يتفرقونَ وسرعان ما يتجمعون
يُبعدونَ التابوتَ قليلاً
يوشكونَ على السقوطَ في القبر
يريدون أن يقتلوا أنفسهم
أن يتساقطوا إلى القبر الواحدَ تلو الآخر
تاركينَ الغبارَ يتصاعدُ إلى عنان السماء
علَّ طيراً يراهمُ فيُخبرُ عنهم ملوكَ الأرض
أو حراسَ الحدودِ
أو قواتَ الأممِ المتحدة !!

• • •

كانوا يتدافعونَ حولَ التابوت
والتابوتُ يهتزُّ، تتخلّعُ أركانُهُ
تُعيدُ تشكيلَ نفسِها

أصبحَ التابوتُ قارباً يهتزُّ بهم
وموجُ البحرِ يتصايحُ من حولِهم
الرجلُ المقتولُ يتطلعُ إليهم
يريدُ رفعَ يدِهِ كي يودّعَهم فتوجعُهُ الجروح
يصرخُ السوريونَ لكنّهم لا يسمعونَ أصواتَهم
يريدون من الرجلِ المقتول أن يتأكّدَ
من شدّةِ حبِّهِمُ له
يريدون أن يصرخوا أكثر
أن يقولوا أشياءَ أخرى
لكنهم لا يقوون على ذلك،
لا خوفاً من القتلة،
بل خوفٌ على الرجلِ من أن يَعرفَ الحقيقةَ،
أن يعرفَ أنّهُ مقتولٌ وإنهم يريدونَ دفنَهُ
وتركَهُ تحتَ التراب للنمل المجنون ونواميس الظلام!
فتتخلّعُ قلوبُهمُ وجعاً
كأنَّهم يقولون له: لماذا لا تتحرك؟
انهض وغادر التابوت
لماذا قتلوكَ قبلَنا؟
أحقاً يريدونَ قتلَنا جميعاً ؟!
لكنهم لا يَقوونَ على الكلام
كانوا يُهمهمونَ ويبكونَ ثم يصرخونَ
وإذا بالتراب ينهارُ ويسقطُ التابوت
فيتساقطونَ الواحدَ تلو الآخرِ في أعماق القبر
فأسقطُ معهم صارخاً بأعلى صوتي:
ولكن لمن نتركُ دمشقَ واللاذقيةَ ووجوهَ الغرقى
ورسائلَ الحبِّ وأوجاعَ الأشجار؟!
لمن نتركُ صورَ الشهداءِ
ورائحةَ البحرِ وزهورَ التفاحِ؟
أصرخُ
فيتصاعدُ غبارُ القبرِ إلى عنان السماء
فنخرجُ راكضينَ مغمورينَ بالأمطار والبروق
نركضُ ونركضُ ولا نصل

نركضُ ونركضُ متلاطمين بالغبار والعثرات
ودمشقُ تَلوحُ تُلوحُ لنا وتَبتعد!!

٢ ـ الرؤيا

مطرٌ سوريٌّ يهطلُ ولا يصل
يهطلُ مندفعاً في الريح
مُندهشاً من هبوبِ العَواصفِ
يَرشقُنا ونحنُ نتساقطُ قتلى في التظاهرات
مطرٌ في الريح
يرشقُ أوراقَ التاريخِ المتطايرةِ حولَ قبورِنا
مطرٌ يهطلُ ولا يصلُ الأرض
يهطلُ ولا يوصلنا
مطرٌ هائمٌ
مطرٌ طائرٌ مع الطيور
....
....
بحرٌ سوريٌّ يَشهقُ مطعوناً
فينسحبُ إلى الأعماقِ
تاركاً أقمارَ الليلِ وبقايا أشجارٍ
على سواحلهِ المهجورة..
وجوهُ الغرقى تسألُنا في الليل
عن أشواكٍ وجروحٍ قتلتهم
عن حفيفِ ثيابٍ وقُبلٍ ملهوفةٍ
بدّدتها أمواجُ البحرِ المتلاطمةُ في الريح
....
....
البحرُ السوريُّ يَشهقُ مُنسحباً مطعوناً
ثم يهبُّ كشعبٍ مجنونٍ متدفقاً على مدنٍ
تتدفقُ على مدنٍ أخرى
شعبٌ يتدفقُ بالبهجة والأمطار

نرقصُ في ساحاتِ الفجرِ وغاباتِ الفجر
نرقصُ ترقصُ معنا الأشجار
نرقصُ نتصايحُ نتطاير
نطير مع الطيور
. . . .
. . . .
ثم يهدأُ كلُّ شيءٍ على وقع خطى الديكتاتور
تهدأ الريحُ
يهدأُ البحرُ ويخفُّ المطر
تهدأُ الحشراتُ في أدمغة الجلادين
يهدأُ المخبرونَ والوزراءُ التعساءُ
على وقع خطى حافظ الأسد
وهو يُحملقُ بأولادِه قلقاً على مصيرِهم
لكنَّهُ لا يجهشُ بالبَكاءِ ولا يتكلم
فقد تعلمَ القسوةَ والرصانةَ الرخيصةَ
كديكتاتورٍ فظّ
سجنَ بلاداً واسعةً أربعينَ سنةً متواصلةً
ثم وضعَ مفاتيحَ السجنِ في جيوبِ أولادِهِ
وضعَ لهم على الطاولةِ حلوىً وزهوراً ورائحةَ قبور
حلوىً وزهوراً وخناجرَ ينظفون بها أسنانَهم

• • •

رائحةُ دماءٍ تَعِمُّ البلاد
رائحةُ دماءِ قتيلٍ ما زال يرفسُ وسطَ الشارع .

• • •

لقد تركَ الديكتاتورُ في عيونِ أولادهِ ،
المفتوحةِ ككهوفٍ موحشةٍ ،
أشلاءَ سوريا وهي تصرخُ مطعونةَ القلب تركضُ خائفةً من أن يسحبَها
البحرُ حين يشهقُ مطعوناً منسحباً إلى الأعماق . .

لكنَّ البحرَ يتدفقُ متصاعداً
ونتدفقُ معَهُ نحنُ السوريينَ المتراكضينَ إلى ساحاتِ الفجرِ الراقص،
نرقصُ في ساحاتِ المدنِ المفتونةِ بالنورِ والتينِ والجروحِ والياسمينِ ورائحةِ الزيتون، نرقصُ ونحنُ نرى الديكتاتورَ يركضُ هارباً تاركاً أولادَهُ أمامَ قطارٍ مجنون، قطارِ القتلِ والسفالةِ وأكلِ لحومِ البشرِ والزقومِ فيتطايرُ معَهُ الجرادُ والجلادونَ والحشراتُ التي في أدمغةِ الجلَادين.

....

....

لماذا تتراكضونَ مذعورينَ يا أولاد الكلب؟!
إلى أين تهربونَ يا ضباط المخابرات؟!
لمن تركتم الفيلاتَ والشققَ العاليةَ والسياراتَ الفارهة؟!
لمن تركتم أسهمَكم تتصاعدُ على شاشاتِ البورصةِ العالمية؟!
من سيرثها؟!
ومن سيرثُ جثثَ القتلى وذكرياتَهم وبقايا النقود في جيوبهم؟!
إلا تحنُّ قلوبُكم إلى سرقةِ محابسِهم وأقراطِ زوجاتِهم بعد أن سرقتم جوازاتَ سفرِهم وأسماءَهم وأصواتَ أمهاتِهم وأجراسَ طفولتهم؟
كيف تتركونَ جثثَ القتلى بين الأنقاض وتهربون يا أولاد الكلب؟!
لماذا قتلتموهم إذن؟!
لماذا تركتم بلاداً محطمةً تركضُ وتسقطُ.. تَنهضُ وتركضُ وتتعثرُ..
تتلفّتُ بحثاً عن نفسِها فلا تجدُ غيرَ صراخٍ ووحشةٍ في سماوات تهتزُّ وغيومٍ تتحركُ وسفنٍ يرجُّ بها البحرُ وشعبٌ يسبحُ وسطَ ملايينِ النجوم الغارقةِ في هذا البحرِ المرتّجِ حيثُ القتلى وثيابُ القتلى وذكرياتُهم وساعاتُهم اليدويةُ ووجوهُ أمهاتِهم وهوياتُهم الممحوّةُ..
ملايينُ السباحينَ وسطَ ملايينِ الأقمارِ المتلاطمةِ بحثاً عن أبوابِ دمشقَ حيثُ أمواجٌ من البنادقِ تطلق رصاصاً متدفقاً على الدكتاتور..
رصاصاً متدفقاً لا يقتلوهُ
بل ليجعلُوهُ يركضُ ويركضُ خائفاً متلفتاً متعثراً مذعوراً إلى الأبد...

لندن
نيسان (أبريل) ٢٠١٢ ـ آيار (مايو) ٢٠١٣

شعر

إنْ جاءَ الخبزُ

ياسر الأطرش

يا ربَّ المشرقِ..
إنَّ المشرقَ محبوسٌ في خوخِ الليلِ،
فأنضجْ هذا الخوخَ ـ بلطفكَ ـ كيْ نقشرَ أسوار القلعةْ..
يا ربَّ المغربِ..
إنَّ المغربَ مندلقٌ في كل اللون،
وكل زوايا الكونِ..
يحاصرُ آلام الآتينَ إليكَ عراةً يفتتحونَ العمرَ بدمعة.
يا ربَّ المشرقِ والمغربِ إنْ جاءَ الخبزُ.. فهل نعطي للسائل قطعةْ؟
يا ربَّ الناسِ.. من الخناسِ أعوذ ومن شرّ الوسواسِ
وأكثر.. منَ ظلم الحرّاسِ
ومن أنْ يهرقَ ماء الوجهِ
ونحنُ نصلي فرضَ الذلِّ
وإمعاناً زادونا ركعةْ.
يا ربَّ البيتِ.. البيتُ يئنُّ بلا أرواحْ..
لا ذكرى فيهِ، ولا عينٌ ترقبُ خُطْواتِ المشتاقينَ.. ولا مفتاحْ..

البيتُ يغادرُ.. كي يرتاحْ..
من نحنُ.. ومن ذاك المصلوبُ على الألواحْ ؟!
إنْ كانتْ بصقةُ فُوَّهةٍ تطفئُ في الروحِ المصباحْ؟

شعر

قصائد

اياد حياتلة

قرار

الدبّابات
التي عشّشت في فوّهات مدافعها العناكبْ
التي إلتهمها الصدأُ .. في المستودعات
وهيَ تنتظرُ
المكانَ والزمانَ المناسبينْ للمعركة
نَفضت عن جنازيرها غبارَ ضَبطِ النفسْ
وَزَيّتتْ مفاصل جنودها البليدينَ
وَمَضت..
هي لم تُخطئ الطريق
وسائقوها العميانُ
يعرفونَ تماماً.. إلى أينَ هم ذاهبونْ

خيبة أمل

الميّتون في القبورْ

الذين استيقظوا على عجلٍ.. مستبشرينَ
على صرير الجنازيرِ
الهادرة فوق رؤوسهمْ
ضحكوا حدّ البكاء
ولوّحوا باتجاه الغرب
لكنّهم بكوا كثيراً
وعادوا إلى سباتهم.. عندما تجمّدَ الصوتُ
تماماً.. فوقَ أضرحتهم الحالمه

رمية حجر

القلمون
التي تتّكئ
على شُرفة الله
لا تحتاجُ
أكثرَ من الوقوفِ
على رؤوس أصابعها
لكي
تُوصلَ
شهداءها
إلى
العرش

تحيّة

لا أرفعُ قُبّعتي للشّهداءِ السوريّينْ
فأنا لا ألبسُ واحدةً
أرفعُ قَلبي
وَألوحُ لهم بِعِقاليَ
والكوفيّة

ليس كابوساً

نمتُ على عشرين شهيدٍ
واستيقظتُ على سبعين

خمسونَ ارتحلوا تحتَ لِحافي
فوقَ سريري
في أحلامي
قبلَ تفتُّحِ أغنيةِ الهيل بفنجاني
يااااا
لِبُؤس صباحيَ الميّتْ
يااااا
لِبهاء لياليَهُم الحيّة

السوريّون

السوريّون
الذين ابتدعوا الأبجديّة
وعلّموا العالم الكلامْ
يَزجرُهم - هذا العالمُ
الذي علّموه الكلامَ - اليوم
آمراً إيّاهم أن يموتوا بصمت
وأن يدفنوا شهداءَهَم
دون نقشِ أسمائِهم على الشاهداتْ
أن يداووا جراحَهَم بجراحِهِم
ويخرسوا
.
أيّها العالم
الذي علّمكَ السوريّون الكلام
كم أنتَ جاحدٌ وَوضيعْ
وأصغرُ من أن أبصقَ في وجهكَ
الذي لا وجهَ لَهْ
وَقد آن لكَ أن تبلعَ لسانكَ في مؤخّرتك
وتغرق في بُكمِك القديم
وتنصت لهم وحسبْ
..
إنّهم يغنّونَ للحريّة
السوريّون....

الذينَ علَموكَ .... الكلامْ

الحماصنة

اليوم الأربعاء
يتسلّلُ الشهداءُ الحماصنةُ من قبورهم
في غفلةٍ من الجميع
يتبادلونَ النكات
يهزأونَ من قاتليهم
ثمّ يعودون للنوم
حالمينَ بِخميس الحلاوة
حلم
حمص
حلاوة
حريّة

ألوان

للحَجَرِ الأسْوَد.. قَلبٌ أبيضُ
نَفْسٌ لِلحريّةِ خَضراءُ
وَلَهُ أيضاً
ذاكرَةٌ مِنْ صوّانٍ
لا تَأبَهُ للقَـف
وَلا.. تَنْسى قَسَماتِ القَتله

لا فرق

الشهداءُ الفلسطينيون
لَم يُخطّطوا ليموتوا هنا
فقد كانَ لديهم حُلمٌ آخر
يبدأ من زقاقِ المخيّم
ولا ينتهي في القدس
ـ أن يُقتلوا برصاص العدوّ
في معركة التحرير
على رُبا فلسطين ـ

ومع ذلك
لم تختلف نهاياتهم كثيراً
فقد استشهدوا
برصاص العدوّ نفسه
في معركة التحرير نفسها
ولكن.. على رُبا سوريّا

بَشَر
أيّها الحديدُ الباردْ
تَرفّقْ بقلبي
وَهبني ثلاثَ شهقاتٍ فقطْ
ثلاثَ حثياتٍ
أنثرهنَّ برفقٍ على جسدي الطري
على دميَ الساخنْ
على أشلائيَ المتنافرةِ المتآلفة
هَبني دقائقَ أبكي عليّ
قدرَ نحرِ شهيدٍ جديدٍ فقط
وَلتعذر وَجعيَ السائلَ أيّها الحديدُ الصلبْ
لأعذر أنا بدوريَ سائقكَ المفجوع
أعرفُ أن لا وقتَ الآن لرفاهيّة الوداعْ
فَالرّصاصُ .. على أُهبته
وَمزيدٌ من القبورِ.. تَنتظرْ

لا نهائي
مَع السَحبة الأولى
من أركيلتي الثانية.. في الليلة الثالثة
لعيدي السادسِ والعشرين
بَعيداً عن هواءِ دمشق.. وصخبِ المخيّم
وَمع فنجان القهوة المرّة الذي لا رَقم له
والذي لم تصنعه يدا أبي
أهاتفُ أميّ للمرّة السابعة اليوم
وأرسلُ دمعي الذي لا يُعدُّ

تجاهَ الجنوبِ
وأقرأ فاتحةً للشّـهيدِ
الذي
لن يكونَ الأخيرْ

توأمة

غـزّةُ.. وَفُـؤادي
والـشـامُ.. تَـوائِـمْ
وأنـا في حُلـمِ الأطفالِ الغافينَ
هنا وهنالكَ هائمْ
بَـيـنَ مَـجازرِ حيّ الـزيـتـونِ
وَكَـرمِ الـزيـتـونِ
قَـتـيـلٌ
مِـن مَـوتـيَ أصـحـو
والـعـالـمُ
فـي صَـحْـوتِـهِ .. نـائِـمْ

صَدى

عندما تُمطرُ في غلاسكو
يَنزفُ قلبي دماً في دمشق
وينثر عطرهُ.. في شوارع غزّة

شعر

أندلس ٢٠١٢

ناصر فرغلي

(فلامنجو ١)

....
ليسَ لي أندلسْ
كي أعودَ لها
لستُ للأندلسْ
كي تعودَ إليّْ
كلُّ شمسي خرَسْ
بينما ظلُّها
في صهيل الفَرَسْ
مَوْسَقَاتُ حُلِيّْ
ثُمّ دَقّ الجرَسْ..
ثُمّ فَزّ المَهَا..
ثُمّ إنّ الحرَسْ..
ثُمّ إني عَلَيّْ !

(فلامنجو ٢)

. . . .
كل هذا الأزرق
المفروش كسجادة ليست لقدميك
ولا لعينيك حتى،
آخِرُهُ أذناك
حين يذوب فيهما الكلام والملح.
أصواتك داخلية يا صاحبي
ولا يمكن تركُها في الفريزر
ها بعضها بكاءً من الأصابع
بعضٌ آخر ضحكات
ترنّ في المعمورة
حيث على الرمل أمُّك
تُضاجعُ المسجّلَ الناشيونال
آه يا ماما..
آه.. يا أندلس..
آاااي ي ي يايا ي ي يايااي ي..

(فلامنجو ٣)

. . . .
أنا واللهِ أتْعبَني سؤالي
وأوْردَني بُعَيْدَ التيهِ تِيهَا
وألطمُها يدي الحمقا بخدّي
وتُدمي قُبلتي مَنْ يشتهيها
وتتركُني ببابِ الليلِ رُوحي
لتُسلمَني إلى رُوحٍ تَليها
أنا الفلاّح منْكوداً أغنّي
لأنْدلُسٍ تَرى فِيّ الشبيها !

(فلامنجو ٤)

. . . .
. . وكانت السّلافيةُ الشاهقة
تُعيدُ ترتيبَ الجهات التي سنميلُ لها
تُجبرُ الأُفقَ في حانةِ القمرِ الأزرق
على توفيقِ أوضاعه
بما لا يُخالفُ قامتَها المباغتة
لقياساتِ الموريسكيين
في بناءِ أقواسِ الخيبة
لكنّ جوّالاً من السنغال
انحنَى كنخلة في حكاية
وحَطّ أساورَ وأقراطاً في حِجْرِها
أخرَجَ الإنجليزيُّ حافظتَه
وأخذَ يحسبُ كمْ جاروفاً من الفحم
قفزتِ الآسيويةُ بالفاتورة
قبلَ أن ينضبَ المنجم
دخَلَ المارياتشي أوكْتافاً
أرعشَ المصابيح
كتَبَ العربيُّ قصيدةً وهو يلهثُ
ثُم يأتي لاعب الدرامز
مِن اللامكان
دائماً يأتي لاعب الدرامز
ودونَ أن نعرفَ ملّةَ أُمّه
يسيرُ إلى البابِ مادّاً يَدًا في الفراغ
تلقفُها يدٌ سلافيّةٌ قرأناها كالكتب المقدسة
وعلى إيقاع كعبِها العالي
مغروساً في أنَواتِنا السفلى
تنفجر عناقيدُ أورجازم
في تكعيبةِ شمبانيا
نخباً لما تيسّر
من سورة العولمة.

(موشح)

. . . .

جادَهُ الغيْثُ ببنْت ووَلَدْ
ونَفاهُ لصَحارَى الوَرَق
كلّما أنْدَلُسٌ يَدْنو ابْتَعَدْ
وتَدَلّى جَرَساً في العُنُقِ

كانَ يوْماً لهُ بَيْتٌ وبَلَدْ
فانْطَفا البيتُ وغاضَ البلَدُ
كلُّ صُبْح عندَهُ صُبْحُ أَحَدْ
حيْثُ لا شيءَ هنا لا أَحَدُ
يا سؤالاً مثل حَبْلٍ مِنْ مَسَدْ
هل سيبْقى أمْ سيَبْقى الزّبَدُ

رَسَفَ الخَطْوُ بسلْسال السّنَدْ
نَسَجَ الليلُ فخاخَ الطُّرُق
لمْ يَعُدْ بُدٌّ لما ما منْهُ بُدْ
إنّهُ الآنَ بِنِصْفِ النّفَقِ

(فلامنجو ٥)

. . . .

من أجلِ أسبوعٍ في الشمس
أسبوعٍ واحد
نَدهنُ عجَلاتٍ بشحمِ أجسادِنا
عاماً كاملاً

من أجل أسبوعٍ واحدٍ
واحدٍ في الشمس
نحملُ الشاحناتِ
من ذوات الثلاثين
على ظهورِنا

ونُضاجع الخسّ والدجاج
ونبولُ في فوارغ البلاستيك
عاماً كاملاً
لأن آلةً لا نهائيةً
لا تقف لقضاء حاجة

من أجل شمسٍ واحدة
شمس في أسبوع
نذبحُ الخلايا في المسالخ الرقمية
نقدم القرابينَ للإلهة SHIFT
ونُعلّق التمائمَ لتحْميَنا من DELETE
ونشحنُ أصنامَنا المحمولةَ في حِجُورِنا
كالقطط السيامية
بشلاّلٍ كاملٍ
عاماً كاملاً

ومن أجل عام كاملٍ
عام ـ آخرَ ـ كاملٍ
يأخذُ مكانَه فيٍ سيفيهاتنا
من القفزِ بالزاناتِ والمَقْتَلاتِ الرحيمة
من حقولِ الكيمياء بالحجم العائلي
من شاحناتِ الأجنّةِ المفثوئة
من حضّاناتِ القنابلِ الذكية،
نحتاجُ أسبوعاً
أسبوعاً واحدًا في الشمس
يَرْتقُ فيه البرونز أرواحَنا المستعْمَلة
لنعودَ قتلةً طيبين
نشتري القهوة والعملَ الصالح
في فنجانٍ واحد
إثنان في واحد
يكادُ زيْتُهُ يُضيء.

(Dama De Noche)

....

تفوحينَ ليلاً
على شُرفة للكآبَه
نداؤك يقطُرُ
في بِرْكَةِ النوم خمسَ دقائقَ
خمسَ دقائقَ تكفي
ليلبسَ نومي قميصاً
ويفتحَ بابَه
تَمُرُّ البلادُ الغريقه
تمرُّ بلادٌ شقيقه
تمرُّ النساءُ
تمرُّ حديقه
وطفلانِ في قارّتيْنِ
ونارٌ صديقه
ولكنها لا تمرُّ:
الحقيقه.
فتأتي
لتبحثَ عنها
الكِتابه.

شعر

الآن

هيفاء زنكنة

الآن
لـم تعد
تلك المحبة .
إنها رؤى
نمضغها لنحلم فقط
ولأن العيون معجونة بالدم
لن نراها .

هل أنا أعمى ؟
أسمعه يتساءل .
هذه الفكرة،
تشبه الجلوس في زنزانة
بكوة تطل على زنزانة .
يقول
أنتظر

مجيء أحد المارة
(هل هذا ممكن؟)
لأهمس في أذنه
حكاية بلدي
حكاية سوناتات رمادية .

أشعر بالوحدة
وأنا ألمس تمثالاً من رخام
رأسه معبأ في كيس
كفاه يغطيان عريه
أحدق في رأسه المنحني
أهو / أهي مثلي؟

ينحني أمام مدينة قديمة
أهلها يتفتتون مثل خبز بائت
مثل سجادة تأكلها العثة
مثل كلمات متلعثمة
من فم طفل .

لا يرفع الحزن
جفنيه المتعبين
لأنه سيرى
حزني في عينيه .

- ٢
كل ذلك الحديث
عن اللانهاية

كل ذلك الحماس
الأغاني الحلوة
وموسيقى الفرح

كل تلك الأناشيد
عن محو
الظلام

كل ذلك السير السريع
إلى الأمام
الى الأمام
لنترك
الليل وراءنا

كل تلك الصحبة
الضحك
العاطفة الصاخبة
لنعزف أغنيتنا

كل تلك الصباحات المشرقة
ظنناها أبدية
تعبرنا
اليوم
بأقدام ثقيلة
وهي تجر
توابيت أحلامنا

شعر

بوذا الحديقة

حسام الدين محمد

(١)

لأشتكي للأرض من جسدي
هبطت الى طفيف العشب
أسلمت التراب هشاشتي
وشربت أخلاق الشجرْ

أودعت صوتي جرّة الأوراق
وغفوت في هرأ الطبيعة
والندى
فتطبّعت روحي بحبر الفجل
وفطرة القثّاء

ورقي على ساق الخيارة
سرّتي بتلاتها الصفراء

جذعي مركض الفئران
اوراقي تشاكس خفّة الحلزون
أحبابي ليرقوا قامتي
ويحسوا نبذة
من كرمتي الحمراء

... في غبش الحجارة نمت
نمت في العشب الحييّ
نمت في الاشجار
نمت في الأمل الخفيّ
جمرات مكحلتي اضاءت فانسربت
خلعت طين الآدميّ
لبست ماء الزهر
آخيت التراب
تكفّلت امي السقاية والضياء
فأورق جانحي
وكبرت في رحم الحديقة كالجنين

(٢)

... ورأيت قلب الفجر يرعش
مثل سرّ في خبال العاشقين
ورأيتني طفلاً
صغيراً
متقرفصاً تحت الشجر

مضت السيول
الى خيول الله في الكلمات
(ينحتها المطر)
ورأيتني شيخاً
انا وتمثال الحديقة
حاكمان

على طواحين الهباء
(يضحكها القدر)
...
مضت الخيول
الى سباق الأرض
والأرواح
تسأل
هل يخون الحيّ ميتته
ويهجو الوحش معناه؟

مضت الخيول الى خبال العاشقين
...
أنا وتمثال الحديقة
ضاحكان

شعر

الألم مكان الوردة

حسين الشيخ

حين يسقط شهيد في بلدي يركع الفجر بركبتيه المحمرتين طويلا،
فيما الأحلام تتوهج خلفهما.
—
أوه كم يلزم لأخيط كل الثقوب التي تلتصق بقميصه.
طلقتان واشتياق مر،
شتلة ريحان على مفرق شعره الذي حلقه قبل قليل.
الألم مكان الوردة.... أوه
—
النباتات البرية التي ستنمو على قبور الشهداء ستكون فريدة،
عناقيد العنب السوداء التي ستظلل نومتهم،
ماء أغنياتهم، أناشيد تعبهم،
سأحملها في زفاف عودتي.
شعلة أدراج جبال الساحل،
الماء والريح لأمي.
الوقت لم يعد أبدا في صف الطغاة.

—

الصخر ينمو عند قطرات الدم

—

سأعرض عليك هذه الآلام العتيقة،
سأعرض عليك آلام شعبي يا الله.

—

اذهب لم أعد أريد سماع العواء على طارف الحقل،
حيث تتجمع سواقٍ عابرةٌ دون قصد،
تتشكل حفر على حافاتها دون قصد،
وتنام طيورها مبكرة دون أن تأبه لوقع الخطى المتسارع حين تمطر،
الشجر حينها يرتدي شكل العسس،
والمنعطف يبدو كناقلة جند معطلة.
اذهب هل علي أن أعيد النوم إلى حافتة الأخرى.

—

أيها الديكتاتور المختبئ في قصرك العالي،
أنت الذي ترسل لنا الرسل بالوعود، وترسل لنا الرعاع بهتافك،
وترسل لنا كتائبك التي تقتل أولادنا،
وجحافلك الأمنية التي تعتقل شبابنا،
أيها الديكتاتور الرخيص البائس ذو العنق الطويلة بلا أي مبرر،
لن تطول إقامتك في القصر،
أيها الديكتاتور ستحمل مبولتك وترحل،
لن تجد مدينة في ساحلنا الجميل تتحمل رائحتك،
لن تجد سوى الخيبة والملل الطويل في انتظارك في سجنك،
أيها الديكتاتور الأبله الذي يظن أنه يتذاكى علينا
بخطبه العصماء الناشفة من كل المعاني والمباني
ستحمل خيبتك وترحل عنا دون ندم،
سنسمح لك بزيارات دورية كي ننصت الى بكائك وشكواك كل حين،
ونرسله عبر الأثير لتنصت إليه الأمة وتتعلم،
أيها الديكتاتور لن تستطيع قهر شعبي.

—

شجرة الشعب، لن تستطيع أعاصير الديكتاتور أن تقضي عليها

—

حيث ينزلق المطر على أجساد الشهداء
حيث تهدأ أرواحهم من هذا العناء
والبلل
عناقيد عنب
وأغان.

—

انتزع الدم
الندى المبهر
عن كل تويجة زهرة هناك.

—

قليلا من تعب لا يقبل الرحيل، والكثير من الأمل، الأمل الذي لا يمل من ملاحقة روحي.

—

سيكون سهلا سوقُهم إلى السجون،
جميعهم، إلى ساحات الإعدام الميداني الخلفية،
إلى مسارح التعذيب بكل أشكالة المفرطة والأكثر إيلاما،
حتى لو بقيت وحيدا، تتأمل هذا المشهد، لن تنجو بالتأكيد

—

أريد الخروج من الفحم والندى،
أريد أن أهز الأبواب،
وانا أحمل الأشلاء التي لا زالت على قيد الحياة.
نحن لا يطفئ عيوننا الموت

—

الماء والريح صديقا الشهيد المجهول الاسم، السوري الهوية
دماء القتيل بأعقاب البنادق
تسيل على الادراج
والبساتين
وتمتصها أسراب الذباب الكبير
لقد نشر الطاعون في سورية
كبل الشوارع والمدن
بالطين
وبالتعذيب.

وحين سيأتي الموت إليه
سيجده وحيدا، أبكم
مربوطا إلى خطبه العصماء
دون حرس جمهوري.
–
داس على رفات الشهداء
على الابتسامات
التي لا زالت تطوف في الشوارع
على وجوه الآباء ذوي الشوارب
كان بصحبة آكلي اللحم البشري
المكتنزين بالقتامة
وبالتجاويف المزمنة من القيح
مع تلك الحيوانات الباردة
المختصة بصيد الشعب الباحث عن الحرية.
–
سنحتجزك في أعماق المجازر التي حصلت
مع الضحايا التي بلا أسماء
في رطوبة مستودع الجثث المتحللة
سنحتجزك هناك
كي تتفقد المدافن المنسية
دون حرس جمهوري.

مقاطع من قصيدة طويلة بنفس العنوان

رابطة الكُتّاب السوريين
SYRIAN WRITERS ASSOCIATION
تحت التأسيس
حرية التعبير بلا قيد او شرط

تدعو رابطة الكتاب السوريين ومجلة اوراق الكتاب للاشتراك في جائزتها السنوية للرواية، «المزرعة». تمنح هذه الجائزة سنويا لثلاث روايات فائزة بعد عملية تحكيم من أعضاء تحكيم مشهود لهم بالمكانة الثقافية والأدبية والخبرة في التحكيم الأدبي والفكري.

تحجب إدارة الجائزة أسماء المتسابقين وتعطي المخطوطات أرقاما بدل أسماء أصحابها، ولا يطلع أي من أعضاء اللجنة على الأسماء إلا بعد اختيار الأعمال الفائزة.

يعلن عن أسماء الفائزين بالجائزة في السابع عشر من نيسان من كل عام. وينشر البيان بأسماء الفائزين وأعمالهم وموعد توزيع الجوائز على الموقع الإلكتروني لرابطة الكتاب السوريين www.syrianswa.com وفي وسائل الاعلام.

بمجرد الإعلان عن النتائج يفتح باب قبول الطلبات للجائزة في دورتها التالية، وتستقبل النصوص على بريد الرابطة للجائزة award@syrianswa.com او بريد الجائزة العام almazraaaward@gmail.com ويقفل باب قبول الطلبات في ١٧ كانون الأول من كل عام.

توزع الجوائز في حفل خاص تقيمه الرابطة ورعاة الجائزة في احدى العواصم العربية اذا تعذر الحفل في داخل سورية، وتقوم ادارة الجائزة باشراف من المكتب التنفيذي لرابطة الكتاب السوريين بطباعة الكتب الفائزة.

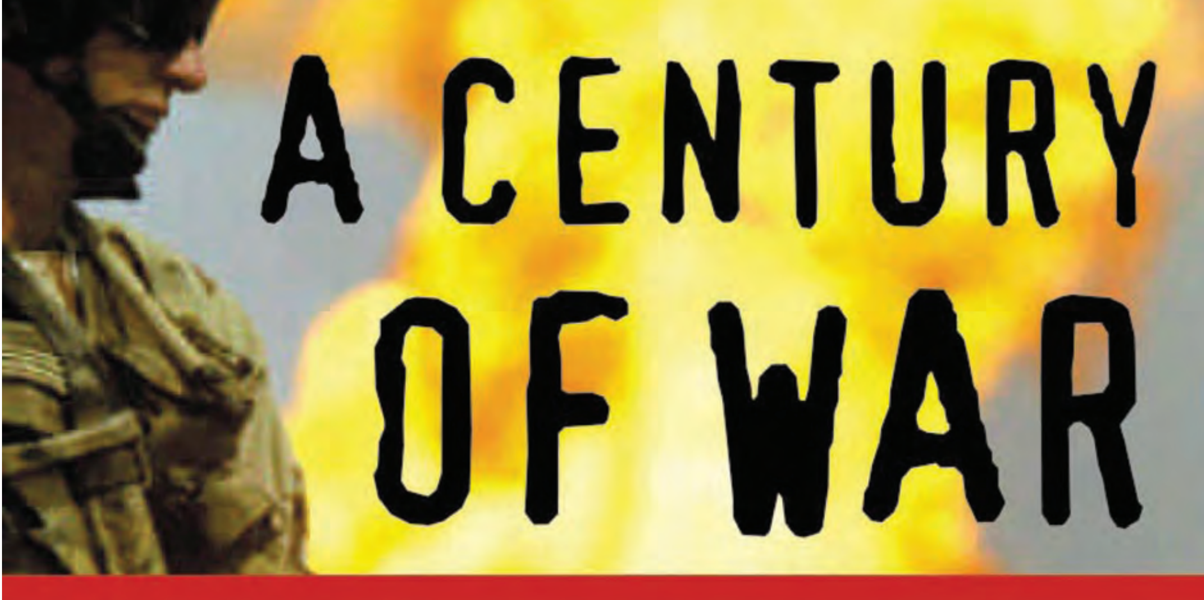
قيمة الجائزة ثمانية آلاف دولار للفائز الأول، وخمسة آلاف دولار للفائز الثاني و٣ آلاف دولار للفائز الثالث.

تصدر الرابطة طبعة خاصة بها من الكتب الفائزة، وباستثناء هذه الطبعة، فإن كل طبعة لاحقة هي من حق المؤلف.

شروط الاشتراك:

- أَن لا يكون المخطوط نشر في كتاب أَو دورية.
- من حق الجهة المانحة للجائزة إجراء تعديلات فنية تراها مناسبة على النص الفائز، ليتوافق وصيغة النشر المعتمدة من الدار، بالاتفاق مع المؤلف أَو المحقق.
- أَنْ يرسل النص في نسخة إلكترونية على البريد الإلكتروني للجائزة.

اوراق الكتب



... وحذار من ذكر الحقيقة

غازي أبو عقل

يتجاهل كثيرون في بلادنا العربية ارتباطَ التقدم بوجود «الفكر النَّقَّاد» وحريته العملية في مجالات السياسة والاقتصاد والثقافة وغيرها، كما يلمس الآثار السلبية لغيابه. ونعرف ما يصيب المجاهرين الخارجين على الأفكار السائدة في سائر الشؤون. لذلك لم أفاجأ وأنا أقرأ كتاب الدكتور محمد محمود الطناحي، المستشار في مركز البحوث والدراسات الكويتية الصادر عن المركز نفسه في عام ٢٠١١ والموسوم بعنوان النفط وعلاقات الكويت السياسية بدول الجوار عام ١٩١١-١٩٩٠.

أسارع إلى القول إن ملاحظاتي عن الكتاب تتركز حول ما جاء فيه عن النفط العربي

وحرب أكتوبر تشرين الأول ١٩٧٣ فحسب، متجاوزاً دور النفط الذي أشار إليه الكتاب في تاريخ الصراع العربي الصهيوني، في عام ١٩٥٦، ١٩٦٧، أما الحديث عن الكتاب بأكمله فهو خارج نطاق هذا البحث.

ولم أتناول ما جاء فيه عن حرب أكتوبر إلا لدهشتي من تناوله لتلك المرحلة، خلافاً لما قرأته عنها في مصادر أخرى.

جاء في الصفحة ١٠٦ وما بعدها عنوان فرعي أثار إهتمامي: النفط الكويتي وحرب اكتوبر ١٩٧٣. كنت أفضل وضع كلمة النفط العربي لا الكويتي فحسب، لأن ما عرضه الكاتب كان كله عن دور النفط العربي الذي تنتجه الدول العربية كلها.

نقرأ تحت هذا العنوان:

لم تكن فكرة استخدام النفط سلاحاً سياسياً وليدة تلك الحرب، لكن سبق طرحها أكثر من مرة قبلها بعقود، ولكن، وللحق، فإن استخدام النفط في أكتوبر ١٩٧٣ كان عملياً ومؤثراً، حيث تمت العملية تحت ما عرف في حينه بدبلوماسية البترول (....) لكن المحطة التاريخية الواضحة في مراحل استخدام النفط سلاحاً جاءت في الأيام الأولى لتلك الحرب.. وذلك حين اجتمع وزراء نفط دول الخليج الأعضاء في « أوبك » الكويت والسعودية والعراق والإمارات العربية وقطر وإيران في دولة الكويت يومي ١٦/١٧ أكتوبر، وذلك بهدف التفكير في مضاعفة أسعار كافة فئات النفط الخام، وكذلك الإعلان عن حظر نفطي ضد الدول المؤيدة لإسرائيل وهو ما تم في اليوم الثاني (....) فقرر الوزراء زيادة سعر النفط بنسبة ٧٠ ٪ (...) وفي اليوم التالي قرروا قطع الإنتاج بنسبة خمسة في المئة من مستوى شهر سبتمبر ١٩٧٣ وذلك شهريا حتى تتحقق أهدافهم في انسحاب إسرائيل من الأراضي التي احتلتها في يونيو عام ١٩٦٧ واستعادة حقوق الفلسطينيين.

وجاء عنوان آخر في الصفحة ١١٤ : حقائق حول حظر تصدير النفط العربي (اكتوبر ١٩٧٣-مارس ١٩٧٤) أنقل منه هذه السطور: اعترفت الدول الغربية بالنجاح الباهر الذي حققه سلاح النفط العربي في المواجهة العسكرية مع إسرائيل رغم محاولات التشكيك، كما كانت حرب أكتوبر نقطة انطلاق لقفزات واسعة وسريعة في أسعار النفط وصلت إلى قرابة أربعمئة في المئة (٣٨٧ ٪) كما اقتنعت الدول الغربية بأنه لا طائل من سياسة التهديد، فبدأت باتخاذ خطوات أكثر عقلانية لمواجهة هذه المواقف مستقبلاً.

قبل مناقشة الأفكار التي أوردها الدكتور الطناحي في صيغة حقائق، أود الإشارة إلى أنها أعادت إلى ذاكرتي دراسة كتبها الأستاذ عيد بن مسعود الجهني، رئيس مركز الخليج العربي للطاقة والدراسات الإستراتيجية، كنت قرأتها في صحيفة الحياة (٢٧ تشرين الأول أكتوبر ٢٠٠٧) تشبه كثيرا في جوهرها ما ورد في كتاب الدكتور الطناحي، وهذه مقتطفات منها أنقلها من مطلع الدراسة:

إن أسعار النفط بقيت تراوح مكانها منذ تأسيس (أوبك) حتى حزيران ١٩٧٣. لأن

الشركات النفطية مدعومة بدولها الصناعية حاصرت (أوبك) ردحا طويلا من الزمن. لا يشرح الباحث أسباب تلك المراوحة ولا دوافع الحصار، لكنه يضيف هذه السطور البليغة: استمرت المياه شديدة الركود حتى هبت عاصفة تشرين الأول أكتوبر عام ١٩٧٣ م وقطعت إمدادات النفط عن الدول التي وقفت مع إسرائيل في مقدمتها أمريكا، فكانت تلك الحرب الشعلة التي أضاءت طريق (أوبك) لتأخذ المبادرة فارتفع سعر النفط باضطراد.... (انتهى الاقتباس).

تعلمت منذ عقود حكمة مفادها... وانظُر إلى أوضاعنا بالضبط من تحتها تجد عروقَ النفطِ. ومع ذلك فلست مؤهلاً لمناقشة ما كتبه الباحثان الكريمان، فما كان مني إلا أن استعنت عليهما بباحث مثلهما هو السيد ف. و. إنجدال، وكتابه الموسوم بعنوان: قرن من الحرب، السياسة النفطية الأمريكية الإنجليزية والنظام العالمي الجديد... الصادر بالإنجليزية في عام ١٩٩٣ م.

قدم إنجدال في كتابه عرضاً مكثفاً موثقاً لتاريخ الحقبة النفطية منذ بداياتها، هذه الحقبة التي ما زالت تعيش أياماً طافحة بالمليارات وبالمآسي من جهة ثانية، وأكتفي بتلخيص نحو عشر صفحات تضمنت معلومات لا تنسجم مع ما نقلتُه من الدراستين العربيتين.

عالج إنجدال المسألة الحساسة المتصلة بمن يحدد أسعار النفط ودور حرب أكتوبر ١٩٧٣ م وما قيل فيها عن قطع الإمدادات. جاءت معالجته مركزة وموجعة في الصفحات ١٨٠ إلى ١٩٠ من الترجمة العربية، حيث نقرأ تحت هذا العنوان الفرعي «اجتماع استثنائي في سالتسيوبادن» ما خلاصته: بأن رئيس الولايات المتحدة الأمريكية نيكسون وضع خطة في أواسط آب أغسطس ١٩٧١ من أجل تقوية الدولار الذي انخفضت قيمته بنسبة كبيرة، خطة كانت نقطة الانطلاق بدأت آثارها بالظهور في مايو أيار ١٩٧٣ عندما اجتمع أربعة وثمانون شخصاً من كبار العارفين بدخائل الأمور المالية والسياسية في جزيرة منعزلة تملكها أسرة مصرفية سويدية تدعى فالنبرج استمعوا فيها إلى وولتر ليفي وهو يشرح خطة لزيادة عائدات نفط «أوبك» برفع ثمن البرميل بنسبه أربعمئة في المئة، وكيفية تحضير المصارف الإنجلو أمريكية الكبرى لاستيعاب طوفان البترودولار المتوقع.

لم يفت إنجدال أن يذكرنا بأن السادة المجتمعين ينتمون إلى مجموعة بيلدربرج التي يعود إنشاؤها إلى أيار مايو ١٩٥٤ م، حيث اجتمع أشخاص مهمون في هذه البلدة الهولندية الهادئة، هم نخبة ذوي النفوذ في العالم الذين يتغير بعضهم لكن الاجتماعات مستمرة إلى اليوم طبعاً!! للتداول في جلسات سرية حول رسم السياسات بعيدة المدى من أجل تأمين مصالحهم في هذه الدنيا المضطربة (نحن العرب نسميها مؤامرة).

أضاف إنجدال في الصفحة ١٨٢: في ربيع ١٩٧٣ قرر الرجال الأقوياء، (البيلدر برجيون) شن هجوم واسع على النمو الصناعي في العالم من أجل إعادة توازن القوى لخير المصالح المالية الأنجلو أمريكية، فقرروا استخدام أثمن أسلحتهم أي الهيمنة على تدفقات النفط بإحداث

حظر نفطي عالمي لزيادرة الأسعار جذرياً.

ونقرأ تحت عنوان آخر، صدمة كيسنجر النفطية في حرب تشرين أكتوبر، في السادس من تشرين أول أكتوبر هاجمت القوات المصرية والسورية إسرائيل مشعلة ما أصبح يعرف في وسائل الاعلام بحرب يوم الغفران اليهودي، وعلى خلاف الانطباع العام لم تكن هذه الحرب نتيجة خطأ بسيط في التقدير أو الحساب، أو نتيجة قرار عربي بتوجيه ضربة عسكرية ضد إسرائيل، فمجموعة الأحداث التي أحاطت باندلاع الحرب قد نسقت سرا من واشنطن ولندن عن طريق استخدام القنوات السرية الدبلوماسية التي طورها هنري كيسنجر مستشار الأمن القومي للرئيس نيكسون.

وكانت الدول العربية المنتجة للنفط ستغدو كبش الفداء للسخط العالمي، بينما وقفت المصالح الأنجلو أمريكية المسؤولة عن الأزمة في الخلف... وفي منتصف تشرين أكتوبر ١٩٧٣ أخبرت حكومة ويلي براندت الألمانية سفير الولايات المتحدة أن المانيا تقف على الحياد في نزاع الشرق الأوسط، وأنها لن تسمح للولايات المتحدة بإعادة إمداد إسرائيل من القواعد العسكرية الأمريكية في ألمانيا، فوجه نيكسون في الشهر نفسه إلى براندت رسالة إحتجاج حادة اللهجة.. لقد رفضت واشنطن السماح لألمانيا بإعلان حيادها، لكن من الأمور ذات الدلالة أنها سمحت لبريطانيا بأن تعلن إعلاناً واضحا عن حيادها فتجنبت تأثير حظر النفط العربي وذلك أن لندن ناورت ببراعة والتفت حول أزمة دولية كانت هي من عجل بحدوثها. وقد كانت إحدى نتائج زيادة أربعمئة في المئة في أسعارنفط (أوبك) أن شركة البترول البريطانية B.P وشركة شل الهولندية وشركات نفطية أنجلو أميركية لها استثمارات بمئات ملايين الدولارات في بحر الشمال المحفوف بالمخاطر، لم تكن لتعطي أرباحاً مجزية لولا تلك الزيادة.. فمن الحقائق العجيبه في هذا الزمن أن ربحية حقوق نفط بحر الشمال الجديدة ما كانت لتتم إلا حين حدثت صدمة كيسنجر النفطية...

أجمعت مصادر أخرى على أن تكلفة استخراج برميل واحد من النفط من بحر الشمال كانت نحو ستة عشر أو ثمانية عشر دولار في حين كانت تكلفة استخراج البرميل في المنطقة العربية تقل عن دولارين أو ثلاثة دولارات. ومع ذلك يتعامل باحثونا بعواطفهم مع مثل هذا الأمر الذي لا مكان فيه للأحاسيس ناهيك عن العواطف ويجعلوننا نظن أننا نتحكم في مجريات هبوب الرياح.

لا أريد رش الملح على الجرح.. لذلك أقف متردداً أمام ما ورد في الصفحة ١٨٤ حول قرار الدول العربية المنتجة في ذلك الاجتماع المشار إليه آنفاً في كتاب الدكتور الطناحي، ولما كنت غير راغب بتقليد التي تدفن رأسها في الرمال، سأتابع النقل من كتاب إنجدال الذي أشار إلى قرار تخفيض الإنتاج بنسبة خمسة في المئة شهريا إلى أن يتم الانسحاب الإسرائيلي من الأرض المحتلة في عام ١٩٦٧ واستعادة حقوق الشعب الفلسطيني.

لقد كانت صدمة النفط الأولى أو شكوكو كما يدعوها اليابانيون تأخذ مجراها... اذكّر

بأن كتاب أنجدال نشر في عام ١٩٩٣ لا يسعني هنا إلا التنويه بمعلومة أوردها الأستاذ الجهني أجدها مهمة جدا في كشف جانب لا نهتم به كمواطنين عادة في ما يتصل بأسعار النفط.. إن القيمة الفعلية للأسعار تبقى دون المستوى الذي بلغته في نيسان أبريل ١٩٨١ عندما كان سعر البرميل أربعين دولاراً ولكي تحقق الدول المنتجة ما يعادل أربعين دولاراً من دولارات ١٩٨١ فلابد من أن يبلغ سعر البرميل مائة دولار».. لذلك ينبغي ألا نفاجأ إذا قرأنا ما كتبه جوزف واتسون الأمريكي الخبير في هذا الميدان حيث أشار إلى أن « مترنيخ النفط « هنري كيسنجر عضو جماعة بيلدر برج واهتمامها الأول العمل بكل الطرق لتحطيم بعض الطبقات المنهكة والفاشلة عالمياً، والسعي إلى تحقيق الثورة الثانية ما بعد الصناعية، قد اجتمعت في أوتاوا كندا العام ٢٠٠٦ وقدرت ضمن توصيات كيسنجر وخوسيه باروسو أن يزداد ثمن البرميل إلى مئة دولار في نهاية عام ٢٠٠٨.

هل يحتاج الموضوع إلى تعليق؟ وهل يجوز القول إن اجتماع وزراء النفط العرب في اكتوبر ١٩٧٣ كان هدفه التفكير في مضاعفة أسعار النفط؟ بينما اتخذ نيكسون القرار في عام ١٩٧١ وجاءت مجموعة بيلدر برج في ربيع ١٩٧٣ لتصادق على الإجراءات التنفيذية.

ولئن كان مثل هذا القرار الخطير لم يصل إلى علم القادة العرب يومئذ، فكيف نقرأ لباحث عربي في ٢٠١١ ما نشر نقيضه منذ عام ١٩٩٣ على الرأي العام؟

مع ذلك لست أطالب بتبني ما ينشره خبراء الغرب، ولكن أما كان ينبغي مناقشة آرائهم وتمحيصها أو تفنيدها أو تأييدها؟ وهل يجوز بناء أفكار أجيالنا الجديدة على منهاج: إذا بلغ الفطامَ لنا صبيٌّ؟

لفتتني ملحوظة جاءت في الصفحة ١١٣، وفيها يشير الدكتور الطناحي إلى واحد من مصادره وهو كتاب توماس. أ. جريسون «العلاقات الدبلوماسية الأمريكية مع الشرق الأوسط» الذي ترجم إلى العربية ونشرته دار طلاس السورية في ١٩٨٥. الطريف أن كتاب وليام إنجدال الذي إعتمدتُ عليه لمناقشة كتاب الدكتور الطناحي نشرته دار طلاس نفسها في عام ١٩٩٦. فكيف لم يكتشفه الدكتور الطناحي، وكيف لو اكتشفه؟

وليام إنجدال : قرن من الحرب ـ السياسة النفطية الأمريكية الإنجليزية والنظام العالمي الجديد ترجمة محمود فلاحه ـ الناشر دار طلاس ـ دمشق ١٩٩٦.

قراءة

"بلاد سعيدة" لشاكر الأنباري: توقع الانتفاضة في العراق

هاشم شفيق

يُكرّس الروائي والقاص العراقي شاكر الأنباري عمله الروائي الجديد «بلاد سعيدة» الصادر عن دار «التكوين» ـ دمشق، لبلده العراق، ذاك الذي غاب عنه قرابة الثلاثين عاماً، مقيماً ومتنقلاً في مناف عديدة، كالبرازيل والدنمارك ودمشق التي أحبها وأصدر العديد من اعماله فيها ما بين قصة ورواية وكتابات سردية وترجمات.

بعد تلك التنقلات والعيش المضني وقلق الإقامة غير المستقرة يعود سعيد الشخصية الرئيسة في الرواية الى «البلاد السعيدة» والمعني هنا العراق، فالتسمية تحمل دلالات ساخرة ومريرة عن العراق القديم الذي سُمّي بتسميات متعددة مثل «دار السلام» و «بلاد ما بين النهرين» و«كلواذة» و«البلاد السعيدة» وغيرها من التسميات التي كان يطلقها عليه حكامه ومؤرخوه.. «بلاد الرشيد» و«بلاد الف ليلة وليلة» وآخرها «عراق صدام حسين» هذه التسميات كلها تحمل معاني مضادة ومعكوسة لأصل التسمية، فدار السلام تحولت الى دار حرب، والف ليلة وليلة أصبحت آلافاً من الليالي الحزينة، والبلاد السعيدة أضحت بلاداً تعيسة، والعراق الكبير اختزل باسم طاغية، وبلاد ما بين النهرين تعاني الآن من القحط وشحة في الماء.

إذاً يعود سعيد بعد غيبته الطويلة غبّ زوال الديكتاتورية، فهو متشوق وبه ظمأ لارتشاف كل ما يراه، ظمأ لرؤية الأهل وملامسة الأماكن القديمة، وشوق لرؤية أصدقائه وقريته ونهر الفرات الذي يمر بالمنازل الريفية وهو يقطع الحقول والبساتين والقرى المتاخمة لقريته «الحامضية» وهي ناحية من أعمال قضاء الفلوجة التابع لمحافظة الأنبار.

أثناء عودته في عام ٢٠٠٤، ينتابه الفرح بغياب حزب البعث وطغمته الحاكمة، فهو يسعى لتنشق هواء الحرية وتلمس الأجواء الديمقراطية في العراق الجديد، ولكن العائد ما أن يستتب ويتفحص بعين الفنان والإنسان ما جرى ويجري، حتى يجد العراق الجديد عراقاً قديماً، والديمقراطية هي أن تحمل كاتماً للصوت، وترفع عقريتك بالقول الطائفي، وبعد غياب الديكتاتور هناك دزينة من الديكتاتوريين الجدد ومجموعة من اللصوص والقتلة والرجال الفاسدين وكم هائل من السياسيين العائدين والمقيمين ينحرون العراق، برفقة الدبابات الأميركية وإرشادات الحاكم بول بريمر وطاقمه من الحاقدين على أرض العراق وتاريخه العربي.

في الحال يصدم صاحب «الكلمات الساحرات» بعودته التي لم تحقق له إلا المزيد من المتاعب والآلام الجديدة، وبالأخص حين تقوم القوات الأميركية في عام عودته وفي العام الذي يليه بتنفيذ مهمات عسكرية وقتالية تطال مدينة الفلوجة ونواحيها وقراها ودساكرها الكثيرة، كونها أكبر قضاء في العراق، تابعاً لأكبر محافظة عراقية هي الأنبار، وهو في خضم التمهيد لهذه العودة عبر السكن في بغداد ووجود عمل في إحدى الصحف البغدادية، ومحاولة الإمساك بالمشهد القديم وربط الصلات من جديد بالأهل والأقارب والأصدقاء، تبدأ الحملة العسكرية ـ الأميركية الظالمة التي استخدمت فيها اسلحة محرمة دولياً لتنال من أطفال الفلوجة أولاً ومن ثم شيوخها ونسائها اللواتي تعرضن للاغتصاب على أيدي القوات الاميركية والعراقية في السجون والمعتقلات وفي اماكن العمليات ذاتها حين كانت تقوم هذه القوات بمهامها الوحشية واللا انسانية ضد أناس عزل، لتطال نارالعمليات العسكرية عبر الراجمات والصواريخ واالقنابل الفسفورية عقر دار العائد، فيستشهد من أبناء عائلته قرابة التسعة أشخاص من ضمنهم عمه وأولاده وبعض النساء والاطفال.

حين يلملم العائد جراحه ويرضخ لمصيره الجديد، كون العمليات صارت تتوسع لتطال مدينة في بغداد هي من اشد مدن العالم فقراً، بطابعها السكاني والديموغرافي هي مدينة الثورة سابقاً والصدر حالياً، يتجرع البطل سعيد هذه المشكلات على دفعات، كون العراق محتلاً، ويعيث فيه الخراب من كل جهاته، فيتقبل البقاء ولكن على مضض، معللاً النفس بتحسن الأحوال والشروع في تخطي البلاد الأزمات من خلال ما كان يسطر من كلام سياسي في الميديا العراقية التي من مهماتها الرئيسة نشر الأكاذيب والتغطية على الفساد المستشري كمرض عضال والتستر على أعمال المسؤولين من قتل ونهب للمال العام وتخريب لبنية المجتمع العراقي.

في منعطفات الصبر هذه ينشغل الراوي في وصف حالة القرية وأهلها ومراقبة التحولات

الفيزيولوجية والسايكولوجية لدى الأهل من إخوة وأخوات وأبناء خؤولة وعمومة وأصدقاء الدراسة والسنوات البعيدة على لسان الراوي الذي هو أخوه، الموظف وخريج الجامعة، ينشغل في متابعة كل صغيرة وكبيرة في العاصمة بغداد ومتابعة الشأن السياسي حتى تقع الطامة الكبرى، وهي الحرب الأهلية التي ستستغرق قاربة العامين بدءاً بعام ٢٠٠٦ حتى نهاية عام ٢٠٠٧، لتكون تلك الحرب البشعة بين شعب واحد متداخل في النسب القبائلي والمصاهرة والزواج والمعاشرة لدى جميع أبناء هذا الشعب الذي هدت قواه شتى الحروب والنزاعات والمشكلات اليومية، لتكون حرباً جديدة من ابتكار ايديهم.

ينكفىء العائد حينذاك على ذاته، منفرداً مع حالته النفسية الجديدة، وليدة المطحنة الدموية التي لا تفتأ تطحن رؤوس أهل البلد الواحد، فيمضي لتزجية الوقت على ضفة الفرات بين شجرات الطفولة والماء الذي كان يقطعه حين كان فتى الى الضفة الأخرى، متسابقاً مع رفاق طفولته وصباه، ولكنه في استراحة النهر هذه يبدأ النهر بإظهار وجه آخر، متسق مع حالة الحرب الأهلية، ليريه وهو جالس على ضفته جثث الضحايا الطافية على الماء، أو تلك التي تمر عائمة وعليها آثار التعذيب، انه مشهد جديد، مأسوي ينضاف اليه فيه الكثير من الوحشية والسمة البربرية، فيعاف النهر والذكريات والنسمات الحارة في صيف ساخن، وهولا يلوي على شيء سوى إعادة الكرة مرة ثانية للخروج من هذا المأزق الجديد.

كل هذه المشكلات والقضايا والحوادث التراجيدية ستشكل للعائد حافزاً آخر لمغادرة البلاد، فيبدأ ببيع أثاث المنزل وسيارته وترك وظيفته والعودة مرة ثانية الى طرقات المنفى، ومحاولة البدء من جديد وطرق الأبواب في رحلة البحث عن منافذ وسبل للعيش في الهجرة التي ظلت متواصلة والتي عادت الى الاستئناف في زوايا العالم.

ان «البلاد السعيد» التي عاد اليها البطل الأبرز في الرواية سعيد، تؤشر الى فشل مشروع الاحتلال الذي قسم البلد على أسس مذهبية وطائفية، ليخلف مشروعه المزيد من الفتن والمزيد من الاحتراب بين كل مكونات الشعب العراقي، وما انتفاضة أهل الأنبار التي ظهرت ملامحها منذ أكثر من شهر إلا وليدة هذه السياسة الرعناء، تلك التي عزلت وهمشت آمال الناس في العيش والبناء المشترك وصناعة عراق حديث خال من حس التمذهب بين مكوناته المختلفة.

تحت هذا المنعطف الخطير كتبتْ «بلاد سعيدة» متوقعة ما سوف يحدث لاحقاً، لأناس ذاقوا علقم المعاناة عبر مسيرة طويلة من الآلام والخيبات والنكسات المتوالية، وكل ذلك جاء عبر لغة مكثفة وجمل قصيرة وواضحة، تتخللهما نبرة شفيفة في بناء العالم الروائي ذي الشخصيات القليلة والأمكنة المبتسرة، وهذه الصفات هي التي ميزت على الدوام اعمال شاكر الأنباري القصصية والروائية.



جويل ديكر: نجم ساطع مبكر في عالم الأدب

رياض معسعس

أكثر من ناقد وصفه بالكاتب المعجزة. ومعجزة الكاتب أنه شاب ذو قلم ذي إعجاز أثار اهتماما غير عادي في الأوساط الأدبية وهو لم يتم بعد السابعة والعشرين. نال أرفع الجوائز الأدبية مع إصدار عمله الثاني. أسال لعاب شفاه الأقلام على صفحات الصحف السويسرية والفرنسية للتعليق على نابغة الأدب الصاعد جويل ديكر.

هذا الشاب السويسري المولود في جنيف في العام ١٩٨٥ من أب مدرس للغة الفرنسية، وأم صاحبة مكتبة، كان هاويا للتمثيل الدرامي حيث التحق بأحد معاهد التمثيل في باريس، لكنه فضل فيما بعد العودة إلى جنيف والالتحاق بكلية الحقوق. إلا أن كونه فأرة مكتبة والدته، وابن ابيه المولع باللغة الفرنسية وآدابها، انغمس حتى شحمة أذنيه في مغاطس الأدب، وفنون الرواية الطويلة وسن اسلوبا خاصا يمتاز به يجعله فاتحة جديدة في هذا الفن الذي سبقه إليه عشرات، بل مئات العمالقة التي من الصعب الوصول إلى قاماتهم إلا بعد جهد جهيد، وعمر مديد.

في سن العشرين لاحت عليه أول بوادر النبوغ عندما أصدر أول عمل له تحت عنوان: النمر. لكنه كان كتجربة أولى، خجولة، مترددة، متلكئة، لا ترقى إلى المواصفات المطلوبة

من عمل روائي بمعايير العصر، وأهواء القراء، لكنها وضعت قدمه على أول درجة في سلم الصعود. في عمله الثاني بدأ قلم ديكر يترسخ في أسلوب مجدد، رشيق، أنيق، رقيق، دقيق، شيق، جذاب، يجعلك تلهث وراء قلمه، ماشيا، ثم مهرولا، ثم راكضا على صفحات روايته: الأيام الأخيرة لآبائنا. الصادرة في العام ٢٠١٢، لكنها بقيت في حجم رواية هاو يبحث عن نفسه، وعن مكان في عالم الأدب الأوربي دون أن يثير عاصفة، أو حتى زوبعة، بين الأوساط الأدبية ودهاقنة النقاد الأوربيين. لكنها وضعته على الدرجة الثانية في سلم الصعود.

في العام ذاته، ولم تجنح الشمس بعد للمغيب، فاجأ ديكر الجميع بإصدار روايته المعجزة: الحقيقة حول قضية هاري كيبير. التي لم تكن سباقا جديدا بجياد قديمة. إذ ما أن صدرت حتى تصدرت رفوف المكتبات، وانكبت عليها عيون النقاد. بل أن دهاقنة الكتاب الفرانكوفونيين أصابهم حول ودهشة، ثم ذهول. بل أن الرواية عصفت في عقولهم عصفا، وقصفت قصفا. بعد أن نالت أرفع الجوائز الأدبية:

جائزة الأكاديمية الفرنسية

جائزة غونك ور للناشئين

جائزة بلوشاتن بلانشيه

فرشقوه بوابل من من عبارات المديح والثناء، وقلما يمدحون، فظلوا يلهجون بأفضالها ومحاسنها حتى بلغت مبيعاتها أرقاما لا يحلم بها حالم، ففي فرنسا فقط بيع منها أكثر من نصف مليون نسخة، وأصحاب المكتبات ما زالوا يبيعون، والقراء منها ينهلون. فلا تكاد تصعد حافلة إلا وترى أحد الركاب غارقا في صفحاتها، ولا تستقل قطار الأنفاق إلا وتقع عيناك على آخر مبحلقا في صفحاتها، ناسيا ضجيج العجلات، وصحب الناس وجلبتهم، والإعلان عن محطة يتوقف فيها القطار، هنا محطة الكونكورد، وهنا محطة الشانزلزيه، إنتبه للفجوة بين القطار والرصيف، وهو يسبح على شواطئ اورورا مع نولا وعشيقها الكهل، والسر المستعصي على فهم التلميذ الصديق المحقق: كيف، ومن، ولماذا قتلت نولا؟

والملفت في أمر هذا الكاتب الناشئ، الصاعد، الواعد، كشهاب في ليل يتيم القمر، أن أحداث روايته لا تدور في سويسرا االهادئة، الغافية بين جبال الألب الباردة، وبحيرة ليمان ذات النافورة العجيبة، ولا في فرنسا ذات التاريخ العريق في اللغة والأدب، ولكن في الولايات المتحدة الأمريكية، بلاد الهنود الحمر المنقرضين على أيدي الأوربيين المتحضرين، ورعاة البقر في الغرب القصي الذين كانوا يقتتلون على جلد بقرة، واليانكي جلبة العبيد والمحافظين الجدد صيادي الدول الحارنة، والمارقة، والمغردة خارج السرب الأمريكي. ديكر رسم لوحة فنية في غاية الدقة عن المجتمع الأمريكي، وكأنه أكثر أمريكية من أمريكي يانكي، أو محافظ جديد، وأبرع من يوبتون سنكلير، وهنري ميلر.عاش في ولاية نيو هامشر. وقد أسعفه في ذلك أسفاره المتعددة، المتلاحقة، المطولة، لبلاد العم سام، وللمناطق التي رسم

في خياله شخصيات روايته، وتحركاتهم من مدينة أورورا في نيوهامشر، إلى نيويورك، ومن نيويورك إلى أورورا.

هذه الرواية التي تقطع الأنفاس، وتحرك المخيلة في الرأس، وتثير التكهنات، تكهن بعد تكهن، للوصول في النهاية إلى الحقيقة التي لم يكن يتوقعها أحد، تقع في سبعمائة صفحة. من القطع الكبير، لا تتم قراءتها إلا بعد طول نفس، ومثابرة، شخصيات لا يرقى الشك إليها تدور في مسرح واحد للجريمة. الأب العجوز الميكانيكي الذي يصرع الجوار بموسيقى مرتفعة تنبعث من مرآبه، نكتشف فيما بعد أنها للتمويه على صراخ إبنته نولا التي تتلقى ضربات من أمها على ثدييها الغضين البضين بمسطرة معدنية تأنيبا وتأديبا، وعندما يهدأ الصراخ، ويكن الأنين، تختفي الموسيقى، لكن الكدمات تبقى على الثديين أثرا نيليا يراه العاشق هاري كيبير معتقدا أن الأم تقتص منها لغيابها عن المنزل دون إذن مسبق، ويكتشف فيما بعد أن ليس للأم أثر، بل هي متوفاة منذ زمن طويل وفي مدينة أخرى، ولكن من كان يضرب نولا بهذه القسوة ؟ سؤال محير، مبهم، غريب، عجيب.

ماركوس غولدمان الكاتب الناشئ الناجح يتعثر في كتابة رواية وعد بها الناشر قبل إجراء الانتخابات الأمريكية في العام ٢٠٠٨، لكن قبل انتهاء الفترة المحددة، انقلبت الأمور رأسا على عقب، صديقه القديم وأستاذه في الجامعة هاري كيبير، أحد كبار الكتاب المعتبرين في البلاد معهم بجريمة قتل تعود على العام ١٩٧٥، نولا كيليرغان فتاة في الخامسة عشرة، كان على علاقة غرامية معها، ماركوس المقتنع ببراءة صديقه تخلى عن كل شيء في نيويورك وجاء إلى مدينة أورورا في نيوهامشر لإجراء تحقيق لم يكن من السهل الخوض فيه، ولإنقاذ صديقه الذي قبض عليه من الحقنة السامة، بعد اكتشاف جثة نولا في حفرة في منزله، أثناء عملية حفر عادية لغرس شجرة عليه أن يرد على أسئلة ثلاثة:

من قتل نولا

ماذا حدث في نيوهامشر في العام ١٩٧٥

وكيف يكتب رواية ناجحة قبل الانتخابات الأمريكية تدر أرباحا كبيرة.

الكاتب العاشق الولهان بفتاة قاصر، وهو في سن اليأس، الهاوي لرياضة الملاكمة، والأستاذ الجامعي الجاف، القاسي، المنعزل لا يبخل في إسداء النصح لتلميذه النجيب مشبها الكتابة برياضة الملاكمة: الكتابة كالملاكمة تحتاج لرشاقة، وسرعة، ودقة في الضربات، لا تدع عزيمتك تخور، سدد، أرقص حول خصمك، فاجئه بضربة تجعل الأرض تحته تمور. هكذا تفعل أيضا مع الأوراق، وإلا ستصاب بمرض الورقة البيضاء. ناشرك لن يرحمك، قارئك سيمل منك.

ديكر تحدى الدهاقنة بأسلوب لم يعتادوه، لم يكن للرواية حبكة واحدة، كالصاعد إلى القمة ثم ينحدر نحو السهل، إنها رواية ذات حبكات، ذات تلال مرتفعة، ما إن صعدت الواحدة وحسبت أنك وصلت، وتنحدر نحول الحل، حتى صادفتك قمة أخرى

وعرة المسالك، صعبة الصعود، تخفي وراء أكمتها أسرارا جديدة. كلما طالت الرواية، طال الانتظار والتشويق، وبرزت مفاجآت أخرى.

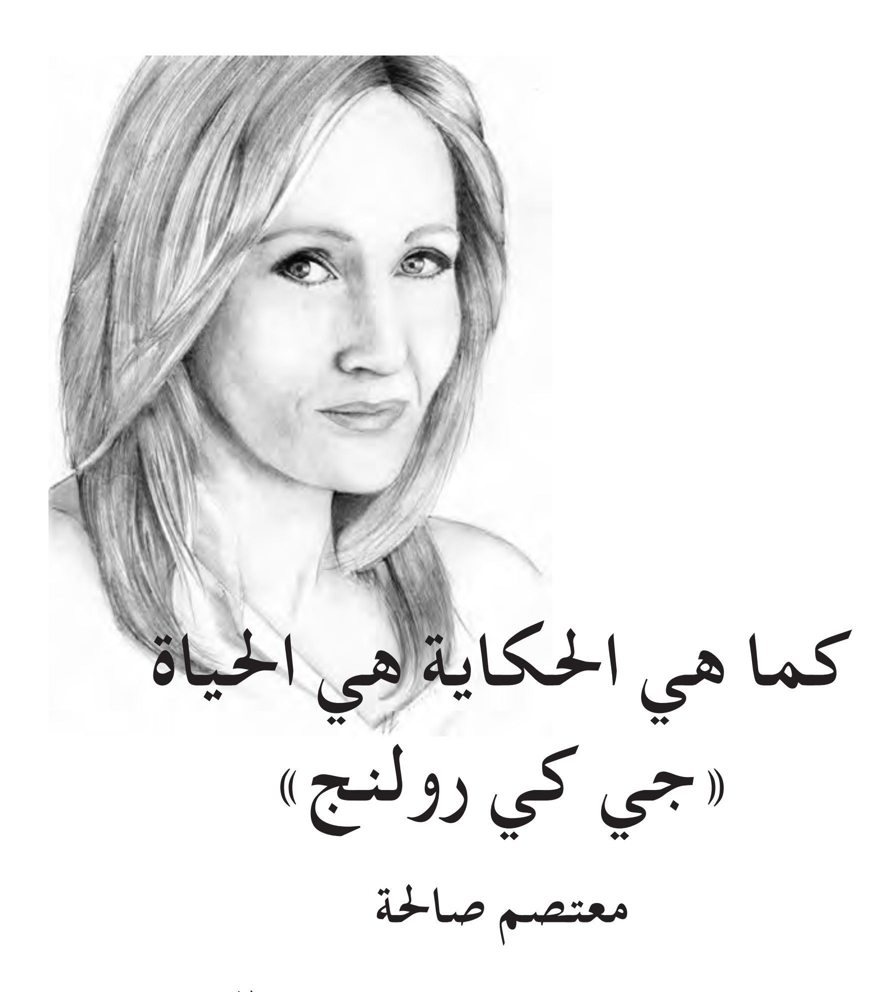
الكاتب العاشق الكهل الولهان القاتل، الذي كان يكتب رواية في عشيقته نولا، لم يكن هو القاتل، ومسودة روايته التي وجدت في حقيبة في لحد نولا، في حديقة منزله لم تكن تحرير أصابعه مع أنها ذيلت بتوقيعه.

إبنة صاحبة البار الذي كان الكاتب العاشق يتردد إليه، وكانت عاشقة له وتنتظر منه المبادرة، وخاب أملها بعد اكتشافها عشقه لنولا التي كانت تعمل نادلة في البار، وحامت حولها شكوك، لم تكن هي القاتلة.

الشرطي المحقق الخجول في الحب، وكان يعشق ابنة صاحبة البار يبرز كفاعل أساسي متأخر، ثم يدخل في مدير قسم الشرطة على خشبة مسرح الرواية بعد اكتشاف علاقته بنولا القاصر التي كانت تداعبه ويداعبها في مكتبه. ثم يدخل مسرح الجريمة شاب مشوه الوجه يعشق الرسم ونولا أيضا يعمل كسائق لدى احد أغنياء المنطقة، كان يأتيها في مواعيد محددة ليصطحبها معه إلى منزل سيده ليسقط عنها النصيف ويرسمها عارية.

وفجأة تتلاحق عمليات القتل كلما تقدم الكاتب التلميذ في تحقيقه، قتل الشاب المشوه بحادث سيارة غامض. ثم قتل مدير الشرطة في غرفة في فندق لجأ إليها بعد نجاح التلميذ الكاتب المحقق في متابعة الخيوط، خيطا خيطا. الكاتب المحقق يلاحق المجرم، أو المجرمين، الناشر يلاحق الكاتب. المجرم، أو المجرمون يلاحقون الكاتب المحقق. إنها حلقة الكل يلاحق الكل فيها. إنها أمريكا، إنه المجتمع الأمريكي، قتل، «وبزنيس»، حتى في الأدب.

رغم كل التهديدات التي تلقاها المحقق ماركوس، وملاحقات ناشره في نيويورك الذي يستعجله كتابة روايته التي وقع معه عقدا فيها قبل موعد الانتخابات الأمريكية، التي ربما أوصلت باراك أوباما كأول أمريكي أسود إلى البيت الأبيض، وسيجني منها أرباحا خيالية، ظل متابعا تحقيقاته. ولكن بنصيحة من محاميه بات يكتب رواية عن قصته في أورورا، وعن نولا وعشيقها، وكل ما حصل معه تفصيليا. صدرت الرواية في موعدها، وحققت ارباحا خيالية. رواية تحكي عن حياة مدينة صغيرة أمريكية هادئة، هادئة جدا... قبل مقتل نولا واختفاء أثر القاتل، لكن ماركوس بفضل تحقيفاته توصل إلى الحقيقة ولكن بعد كتابة ٧٠٠ صفحة.



كما هي الحكاية هي الحياة
«جي كي رولنج»

معتصم صالحة

من هي هذه السيدة التي تدعى «جي كي رولنج»؟ إذا كنتم لا تعرفونها فدعوني أعطيكم لمحة عنها:

هي تلك الكاتبة الانكليزية التي لم تبلغ الخمسين عاماً من عمرها بعد، ولكنها تتربع على عرش اللغة الإنكليزية المعاصرة. تبدو كتاباتها وكأنها رقص لغويّ شعبيّ عمره آلاف السنين، وقصصها وكأنها نجمات تشعُّ في ليالي الصيف المقمرة. تكتب وكأنها تؤلف مقطوعة موسيقية يطرب لها كل من يسمعها صغيراً كان أم كبيراً، فحكاياها مفتوحة لاحتضان البشر والحجر. في صوتها الروائيّ يجتمع هذا اللعب الخفيّ القصيّ، الغامض الواضح الذي يتشكل عندما تلتقي حروفها ببعضها لتخلق الكلمات، والكلمات ببعضها لتشكل النصوص، والنصوص ببعضها لتولد الحكايات. سحر لغتها انسكب في سحر واقع قصصها، فأعطت الحياة لهذه الأسطورة القصصية التي أطلقت عليها اسم، «هاري بوتر».

بدأت الحكاية منذ حوالي العقدين من الزمن يوم جاءها طيف ذلك الطفل الصغير، «هاري بوتر»، وهي في رحلة العودة بالقطار من إجازة كانت تقظيها في مدينة «مانشستر» في انكلترا، إلى «ادنبرة» عاصمة اسكتلندا حيث تعيش. ولكنها لم تكن تعرف في ذلك

الحين بان ذلك الطفل سيكون ذلك الساحر الذي سيحولها إلى أُسطورة يتحدث عنها العالم فيما بعد.

هكذا ولد ذلك الطفل الساحر «هاري بوتر» في الخيال ومنه، في مُخيلة تلك المرأة القلقة دائماً والتي بحاجة لأن تكون على سفر، كما تقول عن نفسها، كي تأتيها الأفكار. كتبت «هاري بوتر» في سبعة كتب من سبعة أجزاء في قصّة حملت اسمه كعنوان رئيسي يموت في الجزء الأخير منه. تُرجم إلى أكثر من ٧٦ لغة، وبيع منه ملايين النسخ بل ويعتبر الأكثر مبيعاً في تاريخ الكتابة والنشر منذ ولادة البشرية. ثم صُنع منه ٨ أفلام سينمائية ضخمة جداً وكتب عنه مقالات وتحليلات لا تُعد ولا تحصى.

ولِدَ «هاري بوتر» وعاش في خيال تلك المرأة، فغيّر حياتها وقلبها رأساً على عقب. حوَّل كتاب «هاري بوتر» حياة تلك المرأة الوحيدة ـ الأُمّ الفقيرة التي كانت تسكن، أثناء كتابة «هاري بوتر»، بالايجار مع ابنتها وتعيش على المساعدات الإجتماعية للعاطلين عن العمل في اسكتلندا. إلى واحدة من أشهر وأغنى بني البشر على الإطلاق. وفي بعض الإحصاءات تأتي أغني من ملكة بريطانيا التي تملك ثروة لا يكن تقديرها. نعم كتاب واحد فعل كل هذا فتخيلوا معي يا رعاكم الله: قوة الكلمة وما يمكن ان تفعله. وتعلّق «رولنج» على هذا التغيير الكبير، والانقلاب الذي أحدثه هذا الكتاب وتأثيره على حياتها فتقول: أنا ما زلت نفس الإنسانة التي كنت ولكن الفارق الوحيد الآن هو أن الكثيرين الآن يريدون، بل وينتظرون سماع ما أقول. بينما قبل هاري بوتر، لم يكن أحد يهتم أو يكترث أو يعيرني أي اهتمام بالرغم من انني، ربما، كنت سأقول نفس الشيء الذي أقوله الآن.

الإنسان هو هو أينما كان. يُخيل إليّ أحيانا بأن من ضمن المشكلات العديدة التي نعاني مهنا في عالمنا العربي، بل ان المشكل الرئيسي يكمن في العيش للغير ومن أجل تحقيق ما يأمله الآخر منا. وهذا بعض ما تحدثت عنه «رولنج» في كثير من كتاباتها. ولكن كتاباتها هي عن الإنسان الغربي الذي تعرفه وتعايشه، فتخيلوا ماذا كانت ستكتب عنا نحن العرب لو عايشتنا.

في كتابها الجديد «كاجوال فاكانسي» الذي صدر في أيلول ـ سبتمبر ٢٠١٢ والذي كتبته للبالغين هذه المرة، والذي لم يُترجم بعد إلى اللغة العربية على حد علمي، تقول فيه: «ان الكتابة هي محاولة لإعادة ترتيب الواقع، ولكن كما نريده لا كما هو».

أما كيف تشكلت لديها هذه المخيلة الفريدة وفي حديث لها عن حياتها تقول «رولنغ» بأنه كان لوالدتها تأثير كبير على حياتها حيث انها أغنت مُخيلتها بالقصص والحكايات التي كانت ترويها لها قبل الذهاب إلى النوم وهي صغيرة. ومنذ ذلك الحين كانت مقتنعة بأن ما تريد ان تفعله في حياتها هو كتابة القصص.

بالرغم من أنها كانت وما زالت، كما تقول عن نفسها، قارئة نهمة تقرأ كل ما تجده في طريقها، إلا أنها كانت قد صُنِّفت كتلميذة «غير مُجتهدة» نظراً لتدني مستوى علاماتها.

ونجاحها في الدراسة والحصول على شهادة جامعية، في الأدب الكلاسيكي، كان لمجرد انها كانت تعرف كيف تجتاز الإمتحانات. حيث انها كانت حتى أيام الجامعة تمضي معظم أوقاتها في قراءة القصص بدل الدراسة أو الذهاب إلى حضور المحاضرات الجامعية. تقول بأنها كانت قد درست الأدب الكلاسيكي معارضة بذلك رغبة والديها اللذان أرادا لها أن تدرس شيئاً يؤمن لها حياتها في المستقبل. حيث ان دراسة الأدب، برأيهما، «لا تطعم خبزاً». ولكنها تضيف بأنها لا تلومهما على هذا التفكير الطبيعي الناتج عن الحياة الصعبة التي عاشاها لكي يؤمنا لقمة العيش. وعن «الفقر البريطاني» تصفه بالقول بأنه: يسبب الألم والمذلة والمهانة، والحمقى فقط ينظرون إلى الفقر بشكل رومانسي.

فإذا كان هذا هو ما يسببه الفقر في بريطانيا، فما الذي يفعله عندنا؟ أتراه ما يحدث في سوريا هو من أحد أفعاله؟

«لسبب ما، ما زلت أجهله، كنت طوال حياتي أخاف من الفشل لا من الفقر. والأمر الهام الذي يجب أن نَعيه هو انه هناك تاريخ (لانتهاء صلاحية) لوم الأهل على توجيهنا بالاتجاه غير الصحيح في اللحظة التي نتسلَّم فيها دفة القيادة في حياتنا، فمسؤولية توجيه حياتنا بالإتجاه الذي يناسب كل واحد منا تقع على عاتق الفرد لا الأهل ولا المجتمع بعد ذلك». تقول هذا مخاطبة الحضور في حفلة تخريج الطلاب لعام ٢٠٠٨ في جامعة «هارفارد» التي دعيت إليها لتلقي خطاباً كما سرت العادة في بعض الجامعات الغربية، حيث تُدعى شخيصات بارزة للحديث عن تجاربهم في الحياة في حفلات التخرج. تخيلوا بأنها أكثر ما ركزت عليه في خطاب حفل النجاح ذلك، هو الفشل ولكن لفوائده. حيث تقول بأنه، الفشل، كان المعلم الأول والأفضل في حياتها، فقد علّمها أن تكون هي كما هي، لا كما تظن أو تدّعي. جعلها، الفشل، توجّه كل طاقاتها لإنجاز العمل اليومي الذي يستحق الإهتمام والذي يؤمن استمرارها في الحياة. أي بتعبير آخر، دفعها الفشل للتركيز على ما يمكن انجازه واقعياُ وعملياُ، والتخلي عن الأحلام المتخيلة والبعيدة. وتقول بأن هذا منحها إحساساُ بالحرية والأمان لتعيد ترتيب حياتها على نحو جديد. حيث ان الفشل الأكبر الذي كانت تخشاه طيلة حياتها قد حدث، وهو ان لا تستطيع ان تمارس العمل الذي تريده وهو ان تصبح كاتبة. كل واحد منا محكوم بالفشل، بشكل أو بآخر، قليلاُ أو كثيراً. والذي لا يجرب الفشل، يعش طوال عمره حذراً لدرجة ان لا يخوض إية مغامرة كي لا يتعرض للفشل، وبهذا يكون وكأنه لم يعش أبداً. وبالنتيجة يكون قد فشل في ان يحيا أساساً، تقول «رولنغ». وتعتبر بأن السعادة تكمن في معرفة حقيقة ان الحياة هي ليست في قائمة الأشياء التي نمتلكها أو النجاحات التي نحققها، بالرغم من ان أكثرية الناس تخلط ما بين هذا وتقول عكس ذلك. وربما هذا ما يجعل الحياة أكثر تعقيداً مما هي حقيقةً، وخصوصاً بالنسبة للأجيال الجديدة الناشئة، وهذه المعايير الزائفة التي يتلقونها لكيفية تحقيق السعادة الشخصية. أيضاً تتحدث عن أهمية المحن التي، برأيها، يجب على الإنسان أن يعيشها

ليختبر نفسه وأصدقائه. وتقول بأن المعرفة التي يخرج بها الإنسان من هذه التجربة، قيمتها أكبر بكثير من أي شهادة يمكن للإنسان ان يستحصلها.

ختاماً، تحضرني مقولة للمخرج الإيطالي «روبرتو بنيني» حيث يقول شيئاً شبيهاً للآتي: إذا ما أردت أن تكون شيئاً ما، فإن الكون كله سيتآمر معك كي تحققه. وان تغامر بحياتك لتحقيق ما تصبو إليه، يعني أن تعيش الحياة كما هي حقيقة، ولكن بعمق. هكذا وبدون أي اتصال يتصلون ويتفقون، لأن المبدعين الكبار وأينما كانوا في الحياة، يقطنون في فضاء الإبداع الذي يقوم على نفس الأساس، الأساس الذي دائماً يخالف السائد والمتعارف عليه. الأساس الذي لا أساس له إلا الحرية وإطلاق العنان للخيال بعد فهم الواقع وهضمه. هذا الفهم الذي يجب ان يجد طريقة للتعامل مع هذه الحياة بوصفها كلاُ. هذه الحياة التي يصفها أحد فلاسفة اليابان بالقول بأنها ذرات تتحرك في واقع عميق أسود.

ذرات تتحرك في واقع عميق أسود! هل ما يحدث في سوريا دليل على صحّة هذه المقولة؟ أم ان الدليل كان ساطعاً ـ قاطعاً قبل ذلك بوقت طويل ولكننا لم نراه!

تنهي «رولنج» خطابها في جامعة «هارفارد» بالقول: من أجمل وأعمق الأشياء التي قَرَأَتها في حياتي، أثّرت وما زالت تؤثّر فيَّ كل يوم، هذا التعبير الذي كتبه أحد الكتاب الكلاسيكيين منذ آلاف السنين حيث يقول:

تماماً كما هي الحكاية هي الحياة،
لا يهم كم طويلة أو قصيرة هي،
بل بجودتها وكيف كانت هي،
هي رَوَائِزُها.

اوراق الثورة والحياة

منفى

في حماقة النجاة من الموت!

يارا بدر

تغادر سوريا في رحلة عمل، في خروج استثنائي خاطف، لا يسكنك سوى هاجس الحدود ومفرزة الأمن القابعة في انتظارك، هل سيقولون كلمة الموت الباردة: ممكن تتفضل معنا شوي. حيث ستخطو راجفاً مبللاً بالعرق الأسود إلى طريق قد ينتهي بكل في الظلام المُتعفّن لزنزانة مجهولة العنوان أشهراً، وقد ينتهي بك بلباس السجن المُقلّم حيث يتساءل معظم المعتقلين جنائيو التهم كما السياسيون عن سبب اختيار هذا القماش المُقلّم.

في خروجك الاستثنائي هذا تراقب الوجوه ونظرات العيون بقوّة ساكني الداخل، بعزّتهم وفخرهم. نحن اللاعبين مع الموت. ومحدثيك يدركون هذه الحقيقة التي كانت ملكهم ذات يوم. فيرأفون بأنفسهم من شفقتك كما يخشون عليك من رتابة حياتهم السائرة بكل رقتها إلى الأمام، احتفالاتهم الصغيرة، الدرس الجامعي الجديد، تعلّم مهارة ما وحديث ندوة دارت في تلك المدينة الأوروبية أو ذلك الاجتماع المُنعقد في عاصمة عربية.

لا ينشغل تفكيرك بهم كثيراً، والحديث مُقَطَّع الأوصال. لا تهتم بهوس متابعة مواقع التواصل الاجتماعي ويكفيك الاستماع إلى نشرة إخبارية واحدة مفصّلة الأنباء وربما متابعة كلمة «عاجل»، فغداً أو بعد غد أنت ستكون هناك من جديد. وإن عبرت تلك الحدود القاسية برملها ووجوه حرّاسها ستكون وكأنّك لم تكن بعيداً يوماً.

أمّا إن حدث وغادرت، نفيت نفسك خارج حلبة الموت كما يفعل الآلاف كل يوم،

مُردّداً لنفسك أنا لست أكثر من لاجئ، لاجئ وإن كنت ربما لا أقطن في وحشة «الزعتري» وعزلة الخيام التركية حيث أراقب منزلي بين زيتونتين والحرائق تلتف من حوله أدعو إلهي أن يبقى مُلكي الوحيد صامداً، صامداً قليلاً بعد، فهو راحل وأنا عائد. أنا لن أذهب لأبني حياة جديدة، لا أريد حياة جديدة وهويّة جديدة، فلي هويتي المنسوجة من دم ما يزيد عن المئة ألف شهيد سوري ومئات الأغاني. لن أذهب إلى حيث يرقمونني لاجئاً في قوائم مفوضيّة الأمم المتحدة لشؤون اللاجئين وصفحات التاريخ، سأحتال عليهم، وعلى نفسي، بأنني لست هنا ولست هناك. فأنا لست رقماً في القوائم وحضوري المائع ظلٌّ هنا ووجودي سيبقى هناك.

في يومك الأول لا تفعل شيئاً سوى البكاء والتسبّب للآخرين ممّن قطعوا شوط عذاب يومهم الأول بالبكاء، كالأطفال دون أن تهم سنيّ عمرك المتناثرة في ألوان شعرك وتجاعيد وجهك. في يومك الثاني تنهض مشرقاً بكذبة جديدة هي القوّة المطلوبة وبأنّ أحداً لا يحتاج وجعاً جديداً ليس سوى رفاهيةً أمام صوت الرصاص وبريق سكين عبر فوق قلب طفل لم يبلغ العاشرة في أرض لم تعد تسكنها، تنهض لتبدأ رحلة البحث عن سكن، وأخيك سيبحث عن عمل، ووالدتك ستنظر في حقائب السفر وتتساءل حول كل الأشياء التي أحضرتها دون حاجة وتغضب لأنها ناقصة. عن كيس السكر وليفة الحمام، عن أنّها أحضرت شمعداناً برونزياً صغيراً له من الوزن في عداد أوزان الحقائب في المطار أكثر ما له من فضيلة الاستخدام، ولكن صورته في الذاكرة حين ابتاعته مع من ليس حاضراً بجانبها اليوم تقوّيها على موقفها بأنّه أهمّ وأغلى من جاكيت شتوي لم تعد تملكه في غربتها الحديثة. بكل الأحوال لا يمكن ليومك الثاني أن يكون سوى يوم للخيبات.

تتوالى الأيام وتكتشف أنّ من يقطن بجانبك أكثر بكثير ممن خلّفتهم وراءك، وقد ودّعت صديقك الأخير في دمشق، ولم يتسنَ لك الوقت لتعتذر سوى عبر الهاتف من صديق الآخر، لتجد في استقبالك العشرات وتمتلئ تفاصيل الوقت صباحاً ومساءً بالأحاديث التي يحضر فيها الداخل باعتباره منقطة حرب. ويعرف السوريون السياسة كما شاهدوها لدى أشقائهم اللبنانيون طويلاً دون أن يتجرّؤوا يوماً على ملامستها. يغرقون فيها بنهم المُشتاق والمحروم، حتى يكررون أنفسم كمنوال حرير، ولا يقدمون جديداً. يلهثون خلف نشرات الأخبار من قنوات الفضائيات العربية إلى الأجنبية وحتى السورية المعارضة أو الرسمية وقد اكتسب كل شيء نكهة الحنين. لاشيء في الخارج سوى الحنين والغضب. ففي مقابل اكتساب حق الحياة نفقد بشكل تلقائي كل حقوقنا الأخرى في المواطنة. نحن الهامشيون الناجون لا حق لنا أمام جبروت المَوت. وتثقل أحاديث السياسة وجع الحنين والذاكرة. فهناك ليس من داع للتحليل، نعيش اللحظة بذاتها ونخطو إلى لاحقتها، فاعلين بجودنا مهما كان سلبياً، إلاّ أنَّنا موجودين.

في الهاتف الأول لصديقك الذي لا يزال صامداً في الداخل جزءٍ لامع من سيف دمشق

الأموي تقول: (تحسّن الطريق)، تريد دليلاً على أنك متابع، مهتم، إنساني بأنانية أقل دون قوّة الشجاعة. ويضحك لك صديقك بحب الأصدقاء وسخرية الواقع.

في الخارج، اليوم تحديداً، لا تجرؤ على الكلام، فأيّ لغة هي إنشاء سفسطائي دون معنى. إن أردت اذهب إلى الداخل. تخاف الاعتقال اذهب إلى حيث المناطق المُحرّرة في الغوطة والشمال. تخاف الإسلاميين وجبهة النصرة اذهب وقل لهم لست مثلكم ولكنني هنا لأموت معكم فهو وطني ووطنكم. وحيث نعرف الأجوبة فليس من معنى لطرح الأسئلة. من حسم خياراته سيتابع الكلام، من يسكنه وجع الحنين سيكرر لنفسه: لطالما قلت أنك لن تكون سوى هناك واليوم أنت هنا. ربما غداً ستمتلك من الشجاعة ما يكفيك لتعود من اللاعبين مع الموت كما امتلكت البارحة ما يكفي من الحماقة لتكون مع الناجين.



الرقة المحررة:
الحيطان تروي الحكاية!

تحقيق: زينة ارحيم

«على الرقة يا آنسة؟ بعشرة آلاف بس!»، «على حلب بعشرين طالع!..اتفضلي» هذا ما اسُتقبلنا به في معبر تل أبيض. «الدولي»... لا «سوريا ترحب بكم هنا»، لا أعلام سورية ولا حتى خيم لاجئين يطل منها أطفال حاملين لعلبة محارم أو قطعة من البسكوت يلحّون عليك لشرائها.

هنا ازدحام وفوضى تنذر باضطرابات لم يتأخر اشتعالها، ولم تكن كما نشرت بعض الوكالات نتيجة «التدافع للدخول للأراضي التركية» وإنما اشتباكات فعلية بين مجموعة من المسلحين من الطرف السوري مع السلطات التركية وقد ذهب ضحيتها شابان سوريان وموظف تركي.

عند الطرف السوري من خط الحدود غير الواضح، مسلح يقف برشاشه الثقيل في منطقة ليست حدودية فحسب وإنما مدنية بالكامل، أيضاً. ولم يكن هذا المشهد بعيداً عن حال تل أبيض، المنطقة الريفية ذات الشوارع المتعبة والغارقة بالبضائع التركية، فحركة التهريب التي كانت تجري سراً أصبحت الآن نشطة يعتاش عليها العديد من أهلها إضافة إلى تقديم خدمات نقل الصحفيين والنشطاء بالسيارات بين المناطق وبأسعار خرافية لا يقبلون فيها

الدفع إلا بالدولار!

انطلقنا في رحلتنا إلى الرقة وكانت أولى المفاجآت محطات وقود تقف عندها سيارات! مشهد مدهش نسيه سكان وزوّار المناطق المحررة في الشمال السوري منذ أكثر من عام! فالمحروقات هناك تُشترى حصراً وفقط من الباعة الجوّالين المنتشرين على طول الأرصفة، أما الأدوات اللازمة لاتمام هذه العملية فهي زجاجات الكولا (ليتر ونصف) مع قمع.

لم أكد استيقظ من دهشتي لوجود الكازيات العاملة حتى شدّني جديد آخر، على طول الطريق إلى الرقة كنا نشاهد سحبا دخانية سوداء حسبتها حرقا للنفايات ليتبين أنها تكرير يدوي للنفط الذي يتم استخراجه من دير الزور خاماً ليحوّل بآلية بسيطة إلى بنزين ومازوت.

«إسلامية.. مدنية»

في الرقة، استقبلتنا لافتات عملاقة لحركة أحرار الإسلامية مع كتابات كثيفة على أغلب الجدران التي مررنا قربها تروي أحاديث نبوية، الانطباع الأول: ذهول بالماكينة الإعلامية الذكية للحركة والتي نشرت برامجها الدعوية ودروسها الدينية وحتى شاشة ملتيميديا عملاقة على باب حديقة الرشيد وسط المدينة تعرض فيها عملياتها بمؤثرات صوتية جذّابة.

حتى أن إحدى المجموعات المدنية التي رسمت بأسماء الشهداء علم الاستقلال على جدار قرب دوّار الساعة اضطرت لكتابة «الرجاء عدم الكتابة على هذا الجدار لاستكمال توثيق الشهداء» بعد أن بدأ خطاط حركة الأحرار فعلاً بكتابة حديث جديد الا إنه توقف على ما يبدو استجابة للرجاء.

من اللوحات النوعية أيضاً لوحة «الكونكورد» التي يتجاوز عرضها ١٢ مترا وتمتد على أكثر من ثلاثة شوارع وهي سوداء كتب عليها باللون الأبيض «نحن قوم أعزنا الله بالإسلام فإن ابتغينا العزة بغيره أذلنا الله»... أحد الناشطيين المدنيين وقف لدقائق مشدوها أمامها وقال «كانت هذه صورة لبشار، عندما أزلناها أردنا استبدالها بلافتة «سوريا حرة» لكن تكلفتها ٢٥٠ ألف ليرة سورية ولم نتمكن من جمع المبلغ..»

الحيطان في الرقة تروي كل الحكاية، وتخبر قصص التوتر بين التيارات الإسلامية ـ التي يقول الأهالي إن أغلب عناصرها غريبون عن المدينة ـ وبين التيارات والتجمعات المدنية والتي تشير آخر حصيلة إلى أن عددها في المدينة وحدها تجاوز ٤٢ تجمعاً مدنيا.

تتجلى هذه الحرب الباردة بين العلمين، الأسود والأخضر، بين شارة الاصبعين لمجموعة «حقنا» واصبع الشهادة لمجموعة «إسلامنا».. وبسبب هذا الاصبع الثاني حُرمنا من تعبئة الوقود في إحدى الكازيات بينما كنا نخرج من الرقة باتجاه الطبقة، حيث أثار شعار «حقنا» الموجود على السيارة التي نستخدمها غضب صاحب المحطّة الذي أخبرنا أن وقوده هو لجماعة

« الشهادة » لا « النصر » .

هنا الرقة !

« صباح الخير . . شعرت بضربة الميغ صباحاً؟ أين وقعت القذيفة؟ » هكذا تبدأ الصباحات الكسولة في المدينة المحررة. للناظر تبدو الحياة في الرقة طبيعية، أسواق مزدحمة بالزبائن والمتسكعين . . حركة الشوارع اعتيادية تضطرب مع مرور سيارات « مفيمة » دون نمرة مسرعة بين الحين والآخر، الإشارات المرورية تعمل لنفسها دون اكتراث السائقين، لكن الحركة العشوائية تخلق نسقاً أقرب ما يكون للطبيعي . . لم تسقط الدولة هنا، سلطات ما تحرك المدينة وتدير شؤونها . . السلطات المسلحة ذات التوجه الإسلامي يبدو أن لها اليد العليا في ذلك، فيما تحاول القوى المدنية أن تستند عليها لتبني قاعدتها الإدارية، استمرت بعض المؤسسات الحكومية كطوارئ الكهرباء والاتصالات بالعمل بجهود موظفيها الذين لم يقبضوا رواتب منذ شهرين، فيما تعطّلت مؤسسات أخرى بالكامل كالمحاكم والشرطة ومديرية الزراعة .

ورغم أن الحرية تظهر نفسها جلية في شوارع الرقة وحاراتها إلا إن الخوف من النظام ما زال قابعاً في صدور العديدين وخاصة من أولئك الموظفين الذين سمعت أحدهم يقول لزميله في حديث جانبي « ذهب فلان وقابل السيد الوزير ووعده خيراً » . . « السيد الوزير »!! ما زال صاحب كلمة هنا .

وهنا أيضاً مقاه ذكورية الطابع و أخرى عائلية تعلو فيها المناقشات السياسية مع دخان النرجيلة وأصوات تشجيع لفرق تلعب كرة القدم تغطي أصوات القذائف اليومية، هذا عدا عن الرصاص الذي أضحى ملازماً لمعظم الفعاليات الاجتماعية من جنازة لفرح لمشاجرة، إضافة إلى الإعدامات التي تتم في الساحة الرئيسية لعناصر من « الشبيحة » .

خلال الأسبوع الذي آمضيناه هناك أُعدم عشرة أشخاص يقول الأهالي إنهم موالون للنظام كانوا يقصفون المدينة بالهاون مستخدمين راجمة كتبوا عليها اسم إحدى كتائب الجيش الحر، ويقول ناشط مدني إن وتيرة هذه الاعدامات خفّت بشكل كبير عن أول أيام التحرير ويقدر عدد الذين أعدموا في الساحة بحوالي ستين شخص .

يعترض البعض على إجراء الاعدامات في الساحة العامة أمام المارة والأطفال، إلا أن مؤيديه يرون فيه ضرورة ليعتبر الشبيحة الباقين، وعند مناقشتهم بقضايا المحاكمة والعدالة يجيبون « لتأتلي جمعيات حقوق الإنسان المعترضة على ذلك وتموّل تكاليف إقامة سجن ومحاكم وجهاز شرطة مع رواتب لتضمن ولاء الموظفين وبعدها سنحتكم لها » .

فهنا حتى عمّال النظافة متطوعون يقومون بأعمالهم بثيابهم المدنية وبما بقي من سيارات

البلدية، كذلك يفعل أغلب الموظفين الحكوميين الذين رفضوا التحول لعاطلين عن العمل واختاروا أن يكونوا ولأول مرة في حياتهم، متطوعين في مؤسساتهم، هم أنفسهم ممن كانوا يأتون متأخرين ويهربون باكراً طفى حس مدهش بالانتماء على سطح سقمهم وسلبيتهم فأحالها إيجاباً وتأثيراً.

الرغبة بالحياة والإصرار عليها يسير واثقاً في شوارع الرقة، يمر على الأبنية التي ما تلبث أن تهدمها قذيفة لتبدأ أعمال التنظيف وإعادة البناء، في أحد محال الكمبيوترات التقيت بأحد روّاده، كان موظفاً بشركة الهرم للحوالات والتي مُحيت بقذيفة صباحية ألقتها طائرة حربية خلال جولتها الصباحية الثابتة، كان الموظف يبحث عن وصلات لوضعها في محلهم الجديد «وإن ضربوه سننقل إلى ثالث ولن نوقف العمل» يقول.

ضريبة الحرية

في اليوم نفسه احتفل الأهالي بالعاصفة الرملية التي خنقت الأوكسجين في الجو إلا إنها وطّدت ـ ولأول مرة منذ التحرير ـ علاقة الرقة بسمائها، فطائرات الموت تحب السماوات الصافية، لكن صواريخ أرض أرض لا تكترث، في تلك الليلة سقط أحدها على سور الرقة الأثري، كنا في الطرف الآخر من المدينة لكن الصوت كان مجلجلا ـ بكل ما تحمله هذه الكلمه من جزالة، وبدأت التكهنات في أحاديث المارّة «راجمات صواريخ؟ لا لا بالتأكيد هو صاروخ، سمعت أصوات الضربات الثلاث التي يصدرها الانفجار عادة، لنذهب ونستطلع، طالما أنه صاروخ أرض أرض فمكان سقوطه آمن على عكس الهاون الذي غالبا ما يقع ثانيه مكان سقوط الأول....».. لو أن أحداً أخبرني أنني سأشارك بهذا الحديث قبل عامين من الآن لكنت عَجِبت من ظرافة هذه النكتة الخيالية!

في الصباح عادت الطائرات لتلقي بالبراميل المتفجرة وكانت المرة الأولى التي نسمع فيها أصوات مضادات الطائرات رغم وجود عدد كبير من المسلحين والآليات الثقيلة في المدينة.

مساء زرنا تجمع شباب الرقة الحر والذين كانوا يعدّون مسرحية ألغيت في اللحظة الأخيرة بعد أخبار البيضا وسقوط الجسر المعلق في دير الزور، دخلنا إلى مقرهم فكان الشباب يناقشون برنامج «دولة الخلافة» المنشور في الطرقات والممهور بتوقيع حزب التحرير، قال أحدهم ـ وهو ملتح تجنب السلام علي عندما دخلت ـ «ديننا دين يسر، فنحن إذا صلينا كان بها وإن نسينا ربنا يسامح، قال خلافة قال!».

خلفه كان يجلس فتى ويقرأ المجلة الصادرة عن هذا التجمع «تصبحون على وطن» وهي واحدة من عشرات المطبوعات الصادرة في المدينة.

في تلك الليلة قرر التجمع إلقاء شموع مضيئة في الفرات حمّلوها سلاماتهم إلى دير

الزور وهم يهتفون لها باللهجة الحورانية «حنّا معاكي للموت»، وحتى عن هذا النشاط المسائي، لم تغب صبايا الرقة المدهشات، في الرقة صبايا يمشين بثقة وسط الشارع لا قرب الجدران، ينظرن في عيون المارّة حتى لو كانوا مسلحين بلباس أفغاني أسود دون أن يجفلن أو يخجلن، ألبستهن عصرية وعديدات منهن يفردن شعورهن الغامقة والملوّنة في السوق.

وحضور صبايا الرقّة ليس عابراً، ففي كل التجمعات لهنّ وجود فعّال، كما أن لهنّ أيضاً تجمع خاص يطلقن عليه اسم «جنى» وباسمه كتبن لافتة على الشارع الرئيسي قرب الساعة تقول «أنا لست عورة على أكتافي قامت ثورة».

قواعد النشر في المجلة
دعوة الى الكتاب والادباء والباحثين

ترحب مجلة أوراق باسهامات المفكرين والكتاب والادباء والباحثين من الاتجاهات الفكرية والسياسية كافة وتقتصر شروط النشر في المجلة على النقاط التالية:

١ـ ان تكون المساهمات المرسلة غير منشورة سابقا إلا اذا وافقت هيئة التحرير على النشر المتزامن مع مطبوعات او وسائل اعلام اخرى

٢ـ في الدراسات الموثقة بمصادر ومراجع يلتزم المساهمون بذكر اسم المؤلف وعنوان الكتاب ومكان النشر وتاريخه واسم الناشر، وفي حالة الاحالة الى مجلات يذكر اسم كاتب المقالة وعنوانها ورقم العدد وتاريخه ورقم الصفحة.

تلتزم المجلة بنشر كل المواضيع التي توافق عليها هيئة التحرير والتي تستوفي معايير النشر الموضوعية (بالنسبة للدراسات) او الابداعية (بالنسبة للنصوص الادبية).

تستلم المجلة النصوص مطبوعة على بريدها الالكتروني

Awraq@syrianswa.com

واذا فضل المساهم ارسالها بالبريد فيرجى ارفاقها بقرص مدمج او شريحة ذاكرة.

٣ـ أن لا يريد حجم الدراسة او البحث عن خمسة آلاف كلمة إلا باتفاق سابق مع ادارة تحرير المجلة، ويفضل ارفاق الدراسة بملخص صغير عنها لا يتجاوز ٥٠ كلمة.

٤ـ ان لا يزيد حجم مراجعات الكتب عن ١٥٠٠ كلمة ويدوّن في أسفل المراجعة عنوان الكتاب واسم مؤلفه ومكان نشره وتاريخه وعدد الصفحات.

٥ـ يرفق مع كل دراسة او مقالة او نص تعريف بالكاتب وعمله الحالي

٦ـ لا تعاد المواد المعتذر عن نشرها الى أصحابها.

٧ـ يجري اعلام الكاتب بقرار هيئة التحرير خلال شهر من تاريخ تسلم النص.

٨ـ تحتفظ المجلة بحقها في نشر النصوص المجازة للنشر وفق خطتها التحريرية.

٩ـ تلتزم بتقديم اشتراك مجاني لمدة سنة لكل شخص يساهم في الكتابة لها ما دامت مستمرة في النشر

١٠ـ باستثناء الحالات التي تطلب فيها المجلة من كتاب بعينهم الاشتغال على ملف او دراسة او نص ادبي اعتبار ذلك عملاً مأجوراً تقدر هيئة التحرير قيمته على ان تبلغهم بذلك مسبقا، فان كل المساهمات الأخرى ستكون غير مأجورة.

أوراق التوثيق

وثيقة

رسالة رابطة الكتاب السوريين للاتّحاد العامّ للأدباء والكتّاب العرب

الأستاذ محمد سلماوي المحترم - الأمين العام للاتّحاد العامّ للأدباء والكتّاب العرب
الأستاذ حبيب الصايغ المحترم - رئيس مجلس إدارة اتّحاد كتّاب وأدباء الإمارات رئيس وفد الدولة المضيفة

الأساتذة الأدباء والكتّاب العرب الحضور

إنّ رابطة الكتّاب السوريين تحيّي مؤتمركم المنعقد حالياً في أبو ظبي العزيزة عاصمة دولة الإمارات العربيّة المتّحدة، وتتمنّى للاتّحاد العامّ النجاح في مؤتمره هذا، كما تتمنّى التوفيق لمؤسّساته وأعضائه من اتّحادات وروابط وأسر وجمعيّات، مع الثقة بقدرتكم على تمثيل الكتّاب العرب والدفاع عنهم وعن حقوقهم كافّة، وخصوصاً حقّ الإبداع والتعبير.

إنّ انعقاد مؤتمركم هذا في هذه الحقبة التاريخيّة التي تمور بالتغيّرات التي تعيشها الشعوب العربيّة يرتّب مسؤوليّات فكريّة وأخلاقيّة وسياسيّة على عاتقكم وخصوصاً في البلدان التي يشارك كتّابها في كفاح شعوبهم لنيل الحريّات التي كتبوا عنها وناضلوا من أجلها، ويتعرّضون في سبيلها إلى ضغوط تطال حريّاتهم وحقوقهم في الحياة الطبيعيّة كحقّ التعبير عن الرأي، والسفر، والعمل...، مروراً بإجراءات التنكيل والقمع التي وصلت إلى حدود السجن، والقتل تحت التعذيب، والقنص، والقصف، كما حدث لمجموعة من

الكتّاب السوريين، ومنهم أعضاء في اتّحاد الكتّاب العرب الذي يدّعي تمثيلهم في اتّحادكم الكريم، مثل الروائي والقاصّ إبراهيم خريط، والكاتب محمّد رشيد رويلي، الرئيس السابق لفرع اتّحاد الكتّاب بدير الزور، والشاعر محمد وليد المصري الذي استشهد أثناء القصف الجوّيّ على مدينة القصير، والذين تجاهلهم اتّحاد الكتّاب الرسميّ في سوريا، بينما تعتبرهم الرابطة شهداء لها.

وبمناسبة مؤتمركم هذا تتقدّم رابطة الكتاب السوريين بطلب العضويّة كمؤسّسة ممثّلة للكتّاب السوريّين داخل وخارج سوريا، وسوف تقوم لأجل ذلك بتقديم ملفّ كاملٍ يثبتَ استيفاءها للمعايير والشروط التي تثبت أهليّتها للانضمام إلى اتّحادكم، وبما ينسجم مع النظم والمعايير التي يأخذ بها الاتّحاد في مثل هذه الحالات.

وإلى أن يصلكم الملفّ تودّ رابطة الكتاب السوريين أن تلخّص بعض الأسباب الموجبة لقبولها في عضويّة الاتّحاد العام للأدباء والكتّاب العرب، وأهمّها:

تشعر الرابطة بأنّ الاتّحاد الرسميّ قد تخلّى عن مسؤوليّاته في الدفاع عن حقوق أعضائه، وقد بلغ ذلك ذروته من خلال صمته عن عمليّات التصفية التي تعرّض لها بعض أعضائه، ما يجعلنا على قناعة بأنّه لم يعد يصلح لتمثيل الكاتب السوريّ في أيّ مناسبة من المناسبات.

نشأت رابطة الكتّاب السوريين نتيجة حاجة ملحّة لدى الكتّاب السوريّين داخل وخارج سورية لتأطير أنفسهم ضمن جسم ديمقراطي جديد.

لاقت الدعوة لتأسيس الرابطة حماساً كبيراً لدى الكتّاب السوريين انعكس في انتظام عدد كبير من أهمّهم سواء أكانوا في الداخل أو الخارج ضمن إطارها، كما تلقّت ولا تزال تتلقّى طلبات انضمام من كتّاب آخرين.

أدّى نشوء رابطة الكتّاب السوريين، التي كانت أوّل جسم ديمقراطيّ سوري ذي طابع فكريّ ومهنيّ إلى انبثاق عدد آخر من الروابط والتشكيلات السوريّة ذات الطابع الإبداعيّ والمهنيّ مثل رابطة الصحافيين السوريين، وتجمّع التشكيليين والمبدعين السوريين، ورابطة المرأة، ورابطة الطلاب السوريّين الأحرار، وغيرها، وقد ساهم عدد من مؤسّسي رابطة الكتّاب في دعم هذه الروابط والتجمّعات الجديدة، كما ألهم بيانها التأسيسيّ بيانات عدد من هذه الروابط والتجمّعات.

ساهم نشوء رابطة الكتّاب السوريين في خلق حالة تضامن ثقافيّة وسياسيّة عربيّة، حيث انضمّ مئات الكتّاب والمثقّفين العرب إلى رابطة الكتّاب السوريين، ونالوا العضويّة الشرفيّة فيها.

شارك عدد من الكتّاب العرب المرموقين في تأسيس آليّة ديمقراطيّة للانتخاب في الرابطة، كما قام عدد منهم بمراقبة وتنظيم هذه الانتخابات.

منذ تأسيسها لم تنفكّ رابطة الكتّاب السوريين عن إصدار بيانات الدعم للكتّاب السوريين والعرب الذين تعرّضوا لانتهاك حريّاتهم الأساسيّة.

أكّدت رابطة الكتّاب السوريين منذ تأسيسها على طابعها الأخلاقيّ والفكريّ والسياسيّ الذي يستوعب الأديان والقوميّات والاتّجاهات السياسيّة، وشجّعت على التنوّع والانفتاح، ولم تميّز في عضويّتها بين المبدعين السوريين أيّاً كانت خلفيّاتهم، وضمّت على حدّ سواء الكتّاب السوريين العرب والأكراد والأرمن والتركمان.

رغم إمكانيّاتها المحدودة، وبجهود جماعيّة وفرديّة، بذلت رابطة الكتّاب السوريين جهوداً في مجال الرعاية الاجتماعيّة للكتّاب السوريين، وقدّمت معونات للمحتاجين منهم، ويأتي ذلك انطلاقاً من وعيها بأهمّية هذا الدور.

أنشأت رابطة الكتاب السوريين مجلّة تدعى (الرابطة) صدر منها عددٌ واحد، كما أسّست مجلّةً فكريّةً جديدة تدعى (أوراق) سيصدر العدد الأوّل منها قريباً.

السادة الحضور:

إنّ احتضان مؤتمركم الكريم لرابطة الكتّاب السوريين ستكون له مفاعيل مهمّة على الحياة الفكريّة والإبداعيّة السوريّة، وسيعتبر تحيّةً منكم لنضال الكتّاب السوريين لانتزاع حريّتهم والتخلّص من جميع أشكال الدكتاتوريّة، فكريّة كانت أم سياسيّة.

مع خالص تقديرنا، وتمنيّاتنا مرّةً أخرى لمؤتمركم بالنجاح والتوفيق.

د. صادق جلال العظم
رئيس رابطة الكتّاب السوريين

وثيقة

البيان الختامي الصادر عن اجتماعات المكتب الدائم للاتحاد العام للأدباء والكتاب العرب أبوظبي ٣ ـ ٥ يونيو / حزيران ٢٠١٣

انعقد اجتماع المكتب الدائم للاتحاد العام للأدباء والكتاب العرب في أبوظبي عاصمة دولة الإمارات العربية المتحدة بين٣ ـ ٥ يونيو / حزيران ٢٠١٣ برئاسة الأستاذ محمد سلماوي الأمين العام للاتحاد العام للأدباء والكتاب العرب، وبحضور ثلاثة عشر وفداً ممثلاً للاتحادات والروابط والأسر والجمعيات الأعضاء، وهم:

اتحاد كتاب مصر ـ الاتحاد القومي للأدباء والكتاب السودانيين ـ اتحاد الكتاب التونسيين ـ اتحاد الكتاب الجزائريين ـ اتحاد كتاب المغرب ـ اتحاد الأدباء والكتاب الموريتانيين ـ الاتحاد العام للأدباء والكتاب الفلسطينيين ـ رابطة الكتاب الأردنيين ـ الاتحاد العام للأدباء والكتاب العراقيين ـ رابطة الأدباء في الكويت ـ أسرة الأدباء والكتاب في البحرين ـ الجمعية العمانية للكتاب والأدباء ـ اتحاد الكتاب اليمنيين.

بالإضافة إلى وفد الأمانة العامة.

وبعد استعراض شامل وعميق للمتغيرات التي يشهدها الوطن العربي على الصعد كافة، ومراجعة التأثير المحتمل لكل ذلك على واقع المثقفين والأدباء والكتاب العرب، وقبل ذلك على واقع الدول العربية وتطلعات شعوبها المشروعة إلى تحقيق قيم الحرية والعدالة والاستقرار؛ خلص المجتمعون إلى ما يلي:

أولاً: تابع الاتحاد العام متغيرات الساحة العربية بالكثير من الترقب والقلق خصوصاً ما اتصل منها بآثار الثورات في عدد من البلاد العربية، ولاحظ صعود تيارات وجماعات تتبنى خطاباً تكفيرياً وإقصائياً، ما يهدد الأمن القومي الثقافي والوحدة الوطنية، وما يتيح للاتجاهات الطائفية والعنصرية القيام بأدوارها المشبوهة المعلومة، وهو الأمر الذي يستدعي التعامل مع الواقع الجديد بيقظة وانتباه، والتصدي له بروح جمعية تقدم المصالح القومية والوطنية العليا على ما عداها، على أن يترافق ذلك مع الترشيد والحكمة.

ثانياً: يؤكد الاتحاد العام، والحالة تلك، إيمانه وإيمان أعضائه بالتعددية والحرية، ويحثّ الدول العربية على تبني قيم العدل والحق والمساواة والسياسة المتوازنة، لافتاً النظر إلى أن تيارات الإسلام السياسي والتطرف تجد طريقها إلى السيطرة سهلاً في حالة فراغ أوطاننا من الدساتير والتشريعات التي تكفل كرامة الإنسان العربي.

ثالثاً: راقب الاتحاد العام على مدى الفترة الماضية ما يتعرض له التراث الثقافي الفلسطيني من طمس لآثاره إلى جانب نهب وسرقة جزء من العناصر الثقافية المكونة للهوية الوطنية الفلسطينية، وأقر الاتحاد تخصيص يوم كل عام للاحتفال بيوم الثقافة الفلسطينية، وذلك نحو إقامة أنشطة ومحاضرات وندوات ومعارض كتب وتشكيل في جميع المنظمات القطرية التابعة للاتحاد العام.

رابعاً: يؤكد الاتحاد العام ضرورة تكريس فكرة الدولة المدنية، والنظر إليها كمشروع قومي ووطني قابل للتطبيق بتهيئة جميع أسبابه ووسائله، بحيث تبنى الدول على أساس مبدأ المواطنة، مع نبذ نزعات التطيف والتمذهب والانحياز إلى العصبيات والمصالح الضيقة، وكذلك العمل على تحقيق البيئة الوطنية للمكونات الاجتماعية من دون استثناء. وفي هذا الصدد يؤكد الاتحاد العام حق الشعوب في الوصول إلى حقوقها بالوسائل المشروعة، خصوصاً تلك المتصلة بإشاعة الديمقراطية، وإقرار الحريات العامة والعدالة الاجتماعية والسياسية، والسعي للحيلولة دون إعادة إنتاج الديكتاتورية بأشكال جديدة.

كما يدين الاتحاد العام الفتاوى التي تثير الفتنة والاقتتال وشق صف الأمة، وتأتي فتاوى الشيخ القرضاوي في هذا السياق الذي يدعو إلى إباحة الدم، واستدخال القوى الأجنبية للبلاد العربية بما لا يخدم وحدة الأمة واستقلالها.

خامساً: شدد اجتماع المكتب الدائم على أهمية وضرورة مواجهة مخاطر التهويد التي تزداد على القدس الشريف وعموم الأراضي الفلسطينية، ومطالبة الدول العربية شعوباً وقيادات لدعم مقاومة الاحتلال، وتوفير كل ما من شأنه إسناد صمود أهلنا في الأرض المحتلة.

سادساً: مقاومة التطبيع، والعمل الجدي نحو تعزيز مواجهته بكل أشكاله، وأن تعمل المؤسسات الوطنية في الدول العربية ذات الاختصاص الأكاديمي والفكري والثقافي على ترسيخ القضية الفلسطينية باعتبارها القضية الأولى، مع حشد الإمكانات المادية والمعنوية لنصرة الشعب الفلسطيني في نضاله ضد الاستيطان بوصفه سياسة عدوانية ممنهجة،

والوقوف معه لنيل حقوقه التاريخية المشروعة.

ويتبنى الاتحاد العام عقد مؤتمر سنوي موضوعه «مقاومة التطبيع» بحيث تتناوب الاتحادات العربية على تمويله واستضافته.

سابعاً: يقف الاتحاد العام بقوة ضد ما تتعرض له بعض البلدان العربية كفلسطين والعراق من عمليات سرقة لتراثها، ويدعو إلى اتخاذ كل ما يلزم لإيقاف ذلك، وإعادة كل ما تمت سرقته، بوصفه حقاً تاريخياً للأجيال جميعاً لا لجيل بعينه.

ثامناً: يرفض الاتحاد العام التدخلات الأجنبية في أي شأن عربي، ويدين أي وجود عسكري في أية دولة عربية، ويرجو لمناطق التوتر والنزاع في الوطن العربي التوصل إلى معالجات داخلية عبر الحوار الحر غير المشروط، بحيث يكون الحوار حالة مستمرة وغير طارئة.

وفي هذا السياق ينظر الاتحاد العام إلى ما يجري في سوريا بقلق شديد، ويدعو الأطراف جميعاً إلى الحرص على صون الوطن واستقلاله، وتجاوز حالة الاحتراب اليومي، مع التأكيد على حق الشعب السوري في الحياة الديمقراطية الكريمة.

تاسعاً: يؤكد الاتحاد العام وقوفه مع السودان ضد التدخلات الأجنبية التي تهدف إلى تمزيقه، ومحو هويته العربية، كما يدين تدخلات القوى الأجنبية بالمال والسلاح، والدعم اللوجستي والإعلامي في العدوان على الأراضي السودانية، وترويع الآمنين في مناطق التماس في دارفور والنيل الأزرق وكردفان. كما يدعو الاجتماع إلى الحل السلمي، وأن يجلس السودانيون لحل نزاعاتهم عبر الحوار البناء الذي يحفظ للوطن كرامته وحريته واستقلال قراره.

عاشراً: يتضامن الاتحاد العام مع دولتي مصر والسودان ضد المشروعات المائيّة الماسّة بحقوقهما التاريخية والمشروعة في مياه النيل، وفق الاتفاقيات الدولية التي تصون هذه الحقوق، مع كامل التقدير للتعاون التام بين دول حوض النيل فيما يعود بالخير على هذه الدول كافة.

حادي عشر: يؤكد الاتحاد العام تضامنه مع دولة الإمارات العربية المتحدة وحقها المشروع في جزرها الثلاث (طنب الكبرى، وطنب الصغرى، وأبو موسى)، ويدين استمرار احتلال تلك الجزر من قبل إيران، وعدم استجابتها للمطالبات المتكررة لحل القضية عن طريق المفاوضات المباشرة، أو التحكيم الدولي. كما يدين الممارسات والتصريحات الإيرانية الأخيرة الرامية إلى تغيير الوضع الجغرافي والديمغرافي لهذه الجزر.

ثاني عشر: يدعم الاتحاد العام دولة الإمارات العربية المتحدة في جميع ما تتخذه من إجراءات لحفظ أمنها الوطني، وحقوقها المشروعة للتصدي للتيارات الظلامية التي تستهدف الاستقرار والسلام الاجتماعي في هذا القطر العربي العزيز.

ثالث عشر: يدين الاتحاد العام تدخل إيران في الشؤون الداخلية لمملكة البحرين، وتهديداتها المتكررة التي تستهدف عروبتها.

ويدين كذلك الاستعمار الإسباني لمدينتي سبتة ومليلة المغربيتين، ويطالب بتحريرهما فوراً من قبضة الاحتلال الإسباني مع بقية الجزر المغربية المحتلة.

كما يدين الغارات المتكررة من الطائرات الأمريكية دون طيار على المواطن اليمني بطريقة ممنهجة، ويبارك ما تقوم به الحكومة والشعب اليمنيّ من مواجهات ضدّ الميلشيات المتطرفة والفكر الظلامي الذي تتنامى أنشطته في اليمن. ويبارك كذلك لكافة الفرقاء السياسيين مؤتمر الحوار المستمر انعقاده في سبيل الخروج باليمن من مخاطر التشطير والاحتراب.

ويعبر الاتحاد العام أيضاً عن وقوفه مع جمهورية الصومال في نضالها لاستعادة دورها عضواً حياً وفاعلاً ومؤثراً في الأسرة العربية، لاسيما وهي تسعى إلى محاربة قوى التطرف والظلامية، وإقامة الكيان المدني الحرّ.

رابع عشر: يحث الاتحاد العام جميع الدول الشقيقة على الاهتمام بلغتنا الأم ـ لغة الضاد، والحرص على أن يضمن ذلك في مناهج التعليم النظامي منذ سنواته الأولى، بحيث يكون ذلك إلزامياً في مؤسسات التعليم العاملة في الوطن العربي.

خامس عشر: يطالب الاتحاد العام الدول العربية التي لم تسمح حتى الآن بإقامة كيانات ثقافية تعبر عن الأدباء والكتاب فيها إلى المبادرة إلى ذلك.

سادس عشر: تعبر الاتحادات العربية عن امتنانها العميق لدولة الإمارات العربية المتحدة حكومة وشعباً لما وجدوه من حسن الاستقبال وكرم الضيافة وأجواء الحرية التي أسهمت في نجاح الاجتماع.

وثيقة

تقرير حال الحريات في الوطن العربي الصادر عن اجتماع المكتب الدائم للاتحاد العام للأدباء والكتاب العرب

أبو ظبي ٣ ـ ٥ حزيران / يونيو ٢٠١٣

تابع الأعضاء المشاركون في اجتماع المكتب الدائم للاتحاد العام للأدباء والكتاب العرب بكثير من القلق الانتهاكات وأشكال التضييق على حريات الفكر والإبداع، ويؤكد أعضاء المكتب الدائم أنه لا يجب أن يكون إبداع الكاتب أو رأي الأديب أو المفكر سبباً للمساس بحريته، وذلك لأن الحرية والثقافة صنوان لا يفترقان.

وقد أكدت اجتماعات المكتب الدائم للاتحاد العام للأدباء والكتاب العرب رفض كل أشكال الرقابة على حرية التفكير والإبداع دعماً للتعددية وصيانة لحق الاختلاف.

إن المجتمعات العربية مجتمعات راشدة كانت مهداً لحضارات وثقافات عديدة ومتنوعة استطاعت أن تستوعبها في إطار تاريخي ممتد، وفي سياق اجتماعي متسامح، وهي مجتمعات تستطيع أن تمارس رقابتها الذاتية على نتاجها الثقافي دون وسيط أيديولوجي أو وصاية فكرية من أي جهة دينية أو رسمية.

ويود المكتب الدائم للاتحاد العام للأدباء والكتاب العرب في ضوء التقارير الواردة إليه من الاتحادات والروابط والأسر والجمعيات أن يسجل إدانته لما يلي:

١ـ المحاصرة المنظمة لحرية الرأي والتعبير في عدد من البلدان العربية، منها مصر واليمن وسوريا، مع محاكمة عدد من الكتاب والأكاديميين بتهم وهمية من قبيل ازدراء الأديان ونقد

السلطات الحاكمة.

٢ـ مصادرة بعض الأعمال الفنية والأدبية التي تراجع المثلث الجنسي والعقدي والسياسي.

٣ـ إغلاق بعض وسائل الإعلام من صحف وقنوات فضائية، مع تكرار محاولة الاعتداء على العاملين والمتعاونين معها.

٤ـ إغلاق بعض مواقع التواصل الاجتماعي ومراقبتها والتجسس عليها وقرصنتها.

٥ـ إطلاق أيدي جماعات تكفيرية متعصبة لتهديد مثقفين ومفكرين فضلاً عن منظمات نشطة.

٦ـ تشجيع الاعتداء على تقاليد ثقافية من الموروث الشعبي ومأثوراته بحجة الالتزام بصحيح الدين.

٧ـ مصادرة بعض الصحف بعد الطبع في عدد من الدول العربية.

٨ـ استعمال قوات الأمن للقوة المفرطة، واعتقال متظاهرين سلميين، واستمرار حبس أشخاص بدون محاكمات لفترات طويلة.

٩ـ اعتقال وتصفية ثلاثة من الكتاب والشعراء في سوريا نتيجة لمواقفهم السياسية المعلنة.

١٠ـ محاصرة الكيان الصهيوني لحرية التعبير والإبداع للشعب الفلسطيني، وفرض الرقابة على دخول الكتب وخروجها، وعلى حريات الصحافة ومجاوزة ذلك إلى فرض رقابة على مصطلحات المرئي والمقروء والمسموع للتأثير بوعي المواطن الفلسطيني، ومحاولة تشويه انتمائه، هذا فضلاً عن منع النشاط الثقافي، وإغلاق المؤسسات والمراكز الثقافية في القدس بخاصة.

ويؤكد المكتب الدائم للاتحاد العام للأدباء والكتاب العرب ما يأتي:

١ـ رفضه الكامل وإدانته لممارسات العدو الصهيوني ضد المبدعين والكتاب والمفكرين الفلسطينيين.

٢ـ رفض تحويل المدنيين إلى محاكمات عسكرية.

٣ـ دعم حق التظاهر السلمي، وحق التعبير عن الرأي، ويطالب جميع الاتحادات العربية ومنظمات المجتمع المدني بالتصدي لكل محاولات الاعتداء على حرية الفكر.

٤ـ مطالبة الحكومات العربية بإلغاء التشريعات والقوانين المقيدة للكتابة والإبداع.

٥ـ أهمية الإفصاح عن الانتهاكات المتعلقة بالحريات، وفضح القائمين بها، ومقاضاتهم.

٦ـ رفع الرقابة عن حركة الكتب والإصدارات العربية.

وأخيراً يطالب المكتب الدائم للاتحاد العام للأدباء والكتاب العرب جميع المثقفين والمبدعين العرب بالاضطلاع بدورهم النضالي في هذه الظروف حماية لمكتسباتهم النضالية، مؤكدين دائما انه لا شرط على الحرية الا المزيد منها.

والله ولي التوفيق

سجال

رداً على صادق جلال العظم... في شأن أدونيس

خالدة سعيد

لا يغيب اسم أدونيس عن حديث للمفكر صادق العظم أستاذ الفلسفة في جامعة دمشق والأستاذ الزائر إلى بعض الجامعات والمراكز الأميركية. لا سيما في السنة الثانية من عمر الثورة السورية، سواء كان ذلك في جريدة «الحياة» كما في حواره الأخير في ٢٢ نيسان(أبريل) ٢٠١٣ مع الصحافية علياء الأتاسي، أو في جريدة «الشرق الأوسط» في أكثر من مناسبة حيث نسب إلى أدونيس موالاة حزب البعث العربي السوري لأسباب مذهبية. أمّا هنا، في «الحياة» فهو يجعل أدونيس نوعاً من داعية لولاية الفقيه بل معلّماً وكاتباً قروسطيّاً، إذ يقول: «تبنّى خطاباً مدافعاً عن ولاية الفقيه وليس عن الثورة ودافع عنها بلغة قروسطية تماماً كأنّه شيخٌ أو فقيه. شرح ولاية الفقيه بلغة الإمامة والولاية».

والكلام هنا يشير، إلى الفقيه الإيراني، طبعاً، ما دام المتكلّم يربط الخطاب «بالثورة». كما سبق للدكتور العظم استحضار اسم الخميني والثورة الإيرانية بصدد الكلام على أدونيس، في مناسبات مختلفة.

وكان في حديث له مع الإعلامية زينة يازجي في تلفزيون دبي ٢٥ حزيران (يونيو) ٢٠١٢ قد قال عن أدونيس إنه «نظّر بلغة الإمامة، كأنه من القرون الوسطى. كلنا كنّا مع الثورة. ولكن هو قدّمها بلغة لاهوتية شيعية، وبيّن كيف أن الإمامة استمرار للنبوة، ودافع عن ولاية الفقيه. تقرئين كأنك تقرئين في الكتب الصفراء». إلى أن يقول: «أدونيس صالح النظام. كتب في جريدة «الثورة».

وبما أنّ أدونيس يرفض الردّ، ويقول لي: «كل ما كتبته مُثْبَت في كتبي وهي في المكتبات. وأنا أثق بذكاء القرّاء»، فإنني أجد نفسي ملزَمة بالتصحيح. إذ مهما كان الاتّهام بالمذهبية

سلاحاً رائجاً بل دارجاً وسهلاً هذه الأيام، ولا يخفى على الأذكياء، فإنني أعتبره، في مثل وضعنا وتاريخنا وقيَمنا، كأفراد وكأسرة، إساءة لا يمكن السكوت عنها.

يشير الدكتور العظم هنا، كما يبدو، أو كما يَظنّ هو، إلى مقالات نشرها أدونيس مباشرةً، بعد الثورة على نظام شاه إيران، في جريدة «النهار العربي والدولي»، وهي ثلاث. أولى المقالات كانت بتاريخ ١٢شباط (فبراير) ١٩٧٩، أي بُعَيْد تأليف حكومة مهدي بازركان الليبرالي في ٥/٢/١٩٧٩، ولم يكن هناك (أو لم يكن قد وصلنا) إلا الشعارات والنيات المتداخلة والدعاوة الواسعة حول هذه الحركة والحماسة التي حظيت بها حتى في الغرب، ولا سيما في فرنسا، وبين كبار المثقفين وبعض الفلاسفة، ومنهم ميشيل فوكو نفسه.

وكانت المقالة الثانية في ٢٦ شباط نفسه؛ وقبل دخول «الثورة» في مرحلة التصفيات، وكل ما رافق ذلك من تطورات وعسكرة. ثم كانت هناك مقالة ثالثة بعد مرور سنة وبضعة أشهر بعنوان «الفقيه العسكري». في ما بعد، جمع أدونيس، في كتاب واحد، المقالات الثلاث المذكورة مع دراسات كتبها مطلع الثمانينات حول أعلام الفكر الديني في عصر النهضة، وألْحَقَ الكتاب، بوصفه جزءاً ثالثاً، بـ«الثابت والمتحوّل». أي أدرجه تحت العنوان العام لأطروحته التي كان قد نشرها فور مناقشتها عام ١٩٧٣. والكتاب الذي يضمّ المقالات عن إيران هو الآن في طبعته العاشرة منذ ١٩١١. ويمكن من شاء أن يطّلع عليها كي يحكم على لغتها ومضمونها، ويقرر ما إذا كانت داعية لولاية الفقيه أو حتى معنيّة بالشأن الدينيّ. كما يمكن أن يقارن بين اللغة البسيطة بل الصحافية لهذه النصوص الموجزة، وبين دراسات في الكتاب نفسه والجزء نفسه تحت عنوان: الفكر المستعاد، أو عصر النهضة، وتتناول هذه الأخيرة أعمال الشيخ محمد عبده ومحمد رشيد رضا والكواكبي، كما تتناول كتابات الشيخ محمد بن عبد الوهّاب (ص٧٧ـ ٩٠). (وأيضاً كان هذا النصّ الأخير ـ مع نصوص إيران المُشار إليها ـ مادة لكتيّب وقصة أكثر غرابة وافتراء، نُسب فيه أدونيس إلى الوهابية والخمينية معاً، ووصل الكتيّب إلى لجنة نوبل، وليس هنا مجال سرد هذه المهزلة).

صحيح أن النص الأول ـ حول إيران ـ كان عرضاً للقضية التي طرحت مع «الثورة الإسلامية» في ضوء الآمال التي أيقظتها أو حُمِلَت عليها، كما بدت في الأيام الأولى، وكأنها حركة تحررية محضة و «إسلام بلا مذاهب» و«ثورة شاملة»، وكما فهمها أدونيس أو كما خُيّل إليه، فسجّل ملاحظته لظواهر أربع. أقتصر منها على ثلاث نقاط تبيّن قراءته لها ومنحى رؤيته، وطبيعة لغته: يقول في ص. ١٧٠ ـ ١٧١: «اليوم يقدم لنا ما يحدث في إيران بخاصة، وفي المجتمعات العربية بعامة، فرصة جديدة، للتأمل في الدين ودوره المحرك في العالم الإسلامي...». «الظاهرة الأولى هي أن الدين يحرك إيران في اتجاه التحول». «الظاهرة الثانية هي أنّ هذا المحرِّك أشمل من أن يكون دينيّاً محضاً بالمعنى الإيماني الغيبي. إنّ له فوق ذلك، أبعاداً سياسية اقتصادية، اجتماعية. إنه بتعبير آخر يتحرك في أفق ثورة شاملة».

وفي الظاهرة الثالثة يبدو لأدونيس أنّ هذا الإسلام «المُحرِّك «يتحرك» من أجل تحقيق التحرر

في الداخل: العدالة والمساواة، وحرية الإنسان، وكرامته، والإلحاح على أن يكون سيّد نفسه، ومصيره».

هذا التفاؤل الذي يسقطه أدونيس على الثورة الإيرانية قد جاء في الأيام الأولى بعد الدخول السلمي إلى البرلمان الإيراني، وفي أعقاب قرار بازركان إغلاق سفارة إسرائيل وافتتاح سفارة فلسطين. ولعلّ كثيرين يذكرون أصداء هذا الحدث الأخير. لا سيما أنه جاء بعد اتفاقية كامب ديفيد بأربعة أشهر وفي مناخ الغضب العربي أو الاستياء، وخروج مصر يومذاك من محور «المقاومة». ولا أعرف أين رأى الدكتور العظم في هذا كله دعوة أو شرحاً لولاية الفقيه. مع ذلك لا بدّ من القول إن أدونيس بالغ في التفاؤل وتسرّع في الحكم.

لكنّ المقالة الثانية، وكانت بعد أقلّ من أسبوعين، فقد جاءت خاصة بالأسئلة والشكوك. إذ في سياق مناقشته لما يمكن أن تحققه هذه الثورة يكرر في نهاية كل مقطع عبارة «وفي هذا الأفق يتحرك شيء من القلق والخوف». ويختتم أدونيس المقالة بهذا التحفّظ: حسبي أن أشير إلى القلق والخوف من أن تغالي جماهيرُنا وقياداتها، أيضاً، فتنسى ثورتها الخاصة أو تنسى أن عليها أن تقوم هي بثورتها الخاصة، وتكتفي بأن تُسقط على الثورة الإيرانية رجاءها وآمالها، أو أن تجعل منها استيهاماً آخر». (ص. ١٨٠). تاريخ ظهور المقالة (٢٦ شباط ١٩٧٩) أي بعد ٢٥ يوماً من عودة الخميني إلى إيران، ولم تكن ملامح النظام الجديد المتزمت قد ظهرت ولا السياسة العنفية في تلك المرحلة قد بدأت أو عُرفت.

أما المقالة الثالثة فجاءت بعد أكثر من عام، وتُختَتَم بهذا الحكم الإجمالي على الاتجاهات «العروبوية القومية»، وفق تعبيره، و»الإسلاموية» معاً. يقول في الصفحة ١٨٤-١٨٥ من الجزء الثالث للكتاب نفسه:

« وأخشى من مجيء الوقت الذي نقول عن أصحاب هذا الاتجاه الإسلاموي، [كما يسميه] ما نقوله ويقولونه عن الاتجاهات العروبوية القومية السابقة: لم تستطع مسلّماتُها أن توحّد لا أدباءها ولا مثقفيها ولا جماهيرها، فضلاً عن سياسييها - ما يسمح بالقول إنّ صياغاتها المفهومية كانت خارج الحركة الحيّة للبشر - تاريخاً وواقعاً وتطلّعاً، وكأنها مجرد أضغاث أحلام، أو مجرد رواسب استيهامية. وكما نقول إن الاتجاهات العروبوية أسّست للمثقف العروبي العسكري، أخشى أن نقول عن الاتجاهات الإسلاموية إنها تؤسس للفقيه العسكري». (٢٦ تموز - يوليو ١٩٨٠). فأين هو التبشير والتنظير أو شرح ولاية الفقيه كأنها استمرار للنبوّة؟ وهل هذه لغة فقهية صفراء قروسطية؟ الجواب عند القارئ.

المؤكّد أن العظم لم يقرأ الكلام على ولاية الفقيه في مقالاته حول إيران. فمن أين جاء بهذا التوصيف؟ وهل يعرف المصدر حقّاً؟ أم هي بعض الشائعات؟

في سياق بحثي عن الجواب أعدتُ قراءة أطروحة أدونيس التي ناقشها عام ١٩٧٣ ونشرها فور المناقشة، أي قبل الثورة الإيرانية بأكثر من خمس سنوات. ووجدت أنه، في الجزء الأول، أي في صلب الأطروحة (وليس في الجزء المُلحَق)، في فصل بعنوان «أصول الإبداع أو التحوّل»

يستعرض، مجموع حركات التمرّد والثورات والتحولات السياسية والفكرية ـ الدينية التي حصلت بعد مقتل الخليفة الرابع في السنة الأربعين للهجرة. وكانت بدايات هذه الحركات سياسية تمثلت في الصراع حول الخلافة. لكنها مع توالي الثورات، وتعدد الهزائم والفواجع وتجدد النظرات والمطالب، وتنوّع الاجتهادات والتأويلات لدعم الأهداف، والالتفاف أحياناً حول شخصيات رمزية، سارت تلك الحركات في اتجاه تكوّن المذاهب والنظريات، وبينها القول بالإمامة. وكل هذه المعلومات والكلام الذي يصفه الدكتور العظم «بالقروسطي» و «الكتب الصفراء» لتعريف الإمامة، مستقى بنصه، من المصادر المعروفة والكتب الأمهات المعتمدة في كل المباحث بدءاً من المؤرخ والمفسر والفقيه الشافعي، الشهير، أي الطبري (٣١٠ هـ.) في كتابه «الطبقات الكبرى»، وصولاً إلى ابن حزم والبغدادي والمبرّد وابن خلدون وعدد كبير من مشاهير المؤلفين القدامى ومن المصريين المعاصرين. والأهم بل الجوهري، هو أن السياق ليس سياق تنظير وإبداء للرأي، ولا تبشير أو تنفير، بل سياق تمهيد وتعريف وتسلسل تاريخي، بلغة المرجع ونصه، في كثير من الأحيان. وتحتل لائحة المراجع حوالى ثلث الكتاب. ويمكن لمن شاء أن يرجع إلى هذا الجزء الأول من «الثابت والمتحوّل» (دار الساقي، ط. ١٠، ص. ٢٢٣ ـ٢٤٣).

أمّا الحركات التي تشكل صلب الموضوع وتمثل ما سماه أدونيس «التحوّل»، فهي ثورة الزنج وثورة القرامطة والتصوّف والفلسفة. (وليس التشيع كما زعم البعض.) كما أنّ هذا النص تأريخي تحليلي سابق، ولا علاقة له بالثورة الإيرانية المعاصرة. وإذاً على أي نص استند الدكتور العظم؟ ومن أين جاء بهذا الكلام؟

ما هي غاية الدكتور العظم من الإلحاح على المسألة المذهبية كلما ذكر أدونيس؟ ولماذا في هذه المرحلة تحديداً؟ هل لهذا علاقة بقوله «أدونيس صالَح النظام»؟ (كأن أدونيس دولة أو حزب أو ميليشيا أو زعيم سياسي). ما معنى مصالحة النظام؟ وهل الذهاب إلى بلد مصالحة؟ هل الصداقة الخاصة مع شخص ما مصالحة للنظام؟ وهل كل من عاش في سورية وعمل في البلد ـ بلده، ولو أشهراً أو سنة واحدة، متصالح؟ إذاً هل أمضى الدكتور العظم كل هذه السنوات في دمشق متصالحاً أم متخاصماً مع النظام؟

مع ذلك، لا يستطيع الدكتور العظم أو غيره أن يقول إن النظام صالح أدونيس. لأنه استبعده بكل الأساليب. حتى في الأشهر التي كتب فيها في جريدة «الثورة» كانت مجلته وكتبه ممنوعة كما في السابق، وكما بقيت ممنوعة على امتداد نصف قرن. وهل بدّل أدونيس أفكاره لمّا كتب في جريدة الثورة؟ ماذا يمثل أدونيس في سورية أو غيرها من دون شعره وأعماله ومشروعاته وأفكاره؟ وأين كانت هذه المصالحة لمّا أصدرت وزارة الإعلام في التسعينات تعميماً على الصحف توصي فيه بعدم ذكر اسم أدونيس؟ أو لمّا طرد من اتّحاد الكتّاب؟

وبالمقابل، ومع ذلك، فإنني لا أسمّي «مصالحة للنظام» المرسوم الجمهوري أو الإجراءات الاستثنائية التي اتخذت في سورية، لافتتاح دورة خاصة للبكالوريا كي يستكمل الدكتور

صادق العظم أوراقه ويتمكن من التعليم في الجامعة، حيث ترأس قسم الفلسفة. ليس هذا ارتباطاً سياسياً أو عقدياً. كان ذلك من مصلحة الجامعة والطلاب، وإرواء لحنين العظم إلى بيته وبلده، ولم يُلزمه بأكثر من أن يكون أستاذاً متميزاً.

وليت الجامعة أو مؤسسات الدولة كانت دائماً بهذه المرونة وهذا الذكاء. ولا أذكر هذا إلا للمقارنة.

مع ذلك، وعودة إلى حكاية «المصالحة»: هل تقلّ كفاءات أدونيس وأعماله وسيرته العلمية وسمعته العالمية، في ميدانه، عن كفاءات الدكتور العظم في ميدانه؟ فلنر كيف تصرفت الدولة نفسها مع أدونيس، وفي المرحلة التي كان فيها يكتب في جريدة «الثورة».

في ذلك الوقت كان رئيس جامعة دمشق صديقنا الدكتور محمد الفاضل يتكلم بحماسة عن مشروعه أو حلمه في إنهاض الجامعة ودعوة كبار الأساتذة السوريين من المغتربات. ألحّ على أدونيس لتقديم طلب للتدريس. وعبثاً حاول أدونيس أن يقنعه باستحالة قبوله، هو شخصيّاً. ولعله قدم الطلب مسايرة، لكي يبرهن للفاضل صحة توقعه. لم يكن في أوراق أدونيس أي نقص، لكن طلبه توقف في شعبة المخابرات ونام هناك نوماً أبدياً. فلجأ الفاضل إلى دعوة أدونيس كأستاذ زائر بوصفه لبنانيّاً. ولما اغتيل الفاضل لم يُسمَح لأدونيس حتى أن يصحح مسابقات طلابه. ونُقل رئيس تحرير جريدة «الثورة»، الذي توهّم أنه يستطيع أن يبادر، إلى وظيفة هامشية. ولمّا طرد أدونيس من اتحاد الكتاب السوريين، لم تُكتَب كلمة واحدة. لم يرتفع صوت سوري واحد، من هذا المذهب أو ذاك، باستثناء اعتراض للمفكر الراحل أنطون مقدسي وانسحاب الكاتبين الكبيرين حنّا مينه وسعد الله ونّوس من الاتحاد. الحملة العالية الشهامة والواسعة للاعتراض والنقد جاءت من المثقفين اللبنانيين والعرب ومن تجمع الكتاب في السويد.

أما انتقاد أدونيس بأنه لم يدافع عن سلمان رشدي، فكل ما كان يستطيعه أدونيس هو نشر ترجمة عربية لدفاع رشدي عن نفسه في مجلة «مواقف». لكن عمال المطبعة رفضوا أن يصفوا النص.

لأدونيس مع حزب البعث العربي (ومع بعض منتقدي الحزب) تاريخ حافل لا يمكنني أن أرويه هنا. ذات يوم من عام ١٩٥٦، وكان أدونيس مجنّداً بلا تدريب، أُرسِل في دورية على الجبهة، وراء خط الهدنة، بلا سلاح، ولن أروي سائر التفاصيل. ثمّ سُجن أشهراً في مكان مثل القبر، وأطلق سراحه من دون توجيه أي اتّهام. وكانت السلطة بأيدي ضباط الحزب الحاكم نفسه. بعد تسريحه من الخدمة الإلزامية بأيام عبر إلى لبنان ليبدأ عمراً جديداً ومصيراً مختلفاً.

ولكن ماذا أقول لأستاذ المنطق في أحكامه ومرتكزاتها؟

(نقلا عن صحيفة الحياة اللندنية)

سجال

في شأن أدونيس... تعليقاً على رد خالدة سعيد

صادق جلال العظم

نشرت السيدة خالدة سعيد تعليقاً في صحيفة «الحياة» (١٧ أيار ـ مايو ٢٠١٣)، جاء بعنوان «رداً على صادق جلال العظم... في شأن أدونيس». في البداية أتوجه بالشكر إلى السيدة خالدة على المستوى الرفيع الذي التزمته في الرد والنقاش. لكنني لم أجد في تعليقها رداً بقدر ما وجدت شرحاً وتفسيراً وتأويلاً وتسويغاً للظروف التي أحاطت بأدونيس، بالنسبة الى جملة من القضايا التي تعامل معها الشاعر والممتدة من الثورة الإسلامية في إيران إلى الثورة الشعبية الراهنة في سورية مروراً، أولاً، بإنهائه القطيعة القائمة منذ نصف قرن بينه وبين النظام العسكري ـ الأمني في سورية في أواخر سبعينات القرن الماضي، وثانياً، بقضية سلمان رشدي الدولية التي سيطرت على المشهد الثقافي العالمي والمحلي خلال عقد التسعينات من القرن العشرين.

تبدأ السيدة خالدة تعليقها على النحو الاتي: «لا يغيب اسم أدونيس عن حديث للمفكر صادق جلال العظم أستاذ الفلسفة في...». لا يغيب اسم أدونيس عن حديثي ليس لأنني مهووس به (أقول هذا من دون أي انتقاص من تقديري لمكانته ثقافياً وشعرياً)، بل لأن في سورية اليوم ثورة شعبية على النظام العسكري ـ الأمني الطاغي والمستبد وعلى دولته البوليسية، والأسئلة والتساؤلات تتطاير يميناً وشمالاً عن موقف المثقفين ونجوم الأدب والفكر والفن والثقافة عموماً في سورية وغير سورية من هذه الثورة وعن دورهم في المساعدة على نجاحها أو إحباطها.

ففي كل محاضرة ألقيتها عن سورية وربيع دمشق والربيع العربي، إن كان بالعربية أو الإنكليزية، وفي كل مقابلة صحافية أُجريت معي، وفي كل برنامج تلفزيوني ظهرتُ فيه،

وفي كل ندوة نقاشية شاركت فيها كان يُطرح عليّ السؤال: ما رأيك بموقف أدونيس السلبي من هذه الثورة العارمة؟ أما في الجلسات الخاصة وحلقات النقاش الضيقة فكانت تتكاثر هذه الأسئلة والتساؤلات وتزداد حدة واستهجاناً وعلى لسان الجميع.

في هذا المناخ، كان من الطبيعي أن أعقد مقارنة بين موقف أدونيس من الثورة الإسلامية في إيران المملوء بالترحيب والتمجيد والتعظيم، وموقفه المراوغ من الثورة الشعبية في سورية المملوء بالسلب والاستهتار والإبهام. في الحالة الأولى، تغنّى أدونيس بقم، مدينة آيات الله والحوزات والمقامات والجوامع والزوايا والعلوم القروسطية والمشاكسات الفقهية، كما لم يتغنّ بها أي صاحب قناعات علمية راسخة وأفكار حداثية صادحة قبله أو بعده. عجزت الكلمات، في تلك اللحظة، عن قول ما في «زفير أدونيس وشهيقه» من تمجيد للثورة الإسلامية في إيران ومن الاعتزاز والاعتداد بها بصفتها «كاتبة فاتحة الممكنات لشرقنا» الهامل. قارن هذا كله بتلعثم أدونيس ومراوغته وتردده وتأتأته وفأفأته وغموضه وسلبيته في القول عن الثورة الشعبية في سورية، ثورة على طغيان وعسف ودموية وفساد فاقت كلها بما لا يقاس ما كان ينسب في يوم من الأيام من جرائم ومظالم إلى شاه إيران وحكمه.

إذاً، المسألة ليست هوس صادق العظم في الحديث عن أدونيس، بل مسألة حيرة فكرية وخيبة سياسية ودهشة شخصية وصدمة ثقافية من أدونيس مجلة «مواقف» وأدونيس الحرية والتغيير والثورة والتقدم والحداثة والعلمانية والمتحوّل التي لم تصمد كلها للحظة واحدة أمام ثورة بقيادة آيات الله، ولكن أُعيد التمترس خلفها فجأة بغرض تسخيف ثورة الشعب السوري على «الثابت» إلى أبد الآبدين، وبغرض الاستخفاف بها إن لم يكن إدانتها منذ اللحظة الأولى.

تضاعفت الدهشة والحيرة والصدمة لمّا نشر أدونيس رسالته المفتوحة إلى بشار الأسد («إلى السيد الرئيس»)، في شهر حزيران (يونيو) ٢٠١١ وكانت الثورة ما زالت في طورها المدني السلمي الأول، كما كان المتظاهرون والمحتجون يتساقطون قتلى وجرحى بلا مقاومة أو حماية بالعشرات برصاص قوى ما سمّي وقتها بـ«الحل الأمني ـ العسكري» لمشكلة الانتفاضة السورية. وزّع أدونيس لومه ونصائحه بـ«العدل والقسطاس» على الطرفين «المتقاتلين» مساوياً تماماً بين القمع العسكري ـ الأمني الدموي من جهة وبين الشعب الأعزل الثائر من جهة ثانية. وكانت الطامة الكبرى حين خاطب أدونيس بشار الأسد «بوصفك خصوصاً رئيساً منتخباً». هل يعتقد أدونيس حقاً أن بشار الأسد رئيس منتخب؟ من انتخبه؟ متى؟ هل أدلى كل من أدونيس والسيدة خالدة بصوتيهما في تلك الانتخابات الرئاسية أو البرلمانية؟ أم أن أدونيس حاول تملق بشار الأسد مخاطباً إياه بما ليس فيه أو له، لعل بشار يرعوي ويستمع إلى نصائح أدونيس ويعمل بها إنقاذاً لسورية مما أوصلوها إليه؟ هل تعتقد السيدة خالدة أن وصف أدونيس لبشار الأسد بـ«الرئيس المنتخب» يمكن أن يمر من دون ضجة ونقد واستهجان أو حتى من دون اتهامات وتأويلات ذات طابع مذهبي؟

تنفي السيدة خالدة أن يكون أدونيس قد استخدم خطاباً مشائخياً قروسطياً في مقالاته السابقة (عن الثورة الإسلامية في إيران) بغرض التنظير لـ« ولاية الفقيه » والدفاع عنها بمصطلح لاهوتي ـ شيعي عتيق، وعبر مقولات دينية صرفة مثل النبوة والإمامة والولاية والاستلهام، كما زعمت أنا أنه فعل.

تقول السيدة خالدة متسائلة: « المؤكد أن العظم لم يقرأ الكلام على ولاية الفقيه في مقالاته (أي أدونيس) حول إيران، فمن أين جاء بهذا التوصيف وهل يعرف المصدر حقاً؟ أم هي بعض الإشاعات . . . ، إذاً على أي نص استند الدكتور العظم ومن أين جاء هذا الكلام؟ . . . فأين هو التبشير والتنظير أو شرح ولاية الفقيه كأنها استمرار للنبوة؟ وهل هذه لغة صفراء قروسطية؟ الجواب عند القارئ » .

هنا أدعو السيدة خالدة والقارئ للرجوع إلى النص التالي لأدونيس والنظر جيداً في محتواه ومغزاه ومبناه حيث يشرح المعنى الأعمق للثورة الإسلامية في إيران: « وبديهي أن سياسة النبوة كانت تأسيساً لحياة جديدة، ونظام جديد، وأن سياسة الإمامة، أو الولاية اهتداء بسياسة النبوة أو هي إياها، استلهاماً، لا مطابقة. ذلك أن لكل إمامة أو ولاية عصراً خاصاً، وأن لكل عصر مشكلاته الخاصة. هكذا تكمن أهمية سياسة الإمامة، بل مشروعيتها، في مدى طاقتها على الاجتهاد لاستيعاب تغير الأحوال، وتجدد الوقائع بهدي سياسة النبوة » . (مجلة « مواقف » العدد ٣٤، شتاء ١٩٧٩، ص ١٥٨) .

هل لهذا الفهم الأدونيسي لمعنى الثورة الإسلامية في إيران أي حظ من حداثة أدونيس أو علمانيته أو تنويريته أو متحوّله أو ثوريته أو إبداعيته؟ أم أنه استرجاع حرفي تقريباً لمنطق الفقه الشيعي القروسطي بمصطلحاته وغيبياته؟ علماً أن الماثل في الأذهان حتى اليوم هو تكريس أدونيس نفسه ونشاطه الثقافي لتثبيت دعوته الشهيرة « للانفصال كلياً عن الماضي والموروث » و « لنقد كل ما هو سائد وشائع » نقداً يؤدي إلى « إزالتها كلها تماماً » لأنها « مملكة من الوهم والغيب تتطاول وتستمر » (انظر مجلة « مواقف » عدد ٦، ١٩٦٩، ص ٣) .

بالنسبة الى إنهاء أدونيس قطيعته الطويلة مع نظام الحكم الأمني ـ العسكري ـ الأسدي، لا بد من التأكيد أن القطيعة لم تكن أبداً مع سورية نفسها أو مع الثقافة فيها، بل مع النظام المذكور ومع أجهزته الثقافية وأدواته الإعلامية وجرائده ومجلاته وأجهزة إعلامه المرئية والمسموعة والتي لم يقترب منها أدونيس لمدة نصف قرن، مع العلم أنها بادلته المقاطعة هي أيضاً وفقاً لسياسات النظام المعروفة مع الثقافة المستقلة ومع المثقفين النقديين. من هنا مصدر الكثير من القلق والدهشة في أوساط ثقافية واسعة في سورية ولبنان من ترحيب النظام بعودة أدونيس إلى دمشق والسماح له بإعطاء دروس وإلقاء محاضرات في جامعة دمشق بالإضافة إلى تلبيته دعوة لنشر مقالات أسبوعية في جريدة « الثورة » التابعة لوزارة « الحقيقة والإعلام » في سورية.

هنا تتساءل السيدة خالدة: عندما يقول صادق العظم بأن أدونيس صالح النظام وكتب

في جريدة «الثورة»، «ما معنى مصالحة النظام؟» و «هل الذهاب إلى بلد مصالحة؟» و «هل بدّل أدونيس أفكاره لمّا كتب في جريدة الثورة؟».

لا تكمن المشكلة هنا في مجرد زيارة بلد أو محض الكتابة في جريدة من جرائد النظام، بل في الظرف الذي اختار أدونيس فيه إنهاء قطيعته المديدة مع النظام العسكري ـ الأمني والتصالح إن لم يكن معه كلياً فمع وزارة إعلامه وجرائدها اليومية.

أقدم أدونيس على خطوته التصالحية إياها في اللحظة التي كان جيش سورية الأسد يحاصر مخيم تل الزعتر للاجئين الفلسطينيين وينهمك في تدميره تدميراً كاملاً في واحدة من أكثر معارك الحرب اللبنانية شراسة وطولاً وبمشاركة قوات «الصاعقة» وميلشيات حزب الكتائب والجبهة اللبنانية.

وكما هو معروف، تمّ محو المخيم محواً كاملاً عن وجه الكرة الأرضية بعد تعرض سكانه لمذابح رهيبة (المعروفة بمذبحة تل الزعتر) تفوق أعداد ضحاياها مذابح صبرا وشاتيلا المسؤول عنها الجيش الإسرائيلي على أثر احتلاله بيروت عام ١٩٨٢ بعد حصار دامٍ وطويل. قام رهط من المثقفين السوريين وقتها بإصدار بيان يشجب ويستنكر الدور الذي يقوِّم به جيش سورية الأسد في الإجهاز على مخيم تل الزعتر والمشاركة في المذابح الجارية فيه. ونال الموقعون على البيان يومها نصيبهم من عسف الأجهزة ومن الاستدعاءات الأمنية والتحقيقات الاستخباراتية إلى آخر ذلك مما هو معروف جيداً عن سلوك الدولة البوليسية في سورية. أضيف إلى ذلك، أنه في الوقت الذي أخذ أدونيس يكتب في جريدة «الثورة»، كان الموظفون الرسميون في الجريدة نفسها يشعرون بالإحراج الشديد والكبير أمام هول ما يحدث في مخيم تل الزعتر وهم في ارتباك وحيرة من أمرهم بالنسبة الى ما يمكنهم أن يكتبوه في اليوم التالي في تبرير ما يفعله جيش سورية الأسد بالفلسطينيين في لبنان وتسويغه والدفاع عنه.

تسأل السيدة خالدة: «وهل بدّل أدونيس أفكاره لمّا كتب في جريدة الثورة؟»، قد لا يكون بدّل أفكاره، لكنه لو كتب الأفكار المتقدمة التي كان من المعروف أنه يحملها ويتبناها ويدافع عنها ويروّج لها لما نشرت جريدة صفراء مثل جريدة «الثورة» شيئاً منها. ولتُؤكّد السيدة خالدة «الفجوة» المفترضة حينها بين أدونيس والنظام، تشير إلى حادثة طرده من اتحاد الكتّاب لاحقاً جداً، تقول: «ولما طرد أدونيس من اتحاد الكتّاب السوريين (الإسم الرسمي هو: اتحاد الكتّاب العرب) لم تُكتب كلمة واحدة، لم يرتفع صوت سوري واحد... باستثناء اعتراض للمفكر الراحل أنطون مقدسي وانسحاب الكاتبين الكبيرين حنا مينة وسعدالله ونوس من الاتحاد».

لم تُكتب كلمة واحدة من أحرار المثقفين في سورية بشأن حادثة الطرد لسبب معيّن: ماذا تفعل قامة ثقافية وشعرية، عربية وعالمية من عيار أدونيس في اتحاد كهذا أصلاً؟ اتحاد يعرف كل صاحب صلة بأنه يُدار من جانب الاستخبارات العسكرية والجوية وما إليه، وعلى رأسه قزم اسمه علي عقلة عرسان بوصفه الرئيس «المنتخب» والذي دامت رئاسته للاتحاد ٣٠ سنة

بالتمام والكمال وبلا انقطاع. بالمناسبة، كتبتُ يومها في مجلة «الحرية» الاسبوعية في بيروت تعليقاً على حادثة الطرد قلت فيه: «لا يمكنني الاحتجاج على طرد أدونيس من اتحاد الكتّاب العرب في دمشق على طريقة حنا مينة وسعدالله ونوس لأنني لست عضواً في اتحاد كهذا حتى أحتج بالانسحاب منه». لذا يكون من الأفضل للسيدة خالدة أن تفاخر بحادثة الطرد بدلاً من اعتبارها إبعاداً لأدونيس وعلامة جفاء من جانب النظام نحوه.

في المقابل، زَعمَت أن مرسوماً جمهورياً صدر وإجراءات استثنائية اتخذت في سورية «لافتتاح دورة خاصة للبكالوريا كي يستكمل الدكتور صادق جلال العظم أوراقه ويتمكن من التعليم في الجامعة» (جامعة دمشق). في الواقع لم يصدر مرسوم جمهوري بفتح دورة بكالوريا خاصة بصادق العظم. في تلك الأيام كان صدام حسين ومعمر القذافي وحافظ الأسد قد أعلنوا عن حملة لاستعادة الكفاءات العلمية الموجودة في الخارج واسترجاع العقول المهاجرة إلى أوطانها. تراكمت لدى وزارة التربية في سورية وقتها أعداد لا بأس بها من السوريين الحاصلين على درجات علمية عليا ولكنهم لم يكونوا من حملة البكالوريا السورية، لسبب ما، وكانوا من خريجي جامعة الأزهر في معظمهم. ولّما تحولت مسألة الشهادات العليا والبكالوريا السورية إلى فضيحة تربوية وإلى مادة دسمة للسخرية والتندر والنقد اللاذع في الأوساط المثقفة، قام الطيب الذكر الدكتور عدنان بغجاتي، وكان وزيراً جديداً للتربية وقتها، بحل المشكلة (بعد مداولات كثيرة ومناقشات طويلة) عبر افتتاح دورتين تكميليتين في السنة لامتحان البكالوريا، مخصصتين لحملة الشهادات العليا وحدهم. وكان الامتحان يتألف من أربع مواد فقط، سميت «مواد متممة» وهي: اللغة العربية والتاريخ والجغرافيا والتربية الوطنية.

شاركت كغيري ومع غيري في واحدة من هذه الدورات وتمت معادلة شهاداتي وتمكنت من التدريس في كلية الآداب. لم أُعامل معاملة استثنائية أو خاصة في سورية، ما عدا منع مؤلفاتي كلياً، تماماً مثل أدونيس ومؤلفاته (راتبي التقاعدي حتى اليوم لا يتجاوز ما يعادل ١٥٠ دولاراً أميركياً في الشهر).

سيطرت قضية سلمان رشدي وروايته «الآيات الشيطانية» على المشهد الثقافي المحلي والعالمي خلال عقد التسعينات بأكلمه، وكان صمت أدونيس ومجلة «مواقف» وقتها مدوياً بكل المعايير والمقاييس. كنا أمام حكم إعدام أصدره الإمام الخميني تلفزيونياً على روائي حاصل على جائزة «بوكر» مع تحريض ديني يطلب من كل مسلم أينما كان تنفيذ حكم الإعدام هذا، مع رصد مكافأة مالية كبيرة لمن ينجح في مهمة قتل الروائي. أي نحن في حضرة حكم إعدام مبرم بلا محاكمة وبلا محكمة وبلا محامين وبلا فرصة للدفاع عن النفس أمام السطوة الدينية لصاحب حكم الإعدام هذا. لم تصدر عن أدونيس في تلك الفترة كلها كلمة واحدة دفاعاً عن حرية الفكرة أو التعبير أو الأدب أو الفن أو الرواية أو حتى عن حق الكاتب في الحياة وفي المحاكمة العادلة، إن لزم الأمر.

تقول السيدة خالدة بهذا الصدد: «أما انتقاد أدونيس بأنه لم يدافع عن سلمان رشدي، فكل ما كان يستطيعه أدونيس هو نشر ترجمة عربية لدفاع رشدي عن نفسه في مجلة «مواقف»، لكن عمال المطبعة رفضوا أن يصفّوا النص». حسناً، هل تريدني السيدة خالدة أن أقتنع بأن أدونيس الحرية والتغيير والإبداع والعلمانية والعالمية لا يستطيع حقاً أن يفعل أمام قضية حرية وثقافة وأدب وعدالة بهذا الكبر والخطورة والاتساع إلاّ أضعف الإيمان، أي مجرد نشر نص مترجم لرشدي في مجلة «مواقف» لا أكثر؟ وهو النشر الذي لم يتم لعذر أقبح من ذنب. سمعتُ حكاية عمال المطبعة الإسلاميين الذين رفضوا صف مقال رشدي المترجم مما حال دون نشره في «مواقف»، سمعتها شخصياً من أدونيس في لقاء جمعنا في دمشق مع الناشر فخري كريم في صيف عام ١٩٩٣، وتساءلت وقتها: هل عزت المطابع في بيروت؟ وما زلت أعتقد أن عذر أدونيس، الذي أعادت التذكير به السيدة خالدة، هو بالفعل أقبح من ذنب التقاعس والتخاذل في مسألة الدفاع عن الحرية والرواية والأدب والفن والعدالة في لحظة نموذجية لهتك ديني لكل تلك القيم والمفاهيم والمثل ودوسها تحت الأقدام جميعاً.

أخيراً، هل تعتقد السيدة خالدة أن صمت أدونيس ومجلة «مواقف» عن ذلك كله كان يمكن أن يمر بلا استهجان نقدي واستنكار فكري للفجوة الهائلة بين القول والفعل، بين الشعارات المرفوعة سابقاً والمواقف الفعلية حاضراً، أو حتى بلا أي بحث عن تفسيرات مقنعة بما فيها تفسيرات مذهبية أعمق؟

(نقلا عن صحيفة الحياة اللندنية)

كتاب العدد

صادق جلال العظم
كاتب سوري

عزمي بشارة
كاتب وروائي فلسطيني

أمين معلوف
كاتب وروائي لبناني
يكتب بالفرنسية

سلافوك جيجيك
كاتب سلوفيكي

ياسين الحاج صالح
كاتب سوري

بكر صدقي
كاتب سوري

حازم نهار
كاتب سوري

ميخائيل شيشكين
كاتب روسي

رفيق شامي
كاتب وروائي سوري
يكتب بالألمانية

عادل بشتاوي
كاتب فلسطيني

سمير سعيفان
كاتب سوري

عدنان عبد الرزاق
كاتب سوري

سليم البيك
كاتب فلسطيني

أمجد ناصر
شاعر وكاتب أردني

فرج العشة
شاعر وكاتب ليبي

عدي الزعبي
كاتب سوري

عز الدين عناية
كاتب تونسي

عمر قدور
كاتب وشاعر سوري

خطيب بدلة
كاتب وقاص سوري

حليم يوسف
كاتب وروائي كردي سوري

ابراهيم اليوسف
شاعر كردي سوري

إبراهيم بركات
شاعر كردي سوري

ابراهيم حسو
شاعر كردي سوري

أديب حسن محمد
شاعر كردي سوري

أحمد حيدر
شاعر كردي سوري

جان دوست
شاعر كردي سوري

جميل داري
شاعر كردي سوري

حسين حبش
شاعر كردي سوري

خضر سلفيج
شاعر كردي سوري

خلات أحمد
شاعرة كردي سورية

طه الحامد
شاعر كردي سوري

طه خليل
شاعر كردي سوري

عبدالمقصد حسيني
شاعر كردي سوري

عمران علي
شاعر كردي سوري

فتح الله حسيني
شاعر كردي سوري

فدوى كيلاني
شاعرة كردي سورية

شهناز شيخة
شاعرة كردي سورية

لقمان ديركي
شاعر وكاتب كردي سوري

لقمان محمود
شاعر كردي سوري

محمد عفيف الحسيني
شاعر كردي سوري

محمّد نور الحسيني
شاعر كردي سوري

مروان علي
شاعر كردي سوري

مروان شيخي
شاعر كردي سوري

نذير يالو
شاعر كردي سور

هوشنك أوسي
شاعر وكاتب كردي سوري

هيثم حقي
مخرج سينمائي وتلفزيوني سوري

مارتن ماكنسون
كاتب وعالم آثار فرنسي مختص
بالشرق الأوسط

فادي عزام
كاتب وشاعر سوري

رند عبد الكريم
كاتبة سورية

فادية لاذقاني
كاتبة سورية

بن افليك
مخرج سينمائي امريكي

سامر أبو هاشم
كاتب سوري

أحمد عمر
كاتب وقاص سوري

إبراهيم صموئيل
كاتب وقاص سوري

تاج الدين الموسى
كاتب وقاص سوري

راجي بطحيش
قاص وكاتب فلسطيني

فاطمة ياسين
قاصة سورية

حسان العوض
قاص سوري

فرج بيرقدار
شاعر وكاتب سوري

كريم عبد
شاعر وكاتب عراقي

ياسر الأطرش
شاعر سوري

اياد حياتلة
شاعر فلسطيني

ناصر فرغلي
شاعر مصري

هيفاء زنكنة
شاعرة وروائية عراقية

حسام الدين محمد
شاعر وكاتب سوري

حسين الشيخ
شاعر وكاتب سوري

غازي أبو عقل
كاتب سوري

هاشم شفيق
شاعر وروائي عراقي

رياض معسعس
روائي واعلامي سوري

معتصم صالحة
كاتب سوري

يارا بدر
كاتبة وناشطة حقوقية سورية

زينة ارحيم
كاتبة واعلامية سورية

خالدة سعيد
ناقدة وكاتبة سورية